رحلة السندباد

بين أنماط العباد

د. محمود زكى

إهداء

إلى تلك الحياة التي نعيش على كوكبها، تلك الرحلة التي كنت أظنها ذات مسافاتٍ بعيدةٍ، ومع مرور الوقت اكتشفت قصرها وتقارب طرقها، وتشابه السائرين على دروبها.

إلى هؤلاء البشر الذين أهدوني فرصةً حتى أتعلم منهم دروسًا لم تكن لأوراق الكتب أنْ توفرها لي في هذا العالم المليء بأصناف البشر على اختلاف أجناسهم وأديانهم وسلوكياتهم.

إلى وطني الحبيب الذي أصبح لغزًا لم أستطع فهمه إلى الآن.

إلى صديقتي التي عرفت فيها معنى النقاء والتضحية.

إلى صاحبة القلب الكبير، والعقل المستنير، والعفاف الذي تزينت به في زمنٍ أوشكت أن تُطمس فيه الهُوية.

إلى من ضحّت بوقتها معي حتى يرى هذا العمل النور، وأسعدتني بتعليقاتها التي أبانت لي عن أشياء لم ألتفت إليها في تلك الرحلة المضنية.

نعم إليكِ صديقتي شيرين عبد الجواد أهدي إليك هذا العمل، أيتها الشمس التي تُشرق دوما في ربوع الأرض المصرية.

مقدمة

الحمد لله الذي وهبنا الحياة، وميّزنا عن سائر الكائنات بهذا العقل وما حواه، والصلاة والسلام على نبي الهدى، الذي قال له ربه: اقرأ، وأقسم من أجله بقوله: "نون والقلم وما يسطرون"، فكانت القراءة والكتابة دليل المعرفة، ونور الإنسان الذي يهديه لما يريد أن يكشفه.

أمّا بعد...

فعندما أنزل الله تعالى الإنسان على سطح هذا الكوكب، وترك له حرية السير فيه وأوصاه أن يعمّر المكان، وأن يترفق بأخيه الإنسان، فمنحه عقلاً وقلباً يستطيع من خلالهما أن ينفّذ تلك الوصية، وأن يكون خليفةً كما قال رب البرية.

وهنا اختلف البشر فيما بينهم، فمنهم من أجاب، ومنهم من تمرّد، فهناك من سعى في الأرض إصلاحًا، ومن سعى فيها إفساداً، وبالتالي تحولت الحياة إلى صراعٍ كبيرٍ بين الخير والشر.

هذا الصراع الذي وُلد مع الإنسان بداخله بعد أن أقسم إبليس بعزة المولى - سبحانه وتعالى- أن يغوي عباده إلا المؤمنين منهم، فتباينت السلوكيات، ورأينا أنماطاً عجيبة من البشر، وأصبحت رحلتنا في هذه الدنيا عبارة عن مواقف وانفعالات واختلافات في وجهات النظر، لكنّ الإنسان البصير الحاذق هو من يعرف كيف يتواءم مع تلك الاختلافات، ويخرج منها بدرسٍ بسيطٍ قد يفيده في الحياة فيما بعد.

لذا لم يكن غريبًا أن نجد كتاب الله العزيز يحتوي على كثير من قصص السابقين ومحاوراتهم، وما هذا إلا لتكن العبرة والموعظة لمن يأتي بعدهم.

ولعلّ هذا هو الدافع الأساسيّ الذي جعلني أدوّن كتابي هذا الذي يحمل عنوان: (رحلة السندباد بين أنماط العباد).

لقد عشت في تلك الحياة أحبُّ الناس وأخالطهم، وأتفاعل معهم في المواقف والآراء، فكان من الطبيعي أن أعيش مواقف عامة أو خاصة، وأقف متأملاً أمام بعض الشخصيات أو الأحداث التاريخية، التي تركت أثرها عليّ فيما بعد.

ومن هنا تولّدت عندي رؤية خاصة قد يتفق معها البعض، وقد يختلف معها البعض الآخر، هذه الرؤية كانت محور نقاشي مع الكثيرين، ومع مرور الزمن أخذت التكنولوجيا تفعل بالإنسان الكثير والكثير، فكنت ممن أنعم الله عليهم بمواكبة هذا التقدّم، فعرفت هذا العالم، وتمكّنت من خلاله بالتواصل مع أنماط كثيرة من البشر في شتى بقاع الأرض، هذا التواصل قد خلق بداخلي الكثير من الأشياء، لم تكن تعرف طريق النور بدون وسائل التكنولوجيا التي نقلت آرائي وتجاربي إلى الآخرين وأنا أجلس في غرفتي أتمتع بكل وسائل الراحة.

لكن ما كان ينقصني - وقد أقنعني البعض به - أن أدوّن تجربتي وانفعالاتي إلى الأجيال القادمة في كتاب يتضمن خلاصة تلك التجارب، ولعلّ هذا ما سعيت إليه منذ زمن، حتى وفقني الله لإتمام هذا الكتاب، والذي سارت خطته على النحو التالي:

تمهيد: وهو يتضمن نبذة بسيطة عن نشأتي ودراستي، وأبرز المحطات التي شكلت عقلي ووجداني، مما كان له انعكاسٌ على ما يُروى في سطور هذا الكتاب.

الفصل الأول: ويحمل عنوان: تأملات السندباد، وفيه أقوم بسرد الكثير من تأملاتي في بعض أمور الحياة، سواء أكانت من الماضي أم الحاضر في إطارٍ من الرؤية الخاصة التي قد يتفق معها البعض وقد يختلف البعض الآخر.

الفصل الثاني: ويحمل عنوان: مذكرات السندباد من واقع الحياة، وفيه سردٌ لبعض المواقف والأحداث التي عشتها، وتركَتْ في نفسي أثراً عظيماً سواء بالإيجاب أو السلب.

الفصل الثالث: ويحمل عنوان: مذكرات السندباد من عالم الإنترنت، وفيه سردٌ لأبرز ما شاهدته، وعايشته من قصص ومغامرات في هذا العالم الفسيح، المليء بالقليل من الصدق والكثير من الكذب.

الفصل الرابع: ويحمل عنوان: رباعيات السندباد وخواطره، وهو يتضمن خواطري التي نظمتها سواء عن تجارب عامة أو خاصة.

الخاتمة: وفيها سردٌ لأبرز نتائج هذا الكتاب، وما تضمنه من أشياء تحمل وجهة نظر صاحبها فقط.

وأما عن المنهج الذي سرت عليه في هذا الكتاب فهو المنهج النفسي، الذي يُعدّ إطارٌ علميٌّ يساعدنا على الكشف عن خبايا النفس، وكشف بواطنها، وفهم ما تحويه من مكونات وحقائق وأبعاد دلالية، وهو طريقة في البحث توصّلنا إلى نتائجَ مضمونةٍ أو شبه مضمونة في أقصر وقت ممكن، كما أنه وسيلةٌ تحصّن الباحث من أن يتيه في دروبٍ ملتويةٍ من التفكير النظري، ويعتمد على معطيات علم النفس الحديث في معالجته.

وبعد، فهي رحلة وما أروعها من رحلة بحلوها وشقائها، والمهم أن يصبح لنا رصيداً يشفع لنا أمام المولى تعالى، فقد رضيت بما قسم، وخضعت لما حكم، لعلّه يكون لي عند لقائه الجزاء الحسن.

ربّ اشرح لي صدري، ويسر لي أمري، واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي.

تمهيد

حين أقدم لك عزيزي القارئ هذا التمهيد فلست أقصد من ورائه تعظيم نفسي، أو الشهرة التي يسعى إليها البعض، ولكن أقصد من ورائه أن تكون لك خلفية عن مؤلف هذا الكتاب، لأن تلك الخلفية ستجعلك على بينةٍ من أمرك في الكثير من فصول هذا الكتاب.

فمحتوى هذا الكتاب ما هو إلا انعكاسات حية لتلك الحياة التي عشتُها، والبيئة التي تكونت فيها.

الاسم: أحمدُ الله أن جعلني من الحامدين المحمودين فأنا (محمود حسن محمود محمد الذِكي).

المولد: وُلدت بمدينة الكُرْدِي، مركز مِنية النَّصر، محافظة الدقهلية، في يوم السبت الموافق الثالث والعشرين من أكتوبر عام 1977م، ولعلّ ذلك من دواعي فخري واعتزازي أن أكون من مواليد هذا الشهر الذي يحمل ذكرى جميلة لكل الشعب المصري والعربي، لكن اعتزازي بهذا الشهر يرجع أيضًا إلى سبب آخر هو أنه الشهر الذي وُلد فيه الكثير من المشاهير ممن أحبهم، وأحب فلسفتهم في الحياة، وكذلك هو الشهر الذي وُلد فيه الكثير من أصدقائي ممن أحمل لهم في قلبي معزّة غالية.

النشأة: وُلدت في أسرة بسيطة شأنها شأن بقية الأسر في تلك المدينة، فأبي كان رجلاً أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، يعمل سائقاً، ورغم هذا كله كان على بصيرة في الكثير من أمور الحياة، أمَّا أُمي فقد اكتفَتْ بالتعليم الابتدائي الذي جعلها تجيد القراءة والكتابة، وهذا ما كان له عظيمُ الأثر على دراستي بعد ذلك.

وُلدت معافى البدن، أعشق اللعب والمرح، شأني شأن معظم الأطفال في هذه السن المبكرة، وكنت بفضل الله متفوقاً بشكل كبير في المرحلة الابتدائية، بالرغم من شقاوتي الزائدة عن الحد، والتي كانت تجعل أبي كثير الضرب لي خاصة عندما كنت أتأخر خارج البيت، ولعلّ تأخري هذا كان يرجع إلى نادي الفيديو الذي كنت أجلس فيه ساعات طويلة لمشاهدة الأفلام السينمائية، والتي كنت أعي معظمها في تلك السن المبكرة.

فقدان البصر: عندما كنت في الصف الخامس الابتدائي أي أن عمري قد بلغ الحادية عشرة، وفي يوم من الأيام كنت أتشاجر مع زميلي في فناء المدرسة، وهنا أقبل عليّ المعلم وصفعني بعنف على وجهي حتى أفقدني بعض الوعي، لكن ما هي إلا لحظات حتى عدت إلى طبيعتي، وما هي إلا أيام وأخذت أشعر بضعف في النظر، أدركت من خلاله الحقيقة المرة التي تتمثل في فقدان النظر من إحدى عيناي،

وبالطبع لم يهدأ أبي؛ فظل يتنقّل بي من طبيبٍ إلى آخر، لكن دون فائدة، حتى شاء الله أن أفقد النظر في كلتا العينين بشكل كامل.

حياة أخرى: أصبح هذا الطفل المنطلق المرح الذي يجوب شوارع المدينة من أقصاها إلى أقصاها سجين البيت بل سجين الحزن، فلم تكن عنده المقدرة لمواجهة الناس، وهو يرى في عينيهم نظرات الشفقة والرحمة نتيجةً لما حلَّ به من فقدان البصر.

كنت أجلس في البيت شهورا كاملة لا أخرج، ولا أتمتع بالحياة مع أصدقائي ورفاقي الذين فضلت الابتعاد عنهم بشكل كبير، حتى جاءت اللحظة الفارقة وهي التحاقي بالأزهر الشريف، الذي تم نقل أوراقي إليه من المدرسة التي كنت أدرس فيها بالمرحلة الابتدائية.

لحظة فارقة: لعلّ التحاقي بالأزهر الشريف كان بمثابة نقلة نوعية في حياتي حيث تعليم مختلف، ونوعية من المعلمين تختلف كل الاختلاف عمن عرفتهم من قبل، كان الجميع ينظر لي نظرة لم أكن أحبها، وكانت تثير غضبي؛ فمنهم من يتوقع مستقبلي على منابر المساجد، ومن يشبهني بعميد الأدب العربي طه حسين، وفي كلا الحالتين كنت أرفض هذا.

لم تكن أحلامي في الحياة أن أصبح رجل دين، وكذلك لا أحب التشبيه بأحد، لقد كنت أشعر بأن أحلامي قد تبخرت سريعاً، فبعد أن كنت أحلم بأن أكون ضابط شرطة أو طبيبًا أو طيارًا أصبحت في وضع يستحيل معه تحقيق كل هذا، وأصبح مستقبلي - كما يراه البعض - يكمن في رجل الدين فقط.

حالة تمرّد: لقد تولدت بداخلي حالة من التمرّد والثورة على الوضع الجديد الذي أصبحت فيه، وقرّرتُ ألَّا أستسلم لما يضايقني، فكنت مشاكساً لا أسلِّم بصحة المعلومات التي كنت أراها في المناهج الدراسية بسهولة، فكنت كثير النقاش والجدال، والبحث والتبحر في تلك الموضوعات خارج الكتب المدرسية، وعبر البرامج الإذاعية المختلفة، والتي كنت أستمع إليها ساعات طويلة حتى تركت في نفسي أثرًا كبيرًا من اكتساب الكثير من المعارف والثقافات المختلفة التي انعكست على شخصيتي فيما بعد.

تلك الحالة الجديدة التي أصبحتُ عليها من التمرّد والنقاش؛ مما جعل بعض المعلمين يتهمني بالإلحاد تارة، وبالعلمانية تارة أخرى؛ رغم أني لم أكن هذا ولا ذاك، بل كنتُ أبحث عن حقيقة الأشياء، متيقنًا أن بداخلي أشياء مبنيّة على أسسٍ عقلانية، تجعلني أتوقف عن مجرد النقاش في هذا الأمر.

أفق جديد: كان التحاقي بالجامعة بداية جديدة في مسيرتي الحياتية، وكأنّي كنت محتبسًا في زجاجة، انطلقتُ منها إلى أفق واسع فسيح؛ فقد التحقت بكلية الدراسات

الإسلامية والعربية، قسم اللغة العربية؛ ولعلّ هذا الاختيار كان أفضل الاختيارات المتاحة لي، فكما ذكرت سابقًا عدم وجود أي رغبة لديّ لدخول مجال الدعوة أو الوعظ، ليس اعتراضًا عليها - حاشا لله - لكن لأنّ هذا المجال يحتاج إلى أشخاص ذوي سمات وصفات معينة، تلك الصفات غير متوفرة في شخصي.

لقد كان من حسن حظي أن تجمعني تلك الجامعة بمجموعة من الأساتذة، الذين تركوا في نفسي وقلبي أثرا عميقا، ووجدت عندهم الكثير من الإجابات لجميع الأسئلة التي كانت تدور بخاطري دون أن يلومني أحدٌ منهم على فكر أو اعتقاد أو رأي صرحت به لهم، بل كنت أجد منهم التشجيع والإشادة، بل وصلت في بعض الأحيان إلي الاسهامات المادية، فلقد كانوا بحق أساتذة بمعنى الكلمة، وسأذكر بعضهم في صفحات هذا الكتاب.

أنا واللغة العربية: في تلك المرحلة الجامعية زاد عشقي وهيامي بتلك اللغة الرائعة، وما تضمنته من فنون وآداب، والتي لم تقتصر نظرتي إليها على نظرة الدارس بل المحب الذي يريد أن يتعمق فيها كثيراً وكثيراً، خاصة في مجال الأدب من شعر ونثر وتاريخ، لكنني كما ذكرت سابقاً كنت أرفض المقارنة أو التشبيه بيني وبين عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين، فأين أنا منه ومن علمه وأدبه؟

كنت أحصل دائما على الدرجات الكبرى في مواد اللغة العربية، وذلك على العكس من باقي المواد التي كنت أدرسها في الجامعة كالمواد الشرعية أو اللغة الإنجليزية، ولعلّ هذا ما جعل طموحي يتوقف في تقديري النهائي عند جيد جداً، وبالطبع كنت أطمح إلى الامتياز حتى أتمكن من التعيين بالجامعة ومواصلة المشوار حتى الحصول على درجة الدكتوراه والتدريس داخل جدران الجامعة.

إكمال المشوار رغم العوائق: بالرغم من أن تقديري في الجامعة لم يسمح لي بالتواجد داخل جدرانها، لكن كان لديَّ رغبة شديدة في تكملة مشواري العلمي، خاصةً أن أبي قد وظَّف نفسه وسيارته لي، وأخذ يخفف عني عبء الذهاب والمجيء، وبفضل الله - تعالى - تمكّنتُ من إنهاء مرحلة الدراسات العُلّيا، والتي عشت فيها عامًا لن أنساه، فقد كان عامًا يحمل أسوأ الأيام التي عرفتها في حياتي، فلأول مرة كنت أشعر بطعم الفشل، لكن رُبَّ ضارة نافعة ، وسوف أسرد تفاصيل هذا العام في فصل من فصول هذا الكتاب.

علاقتي بالأدب الأندلسي: بدأت علاقتي بالأدب الأندلسي أو بالأندلس بشكل عام حين كنت أقرأ في إحدى المكتبات بعض الأبيات الشعرية لشاعر يُسمَّى (يحيى بن حكم الغزال) ، وكانت الأبيات تحمل معاني غريبة وعجيبة، وكأن قائلها يعيش بيننا الآن وليس في القرن الثاني الهجري.

كانت تلك هي الشرارة الأولى لتعمقي وتبحري في كل ما هو أندلسي، ولعلّ السبب الأكبر كان يعود إلى تلك السمات المشتركة بين شخصيتي والشخصية الأندلسية التي كانت تعشق الانطلاق، وتكره القيود، حتى قد يظن البعض أنها متعددة السلوكيات، فهي متدينة بالرغم أنها عاشقة للفنون والغناء والانطلاق بالفكر إلى ما هو بعيد، ولعلّ السر في ذلك تلك الطبيعة الجغرافية لها؛ فالأندلس جزء من أوروبا، وبيئة عرفت الكثير من الأجناس والأديان واللغات والعادات والتقاليد حتى دخلها الإسلام، فجمع كل هذا على دين واحد ولغة واحدة، فظهرت لنا شخصية حملت في ثناياها طبيعة المسلم وتحرر الأوروبي.

ولا أخفي عليكم أنني أحب هذا النوع من الشخصيات، وأحاول تقمسه قدر الإمكان، فكان هوسي بالأندلس وآدابها سُلماً رائعاً صعدت عليه حتى تمكنت بفضل الله – تعالى - من الحصول على درجة الماجستير وكذلك الحصول على اثنتين من درجات الدكتوراه، وجميعهم في الأدب الأندلسي.

السندباد في عالم آخر: أعلم أنكم تسألون مَنْ هو السندباد؟

السندباد هو أنا، وهو ذلك الاسم الذي اخترته ليكون عنوان شخصيتي سواء في العالم الواقعي أو العالم الافتراضي (الإنترنت).

لقد عرفت مجال التكنولوجيا منذ عام 2005 م، وكان الأمر مقتصرًا في بدايته على مجرد الاطّلاع والبحث عن أشياء تساعدني في أبحاثي، لكن وجدت نفسي داخل برامج التواصل الاجتماعي بكل محاسنها ومساوئها.

لقد فُتحت أمامي أبوابٌ جديدةٌ لممارسة هوايتي في النقاش والجدال والجلوس مع من يخالفني الرأي، وتكمن المتعة هنا كوني أمتلك مطلق الحرية في اختيار مَن أجالسهم دون أن يُفرض علي أحد.

والحق أنني لم أمتنع من الجلوس مع أحد مهما كانت ديانته أو جنسيته أو سلوكياته، فقد جلست مع المُلحد وعابد البقر والشيطان، ومن يحملون بداخلهم كراهية شديدة للعرب والمسلمين، وذلك أشعرني بمتعة خاصة اتسعت بها مداركي وسمت بها أفكاري إلى الدرجة التي كنت أطمح فيها إلى المزيد والمزيد.

لكن قد يطرح أحدُكم سؤالاً، كيف تتحدث عن عالم وهمي وخيالي بتلك الطريقة مثل عالم الإنترنت؟

ببساطة قد يكون معك بعض الحق فيما تقول، ولكنها تختلف كثيراً عندي حيث إن الكثيرين ممن عرفتهم عبر الإنترنت سمحت لي الظروف أن أقابلهم على أرض الواقع، وتنشأ بيننا علاقاتٌ إنسانيةٌ تتطور بعضها إلى حد الصداقة المتينة، وبعضها

إلى حد المغامرات الحقيقية، التي سأتناول بعضها، وأتكتم عن البعض الآخر، لأنها تتعلق بشخصيات أحمل لهم في قلبي محبةً وتقديرًا.

أعترف أنني أقضي على الإنترنت ساعات طويلة حيث أصدقائي الذين أحبهم، والأشخاص الذين أختلف معهم، وإن كنت لا أحبهم، لكن ما يهمني هنا هو القول بأنني قد أصبحت مثل السندباد، الذي يجوب العالم شرقاً وغرباً وهو يجلس في بيته.

كل هذه الأشياء صنعَتْ لدي كثيرًا من الحكايات، التي فجّرَتْ بداخلي مشاعرَ مختلفة، وأفكارًا متباينةً، حاولْتُ ترجمتها إلى كلمات، نشرْتُ بعضها عبر الإنترنت، واحتفظْتُ ببعضها، لكن حان الوقت للإفصاح عنها داخل هذا الكتاب.

سأكتفي بتلك الصفحات البسيطة في هذا التمهيد حتى لا أكثر الكلام عن نفسي، ولكن الغرض منه في النهاية أن أضع القارئ في إطارٍ محددٍ من شخصية مؤلف هذا الكتاب، وحتى لا يستغرب في بعض الأمور، التي سأسردها فيما بين السطور.

الفصل الأول

تأملات السندباد

لقد ميَّز الله تعالى الإنسان عن سائر الكائنات بنعمة العقل والتفكير، وأمر الإنسان أن يُعمِلَ عقلَه في جميع شئون الحياة بما في ذلك خلقه وشرائعه دونما الاقتراب من الأمور الغيبية، التي هي من أركان الإيمان.

لقد وقفتُ طويلاً أمام الكثير من سلوكيات البشر وطبائعهم، محاولاً تفسير تلك السلوكيات بشكل أقرب إلى الطرافة والسخرية.

ولم يكن هذا الأمر مقتصرًا على مَنْ أعيش معهم، أو أحاورهم، أو مَنْ عاصرتهم، بل الأمر أكبر من ذلك، فكثير ما حمل لنا التاريخ سلوكيات العديد من الأشخاص الذي وقف عندهم التاريخ طويلاً حائراً، فاختلفَتْ حولهم الأقلام، وتباينت عندهم العقول، وهذا بالطبع حق طبيعي لكل إنسان.

وأنا كغيري من البشر رأيت أن أضع تصوري وتفسيري لتلك السلوكيات من منطلق تكويني الثقافي، الذي قد يتفق معه البعض وقد يختلف.

فما هي إلا تأملات خاصة كنت أخشى البوح بها حتى لا أقع في حرجٍ مع الغير؛ فأجد نفسي في دائرةٍ من الجدل العقيم، خاصةً مع قليلي الفهم والإدراك.

لذا أعتبر نفسي من المحظوظين السعداء الذين كتب الله لهم العيش في تلك الحقبة الزمنية التي تموج بالأحداث والتغيرات، سواء أكانت سياسية أم اجتماعية أم سلوكية، وتمكن العولمة من جعل المواطن البسيط جالسًا في بيته، مراقباً العالم لحظة بلحظة، وهذا ما حدث معي بالفعل.

وليس أدل على ذلك من الثورات العربية التي أحدثت حراكاً قويّاً في المجتمعات العربية، ليس في الظاهر فقط بل في داخلنا جميعاً، فطفت سلوكياتٌ جديدةٌ على سطح الأحداث من المواطنين البسطاء رجال أو نساء، وأصبح الجميع يدلو بدلوه في كل صغيرة وكبيرة سواء بالنقاش في العمل أو المقاهي أو الإعلام أو برامج التواصل الاجتماعي.

فالمؤكد أننا أصبحنا في زخم كبير من تباين الآراء والتعليقات، كل بحسب ثقافته وتربيته وميوله السياسي أو الديني.

وبما أني لا أنتمى إلى اتجاهٍ بعينه فقد قمتُ بدور المتفرج في أحيانٍ كثيرة، أراقب الكثير من الأحداث وردود الفعل عليها، سواء من المثقفين عبر الإعلام، أو البسطاء عبر الحياة العملية، أو برامج التواصل الاجتماعي، ومن هنا تولّدت بداخلي الكثيرُ من التأملات والملاحظات ورصد بعض الظواهر التي سأعرض بعضها في هذا الفصل بأسلوب يتسم بالسخرية والطرافة والبساطة؛ حتى يكون في متناول فهم

الجميع، وأرجو من القارئ العزيز عدم الغضب من بعض الآراء التي لا يتفق معها، خاصةً العنصر النسائي، فكما قلت ما هي إلا تأملات شخصية أحاول تناولها، ولك عزيزي القارئ حرية الرفض أو القبول، مستعرضاً إياها في مقالات منفصلة، يشملها خيط واحد، وهو مجتمعنا الذي تغيرت فيه الكثير من السلوكيات والطبائع، سواء بالإيجاب أو السلب.

الإنسان والإلحاح على ظلم نفسه

إنّنا في هذه الحياة كثيراً ما نظلم أنفسنا من خلال تعريضها إلى ما يجلب الحرج،

وذلك بالتدخّل في أمور الآخرين، أو السؤال الدائم عن كل ما يحدث أمامك، سواء أكان يعنيك أم لا يعنيك.

ولا شكّ أن الفضولَ صفةٌ أصيلةٌ في طبيعةِ البشر، وإن كانت تتفاوت درجتُها مِن إنسانٍ إلى إنسان، لكن بالعموم شأنها شأن المكر، منه السيئ، ومنه الحسن.

وأتذكر هنا تلك القصة التي سمعتها قديماً والتي تروي أنّ أحد الأشخاص كان يسير في طريقٍ طويلٍ، لكن يبدو أنّه قد ضلَّ طريقه، وفي النهاية قد عثر على مجموعة من الأشخاص في حالة غريبة، حيث وجدهم يضربون رؤوسهم بالنعال، ويرددون كلمة واحدة هي (يا ريتني) ، وقد بدا عليهم الندم على شيء ما، مما أثار فضول الرجل.

فظل يسألهم: لماذا تفعلون وتقولون هذا، فقال أحدهم: عليك بالسكوت ولا تسأل.

لكن فضول الرجل كان أكبر من كل شيء، وعندما ضاق به هؤلاء الأشخاص قام أحدهم بحمله وصعد به فوق مكانٍ عالٍ، ثم قذف الرجل بشدة، فظل الرجل في الهواء حتى سقط سالماً في مدينة جميلة ذات طبيعة خلابة ساحرة.

لكن كان الملفت في تلك المدينة أن أهلها كانوا يمتازون ببشاشة الوجه والبسمة المشرقة، وكل شخص يسير في حاله دون التحدث مع الآخر، وظل الرجل يسير في تلك المدينة متعجباً حتى شعر بالجوع الشديد، فدخل أحد المطاعم حيث استقبله صاحب المطعم بضحكة عريضة وكلمات طيبة وقال له: اطلب ما تشاء، فقال الرجل: إنى جوعان، وأريد فطيرة.

فقال صاحب المطعم: فطيرة بأكملها، هذا شيء عجيب.

فقال الرجل: أنا حر آكل فطيرة أو اثنتين، ما شأنك أنت؟

فقال صاحب المطعم: أنت وراحتك، اصبر دقيقتين، وسوف آتي لك بفطيرة.

وبعد مرور دقيقتين فوجئ الرجل بأن صاحب المطعم يقدم له فطيرة طولها عدة أمتار.

فصاح الرجل: ما هذا؟ إنني لا أستطيع أكل كلّ هذه الفطيرة.

فقال صاحب المطعم: لقد قلت لك هكذا.

ثم بعد أن انتهى الرجل من أكل جزء من الفطيرة وشبع قال لصاحب المطعم: كم تريد من المال.

فقال: لا أريد شيئا ما يهمنى أنك قد شبعت، فتعجب الرجل من سلوك صاحب المطعم.

ثم فوجئ بشخص يدخل عليه ببعض البسمات ويقول له: أريدك معي أيها الغريب عن مدينتنا لكى نذهب إلى ملك المدينة.

فذهب الرجل معه، ودخل على ملك المدينة، فوجد شخصا ذا مهابة ووجها سمحا بإشراقة عجيبة.

فأمر الملك الرجل بالجلوس بجانبه وقال له: أنت في مدينة الفضلاء، فلو أردت أن تعيش معنا فلتكن مثلهم فاضلاً عاقلاً قنوعًا لا تتدخل فيما لا يعنيك.

فوافق الرجل على الفور فقال الملك: هل تريد شيئا أفعله لك في مدينتنا؟

فقال الرجل: نعم أريد أن أتزوج، فاستدعى الملك ابنته على الفور، فإذا بفتاة فائقة الجمال، بديعة المنظر، كاد الرجل من شدة جمالها أن يذهب عقله.

فقال الملك: هل تقبل أن تتزوج ابنتي هذه؟ فصاح الرجل: تسألني أنا، والله إني لم أحلم يوماً بشيء كهذا، فقام الملك على الفور بتزويجه، وعاش الرجل يومين في غاية السعادة والهناء لم يخرج من البيت.

ولمّا تأهب الرجل للخروج، ألحت عليه زوجته ألا ينسى نصيحة أبيها، وما أوصاه به من نصائح وسلوكيات.

فقال الرجل: لا تخافِي، وتوجه الرجل إلى سوق المدينة، فوجد بائع البطيخ، وقد أغراه منظر البطيخ وجمال شكله، فقال للبائع: كم ثمن تلك البطيخة؟ فقال البائع: ثمنها يساوي جملة طيبة.

فظن الرجل أن البائع يسخر منه، فقال له مرة ثانية: كم ثمنها؟ فقال ثمنها جملة طيبة، وهنا قال الرجل للبائع كثيرا من الكلام الطيب.

ثم قال للبائع: أنا أريد نصف البطيخ الموجود عندك، فقال البائع: أليس هذا كثير؟ فقال الرجل: وما شأنك، فأعطاه نصف البطيخ الموجود، وذهب به الرجل إلى البيت.

فقالت له زوجته: ما كل هذا؟ فقال: لقد جئتُكِ بالكثير من البطيخ حتى لا أخرج مرة ثانية.

فغضبت الزوجة، وقالت سوف أترك لك البيت، وأذهب لأبي وأشكوك له، وبالفعل ذهبت الزوجة، وأسرع الرجل وراءها، ثم قصت الابنة ما حدث على أبيها.

فقال الملك: ألم أنصحك بالقناعة؟ لقد قمت بتطليق ابنتي.

فجُنَّ الرجل وقال: كيف هذا؟ فقال الملك: إنه قانون مدينتنا، مَن لم يلتزم بسلوكياتها فإن زوجته تُطلق منة مرة مع كل خطأ، والمسموح هنا فقط ثلاث طلقات.

فقال الرجل: إذاً فأرجع لي زوجتي، ولن أعود إلى هذا السلوك مرة أخرى، فرجعت له زوجته، وفي يوم من الأيام وجد الرجل مجموعة من الناس على شاطئ البحر وهم ممسكون ببعض الحبال، يشدونها فيما بينهم، كل هذا في صمت عجيب. فقال الرجل: ماذا تفعلون؟ فلم يجبه أحد، فسأل مرة أخرى، ولم يجبه أحد، فقال: إنكم من المؤكد مجانين هذه المدينة، فقاموا على الفور بحمله والذهاب به إلى الملك ورووا له ما حدث.

فقال له الملك: ألم أنصحك بعدم التدخل في شؤون الآخرين؟ إنها الطلقة الثانية، فأقسم الرجل على ألا يعود إلى هذا السلوك مرة أخرى، ثم رجع إلى البيت.

وبعد مرور يوم أو يومين خرج الرجل، فوجد شيخًا عجوزًا ممسكًا بدلوٍ كبيرٍ يملؤه ماء من بئر أمامه، ثم يرمي الماء في البئر مرة أخرى، وظلّ العجوز يصنع ذلك ساعات طويلة، حتى تضايق الرجل فذهب إلى العجوز وسأله: ما المقصود من فعتلك هذه؟.

فقال العجوز: أحبّ أن أُذكر الناس بحال الدنيا، فمهما أخذت منها من أشياء فمن المؤكد أن كله سيزول.

فقال الرجل: وما شأنك وشأن الناس؟ كلّ واحدٍ حرّ في تصرفه، ووفرْ على نفسك كلّ هذا التعب، ثم ترك العجوز ورجع إلى البيت، وروى ما حدث لزوجته فصرخت بصوت عالٍ لقد أصبحت محرمة عليك إلى الأبد.

فأسرع الرجل وراءها حتى دخل على الملك وقد سمع ما حدث، فقال له الملك: يبدو أنك لا تريد أن تتعلم أبدًا، فحمل الملك الرجل وصعد به إلى أعلى القصر وقام بإلقائه، فظل طائراً في الهواء حتى سقط على الأرض بجوار هؤلاء الاشخاص الذين رآهم في المرة السابقة.

فما كان منه إلا أن خلع نعليه، وظل يضرب بهما رأسه، و يقول مثلهم يا ريتني.

فقالوا له: هل عرفت إجابة سؤالك، تلك هي عاقبة التدخل في أمور الغير، واقتحام خصوصيات الآخرين.

ومن هنا عزيزي القارئ يجب أن تدرك أن حياة غيرك ملكه فقط، وليس لك أن تتدخل من قريب أو بعيد فيها، فلربّما لحقك الضرر، أو قمت بإضراره من حيث لا تشعر، فكم من البيوت خربت بسبب هذا الداء المعضل الذي يتغلغل في نفوس البعض! فهناك شعرة دقيقة بين مشاركة الآخر همومه، وبين التدخل في شؤونه، هذه الشعرة تستطيع أن تدركها بفراستك وحنكتك.

القرد في عين أُمه غزال

منذ شهور خرجت أنا ومجموعة من الأصدقاء في نزهة خارج حدود البلدة، ثم جلسنا على أحد المقاهي الواقعة في طرف البلدة، وكنا بعد منتصف الليل، وكان هذا مقهى يمتلكه رجل عجوز، يتعدى السبعين من عمره، وبينما نحن نتبادل أطراف الحديث، وكنا جالسين على كراسي خارج المقهى إذا بسيدة عجوز شديدة السواد قصيرة الحجم، لا يوجد فيها أي ملمح من ملامح الجمال الخارجي، وكانت تحمل على يديها طعامًا لزوجها صاحب المقهى، وعندما رآها الزوج مباشرةً انفعل عليها قائلًا: إيه جابك في الوقت دا مش خايفة حد يعاكسك في الطريق؟ وهنا انفجرنا من الضحك.

فقال: لماذا تضحكون؟ فقلنا: مَن ممكن يفكر يعاكسها؟ فقال: أنتم لا تفهمون شيئا، إن زوجتي هذه أجمل من ليلى علوي وباسكال مشعلاني، فضحكنا أكثر وأكثر، لكني قلت في قرارة نفسي: سبحان الله! مِن المؤكد أنَّ هذه المرأة تحتوي على ملامح جمالية لا يراها غير زوجها، وهنا وجدت إجابة على سؤال كنت أسأله عندما كنت أرى لاعب التنس الألماني بوريس بيكر، وكان وسيم المنظر شديد الجاذبية، وكان متزوجا من أفريقية سوداء، فكنت أسأل: ما الذي يدفع هذا بالزواج من هذه المرأة؟

وينكر علاقته بعارضة الأزياء الروسية التي فازت في مسابقة ملكات الجمال، وأنجبت منه بنتًا.

فسبحان الله لعلّ الأرواح تتلاقى مع بعضها بصرف النظر عن الشكل أو الهيئة، فما تراه قبيحًا بعينك، هو الجمال بعينه في أعين غيرك، وتلك هي الحكمة من اختلاف الناس في المنظر، لكن تبقى الروح في النهاية هي الأصل الذي يبحث عنه كلّ ذي فهم وقلب وعقل، فالشكل زائل، والروح باقية.

وصدق المثل القائل: "القرد في عين أُمه غزال"

احترس من وجهك الآخر

لعلّنا جميعًا في تلك الحياة وعلى هذه الأرض نعيش بأكثر من وجهٍ من خلال تعاملنا مع الآخرين، وقد يدعى أحدنا المثالية أو أنه ذو وجه واحد لا يتغير، لكن المؤكد أنه يكذب على نفسه، فأنت في محيط عملك ترى نفسك تحمل الكُرْهَ والضغينة لبعض زملائك أو رئيسك في العمل، لكنك لا تظهر له سوى عبارات الود والتقدير، وتجد نفسك عبر برامج التواصل الاجتماعي، أو الواقع تبرز لمن أمامك التسامح وحسن المعاملة، بينما أنت في الباطن تحاول قدرالإمكان إقصائه من أمامك، بل أحياناً تجد نفسك عندما تكتب، وقد تحولت إلى قديس لا يرى في نفسه كل شيء جميلا، وعلى هذا الأساس يتعامل بعض الناس معك، لكن في الحقيقة تُخفي عيوبك ومساوءك خلف تلك السطور وبين هذه الكلمات الخادعة، التي ما هي إلا مرآة تحاول من خلالها أن تعكس وجهك الذي تريده أن يظهر بتلك الصورة أمام الناس، لكن هناك حقيقة غائبة عن أمثال هؤلاء ألا وهي أن مَن نتعامل معهم يمتلكون من القدرة العقلية والذهنية ما يدفعهم إلى فهم مَن أمامهم مما يضطرهم إلى أن يستخدموا أيضاً وجهاً آخر مثل الوجه الذي استخدمه أمثال هؤلاء.

فنتحول جميعاً إلى عرائس متحركة، تمسكها يد أنفسنا المغرورة، وعقولنا المشوهة التي فقدت حلقة الاتصال بينها وبين أرواحنا، والتي تحمل بين طيّاتها سرّ حقيقتنا، فلماذا لا نلتزم وجها واحدا قد نستطيع من خلاله الوصول إلى أشياء أكبر وأثمن مما نتصارع عليها! بل يكفي أن يكون مكسبنا الوحيد هو إرضاء المولى سبحانه وتعالى، وهو الذي ذم المنافقين وتوعدهم بأشد أنواع العذاب، فاحترس أخي في الإنسانية مِن وجهك الآخر إذ أنه قد يحقق لك على المدى القريب مكاسب محدودة، لكن على المدى البعيد سيوقع بك في بئر مِن كراهية مَن أمامك وبُغض مَن حولك.

يا رجال مصر اتحدوا ضد ثقافة المرأة

قرأت في يوم من الأيام أسطورة صينية تحكي أنه كان هناك رجلا متزوجا من امرأة بلهاء، ليس لها عقل أو تفكير، وكانت كالآلة يحركها كيفما يشاء، فلا تملك أمامه سوى كلمة نعم، فأصبح الرجل مهموماً مغموماً فهو يفتقد الحوار في البيت، ولا يشعر بأي تفاعل في المشاعر أو العواطف، حتى إذا جاء يوم من الأيام كان هذا الرجل يسير في مكان مهجور، فوجد رجلا يوشك على الموت، فأنقذه ولم يكن يعرف أن من أنقذه هو عفريت، فحمل العفريت جِميل الرجل وقال له: اطلب شيئين أحققهما لك، فقال الرجل: أريد أن تجعل زوجتي ذات عقل ونباهة، وهنا قال العفريت: ارجع إلى بيتك وسوف تراها كما تريد، وبالفعل عندما رجع الرجل إلى البيت ودق الباب، فإذا بزوجته تصرخ في وجهه قائلة له: أين كنت؟ وظلّ الرجل يلتمس لها المبررات دون فائدة، ثم طلب منها العشاء فلم تجبه.

وظل في حوار معها بين شد وجذب حتى نام جائعاً، وظل كل يوم هكذا حتى ذهب إلى العفريت، فقال له: أريد أن تلبي لي طلبي الآخر، فقال له: تفضل، فقال: أريد أن تُرجع زوجتي كما كانت بلهاء بدون عقل.

تلك هي الأسطورة، وقد ذكرتها حتى تكون مدخلاً لِما أريد قوله: إن النساء في مجتمعنا قد وصلوا إلى درجة من الثقافة والاطّلاع إلى الحد الزائد عن المطلوب، وقد رأيت ذلك من خلال حواري مع إحدى الطالبات بالمدرسة حين كنت أشرح كيف أن كل اختراع على وجه الأرض قد بدأ بفكرة، قد تفشل في أول الأمر عند تطبيقها وقد تنجح مثل فكرة الطيران التي بدأها عباس بن فرناس.

وهنا قامت إحدى الطالبات المتفوقات لكي تحاورني، وظلت تتكلم حتى دخلت معي في مجال العولمة والغزو الثقافي.

وبالطبع ضاعت الحصة، وظللت أفكر كيف أن طالبة في سن صغيرة يكون عندها إدراك بتلك الأشياء، لكن بالطبع لا ينكر أحدٌ دورَ الفضائيات والإنترنت في اتساع مدارك نسائنا، لكنني أرى أن ذلك قد انعكس بشكلٍ سلبيّ على الرجال، فما ذنب الزوج حين تجلس زوجته أمام الشيف حسن صاحب برنامج طبق اليوم؟ وهي تراه يصنع المأكولات المختلفة بطريقة جذابة ومغرية، فتذهب إلى زوجها تريد منه أن يأتي لها بالمال لكي تطبخ ما تعلمته من الشيف حسن.

كذلك تلك الأفكار القادمة والتي تنادى بالمساواة في كل شيء خاصة بعد أن وجدنا رموز ثورة 25 يناير يقودها بعض الفتيات مثل: نوارة نجم، وإسراء عبد الفتاح، وأسماء محفوظ، هؤلاء اللائي أصبحت وجوههن مؤلوفة على وسائل الإعلام.

إني أرى أنّ أنوثة المرأة قد بدت معالمها في الاختفاء، ولابدّ هنا من وقفة شديدة من جميع الرجال، حتى يظل المجتمع على طبيعته المعروفة، والتي تربينا عليها،

الزوجة المطيعة التي ترضى بحالها، والتي تقول دائماً: ظل رجل ولا ظل حيطة، تلك الزوجة التي كانت تجعل من بيتها مملكة، هي فيه الملكة والوزيرة التي تدبر حاله اقتصادياً وسياسياً، فكانت تخفف من الأعباء، وتقلل من هموم الزوج، لكن الذي أراه الآن هو أنَّ المرأة أصبحت تمثل عبئًا بطلباتها الكثيرة التي تفوق الحد، فضلاً عن الزَّنِّ والإلحاح، حتى أصبحت معظم البيوت عندنا يشوبها الصوت العالي، وأصبحت المحاكم تعجُّ بقضايا الطلاق والنفقة، كذلك الخوف الذي بدا على معظم الشباب من الزواج، وما يتركه من أثرٍ سلبيٍّ على الرجل، وهنا لابد من وقفة، فيا رجال مصر، اتحدوا.

لماذا تعلّمون أولادكم الكذب!؟

سأل الأب يوماً ابنه ما درجاتك في المواد الدراسية؟ فقال الابن: في مادة العربي 20 من 20 ، وفي الرياضيات 19 من 20 ، وفي العلّوم 18 من 20 ، وفي اللغة الإنجليزية 19 من 20، وبالطبع لم يصدق الأب ابنه، فجلس على المقهى مهمومًا حزينًا.

فسأله صديقه: ما بك؟

فقال: ابني يكذب عليَّ في كذا وكذا.

فقال الصديق: سوف أهدي لك كلباً إذا كذب أحد أمامه فإنه يظل ينبح فيه حتى يقول الحقيقة، وهنا فرح الأب وأخذ الكلب واصطحبه إلى البيت، ثم أتى بابنه فقال له: ما درجاتك في العربي؟ فقال الابن: 20 من 20، فظلّ الكلب ينبح في الابن حتى قال صفر من 20، فسأله: وما درجاتك في الرياضيات؟ فقال الابن: 19 من 20، فظلّ الكلب ينبح حتى قال الابن: 1 من 20، فسأله: ما درجاتك في اللغة الإنجليزية؟ فقال الابن: 19 من 20، فظلّ الكلب ينبح حتى قال الابن: صفر من 20.

وهنا صرخ الأب قائلاً: كنت أتمنى أن تكون مِثلي حيث كانت درجاتي في الإنجليزية 20 من 20، فظلّ الكلب ينبح في الأب حتى قال درجاتي كانت صفر من 20.

وهنا يكون السؤال لماذا نعلّم أولادنا الكذب!؟ ونقوم بتربيتهم على سلوكيات ليست صحيحة، ثم نطالبهم بعكسها.

فتخيل نفسك إذا دقَّ أحدُ الأشخاص الباب، وكان غيرَ مرغوبٍ فيه، أو قام بالاتصال على هاتفك ثم تقول لابنك: قل له: إني لست موجودًا، أو قل له: إنني مسافر، هل هذا لا يُعدُّ كذباً!؟

هل تخيلت يوماً أن السيد (أحمد عبد الجواد) بطل الثلاثية الشهيرة للأديب العالمي (نجيب محفوظ) عندما كذب على أولاده في سلوكياته، أنهم لن يدركوا حقيقة الأب الذي يتعامل بوجهين؟ وجه الرجل الصالح الصارم الحريص على أبنائه في داخل البيت، وهذا الوجه الآخر الذي رأيناه في بيت جليلة الراقصة أو ذنوبة العالمة وهو وجه اللاهي العابث الذي يبذر ماله يميناً ويسارًا على شهواته، هل تخيل أنه لن ينكشف أبداً أمام أبنائه، بالطبع كانت النتيجة أن هذه النوعية من التربية قد فشلت تماماً، وخرج جميع الأبناء بعكس ما كان يتمناهم.

إنها مشكلة كبرى تحتاج إلى مراجعة النفس، وتحتاج من كل أب وأم أن يقوّم سلوكه حتى يعطي المثل والقدوة لمَن أمامه، ولعلّنا جميعاً نتذكر قضية الرئيس الأمريكي (بيل كلنتون) مع سكرتيرته (مونيكا)، حينما أقامت أمريكا الدنيا ولم تقعدها على هذا

الرئيس، لا لعلاقته الشخصية مع تلك الفتاة، ولكن حينما كذب على الجميع، وحنث في اليمين، فكانت النتيجة إحراجه أمام المجتمع الأمريكي، بل أمام العالم بأكمله، وما ذلك إلا لعلم هؤلاء الناس أنّ الكذب سلوك مقيط، من شأنه أن يدمّر أي مجتمع راقي، مبني على قواعد وقوانين صحيحة مهما كانت سلوكياته الشخصية الأخرى، ولذا نجد الحديث الشهير للمصطفى - صلى الله عليه وسلم - حينما قيل له: أيكون المؤمن جبانا؟ قال: نعم، قيل له: أيكون المؤمن بخيلاً؟ قال: نعم، قيل له: أيكون المؤمن كذاباً؟ قال: لا.

ثم انظر كيف توعّد الله تعالى الكذابين قائلا: "ويل للمكذبين" ، عفانا الله وإياكم من هذه الصفة خاصة إذا كنا نعلّمها لأبنائنا.

أحنُّ إلى تلفزيوني المصري القديم

لا يُنكر أحدٌ تلك القفزة الهائلة في عالم الإعلام والتلفزيون حتى أصبح كلُّ شيء متاحًا أمام المشاهدين، ولم يَعُدْ هناك سر من الممكن أن تخبّئه وسائل الإعلام المحلية، بل أصبح الكونُ فضاءً مفتوحًا، وتستطيع أن تُلمَّ بما يحدث على وجه الأرض بمجرد ضغطة زر.

والأدهى من ذلك أنه قد أصبحت لكلِّ مجالٍ قناةٌ خاصة، حتى النوم وُجدت له قناة على الهوت بيرد عبارة عن شخص فاتح فمه، ويظل يتثاءب طوال اليوم.

لكن مع كل هذا أصبحتُ والله لا أحب التلفزيون، ولم أعد أتابع إلا قنوات الرياضة فقط، وهذا على العكس من السنين الماضية وقت أن كنا لا نعرف من التلفزيون إلا القناة الأولى والثانية والمحليات فقط.

وبرغم قلة هذه القنوات إلا إننا كنا في حالة من الشغف والانتظار الشديد لبرامجها وأفلامها وأخبارها، مَنْ منا لا يتذكر برنامج الشيخ شعراوي يوم الجمعة؟ أو برامج الأطفال مثل عروستي، وبقلظ، وسينما الأطفال، وفي المنوعات أتذكر زووم، واخترنا لك، وتاكسي السهرة، وسهرة على الهواء، وحكاوي القهاوي.

وفي السينما أتذكر نادي السينما، وسينما نعم وسينما لا، وأوسكار، وفي البرامج العلّمية أتذكرعالم الحيوان، وعالم البحار، والعلم والإيمان، وجولة الكاميرا.

وغير ذلك من البرامج الجميلة التي كنا ننتظرها بشكل أسبوعي، ومع أنها كانت تأتي مرة واحدة في الأسبوع إلا إننا كنا نشعر بسعادة هائلة واستمتاع جميل أثناء مشاهدتها، وكنا نشعر بالضيق كلما انتهى وقت البرنامج.

لكن الآن بعد أن أصبحت كل هذه الأشياء متاحة طوال اليوم، بل إنك بعد الإنترنت قد تطلب ما تشاء فتجده أمامك على الفور، ومع كل هذا فقدنا متعة المشاهدة، وأصبحنا نشعر بملل شديد خصوصاً بعد التجاوزات التي نراها في لغة الحوار، أو الألفاظ الخارجة التي أصبحت لغة سيناريو أفلامنا ومسلسلاتنا.

ويبدو أن حقيقة المتعة بالشيء تتمثل في الاشتياق إليه، وقمة المتعة أن تتمكن من الوصول إليه، لكن أن تجده أمامك هو أمر ممل لا يبعث في النفس اللذة.

وأتذكر هنا عندما صعد ماندو بطل حكاية ألف ليلة وليلة إلى الفضاء فوجد أشخاصًا يبكون، فسألهم عن السبب، فقالوا: نحن وصلنا إلى كل شيء، فقال: كيف؟ قالوا: تلك هي بذرة ونستطيع أن نلقيها في الأرض ثم نضع عليها هذا الماء فتثمر خلال لحظات، وهنا تعجب ماندو فما يصنعه في الأرض في نصف عام يصنعه هؤلاء في دقيقة واحدة، وهنا سأل ماندو أحدهم: هل هذا شيء محزن؟ فقال

الشخص: لم نعد نجتهد أو نفكر، وفقدنا الشعور بالجد والكفاح ومتعه التفكير في الهدف ثم الوصول إليه، وهنا فهم ماندو سر حزنهم.

ويبدو إنه هو سر حزني وتحسري أيضًا على تلفزيوني الآن.

المعالجة الإعلامية بين الماضي والحاضر

قديما كان التليفزيون عبارة عن قناتين: الأولى والثانية، وبمرور الوقت ظهر ما يسمى بالقنوات الإقليمية.

وبالطبع لا نستطيع أن نغفل دور الإذاعة التي كانت تستمع إليها جميع الأسر المصرية، لكن الملفت للنظر نوعية البرامج التي كانت تُقَدَّمُ بالإذاعة والتلفزيون ونوعية ضيوف هذه البرامج.

وسأركز هنا على البرامج التي كانت تتناول المشكلات الاجتماعية في هذا الوقت،

ومنها برنامج حياتي الذي كانت تقدمه السيدة فايزة واصف، كذلك برنامج ندوة للرأي للمرحوم حلمي البُلُك، وبرنامج للفتاوى للشيخ عطية صقر.

ولا ننسى في الإذاعة برنامج ماذا تفعل لو كنت مكاني؟ للمرحوم ضياء الدين بيبرس، وبرنامج على الناصية للإذاعية الكبيرة آمال فهمي، وبرنامج ربات البيوت للمرحومة صفية المهندس، وبرامج فتاوى وأحكام على إذاعة القرآن الكريم.

كل هذه البرامج عندما كان يأتي إليها سؤال متعلق بالحياة الزوجية سواء الزوج أو الزوجة أو الأبناء، كنت أجد الرد يمتاز بالعقلانية والحسم والصرامة التي تحث على الصبر وتحمل المسئولية والمحافظة على كيان الأسرة حتى تكون متماسكة.

كانت الأسئلة تمتاز بالخجل والحياء والطرح العقلاني دون مبالغة، فكان الردُّ مقنعًا وفق العُرف والموروث الديني، فلا أحدَ يتكلم عن حقوق المرأة، ولا ظلمها، ولا المساواة بينها وبين الرجل، لكن مع الأسف الشديد مع تعدد القنوات وظهور جيل جديد من المذيعين والمذيعات ونوعية معينة من الضيوف نساء ورجال، صحيح أنهم من ذوي الشهادات العالية لكن مع الأسف الشديد صُدمنا بنوعية جديدة من الردود على نفس الأسئلة التي كانت تطرح قديما، فمنها ما يحرض على اللجوء للمحاكم والخُلع بحجة أنه يجب على المرأة ألا تسكت عن حقوقها، ولا تعطي لزوجها الفرصة أن يقلل من شأنها.

ناهيك عن نوعية الأسئلة المتعلقة بغرف النوم والعلاقات الخاصة مثل التي تتناولها السيدة هبة قطب والتبجح في الرد عليها، والسؤال والإجابة أصبح مشاعًا أمام جميع من في البيوت صغار وكبار، فلك أن تقارن بين وقار وصرامة فضيلة الشيخ عطية صقر، وبين الدكتور مبروك عطية وما يصنعه من هرج ومرج وأسلوب متدنٍ في طريقة الرد مع خالص التقدير لعلمه.

فماذا كانت النتيجة؟

زادت نسب الطلاق، وزادت القضايا في المحاكم، وتشتت الكثير من الأسر، ناهيك عن ارتفاع نسب الخيانة من الطرفين، وانهارت الكثير من القيم والأعراف

الاجتماعية إلتي تربينا عليها، وأصبحت تلك البرامج تضع في مقدمة أولوياتها جذب المشاهدين بالطرق المشروعة وغير المشروعة، أصبح المذيع أو المذيعة يفتقر إلى الوقار والحشمة سواء في طريقة الكلام أو الملبس.

أصبح الضيوف يفتقرون إلى أدب الحوار وأدب الرد، وبعض رجال الدين في مقدمتهم بالطبع، إني أرى أن الإعلام هو السبب الأول في انهيار القيم الاجتماعية والعلاقات الإنسانية التي نعاني منها في وقتنا الحالي، إعلام فاشل والقائمون عليه سلة المهملات أحق بهم.

إلى متى سنخاطب أنفسنا!؟

كنت أستمع إلى برنامج الأستاذ وائل الإبراشي والذي كان يحاور فيه بعض المراسلين المصريين لدى التلفزيونات العالمية، وكان من بينهم المراسلة المصرية للتلفزيون الإسرائيلي، وقد سمعتها تقول أنها تتكلم بحرية وتنقل ما تراه على أرض الواقع بدون ضغط أو إملاء من التلفزيون الإسرائيلي، وبيني وبينكم هذا الكلام لا يمكن أن يستوعبه عقلي، فالصديق صديق، والعدوّعدوّ، ولا أتخيل أن يترك التلفزيون الإسرائيلي أحدًا يتكلم إلا إذا كان الكلام سيخدم الفكرة التي يريد توصيلها لعامة الناس.

وهنا تكون الوقفة؛ فإلى متى سيخاطب الإعلام عندنا نفسه، فأنا أتذكر منذ كنت صغيرا، ولن أشعر بالحرج من أن أقول: إنني لم أكن أحول مؤشر الراديو عن الإذاعة الإسرائيلية، أو إذاعة مونت كارلو، فكنت أجد فيهما ما يتوافق مع رغبتي سواء في نوعيات الأغاني أو البرامج، وبالطبع كان يتخلل كل هذا برامج سياسية تطرح الرؤية الإسرائيلية للأمور التي تريد توصيلها إلى العرب، أما نحن فبالله عليكم عندما تقلبون القنوات عبر النايل سات ألا تجدون القناة الكورية والقناه الصينية والقناة التركية؟ وجميعهم موجه باللغة العربية وجميعهم يحاول أن يوصل إلينا طبيعة شعوب هذه الدول، وطبيعة فكرهم السياسي، وكم كنت متألما عندما وجدت في أحد البرامج على القناة الكورية المحاور يسأل طائفة من الشعب الكوري ماذا تعرف عن العرب؟ فقال: إنهم إرهابيون يحبون العنف، وأنا أسأل في وسط هذا الكم الهائل من القنوات المصرية ما بين دراما ورقص وسياسة ودين، أين القنوات الموجهة إلى العالم الخارجي؟ والتي تتحدث بلغتهم حتى تستطيع أن توصل لهم الفكرة الصحيحة عن العرب والمسلمين بدلاً من ترك الساحة للإعلام المقابل بتشكيل الصورة كما يحلو له.

أليس عندنا نحن العرب الكوادر والأموال التي تجعل ثقافتنا وعادتنا وتقاليدنا أمام أعين هؤلاء؟ لكي تثبت في رؤوسهم فكرة صحيحة وانطباعًا سليمًا، نستطيع أن نتعامل معهم وفق معرفة مسبقة وأساس صحيح.

ظاهرة الشيخ أمين في مجتمعنا المعاصر

الشيخ أمين هو تلك الشخصية التي لعب دورها الفنان (عبد الغني قمر) في فيلم امرأة على الطريق.

حيث كان يجسد شخصية التاجر الذي يتظاهر بالتدين والتقى أمام الناس، حتى أطلقوا عليه لقب شيخ، بينما هو في الباطن كان يمارس جميع الفواحش مع (شريفة) التي كانت تعمل عنده.

ولعلّ هذا النموذج من الناس قد رأيناه بكثرة في مجتمعنا الحالي، حيث أصبح الدين أسهل وسيلة للوصول إلى أي غاية أو هدف، ولم يقتصر الأمر على الأحزاب والجماعات بل المؤسف أن نجده في العامة من الناس سواء في العمل أو في المكان الذي يحيط بك حتي عبر الإنترنت.

فما أسهل أن تحفظ آيتين وبعض الأحاديث، وتظل ترددهما بين الناس من أجل اكتساب بعض الأشياء.

فما بالك حين تجد خطيبًا على المنبر، أو شيخًا يبدو عليه الوقار يكُثر مِن قال الله وقال الرسول؛ ثم تُفاجَأ أنه في الخفاء يمارس ما يمارسه أصحاب القلوب المريضة، فوجدنا أمثال هؤلاء افتضح أمرهم، وفاحت رائحتهم حينما طفوا على السطح، وأصبحت وسائل الإعلام مُسلطة عليهم.

لكن الحقيقة أن المشكلة ليست فيهم، وإنما فينا نحن، حينما نصدق مَن أمامنا لمجرد مظهر خدّاع، متمثل في اللحية أوالمسبحة أو الإكثار مِن قال الله وقال الرسول.

كل هذا دون أن نربط أو ندقق بين مطابقة أقوالهم مع أفعالهم، فنُفاجأ بأنفسنا الساذجة تنساق خلف الكلمة دون وعي أو إدراك.

المرأة والسياسة المصرية، رؤية خاصة جداً.

بعيداً عن أي شيء فإن أشد ما يُلفت الانتباه منذ 25 يناير 2011 م وحتى الآن هو دور المرأة في السياسة المصرية، وبالطبع فسوف أتحدث عن رؤيتي أنا التي قد يتفق معها البعض وقد يختلف البعض الآخر، لكن في النهاية تلك الرؤية مبنية على انطباعاتي الخاصة، ورأيتها في الكثير ممن حولي، وممن تحاورت معهم في الأماكن العامة وعبر الإنترنت، فأقول: إننا في بداية الأمر يجب أن نقسم الأمر إلى ثلاث شرائح.

الأولى: نساء ساهمت في قيام الثورة وتأجيجها.

والثانية: نساء لعبت دوراً في الإعلام.

وأخيراً وهو ما يهمني: المرأة المصرية العادية التي هي زميلتي في العمل، أو صديقتي عبر الفيس بوك، أو بيني وبينها حوار وتواصل، تلك هي الشرائح التي سأتحدث عنها.

أما عن الشريحة الأولى فلا ينكر أحدٌ أن النساء والفتيات في ثورة 25 يناير لعَبَتْ دوراً بارزاً في المشهد السياسي، وأذكر منهن (نوارة نجم)، و(أسماء محفوظ)، و(إسراء عبد الفتاح)، وهن فتيات صغيرات في السن، وليس لديهن خبرة في حقل السياسة، ولكن اندفعن كما ادعين بدافع وطني بحت، فرأيناهن يملأن شاشات التلفاز، ويتنقلن من قناة لأخرى، فتلك ناشطة سياسية وتلك ناشطة حقوقية.

لكن السؤال أين هؤلاء الفتيات الآن؟ الحقيقة أنني قد لاحظت اختفائهن عن المشهد السياسي، حيث أصبح دورهن ضئيلاً جداً، والسبب الذي عرفته أن الثلاثة بعد الثورة قد تزوجن جميعاً، ويبدو أنَّ ذلك هو الهدف الأساسي الذي سَعَيْنَ خلفه، وهو البحث عن عريس، وليس البحث عن الحرية كما كانوا يزعمون، ودليل ذلك أنهن بعد الزواج قد اختفين تماماً، فلم نعد نرى أصواتهن العالية، وطلتهم المستمرة علينا عبر شاشات التلفزيون، وصفحات الإنترنت.

نأتي إلى الشريحة الأخرى، وهن نساء قد لعبن دوراً في الإعلام وبالطبع لا ينكر أحدٌ دورهن البارز في الشهور الماضية، وأذكر منهن (لميس الحديدي) و(منى الشاذلي) و(حياة الدرديري) و(هالة سرحان) و(جيهان منصور).

والحق أن هؤلاء الأخوات قد تسببن في إحداث نوعًا من الحركة، والتأثير لدى المواطن العادي، ولا ينكر أحدٌ أنّهن كنَّ متفقات في الاتجاه العام، ساعيات بكل قوة إلى توصيل الفكرة، وذلك بأصواتهن العالية، وملاحقتهنَّ في الحوار، دون أن يتركن أى فرصة، فضاعت أنوثتهنَّ، ولم يتبقَ منهنَّ سوى صوت يشبه هذا الذي ينادي في السوق على الخضروات والفاكهة.

أما الشريحة التي تهمني فهي المرأة العادية، تلك المرأة التي كان رأيها مبنيا على أمر من اثنين: إمَّا ثقافتها الخاصة أو الإعلام.

والحق إنني قد وجدت القليل منهنّ ممن تتحدثنَ بعقلانية أو اتِّزان في الكلام، سواء منهن من كانت تتفق معي أو تختلف، لكن النصيب الأعظم من هؤلاء نستطيع الحكم عليهن من خلال ردودهن على الكلام أو الموضوعات التيُ تنشر عبر الفيس أو المنتديات، وإليكم نماذج من تلك الردود: (هو أنت من أتباع النظام ربنا يحشرك معهم في نار جهنم بحق الدم المصري يا خنزير يا معدوم العقل والإحساس).

وهذا نموذج آخر: (مرسي والإخوان أفضل منك ومن عائلتك وأصغر واحد في الإخوان جزمته برقبتك يا خاين يا كلب النظام).

وهذا رد أخت متدينة: (اللهم يا عالمًا بالحقيقة، انصر المظلوم على الظالم فاخسف بالنظام وأتباعه من الشرطة والجيش والشعب، واجعل مصيرهم كمصير فرعون وقومه)، وتلك ردود الطرف المقابل: (والله يا دكتور محمود ربنا يقضي على الإخوان واحد واحد ونرتاح منهم ومن أشكالهم اللي تشل وتصيب بالمرض) .

وهذا رد آخر: (دول خرفان خنازير، لاعندهم رأي ولا دين، ولاعقل ولا تفكير).

تلك هي نماذج من ردود المرأة العادية في مجتمعنا، وبالطبع لا أنكر أن الكثيرات منهنّ قد قررنَ قطع العلّاقات معي لمجرد اختلافنا في الرأي، والبعض منهن معجب كثيرًا بأرائي لأنّ هناك اتفاق في الآراء بيننا.

لكن الحقيقة أنني لست سعيداً بهذا ولا ذاك، إنني أريد امرأة تتكلم بهدوء دون انفعال، رأيها مبنيٌّ على دليلٍ وحجة، بعيداً عن سلاطة اللسان، والدعوة على الطرف المخالف، لكن مع الأسف قليلة تلك النماذج في حياتنا.

ومما سبق أقول: إنني غير راضٍ عن دور المرأة في السياسة المصرية، وكنت أتمنى أن يكون لها دورٌ أكثر عقلانية، بعيداً عن التعصب مع احتفاظها بأنوثتها الجميلة، وطبيعتها الجذّابة.

أنا والمرأة البريصة وحالة الألتكاريا المنخوليا

أعلمُ أن الكثير سيستغرب من هذا العنوان، وقد يغضب النساء من هذا التشبيه، لكنه صحيح جداً، فمنذ الصغر كانت تقول جدتنا تلك امرأة مثل البريصة، وبعضهم كان يقول العقربة، لكن البريصة هو التشبيه الأنسب.

وسوف أوضح ذلك، لكن قبل كل شيء يجب أن نضع تعريف للمرأة البريصة المصابة بحالة الألتكاريا المنخوليا، أقول: هي المرأة التي يصدر منها تصرفٌ لا معقول، أو تعتقد اعتقاداً لا معقول، وبالنظر لهذا التعريف نجد أمثال هؤلاء النساء في حياتنا، في البيت أو العمل أو على برامج التواصل الاجتماعي.

فأتذكر عندما كنت بالعمل، وكنت خارجاً من إحدى الحصص، وجدت المعلمة في الفصل المجاور وقد علا صوتها قائلة: والله اللي مش هيجيني الدرس سوف يرسب في امتحانات أعمال السنة وامتحان آخر العام، وهنا أُصبتُ بحالة من الانهيار والارتباك.

فإن المرأة أنثى المفترض فيها الرقة والعطف، يصدر منها هذا الكلام، فأسرعت إلى المديرة ورويت لها ما حدث، ثم جاءت المديرة وتكلمت معها، فقالت المعلمة: أنا حرة لو حتى هروح السجن، هذا نموذج في العمل.

أما في البيت فهم كثيرون، تجده في الزوجة التي تريد أن توقع زوجها في أهله، أو الأم التي تريد أن تستحوذ على ابنها فتجد من زوجته منافسًا لها فتحاول إيذائها بشتى الطرق والوسائل.

أما وسائل التواصل الاجتماعي فهم كُثُر، كأن تحاور امرأة في موضوع ما، ثم فجأة بدلاً من الرد بالحجة أو الدليل تنزل عليك باللعن والسباب، أو أن تتحدث مع امرأة في موضوع ما وقد تجاوزت الستين أو السبعين أو حتى الخمسين وأنت لم تتجاوز الثلاثين فتعتقد أنك تريد مغازلتها أو بداية حالة عاطفية معها.

أما في المكان فتجد امرأة تريد أن تستحوذعلى إعجاب الجميع، وبالتالي فهي تصنع الدسائس والافتراءات لكي تزيح أي امرأة من طريقها تلك هي بعض النماذج.

وقد يستغرب البعض من تحديدي لمواقف بعينها، لكن تلك نماذج حقيقية قابلتها في حياتي، أو رأيتها دون احتكاك معها.

وقد تعلق إحدى النساء على هذا الموضوع قائلة: يا سندباد، ليس النساء فقط من يصنعن هذا، فهناك رجال يفعلون ذلك أيضا، وأنا اقول لها: نعم، كلامك صحيح لكن هناك فرق هائل بين المرض عند الرجل والمرض هنا عند النساء، فالرجل المصاب بهذا المرض قد نتعامل معه بشكل أو بآخر ونمضي، لكن المرأة يصدقها الكثير

مهما كانت درجة كذبها، فهي المرأة المطلوبة المحبوبة التي يريد الرجال التقرب إليها بأي وسيلة ولو حتى على حساب الآخرين.

وبالتالي فإن أثر هذا المرض يمتد عند بعض الرجال ضعاف النفوس قليلي الرجولة ممن ينسون أنفسهم وأصدقاءهم مقابل كلمة حلوة أو ابتسامة خبيثة من امرأة.

وقد تسأل أخرى لماذا البريصة يا سندباد؟ أقول لها: البريصة قد أمرنا الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالتخلص منها فيما روته أمنا عائشة - رضي الله عنها - أن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم قال:

"إن ابراهيم حين ألقي في النار لم يكن في الأرض دابة إلا تطفئ النار، غير الوزغ

فإنه كان ينفخ على إبراهيم، فأمرنا رسول اللّٰه - صلى اللّٰه عليه وسلم - بقتله".

والوزغ هي البريصة، وما أشبه الاثنين؛ فالبريصة تنفخ في النار كي تشعلها، والمرأة المصابة بحالة الألتيكاريا المنخوليا تحاول إشعال نار الفتنة بين من حولها.

ولذا فكان تشبيه جدتي صحيحًا جدًا، ومن هنا فلابد من التخلص منها بأية وسيلة سواء من حياتك أو أصدقائك، أو تتخلص من التعامل معها، فهي مريضة بالألتكاريا المنخوليا هذا المرض اللعين الذي لا يُؤذي صاحبه فقط بل يُؤذي من حوله، وما أكثر من هم حول المرأة!

الحب وأشياء أخرى

في مرحلة ما من عمرى كنت أرى بعض الأشخاص يصرِّحون بحبهم وعشقهم دون وعي أو تفكير، أو أن يعطوا أنفسهم فرصة لاكتشاف شخصية الطرف الآخر، لكن عندما يأتى الحديث عن الزواج كنت أراهم يقفون مع أنفسهم وقفة طويلة ما بين تردد أو تفكير عميق، أو رفض للفكرة، فكنت أرى في ذلك نوعًا من الخداع، أو الكذب على النفس فكيف تصرح بحبك دون ترجمته إلى مشاركة حياتيه.

وبعد مرور وقت طويل تنبهت إلى أمر مهم وهو أنَّ تلك المشاركة يلزمها أشياء أخرى غير الحب، تلك الأشياء من المؤكد أنها تحتاج إلى وقفة طويلة حتى يستطيع الإنسان أن يكتشف الجوانب الأخرى في الطرف المقابل، ثم يقرر بعد ذلك ما مدى تكيُّفه مع هذا الطرف، فكل إنسان له متطلبات حسية ومعنوية في الطرف الآخر لكى تتماشى مع طبيعته الشخصية، فهذا يريد زوجة نحيفة، وهذا يريدها سمينة، وآخر يريدها مثقفة، وآخر يريدها عمياء بكماء لا تتكلم، وإنما تسمع فقط.

ومن هنا فقد ألتمس العذر لهؤلاء عندما يقفون طويلاً مع أنفسهم يتخيلون طبيعة الحياة الزوجية التي تحتاج إلى مواصفات معينة، لذا نجد غالبية الزيجات التي تمت عن حب مسبق كثيراً ما يشوبها الفتور والبرود العاطفي، وهذا على العكس من الزيجات التي تتم بشكل تقليدى في مجتمعنا حيث أن العقل يكون حاضراً فيها وبشكل كبير.

ومن هنا ينتج عن هذا التقارب النفسى والعِشرة الطيبة نوعًا آخر من الحب، أراه أسْمَى وأرقى من نظيره المبني على التسرع والشهوانية والأخذ بالمظاهر دون ترك أى مساحة للعقل لكى يُفرز له طبيعة الكلمات التي ينطق بها أمام الطرف الآخر.

ساعات ساعات أحب عمري وأعشق الحياة

تلك كلمات جميلة صورها الشاعر عبد الرحمن الأبنودي من خلال الأغنية التي غنتها الفنانة صباح، لكن الحقيقة أنها تعكس معنى كبيرًا تتأرجح فيه النفس بين الفرح تارة وبين الحزن تارة أخرى.

لكن الحقيقة التي تغيب عنا جميعاً هي أن الله تعالى لم يمنعنا من التمتع بالحياة وإرضاء النفس طالما كان ذلك في ظل الحد الذي أمرنا الله به تعالى.

فعليك أن تتخيل ماذا قال الله تعالى لقارون الذي لم يبلغ أحد إلى ما وصل إليه من الغنى والثراء إلى الدرجة التي بلغت فيها خزائنه أن مفاتيحها لا تستطيع أن تحملها مجموعة من الفتية.

فيقول الله تعالى:" وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ".

لكن ما يهمنا هنا أن ننتظر ماذا قال الله لقارون، هل نهاه عن الغنى؟ هل نهاه عن التمتع بالمال؟ هل نهاه عن التمتع بالحياة؟

لا لا لا ، وإنما قال له ولا تنسى نصيبك من الدنيا، ولذا كان عدد ذكر الدنيا متساويًا مع عدد ذكر الآخرة، فماذا نفهم من كل هذه الأمور؟

بالطبع هي دعوة صريحة إلى عشق الحياة، فقد يكون الحزن أو الألم مسيطراً عليك في وقت من الأوقات لكن بمثابة لحظة قد يتغير معك كل شيء، فقد تصادف صديقاً، أو تجد حبيباً، أو يأتي خبر يفرح النفس.

إذاً فالحزن أو الفرح ليس نهاية الحياة، فكل واحد منا يستطيع أن يشكل حياته كما يريدها، فهو القادر على خلق الظروف التي تمنحه السعادة أو الحزن مع عدم إغفال الظروف الخارجية التي تجبر الإنسان أحيانا على ارتكاب أشياء قد يأباها لكن من أين يأتي إرضاء النفس؟ ومن أين تأتي حلاوة الحياة؟

سؤال صعب، لكن إجابته أسهل، وتكمن في إرضاء الله ثم إرضاء الغير وإسعاد الآخرين.

فالإنسان بلا بشر ليس بإنسان، والجنة بلا بشر ليست جنة، فكن حريصًا على الآخرين من خلال سلوكياتك ومشاعرك لكي تحظى بحب الناس، وهنا ستتمتع بالعمر والحياة دائماً، وليست مجرد ساعات تحب عمرك وتعشق الحياة.

بشار بن برد وزوجته والمشكلة الأزلية

بشار شاعر عباسي أعمى وهو صاحب البيت الشهير:

يا قومي أذني لبعض الحي عاشقٌ والأذن تعشق قبل العين أحيانا

وكان بشار متزوجا من امرأة كان يكرهها كثيراً، ويكره معاشرتها.

وفي يوم من الأيام اتفق بشار مع إحدى الجواري على أن يمارس معها الرذيلة، فقامت الجارية بإبلاغ زوجته، فقالت لها: أريد منكِ أن تكوني معه حتى النهاية، لكن عند الدخول إلى غرفة النوم فلتذهبي أنتِ، وسوف أكون مكانك، وبالفعل دخلت الجارية مع بشار البيت لكن عند الدخول إلى الغرفة تركته ومشت، وكانت زوجته هي التي تتواجد في داخلها، فلم تنطق كلمة واحدة وقضى بشار ليلته معها معتقداً أن من معه هي الجارية، وكان في غاية السعادة والانبساط، وبعد مدة من الوقت أبانت الزوجة عن نفسها، فشعر بشار بالصدمة، وقال لها: ما أجملك حراماً وأقبحكِ حلالاً.

نعم كان ذلك هو انطباع بشار، وأعتقد أنه هو انطباع الكثير من الرجال على مدى العصور الزمنية، فدائماً ما ينظر الرجل إلى ما في يد غير، فيرى في الحبيبة جل مصادر الجمال والإلهام، أما الزوجة حتى وإن كانت قديماً محبوبته فهي عنده شيء تقليدي قد أصبح معتاداً لديه صباحا ومساء.

لذا وجدنا أن جميع الشعراء الذين اشتهروا بقصص الحب الخالدة لم يتزوج بواحدة منهن، وجدنا ذلك في قصة عنترة مع عبلة، وقيس مع ليلى، وكُثير مع عزة، وجميل مع بثينة، حتى إبراهيم ناجي في قصيدته الخالدة الأطلال لم تكن في زوجته وإنما في محبوبته الفنانة زوزو حمدي الحكيم.

وأنا أسأل لماذا لا تكون الزوجة مصدراً للإلهام؟

هل بعد الزواج تنتهي العاطفة وتندثر معها المشاعر الجميلة الحساسة؟ أم أن الزواج غاية، يحاول كل منهما الوصول إليه بشتى الطرق؟ فنجد من الفنون والإبداع ما يشعرنا بالحب وانسيابه.

لكن بعد الزواج لا نجد إلا الشكوى أو الجملة الشهيرة التي يقولها كل زوج أو زوجة حب العِشرة، وليس الحب الذي كان متعارفا عليه في الماضي، وبالتأكيد فإن ذلك يخالف الرؤية الإسلامية للزواج المبنية على المودة والسكن والرحمة.

فمن المفترض أن يزداد الحب، ويكون أكثر تفاعلاً بعد الزواج وليس العكس، إذاً فهناك خلل من الزوجين، أو لنقل: عدم تجديد في المشاعر والأحاسيس والانشغال بالأمور الأخرى، مثل: الأولاد ولقمة العيش.

وستظل هذه المشكلة فيما أعتقد إلى قيام الساعة، طالما لم تتجدد العقول والقلوب، ويتيقن الزوج أو الزوجة أن هذا النصف الآخر هو جزء منه لا يمكن أن ينفصل عنه بأي حال من الأحوال.

رومانسية أم خنقة

إنني أشعر بكثير من الغيظ والنفور من هؤلاء الذين يضعون شرطا في الحب أو الزواج ويكون مضمونه الرومانسية، ولا أدرى كيف يتوافر هذا الشرط؟

فمعروف أن الإنسان المتزن العاقل هو الذي يتكلم أو يتحرك بحسب الموقف الذي يعيشه، فالكلام والمواقف على مائدة الطعام يختلف عن طبيعته داخل السيارة، كذلك يختلف عن طبيعته داخل العمل وأيضا غرف النوم.

وهؤلاء الذين يريدونها رومانسية دائمة من المؤكد أنهم مجانين، فليس من المعقول أن يتغزل كل طرف في الآخر طوال اليوم، لكن العقل يقول أنه لابد من وجود تفاعل مع كل حركة وكل موقف سواء كان رومانسيًّا أو عصبيًّا أو الصوت العالى في بعض الأحيان.

لكن أن "يتسهوك" الطرفان على طول الخط فهذا هو الجنان بعينه، والحياة الفاشلة التي لا تؤدي إلى نهاية صحيحة، لذا فأنا كلي إيمان أن جميع قصص الحب الخالدة التي بالطبع لم تنتهِ بالزواج مثل قيس وليلى أوعنتر وعبلة أو روميو وجولييت، لو كانت انتهت جميعها بالزواج ما رأينا كل هذا الحب وتلك الأساطير العجيبة التي تواردت إلينا عبر التاريخ.

الخاتم

هل تعلمون من هو الخاتم؟

إنه ليس الخاتم الفضي أو الذهبي الذي يكون في أصابع الإنسان، ولكنه خاتم يحمل نفس الصفة، إنه الرجل الذي يكون تابعاً لغيره، يسير معه في أي إتجاه دون تفكير أو وقفة، وقد حمل لنا التاريخ الكثير من هؤلاء الخواتم مثل: عز الدين أيبك الذي كان خاتماً في يد شجرة الدر، مع أن المرأة كانت خاتماً في يد زوجها نجم الدين، وكذلك نرى نابليون بونابرت الذي كان خاتماً في يد محبوبته جوزفين، أما مَنْ معه فكانوا جميعاً خواتم في إصبعه، وكذلك نجد السيد أحمد عبد الجواد بطل الثلاثية الشهيرة لنجيب محفوظ كان خاتماً في يد جليلة وزنوبة، لكن زوجته وأولاده كانوا جميعاً خواتم في إصبعه، وبالطبع كانت نهاية هؤلاء جميعاً سيئة، فما أسوأ الإنسان الذي يعيش أسيرا لغيره !

وأتذكر هنا هذا الموقف لأحد الرجال في عهد الخليفة العادل عمر بن الخطاب الذي كان قوياً يهابه الجميع، حيث ذهب هذا الرجل الى الخليفة يشكو زوجته؛ لأنها تعلي من صوتها عليه، وتعارضه في الكثير من الأمور، وعندما اقترب الرجل من بيت الخليفة سمع بداخل البيت صوتاً عالياً يصدر من زوجة الخليفة عمر، حيث كانت تعلي من صوتها عليه فخاف الرجل ثم عاد إلى بيته، ولكن عمر قد شعر بخطوات الرجل فمشى وراءه وسأله ما بك؟ وما حاجتك؟ فقال له: يا أمير المؤمنين قد جئتك كي أشكو زوجتي إليك؛ لأنها تعلي من صوتها عليَّ، فوجدت زوجتك تعلي من صوتها عليك، فضحك الخليفة وقال له: يا رجل "فيما معناه" أليس لهم الحق أن يكون لهم رأي يدافعون عنه ويعلون من أصواتهم أحيانا؟ فهم في خدمتنا طوال اليوم، ولا أخفيكم سرا يا أصدقائي أني قد قابلت كمًّا هائلًا من هؤلاء الخواتم سواء في الحياة أو عبر الإنترنت، فتجد صديقك يحمل لك كل عبارات المحبة والود لكن عندما تظهر المرأة أمامه يصبح خاتماً في يدها، فينقلب عليك في لحظة، لكن الكارثة هي أن يكون الإنسان خاتم لفكرة أو اتجاه يسير معه أينما كان، ولعلّ ذلك هو سبب ما نحن فيه الآن في مصر من تناحر سياسي بين أصحاب الاتجاهات السياسية، وانخرط وراءهم عامة الناس في تعصب أعمى بلا تفكير أو تمييز أو وقفة منصفه في الأمور، فليس كل اتجاه على صواب، وليس كل اتجاه على خطأ، وما أجمل أن يتحرر الإنسان من نفسه، فلا يكون خاتماً لها ولرغباته الجامحة التي قد تفضي به إلى الهلاك، فهل من لحظات تمرد على أنفسنا، نراجعها في جميع الأشياء، لعلّنا نكتشف أشياء نقول على أنفسنا فيها أننا كنا خاتما في إصبع؟

اصطنع بعض الغباء لكي تفهم أكثر

لم تكن من طبيعتي أن أوجه لغيري النصائح والتوجيهات لإدراكي أن كل إنسان يقتنع بما أعطاه الله له من عقل وتدبير، لكن ليسمح لي عزيزي القارئ أن أعطي له تلك النصيحة عن تجربتي في الحياة وهي موجهة للجنسين الرجل والمرأة.

فمنذ طفولتي كنت أظهر لغيري مدى ذكائي وفهمي، وهذا كان يدفعني إلى التعجل والتسرع مما كان يجعل البعض ينفر مني ومن الحديث معي.

ومع دخولي الجامعة وما كانت تسببه هيبة أساتذتي من خوف ورهبة، كنت أضطر إلى الاستماع أكثر من الكلام، فشعرت أني أفهم أكثر مما كنت، وأن مداركي قد أخذت في الاتساع، حتى أصبحتُ أتعود شيئا فشيئا على أن أستمع أكثر مما أتكلم.

ولعلّ ذلك قد انعكس عليّ في عملي، فعندما يتحاور معي زملائي أو رؤسائي كنت أدَّعي عدم الفهم حتى أستطيع أن أصل إلى طبيعة ما يريدونه.

وهذا ما جعلني أحتاط في الكثير من الأمور التي كانت من الممكن أن تسبب لي كثيرا من المشاكل، لكن بالطبع كانت الاستفادة الكبرى هي عبر برامج التواصل الاجتماعي، ولا أتحدث هنا عن الحوارات التافهة التي تصير بين الرجال والنساء في العادة أو الحوارات الشخصية التي تتضمن بعض الأسرار.

ولكن أتحدث عن الحوارات والنقاشات الجادة، سواء كانت في السياسة أو الدين أو المشاكل الاجتماعية، فأنت عندما تُشعر مَن أمامك بعدم فهمك وتتركه يتحدث كثيراً فأنت تحقق له بعض المتعة خاصة مع النساء.

وبالتالي تنتظر عند انتهاء الكلام لكي تُقيّم هذه الشخصية وطبيعتها وطريقة تفكيرها، ثم تستخدم الأسلوب الملائم الذي تستطيع به أن تتعامل مع هذه الشخصية بمهارة وحرفية شديدة، وهذا يحقق لك مزيدا من التواصل وزيادة المحبة عند الغير.

فعليك أن تعلم أن الله تعالى قد منح كل إنسان مهارة معينة في جانب ما، فلا تستغبِ مَن أمامك، ولا تحاول أن تُحقّر من شأنه، حتى وإن بدا لك غير مساوياً لك في الذكاء أو الثقافة والمعرفة، فأنا مؤمن جداً بالمثلين القائلين (يوضع سره في أضعف خلقه) و(ما يقع إلَّا الشاطر).

فعامل الناس بتوازن شديد، واصبر حتى يأتي مَن أمامك بما عنده، فتتخير السلاح المناسب لمنازلته، فمنهم من يأتي بالحجة، ومنهم من يأتي بالعاطفة، ومنهم من يأتي بالحكمة، ومنهم من يأتي بالحيلة، ومنهم من يأتي أيضاً بالغباء.

المهم ألا تحاول أن تسيطر على مَن أمامك بقوة هذا السلاح، ولكن اجعله ينجذب إليك في هدوء شديد، حتى ترمي عليه خيوط الاحتواء والاستيعاب بحيث لا يفكر لحظة أن يخرج من هذه الدنيا الجديدة عليه.

من تجاربي

في يوم من الأيام دعاني أحد الأصدقاء إلى حفل زواج أخيه، وكان الحفل بمكان راقي بأحد فنادق القاهرة.

ذهبت أنا وصديقي، وفي طريقنا جاءني اتصال تليفوني من أحد الأصدقاء، قد سبقنا إلى هناك ليزف لنا خبراً سعيداً بأن الحفل يحتوي على بوفيه مفتوح.

ما أروع هذا الخبر!

كل ما نشتهيه سيكون أمام أعيننا، وما علينا إلا الاختيار، قررت على الفور أنا ومن معي أن نتوقف عن تناول أي طعام حتى تحين لحظة البوفيه المفتوح، وهناك نأكل ما نشاء من الأطعمة.

وصلنا الحفل بسلامة الله، وبدأت الطبول والأغاني والتهاني، ونحن لا يعنينا أي شيء من هذا، كل ما نفكر فيه هو البوفيه المفتوح، وما سنتناوله من المحمّر والمشمْر، والمشوي والمقلي والمسلوق وغير ذلك.

بفضل الله وحمده حانت اللحظة الحاسمة، أخذنا مقعدنا وأتى صديقي بكل ما اتفقنا عليه من الأطعمة، وجاء الدور علينا لنأكل.

لقمة من هنا، وأخرى من هناك، شعرت بالشبع سريعاً فتوقفت، وظل صديقي يصرخ، لم تزل هناك أطباق باقية كما هي، أكمل، إنه موقف لن يتكرر،

فقلت له: لن أكمل، وراءنا سفر طويل في العودة، وأنا لا أحب دخول الحمامات العامة.

توقفت أنا، وأكمل صديقي الطعام، كنت أشعر أنه قد شبع، ولكنه يرغم نفسه على تناول المزيد من الأطعمة.

انتهى الحفل وذهب صديقي إلى حمام الفندق، ثم بدأت رحلة العودة، وما هي إلا مجرد دقائق من ركوب السيارة إلا وبطن صديقي أخذت تضرب وتقلب، توقفت السيارة عند أقرب حمام، عاد صديقي ولكن به ألم شديد يشعر به في معدته، توقفنا مرة أخرى عند أقرب صيدلية، وحتى لا أطيل عليكم كانت عودة في منتهى القسوة،

ظل هذا الموقف عالقاً في ذهني حتى عرفت الإنترنت وما عليه من أشخاص تختلف ظروفهم من شخص لآخر، منهم الثري الذي يستطيع أن يفعل بأمواله أي شيء،

ومنهم متوسطي الحال مثلي، ومنهم الفقير الذي يتمنى المال حتى يحقق رغباته.

لكن الشيء العجيب هو ذاك العامل المشترك بين معظم هؤلاء جميعا عدم الرضا

بواقع الحياة التي يعيشونها، الثري يذكرني بحالنا ونحن في البوفيه المفتوح جميع الأطعمة أمامه، حالة من اثنتين: إما أن يكتفي بمتع الحياة بما يوافق طاقته كما فعلت أنا في البوفيه، أو أن يلتهم من المتع ما يزيد عن طاقته مهما ترتب على ذلك من مشكلات أو أمراض كما حدث مع صديقي بعد البوفيه.

الأول لا يشعر أنه تمتع، والآخر جاءه ما يفسد متعته.

أما متوسط الحال والفقير فمعظمهم يطمح إلى ما هو أفضل، وبالتالي هناك أيضا حالة من عدم الرضا.

في نهاية الأمر تلك الحالة وجدتها على معظم أصدقائي بمختلف ظروفهم المادية،

الكل يعاني وإن اختلفت المعاناة من شخص لآخر.

ظللت أفكر في هؤلاء وحادثة البوفيه المفتوح في رأسي، فقلت العلاج الوحيد لهذا كله هو الرضا.

يجب أن ترضى بما أنت فيه، ولا تظن أن من تعتقد أنهم أفضل منك مالاً وولداً لا يعانون، الكل يعاني، اللهم إلا من ارتضت وقنعت أنفسهم بما هم فيه.

السلم والثعبان

إن حياتنا على هذه الأرض أشبه بلعبة السلم والثعبان، تلك اللعبة البسيطه التي كنا نلعبها ونحن صغار، وهي عبارة عن مربع يحتوي على أرقام من واحد إلى مائة، ويتخلل هذه الأرقام سلم إذا أتى عليه الزهر فتصعد إلى فوق، وهناك ثعبان إما أن يقع الزهر على ذيله فتهبط إلى الأسفل، فمواقفنا وسلوكياتنا هي الزهر، فإما أن تصعد بك وإما أن تهبط بك، لكن المسيء في ذلك هو أن الأمر كله يخضع إلى الحظ والمقامرة وليس إلى الاجتهاد والكفاح، وقديمًا قال الشاعر:

بقـدر الكدّ تُكتسب المعـــالي ومـــن طلب العلا سهــر الليالي

ومــن طلب العلاء بغير كدٍّ فقد أضاع العمر في طلب المحال

فما أراد الشاعر إيصاله في هذه الأبيات يخالف تماماً ما نراه ونشاهده في عصرنا الحاضر، حيث اختلفت المعايير وأصبح الأمر يخضع للكوسة والرشوة، واتِّباع مبدأ الغاية تبرر الوسيلة، ومع علمنا الشديد بتلك السلوكيات السيئة إلا أننا نسلكها كي نصل إلى هدف ما، فالأبُّ على استعداد أن يضحي بقدر من المال في سبيل توظيف ابنه، والمواطن على استعداد أن يدفع قدرًا من المال لكي يُسَيّر أمرا من أموره، والمجتمع على استعداد أن ينافق ذوي رؤوس الأموال لكي ينتفع، والأمر واضح للعيان، حتى في مدينتي الصغيرة التي أعيش فيها، أرى الكثير يلتف حول الأغنياء أو من ظهرت عليهم النعمة فجأة دون أن يكون لها مقدمات، وأقف متعجبًا كيف يسمح هؤلاء لأنفسهم ومنهم من هو على قدر كبير من العلم والمكانة أن يتحول إلى ذيل أو تابع يرائي وينافق! ؟

وكأني أستحضرُ قصة جحا عندما كان جالسًا على أحد المقاهي وحوله مجموعة من الناس، فقال أحد الأغنياء: عندي فأر يأكل الحديد، فصدقه الجميع على الفور، فقال جحا: عندي فأر يأكل النحاس، فكذبه الجميع على الفور، فقال: لماذا تكذبوني؟ فهل هناك فأر يأكل الحديد؟ نعم إنه المال، وقد قال الشاعر قديمًا:

رأيت المال يستر كلَّ عيبٍ ولا تخفى مع الفقر العيوب

فهل سيأتي اليوم الذي نخلص فيه من لعبة السلم والثعبان، ويكون الأمر عبارة عن مقدمات ونتائج وليس حظًّا أو كوسة؟ أرجو من الله ذلك.

لن أعيش في جلباب أحد

إن من أروع الأشياء التي يفتخر بها الإنسان طوال حياته هي شخصيته، مهما كانت سلبياتها أو إيجابياتها، المهم أنها شخصية مستقلة عن شخصيات الآخرين.

ولعلّ من أبرز الأمور التي كانت تسبب لى إزعاجاً وسخطاً منذ الصغر هي محاولة البعض أن يجعلني صورة من شخص آخر، مهما كانت عظمته أو مكانته العلمية والأدبية، وبالطبع كانت من أوائل تلك الشخصيات شخصية عميد الأدب العربى (طه حسين)، تلك الشخصية التي لا ينكر أحد قيمتها العلمية مهما اتفقنا أو اختلفنا معها، لكننى دوماً كنت أحاول أن أشكل شخصيتى بنفسى بعيدًا عن تأثير الآخرين، فالشخصية هي التي ترقى بالأمم، وتحقق الحريات، وتجعل الاختيار صحيحًا، ومبنيًا على أسس وطنية صحيحة، لكن التبعية والطاعة العمياء والانسياق خلف جماعة أو أشخاص فهذا من شأنه أن يعدم في الإنسان نعمة العقل.

فكيف أحاور شخصًا لا يتكلم بلسانه، ولا يكون رأيه من تلقاء نفسه؟ ولعلّ ذلك السبب الأكبر فيما نحن فيه الآن في مصر، فلا أكاد أن أتحدث مع آخر إلا ويقول: قرأت لفلان، وسمعت من علان، ويظل يسرد لى كلامًا سمعه من غيره، فأين عقلك أنت؟ وأين رأيك أنت؟ وأين مقدرتك على الربط بين الأمور؟ خاصة أنك تعيش الأحداث وتعانى نفس المعاناة، بل أكثر من الشخص الذي تنقل عنه، إننا نعيش مأساة حقيقية اسمها التبعية.

فلماذا لا نجتهد مع أنفسنا ؟ فقد نخطئ مرة لكن لن نخطئ كل مرة، ولعلّ الغرب قد ضرب المثل الأكبر في ذلك؛ فالمواطن البسيط يمتلك شخصية قوية أمام رئيس الدولة، ويستطيع أن يقول له: لا، أما نحن، فنبقى الأمة الوحيدة التي حملها الله تعالى مسئولية ظلم حكامها، كما قال عن فرعون: "فاستخف قومه فأطاعوه".

فالمولى سبحانه وتعالى لم يحمل المسئولية لفرعون بل حملها للشعب حيث الطاعة العمياء والدخول والعيش في جلباب الآخرين.

ولذلك فمنذ بداية حياتى تعمدت أن أتعامل مع الناس بشكل معين، فليس لأحد احترام عندى إلا من خلال تعامله معي، حتى لو اجتمع الجميع على حُسن أخلاقه، لكن الغريب أن تجد من الناس نوعيات يحاولون أن يفرضوا عليك احترام الآخرين من داخلك وهذا أمر لا يعقل، هل يريدون أن أكون منافقاً، أقول ما ليس بداخلي؟ هل يريدون أن أكذب عليهم وعلى نفسي؟ لن أكون هكذا مهما حدث.

ومن نِعم الله عليَّ أن حباني المحافظة على أصدقائي، إذ لا يمكن أن أضحي بهم مهما كانت الأسباب، ومهما كثرت حولهم المكائد والألاعيب التي لا تُجدي نفعاً، فالذي يدفعك للتضحية بصديق اليوم، من السهل أن يضحي بك غداً.

فالأصدقاء نعمة من الله أنعم بها على بني الإنسان، وإذا خلق الله من يدرك حقيقة تلك النعمة فإن هناك أُناس يقدرون معناها، ومع مرور الأيام تأكد أنه من كان غامضاً عليك بالأمس سينكشف لك اليوم؛ فكثرة الحديث وطول المعاشرة تكشف لك ما خفي من بواطن البشر، وكما قال الشاعر:

ولا تحكم بأول ما تراه　　　　فإن الفجر أوله كذوبُ

ومعنى هذا لا تحكم على إنسان من المرة الأولى، ولا تأخذ عنه انطباعا سواء أكان حسنا أم سيئا إلا بعد وقت طويل، فمن المؤكد أن الزمن مع كثرة حوادثه ومساوئه سيكشف لك الصديق الحقيقي من غيره، لكن أهم شيء في النهاية المحافظة على شخصيتك، فلا تجعلها خاضعة لتوجيهات الآخرين مهما كانوا، وأينما كانوا، ونهاية قولي سأفعل ما أحب وما أريد.

لَـنْ أَعتْـرِف

(لن أعترف) جملة جميلة يرددها الإنسان دائماً عندما يريد شخص أن يكتشف ذاك الجانب المظلم الذي يحاول إخفائه عن بقية المحيطين حوله، فما من شك أن لكلّ واحد منا جانباً مظلماً يعيش معه، ويغوص فيه بخياله إلى أُفق بعيد، وأما عن الجانب المظلم في حياتي فهي علاقتي بالمرأة، تلك العلاقة التي كنت دوماً حريصاً على إخفائها مهما كانت الأسباب والظروف، إلا أنني على يقينٍ كامل أنه إذا انكشف هذا الجانب أمام الآخرين فسوف تكون نهاية تلك العلاقة حتى ولو كانت من طرف واحد.

فمع كل مرحلة من مراحل الإنسان من المؤكد أن تكون هُناك امرأة يرى من خِلالها الواقع بشكل آخر، حيث تكون بمثابة الماء الذي يُطفئ نار الحياة، والتي نعاني منها في كثير من جوانب حياتنا، كذلك هي بمثابة المُلهم والباعث في إيقاظ بواطن النفس وأحلامها، والتي نحاول دوماً ترجمتها إلى كلمات أو نظرات أو أحاسيس من الممكن أن تُعطي الطرف المقابل ولو إشارة عن ذاك الشعور، لكن لكلّ شخص قدرا من الشجاعة، فهذا يبوح مباشرة، وهذا يُلمح تارة، وذاك يكتفي بإرسال النظرات والعِبارات، أما أنا فلا أُنكر أنني أتمتع بقدر هائِل من الجُبن والخَوف، وهما صِفتان يحولان بيني وبين تلك التي احتلت مكاناً بارزاً في قلبي وعقلي معاً، أو نالت قدراً كبيراً من اهتمامي.

مبرر ذلك هو أنني أخشى دائماً رد الفعل سواء بالإيجاب أو السلب، فإنني لا أعترف بعلاقة ليست لها نهايات حاسمة أو حقيقية، من شأنها أن تحول تلك العلاقة إلى رباط مقدس يظل قوياً مهما كانت الصعاب وقسوة الحياة، لكن أن تكون تلك العلاقة متعة وقتية، أو إرضاء لغرور هوى النفس، فهذا ما تأباه عفة النفس والضمير الحي، لِذا فإنني أرى في الصمت وعدم الاعتراف وسيلة جميلة أستطيع من خِلالها المحافظة على وصالي مع الطرف الآخر، وأقتبس مِن الحديث معه أشياء أُمتع بها نفسي عندما أخلو معها دون تهور أو شرود من شأنه الإطاحة بعقلانيتى واتزانى الذي لن أفرط فيه أبدا، فلا أملك في النهاية إلا أن أقول لن أعترف.

صحة نساء مدينتي بين الماضي والحاضر

شيء يستحق الوقفة!!!

لعلّ ما أكتبه لا ينطبق فقط على نساء مدينتي، بل يشمل معظم نساء المدن والقرى الموجودة في مصر، فأكاد أجزم أنه ما من مكان أذهب إليه سواء في العمل أو عند الأقارب أو حتى في البيت إلا وأجد النساء تشكو مرّ الشكوى من تدهور الصحة وعدم القدرة على القيام بالأعمال.

وفي يوم من الأيام أثناء شكوى إحدى الزميلات بالعمل تذكرت على الفور صحة النساء في مدينتي مذ كنت طفلاً، وشاهد عيان على ما كانوا يتمتعون به من أشياء ربما لا يصدقها البعض.

فتخيلوا أن المرأة في مدينتنا كانت تلد وتقوم بعد الولادة مباشرة في نفس اليوم لتكمل أعمال البيت من خبيز وغسيل وطبخ وغير ذلك.

كذلك عندما كانت تشح المياه في البيوت كانت توجد ما تعرف بالحنفيات العامة التي يذهب إليها النساء تحملن على رؤسهن جراكن المياه مملوءة، وتقطعن في ذلك مسافات طويلة دون إرهاق أو تعب.

بل أتذكر عندما كانت تجلس المرأة أمام إناء الغسيل المستدير "الطشت"، وكانت تغسل الملابس على يديها في وقت كانت تنعدم فيه الغسالات بشتى أنواعها، وكانت تظل بالساعة والساعتين.

والأكثر من ذلك أن المرأة كانت في مدينتي تذهب إلى الحقل كي تساعد زوجها الفلاح، بل كانت تمضي الوقت الطويل، وهي تمسك بالغربال من أجل تنقية الحبوب من الطوب، وغير ذلك .

تلك هي كانت مقدرة صحة المرأة في مدينتي، فما بالكم الآن في وقت تقدمت فيه وسائل الراحة والأشياء التي أصبحت توفر على النساء ساعات طويلة من العمل! ؟

لكن بالرغم من هذا نجد صحتهم في تدهور وشكوى مستمرة، فالمرأة عندما تلد الآن نجدها تظل نائمة بالشهر والشهرين، وعندما تصعد دورا أو دورين ينقطع نفَسها بشكل عجيب، وكأنها كانت في حلبة مصارعة، وإذا ما وقفت في المطبخ ساعة أو ساعتين تصرخ في وجه زوجها عندما يرجع من العمل قائلة: ارحمني مش كفاية عملالك خدامة طوال اليوم.

سبحان الله وكأن صحة النساء في مدينتي، وغيرها من المدن قد انعدمت فيها البركة.

ولا أريد من أحد أن يقول لي انتشار الأمراض والأكل الملوث وغير ذلك، فالنساء قديماً كانت أولى بكل هذه الأمراض، فلكم أن تتخيلوا في وقت لم توجد فيه الشامبوهات والمنظفات ولم تتوفر تلك الأدوية المتقدمة، لكن أعتقد أن السر في كل هذه الأمراض التي تشهدها النساء في مجتمعنا الآن هو الكسل وعدم بذل المجهود، وذلك من الصغر فتلك ضريبة الرفاهية واختصار الوقت واللجوء إلى الراحة، أدعو الله أن يَمُنَّ عليَّ بامرأة صحتها من حديد تعدل صحة محمد علي كلاي في عز مجده.

المدن المصرية وضياع الهوية

الهوية هي الطابع الذي تميز كل مكان عن غيره، وتعد مصر من الدول القليلة التي تتميز مدنها بطابع خاص، بحيث تكتشف هوية مَن أمامك مِن خلال هذا الطابع، فمدن بحري أو الدلتا تتميز بخصائص محددة في طريقة الكلام، أو شكل المناسبات سواء كانت دينية أو اجتماعية، فلنا هنا في المنصورة أغاني شعبية لم أسمعها إلا هنا، كذلك لنا بعض العادات والتقاليد في المآتم أو الأفراح.

وإذا ما ذهبنا إلى مدن القناة فبالتأكيد لا يخفى علينا شخصية سكان تلك المدن، سواء من خلال اللهجة والتي حاول البعض إبرازها على لسان أبو العربي، كذلك أغاني السمسمية التي تلازمهم في الأفراح والأعياد الوطنية، فضلاً عن رقصاتهم المميزة.

وأما الإسكندرية فهي المعدة التي هضمت الكثير من الوافدين من شعوب البحر الأبيض المتوسط، فكانت نتيجة هذا الهضم الشخصية الإسكندرانية الجميلة التي نعرفها من طريقة الكلام أو الملبس أو من خلال أكلاتهم الخاصة، أو من خلال بعض العادات والتقاليد في مناسباتهم الاجتماعية.

وبالطبع فإذا ما ذهبنا إلى الصعيد فإننا نجد العادات والتقاليد التي نتفق مع بعضها ونخالف البعض الآخر، لكنها في العموم تميز هذا الإقليم الواسع الذي يتميز بطبيعة خاصة، تختلف بشكل كبيرعن بقية أقاليم مصر سواء من خلال التشدد في بعض الأمور كالأخذ بالثأر، أو وضع الكثير من القيود على المرأة.

كذلك هناك بلاد النوبة والواحات التي رأيت فيها بعض الأشياء الغريبة والعجيبة التي تمارس في الأفراح أو المآتم ولا توجد في أى مكان أخر.

لكن بالعموم فإن تلك الطبائع أو السمات لتلك المدن أراها في السنوات الأخيرة قد أخذت تتلاشى شيئا فشيئا، وأصبح من الصعوبة أن تميز سكان كل إقليم، فالهوية قد أخذت في الاختفاء، ولعلّ ذلك راجع إلى ظهور وسائل التكنولوجيا وانتشارها في مصر بشكل جعل الجميع يلتف حول أسلوب واحد، سواء في طريقة الكلام أو الملبس أو المأكل، ولعلّ السبب في ذلك هي سرعة وسائل الاتصال، سواء من خلال الصورة أو الصوت فكل إقليم يحاول تقليد الآخر في الكثير من الأمور، فحدث ما يشبه عملية الذوبان، وقد يكون في هذا بعض الميزات، لكنه على جانب آخر يحمل بعض العيوب، حيث كانت تلك السمات الخاصة تعطي إثراءً وزخماً للهوية المصرية التي كانت تتأصل في أعماق الكثير من المصريين.

لكن الآن طغت علينا هويات أخرى وأيدلوجيات غريبة وجديدة على مجتمعنا، مما أثر بالسلب على تلاشي أشياء كثيرة كنا نفتخر بها بين شعوب العالم، لكن المؤكد أن هذه الأرض التي نحيا عليها لا تزال بخير فإننا سنعود يوماً إلى أصالتنا وهويتنا التي تعودنا عليها.

أنا والجماعات الإسلامية حالة من التنافر

سأحاول عدم تكرار كلام قاله الآخرون كثيراً، ولست من منتهزي الظروف الحالية كي أنتقد تلك الجماعات بل هو رأيي الذي قلته منذ زمن طويل.

في بداية الأمر يجب علينا أن نقر حقيقة واضحة تكمن في عدم الربط بين الثوابت الإسلامية وبين تلك الجماعات، فليس الانضمام إليها من سبيل الواجب، وليس تركها من سبيل الحرمة، فما هي إلا جماعات ذات هدف سياسي، تستغل عاطفة العوام الدينية للوصول إلى مصالح خاصة وأهداف شخصية.

وبالطبع أتحدث عن تلك الجماعات التي أقحمت نفسها في عالم السياسة، ولا أقصد الجماعات ذات الهدف الدعوي بعيدا عن السياسة وغيرها.

مع الأسف الشديد إن من يراجع تلك الجماعات وتاريخها يستطيع أن يضع يده على حقائق ثابته تكمن فيما يلي: إن هذه الجماعات كانت في معظم الأحيان مجرد أداة في يد الحكومات الغربية، استطاعت من خلالها أن تنفذ مخططاتها كما حدث مع القاعدة والتي ساهمت في تكوينها الولايات المتحدة عقب غزو الإتحاد السوفيتي لأفغانستان.

كذلك نجد أن هذه الجماعات قد عقدت كثيرا من الصفقات السرية مع الحكومات العربية والتي كانت تدعي في الظاهر مناهضتها لها.

إن المتأمل أيضا في سلوكيات تلك الجماعات يجد قسوتها الشديدة ولهجتها العنيفة مع كل من ينشق عنها، كما حدث مع عبد المنعم أبو الفتوح أو محمد حبيب القياديين البرازين في جماعة الإخوان، إن الكثير من أعضاء تلك الجماعات له مشاريع اقتصادية ومصالح مشتركة في البلاد الغربية، والتي يقيم معظمهم فيها، ويمارسون نشاطهم بكل حرية بعيدا عما تعلنه تلك الدول من مقاومة الإرهاب والتطرف، ولعلّ أوضح مثال على ذلك بريطانيا والتي تأوي أكبر عدد من أعضاء الجماعات الإسلامية.

إن من ينضم لتلك الجماعات يجب أن يكون لديه استعداد مسبق أن يقيد تفكيره، وأن يجعل حريته في الرأي مرتبطة بآراء كبار تلك الجماعة التي ينتسب إليها، وأقصد هنا التبعية وتنفيذ الأمر حتى لو لم يكن متفقا مع عقلية المأمور به.

لكن النقطة الأخطر هنا والتي يجب التنبيه عليها هو ذلك الخلاف الواضح والكراهية الشديدة بل الحرب المعلنة بين تلك الجماعات فيما بينها وكأن كل جماعة منهم تريد أن تكون على الساحة بمفردها، متناسين قول الله تعالى: " واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تتفرقوا ".

وليس أدل على ذلك من تلك الكراهيه التي رأيناها عقب ثورة 25 يناير بين جماعة الإخوان والجماعة السلفية.

كل هذه الحقائق جعلتني أنفر من تلك الجماعات، وإن كنت أحب بعض أفرادها لكن أبغض فكرة الجماعة، وأبغض تلك الشعارات المزيفة التي ما هي إلا طُعم يحاول به هؤلاء اصطياد عقول البسطاء وعواطفهم، وأتذكر هنا وصية أحد أساتذتي الذي قال لي في يوم من الأيام: لقد انضممت إلى الجماعات الإسلامية سواء منها من يدعو إلى العنف أو من تمارس نشاطها بشكل سلمي، لكن اكتشفت في النهاية أن الجميع يسعى إلى مصالح خاصة وأهداف دنيوية، ليست لها علاقة بالمصالح العليا للإسلام والمسلمين، ولعلّ كل ذلك جعلني مع الجماعات الإسلامية في حالة من التنافر.

صلاتي وكوب الكابتشينو

هناك عادة ظلت تلازمني سنوات طويلة، وهي أن أصنع لنفسي خمسة أكواب من الكابتشينو كل يوم.

قد يسأل سائل: لماذا العدد خمسة؟

أقول إنه بعدد الصلوات الخمسة التي أصليها كل يوم، وذلك من كسلي الشديد الذي يسيطر عليَّ في عملية الذهاب والمجيء، فأستغل الفرصة حينما أقوم للصلاة بعمل كوب كابتشينو، أضع الماء في السخان والمحتويات في الكوب، وأتركه يغلي وأقوم لأصلي.

لكن لاحظت في الفترة الأخيرة أنني أثناء الصلاة أركز في أمرين: أمر الصلاة وأمر الماء الذي يغلي في الكوب وهل انتهى من الغليان أم لا؟

فقلت في قرارة نفسي: ما كل هذا التهاون في لقاء المولى سبحانه وتعالى، عندما يستعد الإنسان لمقابلة حبيبة أو صديق عزيز فإنه يوظف كل اهتمامته ويهيئ نفسه نفسياً وبدنياً لهذا اللقاء، لكن عندما نكون بين يدي المولى سبحانه وتعالى نجد عقولنا تذهب إلى أكثر من اتجاه.

بيني وبينكم عدت لرشدي وتوقفت عن تلك العادة السيئه، لعلّ الله يغفر لي ما قد مضى.

فمع كل يوم تثقل هموم الحياة، ويعز على النفس أن تجد الكذب من حولك، وتتلقى الصدمة تلو الأخرى من أشخاص كنت تضع فيهم جُل ثقتك.

هموم كالجبال يشعرالإنسان أنه يحملها على عاتقه، ويبدو أن حالتي مع الصلاة هي حالة تسيطر على معظم الناس؛ فأتذكر هذا الموقف في صلاة الجمعة، بينما كنا ساجدين على الأرض وارتطمت قدم من أمامي برأس من يصلي بجانبي، فما كان من هذا الشخص إلا أن ظل يسب ويلعن فيه أثناء السجود، وكأنه نسى تماماً أنه في وضع الصلاة.

ناهيكم عن الحوارات الجانبية التي تحدث أثناء خطبة الجمعة، فهناك مَن يتحدث عن غلاء الأسعار، ومن يتحدث عن السياسة، ومن يتحدث عن الرياضة، ولم يعد أحد يلتفت إلى ما يقوله خطيب المسجد.

إني على يقين أن الله رحيم بنا نحن العباد مهما كانت أخطاؤنا، ولنا أن نتصور أن السماوات والأرض والجبال تلك المخلوقات العملاقة قد رفضت بشدة أن تحمل مثل هذه الفريضه أقصد الصلاة، لأنهم يعلمون جيداً عدم قدرتهم على تحمل تلك الأمانة.

بينما المخلوق الوحيد الذي قبل هذه المهمة هو الإنسان المسكين الذي تعصف به الظروف في كل وقت وحين.

فقال الله تعالى " إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا "

فندعو الله أن يحمينا من سوء عاقبة أنفسنا، وأن يغفر لنا ذلاتنا، وأن يتوب عليَّ من عمل الكابتشينو.

رحلة الفأرين زجزج ومأمأ

رحلة الفأرين زجزج ومأمأ في إحدى البلاعات، وُلد فأران من عائلتين مختلفتين، فجمعتهما صداقة عميقة وصلت إلى حد التوأمة، فعاشا وترعرعا تحت سطح الأرض حتى اتخذا قرارا بأن ينطلقا سويا إلى عالم الأضواء والعيش وسط البشر، لكن كانت طبيعة كل واحد تختلف عن الآخر.

فالفأر زجزج كان طموحًا مغامرًا، يريد رفاهية العيش مهما كان الثمن، ومهما كانت الطريقة.

أما الفأر مأمأ فقد كان قنوعًا يرجو الأمان قبل كل شيء، ومن هنا اختلف طريق الاثنين، واختلفت الوجهة، فزجزج انطلق حيث قصور الأغنياء، أما مأمأ فانطلق إلى الحواري والحارات الشعبية.

وبالفعل تمكن زجزج من الوصول إلى أحد قصور الأغنياء، واستطاع أن يحفر بحديقتها جحرا صغيرا ليكون بيتا له، وأخذ يدرب نفسه على استخدام الحيل والهروب من القطط المدربة بداخل البيت، فضلا عن الأجهزة الحديثة التي ترصد الفئران، فكان ينجح كل مرة في الوصول إلى المطبخ وأكل ما فيه من بواقي الطعام من اللحم والفاكهة حتى ضَخُم جسمه، وأصبح بصحة ممتازة.

وأما الفأر مأمأ فقد استطاع أن يتسلل من شباك الموظف البسيط شعبان، وأن يدخل باب المطبخ الذي كان ضيقاً جدا، فوجد زوجته تقوم بعمل الطعام، فدخل بين رجليها، فصرخت بشدة وطلبت من زوجها وأولادها الخمسة القضاء على الفأر، لكن الزوج رد قائلاً: ليس معي مالٌ لأشتري به مصيدة أو سما قاتلا للفأر، ونحن لا نملك من القوة البدنية ما يجعلنا نجري خلف الفأر في أي مكان.

سمع مأمأ هذا الكلام، فشعر بالسعادة والأمان، وتعهد ألا يأذي أهل هذا البيت المسكين، فيكفيه أن يتناول ما تبقى من طعامهم البسيط كل يوم، لكن مع توالي الثورات المصرية، وتناقص المرتبات بحجة التضحية في سبيل مصر، أخذت الحالة الاقتصادية لشعبان تسوء أكثر وأكثر، ولم يعد هناك بواقي تكفي حاجة مأمأ، فأصيب بالأنيميا والهزال، وتدهورت صحته بشكل كبير.

حتى جاء يومٌ أراد زجزج زيارة صديقه مأمأ الذي لم يره منذ وقت بعيد، فعندما رآه زجزج بتلك الحالة السيئة حمله على ظهره من أجل أن يذهب به إلى أقرب طبيب، وأثناء خروجهما من الباب نظر إليهما شعبان قائلاً: ما هذا الذي أراه إنه لشيء عجيب فأر يحمل فأر**!؟**

فقال زجزج: لا إنه فقر أهلك أيها الفقير.

فمضى زجزج حاملاً مأمأ حتى تم علاجه، وأقنعه زجزج أن يذهب معه إلى مسكنه، وأخذ يدربه على استخدام الحيل ضد القطط وضد الأجهزة الحديثة التي ترصد الفئران، وبالفعل استطاع مأمأ أن يتأقلم على الحياة الجديدة، فعرف طريق اللحم والفاكهة وشتى أنوع الطعام؛ فتحسنت صحته، وأخذ جسمه في الانتفاخ، لكنه كان يشعر بخوف كل يوم من تلك القطط ومن تلك الأجهزة.

وفي أحد الأيام أقام صاحب البيت حفلة كبيرة استضاف فيها الكثير من الأثرياء والسياسيين ونخبة من رجال المجتمع، وكانت جميع أنواع الطعام حاضرة، فضلاً عن الخمر والراقصات .

وهنا قرر زجزج ومأمأ أن يرتكزا في ركن معين في داخل الصالة حتى يتمكنا من رؤية كل شيء، وبدأت الحفلة.

وكان مأمأ شديد الانبهار بما يراه، لكن لم يكن الأمر غريبا على زجزج، فرأى مأمأ كيف أن كؤوس الخمر تصنع حالة من السعادة والنشوة لكل من يشربها، وهنا تاقت نفسه إلى شرب شيء منها، فأخذ زجزج يحذره من هذه الخطوة.

لكن مأمأ كان مصممًا، وهنا رأى تلك الزجاجه الكبيرة التي يتم إفراغها في الكؤوس، فجرى على الفور بعيدا عن أنظار الحضور، وقفز فوق الزجاجة حتى سقط فيها وأخذ يلعق ما بها من خمر حتى امتلأت بطنه، وأخذت رأسه تدور، فتمكن من الخروج من الزجاجة لكن في حالة غير الحالة، فأخذ ينظر إلى جميع الحضور، ويهزي قائلاً: وإيه يعني القطط؟ وإيه يعني الحكومة؟ وإيه يعني كل دول؟

ثم قال: يا بلدي بلد العجايب، فيكي العقول تحتار، زرعت فيكي البطيخ طلع البطيخ خيار.

وظل يتراقص أمام الحضور، فاندفع الحضور يجرون خلفه، فأخذ مأمأ يجري، ويجري حتى تمكن من القفز من الشباك والسقوط على الأرض، وقد تكسر عظمه، وأصبح على شفا حفرة من الموت.

فجاءه زجزج وقال له: ألم أقل لك يا صديقي لا تتهور؟ وكانت هذه هي النتيجة.

فقال مأمأ بصوت منخفض: يا زجزج الموت أرحم لي من العيش هنا.

فقد عشت مع شعبان، وعشت مع هؤلاء، ولا يمكن أن تسع تلك الأرض الطيبة هذا وذاك، يا زجزج إلى متى نلجأ إلى الحيل حتى نتمكن من الحصول على الطعام الجيد؟ نحن في تلك البلد نختارالأمان أو الطعام؟

فقال له: يا مأمأ تلك هي الحقيقة، لكن ماذا سنصنع يا صديقي؟

وفي أثناء حوار الاثنين هجم عليهما قطٌ مفترسٌ، فالتهمهما معًا.

نساء لكن أغبياء

لقد أنعم الله - سبحانه وتعالى - على الإنسان بنعمة العقل، حتى يعطيه الفرصة أن يفكر فيما يعرض عليه من مشكلات وأمور، عكس الحيوان الذي يعيش بالفطرة والغريزة.

لكن من عباد الله من لا يقدرون تلك النعمة، ولا يريدون استعمالها، وأخص بالكلام هنا صنفا من النساء قد أعطاهم الله الأسرة الجميلة من زوج وأولاد واستقرار وحب طبيعي غير قابل للزيف والكذب..

وإليكم الحكاية:

حدثتني إحدى الصديقات من أيام أنها تحب شخصا آخر، وقد اكتشفتْ بعد هذا الحب أنها لا تحب زوجها وتريد أن تنفصل عنه وتتزوج بالآخر، وبالطبع سيترتب على ذلك ترك الأولاد، وتفكيك الأسرة، كل هذا والزوجة لم تكن تعاني من أية مشكلة نفسية أو مادية في حياتها.

لكن بعد الحب الجديد اكتشفت أنها لا تعيش في تلك الحياة وأنها ليس لها وجود محسوس، وبالطبع كان ردي في منتهى القسوة والسخرية، فكيف لها في لحظات أن تدمر أسرة بأكملها؟ وأن تحدث شرخا عميقا لا يمكن إصلاحه في علاقتها بأبنائها، وكيف تُفضل حبها الشهواني لحبيبها المزعوم على حب أولادها الفطري الذي لا يضاهيه أي حب آخر في هذا الوجود؟

لكنه الغباء الذي سيطر على عقلها، والمرض الذي سكن في قلبها، ولا أدري كيف يحاول أي رجل أن يقتحم أسرة جميلة محاولاً أن يفسد سعادتها بإغراء طرف من الأطراف بمزيد من الوهم والخداع ؟ !

وما يُدري تلك الزوجة الغبية أن ما صنعه هذا الرجل معها لن يصنعه مع غيرها ؟ كنت أرجو من تلك المرأة قبل أن تخبرني بهذا الكلام أن تأتي بميزان وتزن فيه نتيجة تصرفها من الربح والخسارة، ثم تأتي بعد ذلك لتناقشني قبل أن أكتشف بسهولة عقلها المريض، وقلبها الميت، الذي لا يقدر النعمة التي أنعم الله بها عليها. وكأني الآن أستحضر المثل القرآني في الآية الكريمة " مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ" ، هذه الزوجة ظلت تبني بيتاً وتضع له أركاناً وأسساً، لكن يبدو أن سلوكها وأخلاقياتها وغبائها المستحكم قد جعله بيتاً مثل بيت العنكبوت، ودليل ذلك هذا الشخص الذي جاء ليهدمه في ثانية.

ثم كانت النهاية الطبيعة التي توقعتها منذ البداية أنها خسرت كل شيء زوجها وبيتها وأبناءها، حتى السراب التي تركت كل شيء من أجله، فالعقل نعمة، والغباء نقمة.

ذكاء سيدة إماراتية أعجبني كثيراً

إن أكثر ما يجذبني في المرأة ذكاؤها وحسن تصرفها مع المواقف العارضة، وكم كنت منبهراً بتلك المرأة التي كنت أسمعها في يوم من الأيام على قناة أبو ظبي ببرنامج لفت انتباهي، كان يتحدث عن الخيانة الزوجية وكيفية التعامل معها سواء من الرجل أو المرأة، وكان البرنامج في غاية الواقعية، لأنه كان يقوم على اتصالات المشاهدين الذين يروون تجاربهم مع الخيانة الزوجية، حتى جاءت مكالمة من سيدة إماراتية وكانت في غاية الهدوء، وأخذت تروي تجربتها فقالت: زوجي موظف كبير بالدولة، ولدينا بالمنزل خادمة سيريلانكية، وفي أحد الأيام شعرت بقلق ليلاً فتحسست فلم أجد زوجي بجانبي بالفراش؛ انتظرته قليلاً معتقدة أنه بالحمام، وطال انتظاري دون فائدة؛ فخرجت أبحث عنه فسمعت أصواتاً تصدر من المطبخ، اقتربت بشكل هامس حتي لا يشعر بي أحد، ونظرت من الباب الخلفي فوجدت زوجي يمارس الرذيلة مع الخادمة.

رجعت مسرعةً إلى غرفتي دون أن يصدر مني شيءُ تجاه ما يفعله زوجي، وجاء الصباح وتناولنا الإفطار معًا، ولم أتحدث معه في أي شيء، ثم ذهب زوجي إلى العمل فما كان مني إلا أن اصطحبت الخادمة السيرلانكية إلى مكتب العمل المسئول عنها، وقد أوصيتهم بأن يرجعوها إلى بلادها في الحال، وعندما جاء زوجي من العمل لاحظ عدم وجود الخادمة فسأل عنها، قلت له: لقد لاحظت عليها بعض الأعراض المرضية فأخذتها إلى المستشفي وبعد إجراء الفحوصات عليها أخبرني الطبيب أنها مصابة بمرض الإيدز.

انهار زوجي، وأسرع إلي الغرفة، وأقفل علية الباب، وظل يرجو زوجته بألا تقترب منه، وظل يبكي مستغفراً الله.

وعندما سألته ما بك؟ قال: لا شيء ولكن أريدك أن تسامحيني، وظل زوجي أسبوعاً كاملاً في حالة انهيار نفسي، وكان يبتعد عن كل المحيطين به، حتى قال لي: أريدُ منك أن تذهبي بي إلى المستشفي وتتركيني؛ وبعد إلحاحي عليه لمعرفة السبب، لم يجد زوجي مفرا من مصارحتي، وظل يبكي ويبكي.

وهنا شعرت أنني قد انتقمت لنفسي أفضل انتقام، فصارحته على الفور بأني قد اصطنعت تلك الحكاية انتقاماً لما شاهدته منه ومن الخادمة، فأعجب كل من كان في البرنامج بذكاء تلك الزوجة، وكنت في غاية الإعجاب بتصرفها، وقلت في قرارة نفسي: من المستحيل أن يكرر الزوج فعلته هذه بعد هذا التصرف من السيدة الإماراتية الذكية.

سؤال محير لم أجد له إجابة

قرأت من وقت قصير هذا الخبر الذي صدر عن إحدى المؤسسات البريطانية، والتي تقول أن عشرين ألف رجل في بريطانيا يستعدون للولادة، فهم الآن في الشهور الأخيرة للحمل .. هذا هو الخبر.

وبالطبع أعلم أن الكثير منكم سيتعجب كثيراً من هذا الخبر، لكنه صحيح، وإن كان فيه كثير من المبالغة في الرقم، لكن يجب هنا التوضيح لمفهوم الرجل، حيث إنهم ليسوا رجالاً بالمفهوم المتعارف عليه، ولكنه كما يطلق عليهم في العرف والشرع لدينا (خنثى)، وهو الذي يحمل هرمونات الأنوثة والذكورة معاً مع وجود الأعضاء لكل منهما.

والحق أن الخنثى قد لفتت انتباهي منذ كنت أدرس علم الفقه، وكم كنت متعجباً من أحوالها في الميراث.

لكن المهم هنا هو هذا السؤال الذي لم أعثر له على إجابة إلى الآن:

لماذا الخنثى دائماً تميل إذا ما وقعت في الاختيار أن تكون أنثى لا ذكر؟! وذلك بالرغم من المتاعب والقيود الذي تعاني منها الأنثى في الكثير من الأحيان، خاصة في مجتمعاتنا الشرقية، فنحن جميعاً نعتز برجولتنا، ودائما ما نحاول إثباتها بشتى الوسائل، لكن أن يكون الإنسان في حالة اختيار بين أن يكون رجلا أو امرأة، ثم يفضل أن يكون امرأة، فهذا أمر عجيب!

ولعلّ هناك من القصص الكثيرة ما يدل على ذلك، فهناك الشاب (سيد) الذي نُشر خبره منذ سنوات طويلة، فقد كان خنثى، ثم أجرى عملية، وتحول إلى (سالي)، وتزوج بأحد زملائه.

وهناك القصة الشهيرة التي عايشتُها بنفسي أنا وبعض أصدقائي، إنها قصة (سوسن)، تلك الفتاة التونسية ذات الصوت الجميل الذي يمس القلوب، والتي تعرفت عليها عبر برامج التواصل الاجتماعي، وعندما كنا نجلس أنا وبعض الأصدقاء طلب البعض منها فتح الكاميرا حتى يراها وهنا كانت الصاعقة.

فسوسن عبارة عن وجه رجل، وجسم رجل تبرز فيه العضلات والشعر، وعندما تشككنا في الأمر طلبنا منها بعض الصور، فأرسلت لنا صورا مختلفة لها أكدت ما شاهدناه، صوت أنثى لا يقاوم، وشكل رجل لا يقبل الشك.

وعندما صارحنا (سوسن) بذلك أفصحت لنا عن الحقيقة، فهي خنثى تحمل أعضاء الأنثى والذكر، وهي متواجدة بألمانيا لإجراء عملية جراحية تتخلص فيها من أعضاء الذكورة حتى تصبح أنثى مكتملة المعالم.

وأذكر هنا ذاك الموقف الطريف الذي حدث مع أحد أصدقائنا المغتربين، والمعروف بعشقه الشديد للنساء، أذكر عندما أرسلت له تلك الصورة، وكيف ظل يسخر من وجهها ويضحك ضحكات متتابعة إلى أن جلس معنا، ولم أخبره أن صاحبة هذا الصوت الجميل هي سوسن صاحبة الصورة، ظلت سوسن تغني لصديقي هذا حتى ظلا يتحاوران معاً ساعتين تقريباً، وعندما فرغ من الحديث معها سألته: أين كنت؟

فقال: كنت في عالم آخر من الرومانسية والشجن، كنت مع سوسن.

وهنا ضحكت بصوت عالٍ، وقلت له: هل تعرف من صاحبة هذا الصوت؟ فقال : لا، فأجبته: إنها صاحبة الصورة التي أرسلتها إليك قبل قليل.

وهنا صرخ صديقي، وغضب غضباً شديداً، وأخذ يدعو عليَّ ضارباً كفا علي كف.

لكن أيضاً يبقى السؤال: ما عنصر السحر هذا الذي يدفع هؤلاء المخنثيين إلي الدخول في عالم المرأة المليء بالقيود والرقابة ونظرات المجتمع المريبة؟

سؤال لم أجد له إجابة حتى الآن، ولو أن أحدا منكم يمتلك إجابة هذا السؤال فليأتني بها.

(ذو الرقعتين) القصة التي استوحى منها كتّاب السينما والمسرح

لعلّ من أبرز الأعمال الفنية التي توقفت أمامها كثيراً تلك الأعمال التي تحدثت عن شخصية (المُحَلِّل)، كفيلم زوج تحت الطلب، ومسرحية الواد سيد الشغال، وغير ذلك من الأعمال التي لا أذكر اسمها.

والغريب أن تلك الأعمال تدور حول فكرة واحدة ثابتة، وعندما كنت أقرأ أحد الكتب التي كانت تروى أشياء في عهد الفاروق عمر بن الخطاب، لفتت انتباهي تلك القصة، والتي اكتشفت كيف أن كتاب السينما والمسرح قد استوحوا منها فكرتهم عن شخصية (المُحَلِّل).

وتبدأ هذه القصة مع ذلك الرجل الثري الذي كان يعد من وجهاء قبيلته حين تزوج من ليلى، وكانت امرأة جميلة تنتمي إلى قبيلة لها مكانتها ووضعها عند العرب، لكن يبدو أن الحياة بين هذا الرجل وليلى كانت تمر بفترات من الشد والجذب، مما دفع هذا الرجل إلى طلاق ليلى مرتين، ثم كانت الثالثة التي بعدها لم يعرف الرجل ماذا يفعل حتى تعود إليه زوجته التي يحبها كثيراً، وبالطبع كان الحل الوحيد هو ما أشار عليه بعض الناس به، من الإتيان بمحلل لزوجته ثم يطلقها في اليوم التالى ويعود إليها هو بعد ذلك، وكان من البديهي أن يكون ذلك المحلل من الفقراء المعدمين حتى يسهل الضغط عليه في طلاق ليلى.

وبالفعل ذهب الرجل إلى المسجد ليبحث عن محلل، فوجد متسولا على باب المسجد يرتدى ثيابا توجد بها رقعتين كبيرتين، فكان الجميع يلقبه بذي الرقعتين، وهنا أدرك الرجل أن هذا المتسول هو الشخص المناسب الذي سيقوم بدور (المُحَلِّل)، فاتفق معه على الزواج من ليلى يوماً واحداً ثم يطلقها في اليوم التالى مقابل بعض المال، فوافق ذو الرقعتين، وتم الزواج.

لكن فيما يبدو أن ليلى قد توسمت في ذلك المتسول شيئا كانت تفتقده مع زوجها السابق، فأخذت تهذب من منظره وهيأته، ودار حوارٌ طويلٌ بينهما حتى قضيا ليلتهما في سعادة كبيرة، وحينما أصبح الصباح، أوصت ليلى ذا الرقعتين أن أحداً لو طلب منه أن يطلقها فلا يوافق، وبالفعل دق باب المنزل، فإذا بالزوج السابق يريد من ذي الرقعتين أن يتمم الاتفاق الذي كان بينهما، لكن ذا الرقعتين رفض طلاقها بناء على رغبتها، فما كان من الزوج السابق إلا أن ذهب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وروى له ما حدث فما كان من الخليفة إلا أن أرسل لذي الرقعتين يستحضره، فقامت ليلى بتجهيزه على أكمل وجه من ناحية الملبس والرائحة، وعندما قدم على الخليفة سأله: هل تريد أن تطلق زوجتك؟ فقال: بالطبع لا، فقام الخليفة بصفع الزوج السابق على وجهه وقال له: هذا جزاء من لا يحافظ على لسانه وزوجته، وأمر بيت المال بأن يحملوا ذا الرقعتين من الزيت والدقيق ما يكفيه،

وأكمل حياته مع ليلى هنيئاً مسروراً، تلك هي القصة التي استوحى منها كتاب السينما والمسرح فكرتهم المتكررة عن (المُحَلِّل).

عنتر ولبلب، الرمز والمغزى ورسالة إلى من يهمه الأمر

أثناء مشاهدتي للفيلم الشهير (عنتر ولبلب) المشهور بالسبع أقلام للراحل محمود شكوكو، ولعلّ الكثير منا لا يدرك الهدف الرئيسي من وراء قصة الفيلم، الذي نضحك عليه فقط دون أن نفكر في الهدف من ورائه.

فقصة الفيلم باختصار تحكي عن لبلب بائع الفول البسيط الفقير الذي يحاول أن يجمع مهر حبيبته التي كانت جارته في الحارة، لكن فجأه نزل بالحارة عنتر، ذلك الرجل ضخم الجثة الذي كان يتباهى بقوته وعنفوانه على أهالي الحارة، لكنه أحب لوزة حبيبة لبلب، وقام بتكسير محل الفول، وضرب لبلب المسكين، الذي قرر أن يغادر الحارة نتيجةً لظلم عنتر.

لكن تحت ضغط دموع حبيبته أقسم ألا يغادر الحارة حتى يعطي عنتر سبعة أقلام، وهنا سخر عنتر منه أمام جميع سكان الحارة وقال له: إن استطعت أن تعطيني سبعة أقلام فسوف أتنازل لك عن جميع ممتلكاتي وأترك لك الحارة دون عودة.

وهنا فكر لبلب المسكين كيف يعطي لهذا العملاق سبعة أقلام، حتى رأى أن الحل في الحيلة والذكاء، وفي مواقف متتابعة تمكن لبلب من إعطاء عنتر سبعة أقلام.

وفاز في النهاية بحبيبته لوزة، وتمكن من طرد عنتر خارج الحارة، هذه هي قصة الفيلم باختصار.

لكن أين الرمز والمغزى الذي أراده كاتب القصة؟

الذي يفكر قليلاً يجد أن الكاتب قد كتب هذه القصة أثناء وقوع مصر تحت الاستعمار الإنجليزي، وقد رمز للاستعمار بشخصية عنتر، وللمقاومة الشعبية بشخصية لبلب، أما مصر فهي لوزة الحبيبة، وأراد الكاتب أن يقول أن الاستعمار برغم قوته الغاشمة وسلاحه القوي يمكن التغلب عليه بالحيلة والذكاء مهما ضعفت الإمكانيات التي نقاوم بها.

لكن من المؤكد أن الحق سينتصر في النهاية، وسيزول الظلم مهما طالت مدته، هذا هو الذي أراد الكاتب أن يقوله، وهنا تأتي الرسالة إلى من يهمهم الأمر في وطننا الحبيب، فلعلّ السبب الرئيسي لِما وصلنا إليه الآن هو العند والكبر وعدم تقدير الأمور بعقلانية، بل عدم استخدام الذكاء والحيلة في حل المشكلات، فالكلّ قد اغترَّ بقوته وكثرة من حوله، وظن أن القوة وحدها من الممكن أن تجعله يتغلب على كلّ شيء، وهنا رأينا ما رأيناه من القتل والسجن وفقدان الثقة بين جميع الأطراف.

فالكل يريد أن يكون عنتر الذي يريد أن يستحوذ على كل شيء، ولم يحاول واحدٌ منهم أن يفكر في أن يكون لبلب المسكين، ويستخدم الحيلة لعلّها تصل به إلى ما يصبو إليه.

غزل البنات، من شاشة السينما إلى أعماق النفس

منذ سنوات طويلة انقطعت صلتي تماماً بالسينما المصرية، فلم أعد أتابع شيئا، بل إنني لم أعد أطيق الجلوس أمام شاشة التلفاز من أجل متابعة فيلم أو مسلسل بأكمله، لكن بالتأكيد هناك أشياء يجد الإنسان نفسه مشدوداً إليها رغماً عنه، ومن بين هذه الأشياء هو فيلم غزل البنات.

ذلك الفيلم الذي تم عرضة عام 1949 م، لكنه سيظل خالداً في الذاكرة، وفي عقل كل إنسان يحمل إحساساً عالياً ونفس تتذوق كلَّ إبداعٍ جميل.

فمع بداية الفيلم تجد نفسك بين حالتين مختلفتين: حالة المعلم المسكين الذي تعاكسه ظروف الحياة بالرغم من عقلانيته وثقافته، لكنه دائماً كان يرى أن الحياة قد أخذت منة موقفاً معادياً بلا سبب.

أما المشهد الآخر: فهو ذاك المشهد الذي تتراقص فيه على أنغام وإيقاعات تلك الحالة المليئة بالشقاوة والمرح ورغد الحياة التي تعيشها ليلى بنت الباشا، تلك الفتاة التي ليس لها في الحياة إلا الرقص واللعب والتلاعب بقلوب الرجال، وبين هاتين الحالتين تجد نفسك في حالة معايشة نفسية، فأنت في غاية الحزن والتأثرعلى حالة الأستاذ حمام، وأنت أيضا في حالة من الفرح والنشوة مع شقاوة ليلى وتراقصها مع الإيقاعات المرحة.

لكن ما الذي يحدث إذا ما التقى الاثنان؟ هل سيحافظ الأستاذ حمام على رجاحة عقله ونظرته الواقعية للأمور؟ أم ستتغلب عليه ليلى وعلى مشاعره؟

أعتقد أن الإجابة بديهية، فهناك عامل لا تستطيع أن تقف أمامه حالات النفس وسلوكياتها المتزنة، إنه الحب الذي عندما يأتي لا ترى شيئا غيره، لقد وجد الأستاذ حمام نفسه يتصالح مع الحياة، وأنه قد وُلد من جديد لمجرد معرفته بليلى.

وهنا لم يفكر في الفوارق بينهما، والتي كانت كثيرة، فهناك فارق السن والفارق الاجتماعي كذلك الفارق العقلي، لكن الحب جعل الأستاذ لا ينظر إلى كل هذه الفوارق، وتلك الحالة يعيشها الكثير من الناس عبرالأزمنة المختلفة مهما بلغت درجة ثقافتهم أو رجاحة عقلهم.

وقد رأيناها مع عباس العقاد الذي أحب الفنانة مديحة يسري حباً شديداً، ولم ينظر إلى ما بينهما من فوارق على مختلف الاتجاهات، لكن بالتأكيد هناك لحظة سوف تجعل الأستاذ حمام يستفيق من وهمه وحلمه وخياله الذي عاش معه ساعات جميلة.

كانت هذه اللحظة هي تلك الكلمات البديعة التي غناها محمد عبد الوهاب في أغنيته الخالدة عاشق الروح، خصوصاً عندما قال: بنيت الحب في معبد بنيته بروحي وكياني، وخليت الأمل راهب ملوش عندي أمل تاني، أنور شمعتي لغيري، ونارها

كاوية أحضاني، وأبيع روحي فدا روحي وأنا راضي بحرماني، وعشق الروح ملوش آخر، لكن عشق الجسد فاني.

كلمات جعلت الأستاذ حمام يعود إلى صوابه، ويعرف أن هناك معنىً سامٍ في الحياة اسمه التضحية، وبالفعل يعود حمام إلى سابق طبيعته، وتعود ليلى إلى حبيبها.

لكن لا أخفي سراً، فبالرغم من نظرتي الواقعية للأمور، لكني كنت متعاطفاً أشد التعاطف مع الأستاذ حمام، وكنت أود أن تختلف موازين الحياة، وأن يغيب العقل هنا ولو مرة، وتكون النهاية السعيدة، بحيث يتحول خيال الأستاذ حمام إلى حقيقة وواقع جميل من خلال الفوز بقلب ليلى.

لكن في النهاية لا يصح إلا الصحيح، ويظل الفيلم علامة بارزة من علامات السينما المصرية، حيث اشتبكت فيه حالات النفس المختلفة بين الفرح تارة والحزن تارة والخيال تارة والواقع تارة أخرى.

وبالرغم من الإمكانيات البسيطة في هذا الوقت إلا أن الفيلم قد خرج بصورة مبهرة.

نهر الحب، قصة زواج وفشل زريع

نهر الحب هذا الفيلم الشهير الذي قام ببطولته كلٌّ من فاتن حمامة وعمر الشريف وزكى رستم، وأخرجه عز الدين ذو الفقار.

تُعدُّ قصة هذا الفيلم مترجمة عن رواية غربية بعنوان: (أنا كارنينا) لليوتولستوي، وتتلخص قصته في تلك العائلة الفقيرة التي كان يعمل أحدُ أفرادها عند معالى الباشا، ذاك الرجل الثري الذي يحتل مكانة سياسية واجتماعية هامة في الدولة، وقد استغل الباشا ظروف تلك العائلة المادية من أجل الزواج بابنتهم الفتاة الجميلة التي ضحت بنفسها من أجل أخيها وباقي العائلة، على الرغم من فارق السن الكبير بينها وبين معالي الباشا، وقد أسفر هذا الزواج عن ميلاد طفلٍ صغيرٍ أراد الباشا أن يكون امتدادًا له في محيط المجتمع.

لكن القصة أخذت اتجاهًا آخر، عندما تلتقي الزوجة بأحد الرجال، وتجمعهما قصة حبٍ كبيرة، على إثرها طلبت الزوجة الطلاق كى ترافق حبيبها، وهنا رفض الزوج رفضاً تاماً حتى هدده شقيقها بأن يعلن تلك القصة، وكان الباشا مقبلًا على الانتخابات، فلم يجد مفرا من الرضوخ لمطلب الزوجة، على شرط أن تترك ابنها تماماً ولا تعود مرة أخرى.

وبالفعل وافقت الزوجة، وفي النهاية كانت وفاة حبيبها، وأرادت الزوجة أن تعود إلى ابنها، فرفض الباشا بالطبع، وقام بطردها من البيت.

هذا هو ملخص القصة، لكن بمجرد عرض الفيلم إذا به يسقط سقوطاً زريعاً، ويواجه الكثير من سهام النقد، سواء كان من المتخصصين أو العامة، وما ذلك إلا أن أحدا في مجتمعنا الشرقى لن يتقبل بسهولة فكرة أن يتغلب الحب الشهواني على الحب الغريزي، وهو ما قامت به الزوجة حين وافقت على ترك ابنها من أجل مرافقة حبيبها، كل ذلك بالرغم من التعاطف الذي أبداه البعض مع الزوجة؛ نتيجة لظروف زواجها والتي استغلها الباشا أسوأ استغلال، لكن هذا لا يمنع أننا نعيش في مجتمع له عادات وتقاليد وقيم أخلاقية تربينا عليها.

ومن أبرز تلك القيم هي التضحية، فقد تعودنا من الأم في مجتمعاتنا أن تضحي من أجل أبنائها مهما كانت الظروف أو قسوة الحياة، لكن أن يكون الأبناء هم الضحية فتلك فكرة مرفوضة جُملةً وتفصيلاً، لكن العجيب في الأمر تلك الزاوية الأخرى للفيلم، حيث أن فاتن حمامة كانت في هذا الوقت متزوجة من المخرج عز الدين ذو الفقار الذي قام بإخراج الفيلم، وكانت لهما طفلة تسمى نادية، ويُعدُّ هذا الفيلم أول لقاء بين فاتن حمامة وعمر الشريف، ويبدو أن قصة الفيلم قد انعكست على جميع الأطراف، فبعد عرض الفيلم بوقت قصير طلبت فاتن من زوجها الطلاق، مما أصاب الجميع بشيء من الاستغراب، لكن المقربين من فاتن كانوا على علم

بالسبب، حيث أن الفيلم قد كان سبباً في نشوء قصة حب بين فاتن حمامة وعمر الشريف، وبالرغم من أن الطفلة الصغيرة التي كانت قاسما مشتركا بين فاتن وعز الدين، إلا إن فاتن حمامة قد ضحَّت بالجميع من أجل الزواج من عمر الشريف، وكأنها تكرر القصة في عمومها مع اختلاف الظروف والبيئة، وبذلك كان فيلم نهر الحب قد فشل فشلاً زريعاً على شاشة السينما لكنه كان سبباً في قصة زواج شهيرة بين بطلي الفيلم.

خلى بالك من زوزو، من شاشة السينما إلى ساحة المحاكم

تُعدُّ ثورة 23 يوليو من الثورات التي أخرجت لنا رموزا في شتى المجالات، لكن ما يعنيني هنا هو ذلك الرمز الذي كتب في الثورة أعذب الكلمات وترجمها الملحنون والمطربون، أغاني خالدة لا تزال عالقةً في الذهن، إنه الشاعر العظيم صلاح جاهين الذي رسم بكلماته أبدع الصور لتلك الثورة.

لكن بعد نكسة 1967 م أحس صلاح بمدى الخيبة والإحباط؛ حيث لم يكن الواقع كما تخيل هو، وعبر عنه بأجمل الكلمات، فنراه قد تحول بشكل كامل؛ فخرج علينا بقصة فيلم خلى بالك من زوزو، وقام ببطولته سعاد حسنى وحسين فهمي، وأخرجه المبدع حسن الإمام.

وما أن عُرض الفيلم إلا وانهالت سهام النقد على كاتبه (صلاح جاهين) لِما فيه من هبوط واضح في كلمات الأغاني، وكانت قصة الفيلم تدور حول تلك الفتاة المثقفة المجتهدة في دراستها، لكن كان لعمل أمها كراقصة أثر بعيد في تعرضها إلى الكثير من المعايرة سواء أكان من زملائها أم المجتمع المحيط بها.

وظل الفيلم يعاني هبوطاً واضحاً في دور العرض، حتى كانت المفاجأة حين رفعت الصحفية بهيرة مختار قضية على كاتب الفيلم والقائمين عليه، بحجة أنها هي المقصودة ببطلة الفيلم، فبهيرة مختار هي بنت أول راقصة مصرية تسمى (نبوية مصطفي)، ووالدها البطل الرياضي مختار حسين، وكثيراً ما كانت بهيرة تتعرض لمضايقات من زملائها في العمل أو الدراسة بسبب عمل أمها في الماضي.

ومع ذلك ظلت بهيرة تكافح في الحياة حتى وصلت إلى منصب مرموق في مؤسسة الأهرام، ويبدو أن صلاح جاهين قد اقتبس قصته من حياة بهيرة دون إذن منها، فظلت تلك القضية في ساحات المحاكم المصرية، حتى تدخل كبار رجال الدولة فتنازلت بهيرة بعد إلحاح شديد، ولم يكن يعلم القائمون على الفيلم أن قضية بهيرة ستغير الكثير من الانطباعات التي أوحى بها النقاد عن الفيلم ومحتواه، فإذا به يحقق أكبر إيرادات في دور العرض، ويلقى إقبالاً شديداً من الجماهير، حتى تم تصنيفه في السنوات الأخيرة من أفضل مائة فيلم عربي تم عرضه على شاشات السينما، ولم يكن ليحقق هذا العمل الفني الجميل النجاح لولا تلك القضية التي أقامتها الصحفية بهيرة مختار على القائمين على هذا العمل.

(نوستر داموس) الشخصية الاستثنائية رؤية شخصية

أنا المُسلم الذي لم أعترف يومًا بالسحر أوالدجل أو قراءة الكف أو التنبؤ بالمستقبل، إيماني أن الغيب لله، وهذا يقين بداخلي لا يمكن أن يتزعزع مهما بلغت قدرات البشر في هذه الأشياء.

لكن أرى نفسي أمام شخصية استثنائية وقف عندها التاريخ طويلاً فهي محط أنظار البشر مع بداية كل عام، إنها شخصية المُنجم الفرنسي (نوستر داموس)، صاحب الرباعيات الشهيرة التي تنبّأ فيها بالمستقبل منذ القرن الذي عاش فيه، وهو القرن السادس عشر من الميلاد إلى نهاية العالم، والتي تنبأ بها عام 3797 م.

وُلِد الطبيب والمُنَجِّم الأشهر في العالم ميشيل دي نوسترادام أو(نوسترا داموس) باللاتينية) في ديسمبر من عام 1503م بجنوب فرنسا، وتعلَّم اللغات العبرية والإغريقية واللاتينية، كما قام بدراسة مختلف علوم ما وراء الطبيعة والرياضيات، بالإضافة إلى علم التنجيم الذي اعتمد عليه في التنبؤ بالمستقبل.

بعد وفاة زوجته وابنته في الكارثة التي عمت فرنسا بعد إصابتهما بمرض الطاعون، أخذ نوستر داموس في كتابة رباعياته التي تنبأ فيها بالكثير والكثير سواء في حياته أو بعد وفاته.

لقد كتب التنبؤات بشكل مقاطع شعرية من أربعة أبيات مبهمة المعاني، ومليئة بمختلف المصطلحات من لغات متعددة، مثل: اللاتينية والبروفنسالية والإيطالية وغيرها.

ولقد احتوى كتاب (القرون) على بعض التنبؤات من ستة أبيات شعرية، وسماها (السداسيات) وأخرى سماها (الإنذارات).

وقد استعمل طريقة (الجناس التصحيفي) أي: تغيير أماكن الحروف في الكلمة أو حذف أو تغيير حرف أو حرفين منها أو استخدام الأسماء القديمة والمنسوبة للمدن والدول التي كان يعنيها في تنبؤاته، وذلك لإخفاء المعنى عن العامة من الناس، ولقد قام بكل هذا حتى لا يقع في قبضة محاكم التفتيش التي كانت تحرق كل من يدّعي بمعرفته الكهانة والسحر.

ولقد ساعدته واستعانت به الملكة كاترين دي مديتشي ملكة فرنسا، مما ساعده في نشر كتابه، دون خوف من محاكم التفتيش، ولكنه أبقى على الترميز فيه واستمر في البلاط الفرنسي إلى أن مات سنة 1566 ميلادية.

ولعلّ من أبرز ما تنبأ به وتجسد على أرض الواقع:

* مقتل الملك هنري الثاني.. تحدثت نبوءة لنوستراداموس عن شبل يهزم أسدًا في أرض المعركة، وعن قيام الشبل بثقب عين الأسد مخترقًا قناعه الذهبي؛ مما يتسبب في موت الأسد ميتة مؤلمة.

وبالفعل تحققت هذه النبوءة بعد مرور ثلاث سنوات على كتابتها، حيث لقي هنري الثاني ملك فرنسا (الأسد) حتفه على يد نبيل ولاية مونتجمري الأصغر منه سنًا (الشبل) بعد مبارزة بينهما، اخترق رمح النبيل لخوذة الملك، واستقر خلف عينه ناحية المخ.

* ميلاد هتلر.. ذكر نوستراداموس في نبوءاته شخصًا يُدعى "هِستر" فتوقع أن يولد غرب أوروبا "ألمانيا تحديدًا" لأبوين فقيرين، وقال إنه سيستطيع إغواء جيش كبير، مستعينًا بمهارته الفائقة في الخطابة، كما أشار إلى أن شهرته ستمتد إلى الشرق، لكنه سيُهزم في النهاية أمام العديد من الجيوش التي ستتحالف لمحاربته، وقد كان ميلاد هتلر (المُشار إليه بهِستر في النبوءات) عام 1889 في ألمانيا لأبوين فقيرين، واستطاع السيطرة على مقاليد الحكم في ألمانيا، وجعلها مركزًا للأحداث عقب الحرب العالمية الأولى.

وكما ذكر نوستراداموس تمامًا، فقد عُرِف هتلر بخطاباته الحماسية، كذلك عقد هتلر تحالفًا مع الإمبراطورية اليابانية ضمن ما يسمى بتحالف دول المحور، لكن في النهاية صدقت نبوءة نوستراداموس بهزيمته أمام قوات التحالف.

* القنبلة الذرية.. تنبأ نوستراداموس بوقوع كارثة كبرى بمدينتين لم تر البشرية مثلها من قبل، حتى أن سكان هاتين المدينتين سيبكون تضرعًا إلى الله – سبحانه وتعالى – كي يكشف عنهم هذا البلاء.

ويُعتقد أنه كان يقصد كارثة قصف الولايات المتحدة الأمريكية لمدينتي هيروشيما ونجازاكي اليابانيتين بقنبلتين ذريتين في أغسطس 1945، وما سببته تلك الكارثة الإنسانية والبيئية من عذاب لسكان المدينتين بسبب الانفجار المهول، وما صاحبه من تسمم إشعاعي.

* كما تنبأ، وبشكل مذهل، لا يقبل القسمة علي اثنين، بهزيمة "مصر في يونيو 1967 م حيث قال : قانون جديد، أراضي جديدة ستحتل في سوريا والأردن وفلسطين، وستقوض القوة العربية وتنهار عند الانقلاب الصيفي 12 يونيو.

وبما حدث في حرب 1948 م، وسطو اليهود علي أرض "فلسطين" قال: فالدولة الجديدة تحتل أرضاً حول سوريا ويهوديا وفلسطين، وتنهار القوات البربرية.

* حرب العراق، والتي كان لها نصيبا من تنبؤاته حيث قال: سوف يأتي ملك أوروبا مثل الدولفين، يرافقه أولئك الذين في الشمال، سيقود جيشاً كبيراً من الحُمر و البيض، وسيتوجهون لمقاتلة ملك بابل.

عبقرية هذه النبوءة تكمن في وصفه لملك "إنجلترا" بالدولفين، فإن من المعروف عن جغرافية "بريطانيا" أنها بلد مائي، مجموعة من الجزر.

وفي رأيي الخاص أن أعظم نبوءاته علي الإطلاق وأشدها وضوحاً هي نبوءته بمقتل الرئيس الأمريكي كينيدي وأخيه من بعده أيضاً، تلك النبوءة التي قال فيها:

الرجل العظيم في أعظم دولة تصرعه صاعقة في عز الظهر، وأخوه بعد ذلك.

* هجمات 11 سبتمبر ... كتب نوستراداموس شعرا قال فيه: نارٌ تزلزل الأرض تخرج من مركزها، ستسبب هزات حول المدينة الجديدة، وستتصارع صخرتان كبيرتان لفترة طويلة، وستلون أريثوسا (من آلهة الإغريق وتعني الماء) نهرا آخر بالأحمر.

تلك هي أشهر التنبؤات التي حدثت بالفعل ويوجد غيرها الكثير..

وأما عن التنبؤات التي توقعها في السنوات القادمة فمن أشهرها:

* حرب عالمية ثالثة

إحدى الشفرات التي تركها هذا العراف الكبير، وتم فكها في ما يخص العام الثامن عشر للألفية الثانية بعد الميلاد، حرب عالمية ثالثة، ناتجة عما شهدته دول العالم من اضطرابات.

* الحرب تبدأ في فرنسا

توصل الباحثون في فك كتابات "نوستراداموس" القديمة، إلى أن الحرب تبدأ في فرنسا، ثم تعاني أوروبا بأكملها ما تواجهه فرنسا من اضطرابات وأحداث دامية طويلة الأمد، فتستمر هذه الحرب لمدة سبع سنوات حيث تُرجِم عن العرّاف قوله: السلام يولد من رماد التدمير، ولكن قلة ستقدر ذلك، فيما ربط آخرون بين كلامه هذا والأعمال الإرهابية التي تضرب فرنسا وبقية الدول الأوروبية.

* فيضانات وزلازل

توقع أيضاً وقوع زلازل وفيضانات غير مسبوقة ستضرب عدداً من مناطق العالم مسببة أضراراً مادية وبشرية هائلة، وهذا ما تمت ترجمته: ستحدث كوارث مناخية وعواصف وأعاصير في الصين واليابان وأستراليا، كذلك ستتعرض روسيا لهزات أرضية.

* أزمات اقتصادية

توقع العراف الفرنسي دخول العالم في دوامة اقتصادية جديدة نتيجة انعكاس الحروب والكوارث على الواقع الاقتصادي العالمي، حيث قال: الأغنياء يموتون أكثر من مرة.

* ثقب الأوزون

توسع في ثقب طبقة الأوزون نتيجة ارتفاع نسبة التلوث في الهواء، إضافة إلى احتراق الغابات الاستوائية حسب ما فسر باحثون قول نوستراداموس: أشعة الشمس تحرق الأرض، السماء تُفتح والحقول تُحرق من الحرارة.

* دمار " إسرائيل"

بعد نجاح توقعات نوستراداموس بشأن استلام (دونالد ترامب) زمام الحكم في الولايات المتحدة الأمريكية أو جمهورية المدينة الكبيرة كما أسماها، يتوقع انتهاء وجود إسرائيل بسبب ذات الشخص، حيث توقع أن انتخابه قد يؤدي إلى دمار إسرائيل، كما قال أنه سيقحم بلاده في عمليات عسكرية مهمة، وتوقع تغيرات ذات شأن في دول كثيرة تشكل خطراً حول العالم حيث قال: سوف تحصل كوارث طبيعية، وتشهد أمم كثيرة حول العالم تغيرات.

لكن من أهم التنبؤات المستقبليه التي تهمنا نحن العرب والمسلمين تلك النبوءة التي توقع فيها نوستر داموس ظهور حاكم عربي مسلم يغزو نصف العالم، حيث يقول: سيولد في شبه الجزيرة العربية حاكم مسلم قوي سيخرج لينهك إسبانيا، ويدخل إيطاليا عن طريق البحر، وستسقط السلطة الفرنسية بسبب القوات الإسلامية التي ستبسط سلطانها على كل إيطاليا، وسيحكمها شخص يُدعى الفطين.

ومهما يكن من شيء فيجب التنبيه هنا على أمر مهم ، وهو أن الكثير من نبوءات نوستر داموس لم تتحقق، مثل الكارثة التي ستحل بأوربا في عام 1999، وغير ذلك من الأشياء التي توقعها في القرن الماضي ولم نجد لها تواجدا.

إذاً فالرجل قد تنبأ بالكثير، منه ما تحقق بالفعل ، ومنه ما لم يتحقق، وهو ما جعل الكثيرين يشككون في هذه الشخصية، ويرون أن تلك الرباعيات الشعرية التي كتبها قد تم تكييفها وتوظيفها بحسب الأحداث، وأن هذا الأمر قد استغلته بعض الدول الكبرى في تحقيق أهدافها السياسية، وهذا كلام صحيح إلى حد ما.

لكن الذي أراه هو أن الرجل كان شخصية استثنائية امتلك من الذكاء والدهاء ما مكنه من كتابة تلك الرباعيات، التي توقع فيها ما سيحدث في المستقبل، ولست أتفق مع هؤلاء الذين أُفتُتنوا به، ورأوا فيه شخصية تحمل من الخوارق والروحانيات ما جعلها تتنبأ بكل هذه الأشياء، ودليل ذلك إخفاقه في الكثير من التنبؤات، فضلاً عن

أن الكثير من رباعياته من الممكن أن تُفسر على أكثر من وجه، دون أن نغفل الكثير من التحريف والتدليس الذي طرأ عليها عبر السنوات الماضية من أجل بيع كتابه والترويج له في شتى بلاد العالم.

أضف إلى ذلك، عدم استطاعته بالتنبؤ بموت زوجته وأولاده جراء الطاعون، كما لم يستطع وهو الطبيب الذائع الصيت ،وقد لفظوا آخر أنفاسهم بين يديه.

والذي أميل إليه هو أن الله تعالى في الكثير من الأوقات يضع الإنسان في نوع من الاختبار حتى يعرف مدي إيمانه، فنراه يمنح بعضهم حاسة سادسة تجعلهم مختلفين عن غيرهم، سواء في العلم أو الإدراك، ومن هؤلاء نوستر داموس والقصد من ذلك معرفة هل يتزعزع إيمانك بما تراه من تلك الشخصيات أم يظل ثابتًا على عقيدته وإيمانه المطلق بأن الله تعالى له مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا هو.

الراهب الروسي (راسبوتين) الذي أربك عقلي وظل لغزا حتى الآن.

من هو راسبوتين؟ لماذا أربك عقلي؟ ولماذا هو لغز؟

وُلد راسبوتين في أسرة فقيرة بقرية من قرى سيبريا سنة 1869 بروسيا، كانت ولادته شؤم حيث احترق منزله، وتُوفيت أمه، ثم غرق أخاه في النهر حين كان يلعب معه بينما تم إنقاذه، وكان طفلا غير معتاد لكثرة لهوه، حتى ألحقه أبوه بأحد الأديرة، فظل فيها حتى أصبح راهبا.

وكان راسبوتين صاحب فلسفة خاصة؛ فكان يرى أن الخطيئة تقربه من الله أكثر فأكثر، فأصبح الخمر لا يفارقه، وأصبحت علاقاته النسائية محل حديث الجميع.

إلى هنا الأمر ليس غريبا، لكن الغريب أن راسبوتين كان يمتلك قدرة غير مسبوقة في شفاء المرضى بمجرد نظرته إليهم، أو لمسهم فكان يقول أن الله قد أودعه بعضا من قدرته.

كانت عيناه جاحظتين، ضخم الجثة، طويل القامة، عريض الصدر له ذراعان قويتان، عندما كان ينظر إلى النساء تشعرن كأنهن مسلوبات الإرادة أمامه.

ولكن تغيرت حياة راسبوتين عندما مرض الابن الأكبر لإمبراطور روسيا، وهو آخر أباطرة أسرة رومانوف التي حكمت روسيا مدة من الزمن.

فدخل عليهم القصر في حالة من الغرور والتكبر، فكان هم الأسرة الأكبر شفاء ولدهم المصاب بمرض سيلان الدم الذي كان يجعله ينزف طوال الوقت، وبمجرد أن لمس راسبوتين جرح الابن توقف النزيف ولم يصبح له أثر.

من تلك اللحظة أصبح راسبوتين قريبا من الأسرة الحاكمة، ذا نفوذ كبير في تعيين أصدقائه في الحكومة والكنيسة، وعندما ذهب إمبراطور روسيا للمشاركة في الحرب العالمية الأولى أصبح زمام الدولة في يد زوجته الإمبراطورة، وهنا تقرب منها راسبوتين أكثر فأكثر حتى اشتدت العلاقة بينهما، فأصبح حديث العامة والنبلاء والصحف، وهو ما دفع الإمبراطور إلى عزل راسبوتين في أحد الأديرة بعد قدومه.

ولكن عندما عاد نزيف الدم إلى ابنه الأكبر وفشل الأطباء في علاجه، اضطر الإمبراطور لاستدعائه، فرفض راسبوتين المجيء حتى أُتي به بالقوة، وهنا قال راسبوتين: لن يستطيع أحد منكم أن يجبرني على عمل شيء رغما عني، وهنا ألحَّ الإمبراطور والإمبراطورة حتى كادا أن يقبلا يديه، فوافق راسبوتين ولمس الابن وتمَّ شفاؤه، وأصبح قريبا أكثر فأكثر من الأسرة الحاكمة.

وهنا شعر بعض النبلاء بالغيرة منه، فقام أحدهم باستدعائه إلى حفل كبير، وقام بوضع السم القاتل له في الحلوى، فأكلها لكن لم يحدث له شيء.

وأرجع الأطباء سبب عدم موته بأنهم بعد تشريح جسمه اكتشفوا أن معدته لا تفرز المادة التي تتفاعل مع السم فتؤدي إلى موته، وذلك لكثرة شربه للخمر، لكن عندما رأى هذا النبيل أن راسبوتين لم يمت تعجب حتى ظن هو ومن معه أنه لن يموت أبدا.

لم ييأس هذا النبيل من محاولات قتل راسبوتين، خصوصاً بعد أن أصبح حديث العامة لفسقه وفجوره وعلاقته بالإمبراطورة، وبعد أن أخذت بوادر الثورة في الظهور، قام هذا النبيل برمي راسبوتين بالرصاص ثم دفعه إلى حفرة عميقة في داخل نهر متجمد ثم وضع عليه كرات الثلج، فَقُتِل راسبوتين بالفعل وهنا شعر الجميع بالفرح والارتياح.

لكن ماهي إلا أشهر حتى قامت الثورة البلشفية سنة 1917م، وأُعدمت الأسرة الحاكمة، وهرب النبلاء، وفي نفس العام طفت جثة راسبوتين علي النهر بعد ذوبان الجليد.

ويبقي السؤال هل نحن أمام شيطان بالفعل أم فيلسوف؟

ومن أين أتي بتلك القوه الخارقة التي أخضعت له الجميع؟ نعم سيظل راسبوتين لغزا غير مفهوم قرونا طويلة من الزمان.

رأس الحسين التي ذهبت برؤوس الكثيرين

أعلمُ أنَّ مقالي هذا سيغضب الكثيرين من الأخوة الصوفيين، وعشاق زيارة مسجد سيدنا الحسين بالقاهرة، لكنها هي الحقيقة والبصيرة التي يجب أن يكون عليها كل إنسان مسلم موحد بالله سبحانه وتعالى.

في البداية أقول: إنني منذ ثلاثين عاما ذهبت مع أبي إلى القاهرة من أجل إجراء بعض الفحوصات الطبية على نظري الذي ذهب في هذا الوقت، وبعد أن خرجنا من عند الطبيب، أخذني أبي إلى زيارة مولد سيدنا الحسين، وقد كنت في حالة من الذهول والانبهار من هذا الكم الهائل من البشر، والناس الذين جاءوا من كل حدب وصوب من أجل الاحتفال بمولد سيدنا الحسين.

وبعد عناء طويل تمكنَّا من الدخول إلى المسجد، وأمام مقام سيدنا الحسين ظل أبي يدعو كثيراً، مستغيثاً ببركات سيدنا الحسين بأن يشفيني ويعيد لي نظري، ثم بعد ذلك وضع بعض النقود في صندوق النذور المتواجد في داخل المقام، وبالطبع لم أكن أعي ما يحدث وما يصير، لكن بعد سنوات عديدة ذهبت مع أصدقائي إلى مولد سيدنا الحسين، وهناك روى لي أصدقائي هؤلاء الناس الذين جاءوا من خارج مصر، وهم يرتدون ملابس بيضاء وينزلون بالبكاء طوال اليوم، ثم سمعت بعض حلقات الذكر، فمنهم من كان يغشى عليه، ومنهم من كان يعلو صوته بمدح أهل البيت، فرأيت أنَّ الموضوع فيه مبالغة بعض الشيء، وهنا قررت على الفور بعد عودتي إلى مدينتي أن أبحث في الموضوع بشكل شامل، ومن خلال المصادر والمراجع الموثوق بها، حتى أقف على وجه الحقيقة وهل بالفعل سيدنا الحسين قد قدم إلى القاهرة أم لا؟

حيث إنني أعلم أنه قُتِل في كربلاء بالعراق، فمن الذي جاء به إلى مصر؟ وبعد بحث طويل كانت المفاجأة المدوية والحقيقة الصارخة التي تغيب عن الكثيرين من المصرين وتتمثل هذه الحقيقة فيما يلي:

يجب أن ننبه أولاً أنَّ الحقيقة الثابتة أن الحسين قد قُتل بالعراق، ودفن فيها سنة 61 هجرية، ثم أخذ بعد ذلك ابن زياد والى العراق رأس الحسين إلى يزيد بن معاوية الخليفة الأموي بدمشق، وإلى هذه النقطة ليس هناك خلافا، لكن الخلاف في أين ذهبت الرأس بعد ذلك؟ اختلفت الآراء في موضع الرأس الذي دفنت فيه حيث قيل: إنها دفنت في ست مدن، ولعلّ ذلك يرجع إلى عصر الانحطاط والتخلف الذي أصاب المسلمين، بعد أن شاعت الفرق الإسلامية وانحرفت، ومحاولة الضحك على الناس من خلال الوازع الديني المتمثل في الأضرحة وما شابهها، وهذه الأماكن الستة هي: كربلاء والرقة ودمشق وعسقلان والقاهرة والمدينة المنورة.

فأما من قال بوجود الرأس هناك في كربلاء بجانب الجسد فهم الإمامية، وهي أحد فرق الشيعة المتطرفة، وبالطبع فلا يمكن الأخذ به أو الرد عليه، وأما عن وجود الرأس بالرقة فقد انفرد بهذا الرأي ابن الجوزي، وهذا رأى مستبعد لأننا لا نعلم أي مصدر صحيح استند عليه حتى يقول رأيه هذا.

وأمَّا عن الذين قالوا إن الرأس قد دفنت بدمشق فزعموا أن يزيد بن معاوية عندما وصلت الرأس إليه مع البعض من أهل البيت فقد عاملهم معاملة حسنة، وأظهر التحسر والتفجع على قتل الحسين، وهذا على العكس مما يقال ويشاع من أنَّ يزيد قد أساء معاملته، ولطم رأس الحسين، لكن قيل: إن يزيد قد وضع قطعة من الحرير على رأس الحسين ثم دفنه في أحد الأماكن في دمشق، وبنى عليه مسجدا، فزعموا أن رأس الحسين هناك، فهو رأى أيضاً مستبعد حيث إن الثابت أنَ رأس الحسين قد ذهبت من دمشق.

وأمَّا من قال بوجود الرأس في مدينة عسقلان بفلسطين فهو شخص واحد يُسمَّى الشبلنجي، فقد ذكر أن يزيد بن معاوية قد أمر جماعة من الناس أن يحملوا الرأس، ويطوفوا بها في مختلف المدن والأماكن، ففعلوا هكذا حتى وصلت الرأس إلى مدينة عسقلان، فأخذها أميرها ودفنها في موضع هناك، وبالطبع مستحيل هذه الرواية لأن الناس مهما كانت اتجاهاتهم لن يقبلوا بهذا الوضع، أن يطاف برأس سيدنا الحسين بهذا الشكل.

وهنا نأتي لمربط الفرس، وما يهمنا هنا في هذا المقال ألا وهو وجود الرأس في مسجد سيدنا الحسين بالقاهرة، حيث لعب الفاطميون لعبة كبيرة، مع الأسف الشديد قد دخلت هذه اللعبة على الكثير من المصريين، فبعد أن فرضوا الكثير من الضرائب وضاقت الأحوال، أرادوا ان يبحثوا عن مصدر آخر لجذب المال من المصريين، فما كان منهم إلا أن قاموا ببناء هذا المسجد المُسمَّى بالحسين الآن، وموضع المسجد كان في الأصل قبراً لأحد الرهبان المسيحيين، فما كان منهم إلا أن ادّعوا أنهم قد حملوا الرأس من عسقلان، ودفنوها بهذا المسجد، ثم أنشأوا بعد ذلك صندوق النذور وهو الصندوق الذي يضع فيه العامة الأموال، معتقدين أنها ستقربهم إلي المولى سبحانه وتعالى، ولم يقل بوجود رأس الحسين بالقاهرة إلا الكاتب القلقشندي الذي استند إلى هذه الحادثة الغريبة، الذي قال أن صلاح الدين الأيوبى حينما دخل قصر الفاطميين، وجد خادماً هناك فحلق له شعره ثم صبَّ على رأسه طاسة من الماء الساخن لمدة ثلاثة أيام، فوجد أن الخادم لم يتأثر ولم يصيبه شيء، فتعجب لذلك، فقالوا له: إن هذه الرأس هي التي حملت رأس الحسين من عسقلان إلى القاهرة.

وأمَّا عن وجود الرأس في المدينة فقد ذكروا أن يزيد بن معاوية قد أرسل الرأس إلى والي المدينة عمرو بن سعد، فأخذها وكفنها ودفنها بجوار أمه فاطمة الزهراء

رضوان الله عليهما، وقد استدلوا على ذلك بتلك الرواية التي رواها عمر بن شبه: حدثني أبو بكر عيسى بن عبيد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب، عن أبيه قال: إن الرأس بعث بها يزيد إلى عمرو بن سعيد والي المدينة.

وهذه الرواية عن واحد من أهل البيت، ولا شك أنَّ أحفاد الحسين أعلم برأسه رضي الله عنه، وبهذا يكون رأيهم مقدمًا، ومن هنا فإن الصحيح والثابت أنه لايوجد أثر للحسين بالمسجد الكائن بالقاهرة، وأن ما يحدث بداخل هذا المسجد من خرفات وخزعبلات وأشياء تتنافى مع العقل الصحيح لأمرٌ خارجٌ عن العقيدة الإسلامية السليمة التي تربينا عليها وتعلمناها.

الشيخ السيد أحمد البدوي

الأكذوبة والأضحوكة التي يحتفل بها المصريون كل عام!!!

أعلم أن كلامي هذا سوف يصدم الكثيرين من الأصدقاء والصديقات، لأنه يخالف ما يحدث على أرض الواقع ناحية السيد البدوي صاحب المسجد الكائن في مدينة طنطا، لكنه ضمير المسلم العاقل الباحث عن الحقيقة دائماً، فمن المعروف أن السيد البدوي يمثل عند المصرين شيئا عظيماً، فهو صاحب الكرامات والنفحات، يذهب إليه الكثيرون من جميع أنحاء مصر وأبناء مدينتي لزيارته كل عام في إطار المولد السنوي الذي يقام له بصفة دائمة، لكن أكثر ما كان يستفزني هي تلك القداسة والمبالغة التي كان يمنحها البعض لشخصية السيد البدوي، وكأنه والعياذ بالله نبي مرسل صاحب معجزات، لكن ما هي حقيقة السيد البدوي، ومن أين جاء، وما سبب مجيئه إلى مصر.

السيد البدوي هو أحمد بن علي بن إبراهيم البدوي، وُلد بمدينة فاس بالمغرب سنة 596 هجرياً، وتُوفي سنة 675 هجرياً.

يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الأزهر بأنه قد اكتشف مخطوطا مغربيا يقول فيه صاحبه: لم يكن السيد البدوي صوفياً ولا معتدلاً بل كان شيعياً ينتمي إلى الفرقة الباطنية، التي أجمع جميع علماء المسلمين باختلاف درجاتهم معتدلين ووسطيين ومتشددين على تكفيرهم وإخراجهم من الملة بسبب مبادئهم وأفعالهم التي تخالف العقيدة الإسلامية بشكل واضح، وقد هرب أبوه من المغرب إلى مكة المكرمة وسط الحجاج بعد سقوط حكم الفاطميين في المغرب العربي بعد أن اكتشف البربر فساد عقيدتهم وانحرافهم عن الإسلام الصحيح، وكان السيد البدوي يبلغ من العمر سبع سنوات، فاجتمع الشيعة في مكة واتفقوا على إرجاع الحكم الفاطمي الشيعي إلى الدولة الإسلامية، لكن هذه المرة من خلال التستر في التصوف والزهد الذي من شأنه أن يجذب الكثير من تعاطف المسلمين، وكان من بين هؤلاء ابن عربي والحلاج وغيرهم من الذين انحرفوا عن العقيدة الصحيحة بقولهم بوحدانية الوجود.

ولعلّ السبب الرئيسي في انتشار هؤلاء الباطنيين في هذا الوقت هو انشغال الدولة العباسية بالحروب الصليبية، ومن هنا تسلل البدوي والرفاعي والشاذلي وهم أصحاب الطرق المعروفة الآن إلى العراق حتى خرج أبوالفتح الوسطي جد إبراهيم الوسطي من العراق إلى مصر ثم من بعده السيد البدوي، فكان من الطبيعي أن يتعاطف الناس معهم لزهدهم وتصوفهم المصطنع الظاهري، والذي كان يحمل في داخله الخبث الشديد والهدف الأسمى الذي يهدف إلى إرجاع حكم الفاطميين إلى العالم الإسلامي.

وقد انتشر هؤلاء في جميع أنحاء مصر، فكان إبراهيم الدسوقي بمدينة دسوق، والشاذلي في الصعيد، والسيد البدوي في طنطا، هذا وقد ظل السيد البدوي مضرباً عن الزواج حتى وفاته، وقد سأله أخوه عن سر عدم زواجه، فقال: هل تريد يا أخي أن أتزوج وقد وعدني ربي بالزواج من الحور العين في الآخرة؟

فكان تصوفه يشبه فرقة اليوجا الهندية، ومع توالي السنين ظل الناس مفتونين بشخصية السيد البدوي، حتى أصبح المسجد الذي يحمل اسمه بطنطا قبلة المتصوفة والعامة من الجهلاء والغير مدركين لحقائق التاريخ، ولو أنهم كانوا يكتفون فيه بالصلاة لكان الأمر عادياً، لكن أن يتحول المسجد إلى ممارسات وتوسلات وأشياء خارجة عن العقيدة إلى الدرجة التي نرى فيها البعض يتوسل إلى السيد البدوي بشفاء ابنه أو أن يفرج كربه، وكأنه إله بيده كلّ شيء، فهذا ليس بمقبولٍ، ولا يقبله مسلمٌ صحيحُ العقيدة يملك فكرًا وعقلًا معا.

كفاكم بعض مشايخنا استهزاءً بعقولنا

العالم يتطور، والعقول تتقدم، ولم تعد تسَلّم بأي شيء يُلقى عليها، لكن بعض مشايخنا لا يريدون أن يفهموا هذا، فنراهم يقصون علينا بعض القصص والحكايات عن التابعين والفقهاء وعلمائنا الأجلاء، قصص لا يقبلها عقلٌ ولا منطق.

وإليكم بعض هذه الأمثلة من خطب الجمعة:

قال أحد المشايخ أثناء حديثه عن الإمام الشافعي: سأتلوا عليكم تلك القصة العجيبة الغريبة، حيث قال أحد تلامذة الإمام أنه أثناء فترة تعليمه على يد الإمام مالك، وكان صغير السن لم يتجاوز العاشرة من عمره، وفي إحدى حلقات الدرس كان الإمام مالك يشرح كتابه الموطأ، وفجأة لاحظ أنَّ الإمام الشافعي يضع إصبعه في فمه ثم يضعه في كفة يده، وظل يفعل هذا الشيء طوال الدرس.

وبعد أن انتهى الإمام مالك من درسه نادى عليه وسأله: هل تسخر مني ومن كلامي؟ فقال حاشا لله يا مولانا الإمام فقال: لماذا تضع يديك في فمك أثناء شرحي للدرس؟ فقال: إنني والله فقير،وليس معي مالٌ أشتري به قلم أو دواة حبر، وأنت عندما تشرح أي حديث كنت أضع إصبعي في فمي لكي أبله بماء ريقي ثم أضعه في يدي لأكتب ما ترويه من أحاديث كي أحفظها، فكتبت في كفة يدي أربعين حديثاً.

فقال له الإمام مالك: هل ممكن أن تقرأها لي؟ فجلس الإمام الشافعي ثم قرأ له الأربعين حديثا من كفة يده، إلى هنا انتهت القصة.

بالله عليكم أصدقائي الأعزاء ومع تقديرنا وتقديسنا لعلمائنا وفقهائنا، لكن الله تعالى ميزنا بنعمة العقل، فهل يُعقل أن الماء من الممكن أن يُكتب به؟ بل هل يُعقل أن كفة اليد مهما كان حجمها تستطيع أن تتسع لكتابة أربعين حديث؟

قد أتفهم عشق التلميذ لأستاذه، فيروي عنه المواقف والأحداث التي ترفع من شأنه حتى وإن بالغ فيها، لكن أن يكون التجاوز لهذا الحد فهذا أمر غير معقول، إنني قد أصدق أن الإمام الشافعي قد يحفظ كل هذه الأحاديث من تلقاء نفسه، لكن أن يكتبها بالماء على كفه، ثم يتسع كفه لأربعين حديثا فهذا أمر خارج نطاق العقل.

وإليكم قصة أخرى قد رأيتها في أحد الكتب لعالم من العلماء الأجلاء، حيث كان يحكي عن زاهد عابد يسمى ابن الأصم، وكان يشرح لماذا سُمِّيَ بهذا الاسم؟ وإليكم سبب التسمية وأرجو منكم أن تفكروا في الأمر بإمعان حيث يقول: إن ابن الأصم كانت تجلس معه إحدى الزاهدات العابدات، وكانا يتحدثان في عبادة الله، وفجأة أخرجت المرأة ريحا له صوت عالٍ، فخجلت من نفسها، وجعلت رأسها في الأرض، وهنا علا صوت الشيخ وقال لا أسمعك يا ابنتي، حيث أن سمعي ثقيل جداً،

وهنا رفعت المرأة رأسها حيث اطمأنت أنَّ الشيخ لم يسمعها، ويقول المؤلف أن ابن الأصم قد اصطنع ذلك حتى لا يحرج المرأة.

وهنا أسأل، وعليك عزيزي القارئ أن تشاركني السؤال: من الذي أوصل القصة إلى يد الكاتب حتى يرويها لنا؟

من المستحيل طبعاً أن تكون المرأة، فهي لا يمكن أن تفضح نفسها، أما إذا كان ابن الأصم هو الذي روى القصة فبالطبع فإنه لا يكون أمينا بل فاضح ولا يستحق أن يكون زاهدًا عابدا، فمن أين إذا جاءت القصة؟

أمر في غاية السُخرية والضحك، إنني أريد مراجعة مصادرنا القديمة وتهذيبها من هذه الأمور التي لا تليق بعلمائنا وكتّابنا، وكفانا استهزاء بعقول القراء، فالزمن يتطور، والعقول تتغير.

انظر كيف يحترم الله عقلك أيها الإنسان

كثيراً ما نقابل في حياتنا أشخاصا يعتقدون بأن الصداقة أوالحب كافيان لتصديقهم في أمر ما، أو معلومة يريدون إيصالها.

لكن انظر إلى المولى سبحانه وتعالى، وهو الخالق القادر على كل شيء الذي خلق الإنسان وميزه بالعقل، انظر كيف تعامل معنا حين أراد أن يثبت لنا أنه الواحد الأحد في هذا الكون، وأنه هو الله الذي لا إله إلاَّ هو.

لم يطالب الإنسان بأن يؤمن بهذا دون دليل أو إعمال عقل، بل ترك له الحرية في التدبر، فأما عن دليل وحدانية الله فنستطيع أن نجده في كثير من الأقوال في القرآن الكريم مثل قوله جل علاه: "قل هو الله أحد"، و "هو الله الذي لا إله إلاَّ هو"، و "هل من خالق إلاَّ الله" ، كل هذه الآيات تخاطب القلب والوجدان، لكن أين مخاطبة العقل الذي أراد المولى سبحانه وتعالى أن يتيقن من الإجابة.

نجد هذا الدليل على مخاطبة العقل في قوله تعالى: " مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كل إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلعلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ".

فالله تعالى يخبرنا بأن هذا الكون لو كان فيه إلهين أو أكثر لأراد كلّ واحد منهم أن يبسط هيمنته على الآخر، فهذا يريد أن يوجد، وذاك يريد أن يعدم، وهذا يريد أن يحيي، وذاك يريد أن يميت، وهذا يريد الليل، وذاك يريد النهار، وهذا يريد النجاح، وذاك يريد الفشل.

ومن هنا ينشأ خلافٌ شديدٌ بين الآلهة، فيضطرب الكون، وتحدث فوضى نشعر بها على كوكب الأرض.

وكما يقول المثل العامي: (المركب اللي فيها ريسين بتغرق)، لكن انتظام حركة الكون من تعاقب الليل والنهار والفصول الأربع لأمر يدل على أن واحدا أحد هو الذي ينظم هذه الحركة، وأنه هو الحاكم والمتحكم في كل شيء.

وبهذا يكون المولى سبحانه وتعالى قد أثبت للإنسان من الناحية العقلية أنه هو الواحد في هذا الكون، لكن هل نعقل نحن هذا الكلام، ونؤمن به قولاً وفعلاً؟

اللهم ألهمنا حبك وطاعتك، وامنحنا القدرة في العقل والقلب معاً.

التنويريون المستحمرون

ظاهرة جديدة أخذت في الانتشار بعد ثورة 25 يناير، إنها ظاهرة التنوريين الذين خرجوا علينا في وسائل الإعلام.

بعد ثورة يناير كنت أشعر أن الكثيرين يسعون إلى الشهرة وكسب الأموال، لكن كان لابد من مصعد سهل يصعد عليه هؤلاء دون تعب أو مشقة.

نعم كان التشكك في الثوابت الدينية، والأحكام الشرعية، والأزهر الشريف وما يُدرس فيه من مناهج فقهيه المصعد الذي وفرّ لهؤلاء تلك الشهرة التي كانوا يبحثون عنها.

أخذ الإعلام المصري يفتح أبوابَه لهؤلاء بشكل ممنهج على أنهم مفكرون باحثون، قد أتوا بما لم يأتِ به السابقون الأولون.

وهم بين جاهل لا يحفظ آية واحدة يقوم بارتداء عمامة الأزهر في لحظة ظهوره على الإعلام فقط، ثم يقوم بخلعها بعد خروجه، (أقصد بالطبع الشيخ ميزو)، وبين آخر خصص له الإعلام مساحة كبيرة، يبث فيها سمومه باعتبار أنه الدارس الحازق الذي درس الشريعة من كافة جوانبها، وتحصّل على أعلى الشهادات فيها من جامعات أوروبا (أقصد بالطبع هنا الأستاذ إسلام البحيري).

وهذا آخر يريد أن يكون محامياً شهيراً، يُظهر براعته وطلاقته أمام الناس ليس في عالم القانون الذي درسه، ولكن من خلال هدم الشريعة وثوابتها (أقصد بالطبع أحمد عبده ماهر).

وهناك آخرون بعد أن وصلت بهم الحياة إلى سن المعاش أرادوا لأنفسهم شيئا من الشهرة بعد أن فشلوا في تحقيقها في ميدان عملهم، استطاعوا أن يتحصلوا عليها بالقدح في ديننا الحنيف.

المهم في الأمر أن هؤلاء قد وجدوا أرضا خصبة لهم، ومنبراً إعلامياً، استغل حالة التبرم والكراهية من البسطاء للجماعات الإسلامية بعد فشلها السياسي في مصر أو تونس.

هؤلاء جميعاً أخذوا يرددون كلاماً واحداً هنا وهناك من تشكيك في صحيح البخاري ومسلم، ومحاولة إيجاد تفسير جديد لبعض آيات كتاب الله، واستعراض بعض المواقف التاريخية، سواء في حياة الرسول أو بعده، والتي اختلفت عليها كتب التراث.

حاول هؤلاء أن يقدموا للمجتمع ديناً جديداً يرى أن الحجاب ليس فرضاً، ويساوي بين الرجل والمرأة في الميراث، ويرفض التعدد في الزواج، ويرى أن غير

المسلمين مصيرهم الجنة، ويخلو من تلك القسوة في العقوبات كحد الزنا والرجم وغير ذلك.

دين جديد حاول هؤلاء أن يقدموه للبسطاء وأنصاف المتعلمين وأصحاب الاتجاه المعادي للشريعة الإسلامية.

كانت تجمع بين هؤلاء سمات مشتركة حين كانوا يظهرون على وسائل الإعلام ومنها العصبية الشديدة في النقاش، ومحاولة إثبات رأيهم بالقوة بواسطة الصوت العالي، والهجوم الشديد على محاوريهم، واتهامهم بالإرهاب والكراهية لأصحاب الأديان الأخرى.

كذلك كان هجومهم عنيفاً على مؤسسة الأزهر الشريف منارة العلم، التي يفخر بها كل مسلم مع مرور الزمن، فأخذوا بمهاجمة مناهجه وعلمائه، ويرون فيه عائقاً لإيجاد دولة مدنية يسودها التسامح والحداثة.

اعتمد هؤلاء على اقتطاع نصوص من كتب التراث الإسلامي، مستغلين جهل العامة بها أو فهمها، بما قد يوحي أنها تتواءم مع آرائهم، ودليل صارخ على صحة كلامهم مثل من قرأ (ولا تقربوا الصلاة).

رفض المجتمع المصري كلام هؤلاء ولفظهم، خاصة بعد سلوكياتهم المصاحبة لعرض آرائهم من الصوت العالي، وقذف من يحاورهم، وافتضاح البعض منهم، والذي كان يمول من الخارج.

اكتشف المجتمع أنهم ليسوا تنويريين ولكن مستحمرين، خلقوا حالة من الجدل، دفعت البعض أن يراجع أقوالهم، ويتعمق كثيراً في كتب التراث، وكما يقول المثل: رب ضارة نافعة.

زواج وانقلاب

إن المجتمع العربي كان قبل البعثة النبوية مليئا بالعادات والتقاليد السيئة التي بالطبع سمعنا عنها كثيرًا، لكن من أسوأ تلك العادات تلك الطبقية التي كانت موجودة، والتي كانت لها أثارُها السلبية في وسط هذا المجتمع، ولم يكن الإسلام ليسكت عن تلك الظاهرة، بل حاربها قولاً وفعلاً، ولعلّ أبرز نموذج صارخ على زوال تلك الظاهرة بعد بعثة المصطفى - صلى الله عليه وسلم - هذا الزواج الذي تم بين السيدة أسماء بنت أبى بكر والزبير بن العوام، وترجع قصة هذا الزواج إلى الأيام الأولى من البعثة النبوية، حينما حارب كفار قريش كل من أعلن إسلامه على الملأ، وكان من بين هؤلاء الزبير بن العوام الذي كان يعد من أفقر فقراء قريش وأعدمهم حالاً، فعندما سمع عمه بإسلامه سحبه على وجهه وقام بتعليقه من أرجله، ثم أشعل النار من تحته حتى كادت أن تصل إلى رأسه، لعلّ ذلك يثني الزبير عن إسلامه، لكن رغم كل هذا العذاب ظل الزبير ثابتاً على موقفة دون أن يتراجع ولو بكلمة واحدة، وفي المقابل نجد السيدة أسماء تلك الفتاة التي وُلدت في ظل هذه الظروف.

لكن من نعمة الله عليها أن كان لها أبٌ عاقلٌ يتميز بالحكمة ونقاء القلب والسريرة، فرح بها عند مولدها فرحاً شديدًا في الوقت الذي كان العرب فية يشمئزون من إنجاب الإناث، فمنهم من كان يقوم بقتلهن، وأشهر من فعل ذلك هو ثاني الخلفاء الراشدين عمربن الخطاب قبل إسلامه، لكن أبا بكر غمرته سعادة كبيرة بقدوم أسماء، فكانت مقربة منه كثيرًا إلى الحد الذي كان حريصًا فيه على تعليمها وإخبارها بكل ما يحدث، وساعده على ذلك هذا الشغف الواضح لدى أسماء لمعرفة أمور دنياها، ولم يلهها هذا الثراء والغنى الذي كان فيه أبوها.

فبالرغم من تواجد الخدم والجواري في بيت أبيها إلا أن ذلك لم يمنعها من مساعدتهم، والتعاون معهم في أمور البيت.

وكانت أسماء شديدة الشغف بقدوم أبيها، فكانت من تفتح له الباب، فتكون أول من يستقبله، وتقوم بالجلوس بجانبه حتى تسمع منه آخر ما وصل إليه المسلمون من أمور التعذيب والإذلال على أيدي كفار مكة، وبالطبع كان يتصدر هذا الحديث ما كان يحدث للزبير بن العوام على يد عمه.

وهنا شعرت أسماء بجاذبية ناحية هذا الشاب، فكانت تنتظر أباها بشكل يومي حتى تسمع منه آخر أخبار الزبير.

حتى جاء يوم أخبرها أبوها أن عم الزبير قد أطلق سراحه بعد أن يئس من تراجعه عن الإسلام واعتناق الدين الجديد، فهنا قالت أسماء على الفور: يا أبى أريد منك أن تساعده بأيّ شكل من الأشكال، فشعر أبو بكر بميلٍ واضحٍ من ناحية أسماء تجاه الزبير.

كل هذا وهي لم تره ولو للحظة واحدة، فقال أبو بكر لابنته: سأفعل أكثر مما تقولين يا أسماء، ولسوف أعطيه أغلى ما عندي، فيبدو من خلال الحوار أنّ أبا بكر قد أخذ قرارًا في نفسه، لكن كيف ينفذ هذا القرار؟ تلك هي المشكلة، لكنّه ذهب في تلك الليلة إلى المكان الذي يجتمع فيه المسلمون لقضاء شعائرهم في الخفاء في بيت الأرقم بن الأرقم، وقد نوى أبو بكر بعد انتهاء صلاة العشاء على مناداة الزبير، وأن يفتح معه حوارًا، وبالفعل عندما انتهت الصلاة انصرف الجميع إلا الزبير دون أن يناديه أبو بكر، فاقترب منه وقال يا أبا بكر إني أريدك في أمر مهم، فقال له: تفضل، فقال: لقد علمت إن لك ابنة شديدة التدين وكبيرة العقل، فهل تسمح لي بالزواج منها؟ وهنا أخذ الذهول أبا بكر، وتعجب من هذا الطلب الذي كان سيطلبه هو في نفس الوقت، لكنّه يشعر بالحرج، لكنها المشيئة الإلهية القادرة على كل شيء، فذهب أبو بكر إلى بيته ونادى أسماء، وأخبرها بما حدث، فوضعت أسماء رأسها في الأرض خجلاً، وبالطبع كان سكوتها علامة الموافقة، وبالفعل تمّ هذا الزواج فأحدث انقلابًا مثيرًا في المجتمع العربي في ذلك الوقت، فكيف أن فقيرًا على هذه الحال يتزوج بابنة هذا الثري الغني؟ وكيف يوافق أبو بكر على تلك الزيجة؟ لكنهم بالطبع لا يفهمون أنه هو الدين الجديد الذي جاء ليغير تلك المفاهيم، ويسعى إلى إقامة مجتمع سوي، لا فرق فيه لعربي على أعجمي إلا بالتقوى.

الرئيس عمر بُنجو الذي نشر الإسلام، وصاحب فضيحة القرن

كثيرون هم الزعماء الأفارقة الذين تحتار في سلوكياتهم وأفعالهم، وقد روى لنا التاريخ الكثير من حكايات هؤلاء، إما عن الجنرال فليكس رئيس وسط أفريقيا الذي أُشتُهر بأكل لحوم الأطفال، وملك سوازيلاند الذي تزوج بأكثر من ألف امرأة.

لكن الشخصية التي أدهشتني كثيرًا هي شخصية الرئيس الجابوني عمر بُنجو وهو غير معروف للكثيرين، ويُعدُّ أطول رئيس أفريقي بعد الرئيس السنغالي عبده ديوف.

الجابون دولة تقع في غرب أفريقيا، وتمتد على سواحل المحيط الأطلسي، وتولى عمر بُنجو زمام الأمور فيها منذ استقلت عن فرنسا سنة 1960م.

والسؤال هنا لماذا تدهشني شخصية هذا الرجل؟

الإجابة ببساطة: أن عمر بُنجو كان مسيحي الديانة، والشعب الجابوني تمثل المسيحية فيه أكثر من 60 %، لكن فجأة أعلن الرجل إسلامه منذ بداية توليه منصب الرئاسة، وذلك بدون ضغوطٍ أو إلحاحٍ من أحد، فالجابون دولة نفطية، وتعيش حالة من الرفاهية ورغد في المعيشة، عكس معظم بقية دول أفريقيا؛ أي أنَّ الرجل لم يكن في حاجة إلى دعم مادي أو أي شيء من ناحية العرب والمسلمين. وقد أدَّى إسلام الرجل إلى دخول قبيلته بالكامل الدين الإسلامي، وهي تُشكل نسبة كبيرة من سكان الجابون.

لكن في الوقت نفسه أشير هنا إلى فضيحة القرن، والتي تسبب هو فيها، وتُعدّ من أكبر الفضائح التي شهدتها فرنسا على الإطلاق، تلك الفضيحة كانت تخص صاحب أعظم محل ملابس في باريس، وكان هذا الرجل هو المصدر الحقيقي لملابس معظم الرؤساء والملوك في العالم، وكانت تعمل عنده الكثير والكثير من الفتيات الجميلات، و فجأة تقدمت بعض الفتيات ببلاغ إلى الشرطة الفرنسية في هذا الرجل بتهمة أنه تسبب في إصابتهم بمرض الإيدز، ثم أخذت إحداهن تشرح كيف أُصيبت بالمرض.

تقول الفتاة: حدثني صاحب المحل بأن أستعد لكي أسافر إلى الجابون بطائرة خاصة، وسوف أحمل معي بعض الملابس للرئيس الجابوني عمر بُنجو، ولما حدثتُ زميلاتي في المعرض نظرن إليَّ باستغراب شديد، وقالوا هل هذه أول مرة ستذهبين إلى الرئيس عمر؟ فقلت: نعم، فقالوا: عليكِ أن تأخذي جميع احتياطاتك من الإصابة بأي مرض، لأن الرئيس الجابوني مصابٌ بمرض الإيدز، وهنا ارتعبتْ الفتاة وخافت خوفاً شديداً، لكن لم تجد بُدًّا من السفر إلى الجابون، فركبت الطائرة ثم نزلت بأحد قصور الرئاسة، وبعد مدة من الوقت دخل الرئيس بنجو عليها، ورحب بها ترحيبًا شديدًا، ثم طلب منها أن تستعد لكي تقضي الليلة معه، وهنا أصيبت الفتاة بذهول شديد، فهي مجرد عارضة أزياء، وليست فتاة ليل، لكن الذي اكتشفته أن مع

كل خمسة أشهر تأتي طائرة من باريس إلى الجابون محملة بأجدد الملابس، ومعها فتاة جديدة يقضي معها الرئيس الجابوني ليلته، وهنا انفعلت الفتاة على الرئيس، لكنه قام بتهديدها، فطلبت منه أن يكون هناك واقي بحيث لا تصاب بالمرض، لكن رفض الرئيس الجابوني رفضًا قاطعًا، ومارس معها الرذيلة، ثم عادت إلى فرنسا محملة بمرض الإيدز، والذي أصيبت به قبلها الكثير من الفتيات اللاتي قدمن إلى الرئيس الجابوني.

ولما ساءت الحالة الصحية لهن جميعًا قمن برفع قضية على صاحب محل الملابس، وعاشت فرنسا فضيحة كبرى لمدة عدة أشهر، وذلك بسبب الرئيس عمر بنجو الذي اعتنق الإسلام بإرادته، وأدخل معه الكثير من أبناء الشعب الجابوني الإسلام، فكانت بحق شخصية غريبة السلوك وغريبة الأطوار.

مات الرجل من عدة سنوات، وتولى من بعده ابنُه علي منصب الرئاسة، غفر الله له ولنا جميعًا.

صدام حسين بين الحقيقة والانطباع، رؤية خاصة جداً

تُعدّ شخصية صدام حسين من الشخصيات التي لعبت دوراً بارزاً في الكثير من الأمور التي ترتب عليها ما نعيشه الآن في وطننا العربي، ولن أقول منطقة الشرق الأوسط، ولكن قبل الحديث عن صدام حسين أتحدث عن العراق، تلك البقعة المليئة بالطوائف والعرقيات وكثرة الأديان والمذاهب، ومن ثَمَّ تكثر فيها الاضطربات والقلاقل، وهذا ما دفع الفاروق عمر بن الخطاب أن يدعو عليهم حينما قاموا بإيذاء الصحابي الجليل أبو موسى الأشعري، الذي ولّاه عليهم فقال: اللهم سلط عليهم حجاجاً ثقفياً، وقد استجاب الله دعوة الخليفة فولى عليهم الحجاج بن يوسف الثقفي، وقال لهم مقولته الشهيرة: إني أرى رؤوسا قد أينعت وحان وقت قطافها وإني لقاطفها، ثم انتظر أهل العراق طويلاً حتى سلطّ الله عليهم صدام حسين، تلك الشخصية التي كانت تتمتع بتركيبة خاصة، ظهرت معالمها حينما ولَّاه خالُه الرئيس العراقي أحمد حسن البكر رئاسة المخابرات العراقية، فكان يذهب معه في أماكن كثيرة وقد تحدث البعض أن السادات عندما رآه قال: إياكم وهذا الرجل فهو إن تولى حكم العراق فستكون كارثة.

لم يقل السادات هذا الكلام من فراغ، فمن المؤكد أنه قد وجد فيه ما يدفعه لذلك، لكن تمكن صدام من الإطاحة بخاله وتولى هنا زعامة حزب البعث، وبالتالي رئاسة العراق، فأصبحت المنطقة بين أمرين: طموح فارسي شيعي يقوده الخميني بثورته، وطموح شاب مندفع تتوفر له كل الإمكانيات، يُسمى صدام حسين.

وهنا لعبت أمريكا لعبتها حينما دفعت صدام إلى الدخول في حربٍ مع إيران ونظامها، فكانت حربًا ضروسًا، قتل فيها الكثير والكثير دون فائدة أو انتصار لأحد الطرفين على الآخر، لكن العراق تمكنت من امتلاك جيشٍ متقدمٍ حتى كان صاحب أكبر مدفع في العالم، وبالرغم من أن العراق كان يقودها في الظَّاهر جبهة الصمود والتصدي، والتي قررت مقاطعة مصر بعد اتفاقية كامب ديفيد، لكن في الخفاء كان العراق يستعين بمصر وخبرات جيشها في حربه ضد إيران، كذلك لا ننسى أن الدكتور المصري يحيى المشد هو الذي كان قائماً على البرنامج النووي العراقي حتى اغتالته إسرائيل في فرنسا، كل هذا جعل صدام يعشق المصريين ويرحب بهم، ولا يسمح بإيذائهم، فنعم الكثيرُ من المصريين بخيرات العراق.

وفي فترة الثمانينات كانت معظمُ البيوت عندنا مفتوحةً من ثروات العراق، ومنهم بيتي أنا؛ حيث قضى أبي هناك وقتًا كبيرًا.

وبعد انتهاء حرب صدام مع إيران يبدو أنه كان يخطط لدخول الكويت مبكراً، فقام بعقد مجلس التعاون العربي مع مصر والأردن واليمن، وكان المقصد منه التعاون في كل الأمور اقتصاديًا وعسكريًا وسياسيًا، هذا المراد في الظاهر لكن في الباطن كان يريد صدام استمالة تلك الدول في غزوه للكويت بعد ذلك، وطبيعي أن تخلق

أمريكا ذريعةً أخرى بعد انتهاء الحرب العراقية الإيرانية، لكي تسيطر على بترول الخليج، فلننظر ماذا فعلت؟

لقد قامت بتزويد صدام بجهازٍ إلكتروني يمكنه من التجسس على كل مكالمات القادة الخليجيين، ثم كانت الطامة الكبرى حين ذهبَتْ إليه السفيرة الأمريكية؛ لتؤكد له أن الولايات المتحدة لن تتدخل إذا ما قام بغزو الكويت.

وهنا ظن صدام حسين أن الأمور قد أصبحت ممهدةً لدخول تلك الدولة الصغيرة، فوقعت الكارثة بغزو الكويت.

شَرَّد شعبَها، وقَتَلَ أبناءَها، واغتَصَبَ الكثيرَ من نسائِها، لكن كيف كان حال الدول التي كانت معه في مجلس التعاون العربي؟

لقد وقف الجميع مؤيداً له ولغزوه للكويت باستثناء مصر، فقد وقفت بشدة ضده، بل قامت بدفع الفِرق من جيشها لتحرير الكويت من العراقيين.

وأما الولايات المتحدة فقد تحولت إلى أسدٍ مخيف، فهي التي حرّضته، وهي التي قامت عليه، وقادت الجيوشَ ضدّه، وقامت بحصاره سنين طويلة، فَخَرّبَتْ العراقَ، وأفقرته فقراً شديداً.

وهنا نرى تحولاً ظاهرياً في شخصية صدام حسين؛ حيث أخذ يتظاهر بصورة المناضل المتدين المدافع عن الإسلام والعروبة، مع العلم أنه أمد المليشيات المسيحية بقيادة الميشيل عون في لبنان بالكثيرمن الأسلحة في حربها ضد السنة والشيعة، وذلك لمجرد الخلاف بينه وبين حافظ الأسد الذي كان يساند المليشيات اللبنانية المسلمة.

كذلك فإن العراق كان من الدول القليلة التي كانت ترخِّص بيوتَ الدعارة، وكانت تعتبرها مهنةً وعملًا كبقية الأعمال، وبالطبع لا ينسى أحدٌ ما قام به أبناءُ صدام ضد أبناء شعبهم من القتل والاغتصاب، وأظن أنَّ الجميع لا ينسى ذلك الموقف حين قام أزواج بنات صدام حسين بالفرار إلى الأردن مع زوجاتهم، وبعد عدة شهور تعهد صدام للملك حسين أنه لن يقوم بإيذائهم إذا ما رجعوا إلى العراق، لكن هل أوفى صدام بالوعد؟

ما حدث أنه بعد خروجهم من الطائرة استقبلتهم الرشاشات برصاصها، فقتل أزواج بناته على الفور، تلك هي الحقائق عن تلك الشخصية.

أما الانطباع فكان بعد دخول الولايات المتحدة العراق واحتلالها له، وهنا تعاطف الكثيرُ مع صدام حسين خاصة بعد أن رفض دعوة الرؤساء العرب والأمريكان بترك العراق والذهاب إلى دولة أخرى، وأعلن تمسكه بالجهاد والصمود أمام الأمريكان، وبالفعل بعد مرور أيام من دخول أمريكا هرب صدام حسين وظل

البحث عنه طويلاً بعد أن تمكنت الولايات المتحدة من قتل أولاده وأحفاده، ثم كانت النهاية العجيبة حيث تم القبض عليه وإخضاعه لمحاكمة تابعها الجميع.

والحق أن صدام قد اكتسب شعبية كبيرة فيها؛ نظراً لثباته وثبات انفعاله وعدم استسلامه أمام أعدائه حتى كان حكمُ المحكمة بالإعدام، فأرادت أمريكا أن ترسل رسالة لجميع العالم؛ حيث قامت بإعدامه في أول يوم من أيام عيد الأضحى المبارك، وكأنها تريد أن تقول لقد ضحينا بكبش مثلما تضحون أيها المسلمون، لكن العجيب أن صدام وهو على حبل المشنقة قد بدا مثلَ الأسد المتماسك والفهد الذي لا يخاف، فتضامن الكثير معه، وترحموا عليه.

وأجد الكثيرَ من المصريين يحفظون الجميل له وللعراق التي انهارت بعده أكثر ما كانت منهارة في عصره، فكان ذلك هو الانطباع.

لكن بالعموم هو عندي شخصية مركبة طموحة، لكنها كانت غبية لا تعي ما تفعل، ولا تملك بُعداً سياسياً؛ حيث أطاحت بخيرات وطنها، وجلبت على العرب والإسلام كثيرًا من الكوارث، يكفيها هذا الاستيطان الواضح للقوات الأمريكية في دول الخليج، لكن كانت نهايته بمثابة تجميل الصورة أمام منتقديه وكارهيه.

وهذا تحليلي لشخصيته من وجهة نظري الخاصة.

أغاني تحتاج إلى وقفة صارمة

يعلم الكثيرون أنني من عاشقي الفنون بكل أنواعها، ومع الحرية الشديدة في الإبداع، لكن هذا لا يمنع أن أشير إلى بعض الأمور التي تخالف العقيدة والعادات التي تربينا عليها، وأذكر هنا أغانينا الجميلة التي تُعدّ تراثًا مبدعاً، نفخر به بين شعوب العالم.

لكني أتحفظ هنا على بعض الأغاني، أو لنقل بعض المقاطع التي أرى فيها ازدراءً للدين وجرأة على الله، ومن تلك المقاطع ما تغنى به عبد الحليم حافظ في أغنيته الشهيرة (بيع قلبك) حين قال: أنا يسعدني تبعد عني وتجرب غيري في هواك، شوف من حبه أكبر مني لو شاف إللي أنا شوفته معاك، وبالطبع هذا كلام مرفوض جملة وتفصيلاً؛ فمن ذا الذي يقبل على نفسه أن يدع حبيبه ليجرب الحب مع غيره؟ إنه والعياذ بالله يُسمى الديوث، فالكلام يخالف الشريعة بل أبسط العادات والأخلاق التي تربّى عليها المسلم.

كذلك نجد هذا المقطع في قصيدة السيدة أُم كلثوم: يا حبيبي ما علينا لو حملنا الأيام في راحتينا، صدفة أهدت الوجود إلينا، وأتاحت لقاءنا فالتقينا، هذا أيضاً كلام مرفوض؛ لأن الذي خلق الوجود هو الله وليست الصدفة، كما زعم هؤلاء الذين لا يعترفون بالأديان أو ما يُسمون بالوجوديين الذين لا يعترفون بوجود إله خالق مبدع.

وبالتالي لا يصح هذا الكلام الوارد في قصيدة الشاعر جورج جرداق والذي تغنت به أم كلثوم.

نأتي إلى هذا التجاوز السافر الذي ورد في قصيدة حليم لست قلبي حين قال: قدر أحمق الخُطى، أدمت هامتي خطاه، فتلك جرأة على الله؛ لأنه لم يبالِ بقول المولى في الحديث القدسي: لا تسبوا القدر فإنه أنا، وما حدث هو أن الأخ كامل الشناوي والأخ حليم قد سبَّا القدر سبًّا واضحًا ليس فيه مجالٌ للشك.

كما نجد تجاوزاً كبيرًا في آخر أغاني محمد عبد الوهاب من غير ليه حين قال: جينا الدنيا ما نعرف ليه ولا عايزين إيه، وأنا أقول: يا مطربنا العظيم، إذا كنت لا تعرف لماذا جئت إلى الدنيا فأنا أعرف جيداً؛ حيث قال الله عزّ وجلّ: "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون"، فإنك قد جئت إلى هذه الدنيا لكي تعبد الله.

ناهيك عن بعض الأغاني وهي كثيرة، والتي اتخذت من لفظ النبي قسما ويمينا حتى أصبح مجالا للرقص عليه ومن ذلك، عاشقة وغلبانة والنبي، والنبي يا جميل حوش عني هواك، والنبي وحشتنا، والنبي لنكيد العُزال.

رحم الله فنانينا وغفر لهم ما قد سلف.

آسف أستاذ فريد الرجولة في الحب ليست هكذا!!!

الأستاذ فريد الأطرش من أحب الشخصيات الفنية إلى قلبي؛ فهو فنان بمعنى الكلمة، وقبل ذلك هو إنسان شهد له الجميع بطيب القلب وحسن المعاملة.

ولكن المتأمل في معظم أغاني الأستاذ فريد يجدها تنتقص من رجولة هذا الرجل ومن عزته وكبريائه.

ولا أدري هل ذلك عن عمد أم صدفة؟

فهو بالطبع ليس المؤلف لكلمات أغانيه، لكن في النهاية هو الذي يختارها، فعندما يقول: مرة يهنيني ومرة يبكيني، وأنا كلمة تجبني وكلمه توديني.

هل يوجد أحدٌ يقول عن نفسه هكذا؟ كلمة تجبني وكلمه توديني وكأنه معدوم الشخصية، دمية في يد غيره، يصنع بها ما يشاء، وكأن الرجل لا حول له ولا قوة مع حبيبته.

لكن لا نتعجب الأمر حيث نراه يقول حينما أعطته حبيبته موعدًا للقاء، فماذا يقول الأستاذ فريد؟.

لو صدقتْ مش هقول بيعاني، لو خلفت مش هقول نسياني، إلى هذا الحد الكلام معقول، وهو حر يقول بيعاه يقول نسياه هو وشأنه.

لكن ماذا سيقول الأستاذ فريد؟ بكره إللي ماجاشي وهستنى ليه ما استناشي لحد بكره.. يا سلام يا أستاذ فريد، ما كل هذا الذل والهوان، طب تقول مش بيعاك أو مش نسياك ماشي، لكن تقول بكره إللي مجاشي، فهل حبيبتك نفرتيتي أم حتشبسوت ؟ !

وبالطبع كان من الطبيعي بعد كل هذه الإهانة أن تقابله حبيبته بالجفاء والهجر، فالرجل لا يتوارى عن إبداء الولاء والطاعة، وتقديم أي شيء حين يقول: تؤمر على الراس وعلى العين، بل وصلت به الدرجة إلى أن يقول: أنا وأنت وبس لوحدينا طول ما إحنا بعيد مع بعضينا، لقمة صغيورة تشبعنا، عش العصفور هيقضينا، ونعيش من الجمعة سبع أيام، زادنا وزوادنا غرام في غرام، والحب غطانا وفرشتنا وخدود الورد مخدتنا، طب يا عم فريد اتكلم عن نفسك، إذا كانت لقمة صغيرة تكفيك فما أدراك بالطرف الآخر؟ يمكن من أخواتنا المفاجيع، وبعدين اديني عقلك، عش العصفور هيقضيكم إزاي.

ولنفترض أن حبيبتك كانت من ذات الأوزان الثقيلة، وتحتاج إلى عش فيل من الأفيال، فكيف يسعها عش هذا العصفور الذي تتكلم عنه؟ ليه هتناموا في الشارع والحب يغطيكم ويأكلكم ويشربكم؟ والله لو كان الأمر هكذا نحب كل دقيقة، يمكن الحب ده يحسن من الحالة الاقتصادية لمصر.

لكن ماذا تتوقعون من حبيبته بعد كل هذا الكلام؟ بالتأكيد فرصة وجتلها تذل في أنفاسه، ودليل هذا نراه يصرخ ويقول: أضنيتني بالهجر، ما أظلمك، فارحم عسى الرحمن أن يرحمك، ثم تطور به الشكوى إلى أن يقول: عش أنت إنِّي مت بعدك وأطل إلى ما شئت صدك. وأنا أقول أنت يا عم فريد كنت منتظر إيه بعد كل هذا التنازل؟ هل تظن أن حبيبتك يا حلو ستقابلك بالمثل؟

لكن بالعموم أنت اعترفت بلسانك حين قلت: علشان مليش غيرك الليل تسهرني، علشان أنا أسيرك دايما محيرني، كويس إنك عارف يا أستاذ أنك علشان بتقدم له كل شيء عمال يذل في حضرتك.

ما تقول لها في أغنيتك قلبي ومفتاحه؟ يا حبيبي يا ريت أبقى حبيبك، وأكون من بختك ونصيبك، ده أنا مهما تقسى، بردو راضي بك، وتسبني الروح قبل ما أسيبك، كلام في غاية الاستفزاز، والله لو كنت أنثى لأتلاعبن بك كيفما أشاء، فأنت فرصة لكل فتاة تريد أن ترفع من أنفها، وتفرد عضلاتها، لكن لا تأت وتصرخ في النهاية وتقول: يا ويلي من حبه يا ويلي في عذابي في نهاري وليلي لا بيرحم ولا ناره بترحم ومحير في الحب دليلي.

لماذا تتألم يا أستاذ فريد وأنت تعلم عواقب كلامك وأفعالك؟ حتى في المرة الوحيدة التي ظننتك ستعطي تحذيرا لحبيبتك حين قلت: اسمع لما أقولك، وكأنك ستقول كلاما شديدا مليئا بالغلظة والجفاء، لكن كانت المصيبة أنك قلت: اسمع لما أقولك، ولا أقولك، مش هقولك، ما أنت عارف قصدي إيه من غير ما أقولك، يا حلاوتك يا أستاذ فريد يعني مش عايز تنطق قدام حبيبتك ولو بكلمة واحدة لمجرد إنك معتقد إنها فاهمة قصدك؟ والله أمرك عجيب.

ولعلّ هذا كان السبب أن حبيبك أعطاك بومبة وسابك وفلسع وخلاك تقول: لأكتب على أوراق الشجر سافر حبيبي وهجر، وخلاك تقول بل إنك يا راجل ما فكرتش لحظة واحدة تمنعه من السفر أو تديله كلمتين في جنابه بل قلت له: سافر مع السلامة ترجعلنا بالسلامة ابعت جوابات يا أعز حبيب وأرسل سلامات تطفيلي لهيب.

جوابات وسلامات إيه يا عم اللي أنت منتظرها منها؟ وفي النهاية جالس تبكي وتقول: شرحتلك سبب غلبي يا ظالم قول إيه ذنبي، مسحتلك دموع قلبي، وبرمش العين كتبتلك اشتقت لك.

والله لم أرَ مثل هذا في الحب، وبالطبع كانت النتيجة أنّ الحب الحقيقي في حياة فريد والذي ظل مضرباً عن الزواج من أجله، وهي الفنانة سامية جمال قد رفضت حبه، وذهبت إلى من يملك القوة والشخصية إنه الفنان رشدي أباظة، صراحة يا أستاذ فريد لقد أسأت إلى جميع الرجال بتلك الأغاني المستفزة، ولن أطيل في الكلام،

فلنذكر محاسن موتانا، ورحمك الله وغفر لك وأسكنك فسيح جناته، لكن الحب ليس هكذا.

أنا وشخصية العبقري العظيم محمد فوزي

لا أدري من أين أبدأ أو من أين أنتهي، لأنني أمام عبقرية بمعنى الكلمة ستظل ذكراها وأعمالها خالدة مهما طال الزمن، ومهما تغيرت أذواق وعقليات البشر، إنه العظيم محمد فوزي الذي لا يزال الشعب العربي يتغنى بأغانيه، ويرقص على موسيقاه الساحرة التي تتميز بذلك الإيقاع السريع، الذي قد بدا غريبًا في وقته، لكن يبدو أنّ فوزي قد راعى متغيرات العصر، وأدرك أن هناك أجيالا سوف يتغير ذوقها وميولها، فترك لنا هذا التراث الهائل من الفن بأنواعه المختلفة الطرب الموسيقى والسينما.

أما من ناحية الموسيقى والطرب فقد برع فوزي في جميع الألوان، سواء منها العاطفي أو الوطني أو أغاني الطفل، فمن منا ينسى هذا الثنائي الرائع بينه وبين ليلى مراد؟ أقصد شحات الغرام أو حبيبي وعينيه أو تعب الهوى قلبي أو مال القمر ما له.

وفي مجال الأدعية من منا لا يتذكر قف بالخشوع ونادي ربك؟ أو قصيدة أبي نواس إلهي ما أعدلك؟

وأما في الوطني فمن منا ينسى بلدي أحببتك يا بلدي؟

وفي الطفل ماما زمانها جاية، وذهب الليل.

ومن الأشياء التي تدل على عبقرية فوزي هذا الموقف الذي حدث معه مع أحد الفرق الموسيقية التي كانت تسجل معه إحدى الأغنيات، واعترضت الفرقة في الاستديو على المقابل المادي، فقال لهم فوزي: سوف أسجل الأغنية بدونكم، وبالفعل جعل من الكورال نغمات تردد وراءه أثناء غنائه، فكانت أغنية كلمني طمنى، والتي حظيت بشهرة واسعة، رغم أنها لا توجد فيها آلة موسيقية واحدة، لكن أريد هنا أن أتحدث عن جانب مهم في شخصية فوزي وهو تعامله مع الآخرين، حيث كان يتميز بطيبة القلب وحسن المعاملة والتواضع الشديد، والدليل على ذلك هذا الموقف الرائع الذي لا يعلمه الكثيرون، حيث كانت أمنية حياة فوزي أن يلحن ولو أغنية واحدة لأم كلثوم، وبالفعل جاءت الفرصة مع الشاعر مأمون الشناوي، وأخذ في تلحين أغنية أنساك دا كلام، وفي الوقت نفسه كان العظيم بليغ حمدي يلحن لأم كلثوم حب إيه، وكانت من عادة أم كلثوم أن تضع كل شاعر وملحن معا في غرفة بمفردهما في بيتها، فكان فوزي ومأمون في غرفة، وبليغ وعبد الوهاب محمد في غرفة، وكل منهم يعمل في أغنيته، لكن يبدو أن فوزي ومأمون قد خرجا من الغرفة في أمر ما، فاستغل بليغ الفرصة وكان لم يزل صغيراً في السن، فدخل غرفة فوزي ومأمون وأخذ الورقة التي فيها كلمات أغنية أنساك وأكمل تلحين الكوبليه الثاني والثالث، لأن فوزي قد انتهى من تلحين المطلع والكوبليه الأول. وعندما عاد فوزي ومأمون وجدا

بليغ في غرفتهما ممسكاً بالعود، فانفعلت عليه أم كلثوم فقال بليغ: أعطيني فرصة كي أسمعك ما لحنته، فرفضت لكن فوزي أصر على سماع بليغ، وعندما أسمعهما بليغ لحن الأغنية قال فوزي: والله مهما كنت بارعاً في التلحين فلن ألحنها مثل بليغ، واستأذن بالانصراف، ورفض أن يضع اسمه على الأغنية، وأن ينسب تلحينها بأكملها إلى بليغ حمدي اعترافا منه بعبقريته وتشجيعاً له، حيث كان في بداية موهبته، فإن دل ذلك الموقف على شيء فإنما يدل على تواضع فوزي وسعة صدره وتشجيعه للأجيال التالية.

لكن هنا يجب أن نتوقف عند قصة أغنية يا مصطفى، هي الأغنية التي منعها مجلس قيادة الثورة عام 1960 لفترة بسيطة، وقتها كان عمنا نجيب محفوظ مدير التصنيف والرقابة السينمائية في عهد وزير الثقافة ثروت عكاشة، قبل أن يتقدم باستقالته في نفس العام.

ويكمن سبب المنع في .. قالوا: إن (أنا بحبك يا مصطفى) المقصود به الزعيم مصطفى النحاس (سبع سنين في العطارين) المقصود بها سبع سنوات مرت على إسقاط الملكية وقيام الجمهورية.

مصطفى يا مصطفى أشهر أغنية فرانكو آراب، تم طباعة الملايين منها وتوزيعها في الستينات، وظلت شركة الإنتاج الفرنسية تطبع منها نسخا لمدة شهرين تواصلين لسد الطلبات.

والأغنية من الفلكلور الإسكندرانى، أعاد تلحينها بشكل عصري الفنان المبدع محمد فوزي، غناها المطرب المصري بوب عزام ، الذي وُلد في الأسكندرية سنة 1925 ، وتوفي في موناكو سنة 2004.

وغناها بعده الفنان برونو موري شقيق الفنانة العالمية داليدا .. بتوزيع مختلف

bob azzam بوب عزام.

واستثمارا لنجاح الأغنية ظهرت مرتين في السينما المصرية، في فيلم الفانوس السحري 1960 بطولة إسماعيل يس وعبد السلام النابلسي، وفي فيلم الحب كده عام 1961 بصوت بوب عزام وأداء ممثل مغمور، الفيلم بطولة صلاح ذو الفقار، وصباح.

ولكن عام 1961 وبعد صدور القوانين الاشتراكية تم تأميم شركة مصر فون وضمها للدولة، وعُيّن محمد فوزي مديراً براتب 100 جنيه على الشركة التي أنفق عليها كل ما يملك، واُضطر لبيع عقارات وأصول ثابتة من أجلها، لم يشمل التأميم شركة صوت الفن في ذلك الوقت، وأرجع البعض سبب ذلك لقرب عبد الحليم حافظ من جمال عبد الناصر.

بالطبع تأثر فوزي وتأزم، يقول المصور الشهير فاروق إبراهيم في مذكراته: إن فوزي ذهب لشركته، ففوجئ بجلوس رجل كفيف في مكتبه، وتخصيص مكتب صغير له، كان في السابق غرفة للساعي الذي يخدمه، رفض فوزي الجلوس في المكتب، وعاد إلى بيته، ليفاجأ بآلام شديدة في بطنه، استمرت تأتيه بين الحين والآخر، ليذهب في رحلة مع مرض استعصى على الأطباء تشخيصه.

سافر للعلاج إلى بريطانيا وألمانيا، لكن المستشفى الألماني الذي كان يتعالج فيه أعلن أن المرضَ الذي أُصيب به نادرٌ، ولم يُصب به في العالم إلا خمسةُ أشخاص، حتى إنه عرف وقتها بمرض فوزي لندرته، واُكتُشف لاحقاً أنه كان تليفاً في الغشاء البريتوني الداخلي للبطن.

وقد التقط له المصور فاروق إبراهيم صورة قبل وفاته بفترة قصيرة بناءً على طلبه بعد أن تضاءل حجمه وفقد معظم وزنه، ونقل إبراهيم عنه قوله لحظة التقاطها: "صور كويس يا فاروق.. مش عايز المعجبات يضيعوا زي صحتي ما ضاعت".

وقال: تحياتي لكل من رفع يده إلى السماء من أجلي، تحياتي لكل طفل أسعدته ألحاني، تحياتي لبلدي، أخيراً تحياتي لأولادي وأسرتي، واختتم الرسالة: لا أريد أن أُدفن اليوم، أريد أن تكون جنازتي غدًا الساعة 11 صباحًا من ميدان التحرير، فأنا أريد أن أُدفن يوم الجمعة.

ويقول فاروق إبراهيم: إن المثير بحق أن ما شعر به محمد فوزي كان صحيحًا، إذ وافته المنيّة في اليوم نفسه الذي كتب فيه رسالته، وهو الخميس 20 أكتوبر 1966، عن عمر ناهز 48 عامًا، ليُدفن يوم الجمعة كما تمنى، رحم الله العظيم محمد فوزي.

أنا والأفوكاتو

تُعد مهنة المحاماة من المهن التي أنظر لها نظرة خاصة تختلف عن بقية المهن التي أعرفها؛ فشخصية المحامي دائمًا ما تستحوذ على اهتمام الكثير من الكتاب والمؤلفين، وإن اختلف التناول فيما بينهم، فوجدنا شخصية الأفوكاتو الذي قام بدوره الفنان عادل إمام، ثم المحامي المضحك عادل خيري في مسرحية إلا خمسة، لكن لا أنكر أن أكثر من أضحكني ودفعني إلى الاهتمام بتلك الشخصية هو الفنان عبد الفتاح القصري في فيلم الأستاذة فاطمة حين قام بمرافعته العصماء التي ستظل خالدة في الأذهان، حين كان يدافع عن قضيته ضد الفنان عبد الوارث عصر.

ولعلّ مهنة المحاماة قد اختلفت قيمتها قديماً وحديثاً؛ حيث نجد قديمًا في أوائل القرن الماضي أن معظم رؤساء الأحزاب والذين تولوا تشكيل الوزارة كانوا محامِين مثل: الزعيم سعد زغلول، كذلك نجد زعماء الحركة الوطنية مثل: الزعيم مصطفى كامل، فكان الآباء يتهافتون على إدخال أبنائهم كلية الحقوق.

هذا قديماً أما حديثاً فقد اختلف الأمر بشكل كبير؛ حيث ضمت الحقوق كلَّ الحاصلين على أقل الدرجات، ثم بعد ذلك يلعب الحظ دوره مع الذي يتخرج فيها، فبحسب شطارته وبراعته في أن يكون محامياً ناجحاً، يكتسب شهرة وسمعة بين الناس.

لكن بعد الثورة نجد أصحاب هذه المهنة قد احتلوا مكانة واسعة على شاشات التلفزيون، ولا يمكن أن أنسى هنا أول جلسة في محاكمة مبارك وأعوانه حين استغل المحامُون الفرصة لاستعراض أنفسهم وشهاداتهم بشكل نال استياء الجميع، ثم وجدناهم بعد ذلك يفتون في كل شيء بين فاهم وغير فاهم، وبين من يوظف رأيه بحسب الاتجاه الذي يتبعه.

ومع يقينى أن كل شيء فيه الحسن والسيء، إلا أنني دائماً أزدري القاعدة الكبرى من المحامِين، وما ذلك إلا لأنهم دائماً ما يسعون إلى قلب الحقائق بمعنى أنه إذا ذهب إلى أحدهم قاتل أو سارق، ومع علمهم الشديد بإدانته، إلا أنهم يبذلون أقصى ما عندهم من أجل تبرئته وعدم نيله العقاب الذي يستحقه.

فلا أدري كيف يكون ضمير هذا المحامي حينما يحصل مجرم على براءة لا يستحقها، كل هذا من أجل حفنة من الأموال، فعليك أن تتخيل أن هذا المحامي قد يجعل الظالمَ مظلومًا والمظلومَ ظالمًا، بل كل همه يكون منصبًا في البحث عن ثغرات في القانون حتى ينفذ منها كالفأر، فيحقق من خلالها ما يصبو إليه له ولمجرمه، والغريب أنه يظل يتحدث عن العدالة، ويظل يتشدق بالآيات والأحاديث والحِكم والشعر والأشعار مع يقينه بأن العدالة هي في عكس ما يقوله، وبذلك فإن

المحامي يعيش على مصائب الناس، فمتى كثرت الكوارث نشطت مهنة المحاماة، ولذا فما أكثرهم في الوقت الحالي، وربنا يجعل كلامنا خفيفًا عليهم.

التنين الصيني المخيف

نعيش الآن في عالمنا الحاضر حالةً من الصراع والتجاذب بين شتى الحضارات والإمبراطوريات، لذا يجب أنْ نعترف أنّ الغولَ الصيني قادمٌ بشدة، وقبل كل شيء يجب أن ننحني لهذا الشعب العظيم، وهذا النظام الحريص على مصلحة بلاده، حتى وإنْ كان شيوعيًّا لا يعترف بوجود الله، ولا يعترف بالحرية، وأحيانا يقسوا على مواطنيه، لكنه في النهاية استطاع أنْ يضع بلاده في مقدمة دول العالم في كافة النواحي.

كم كنت في حالة من الذهول وأنا أتصفح سجل الدول المنتجة في الزراعة والصناعة والثروة الحيوانية، فأجد أن الصين تستحوذ على معظم إنتاج هذه الأشياء، وبنسبة هائلة جعلتها تغزو كل الدول، بل كل مدينة، بل كل بيت، بل كل غرفة.

انظر إلى ما حولك فسوف تجد أنّ معظمه من الصناعة الصينية، فهم يعرفون من أين تُؤكل الكتف**!**؟ فهم في صناعاتهم لا ينظرون إلى الدول الغنية فقط، بل يراعون دول العالم الثالث بالقدر الذي يكون بمتناول أيديهم في الشراء، وبحسب الدولة المُصدَّر لها تكون نسبة الجودة، فليس من المعقول أن يكون المنتج الصيني المُصدَّر إلى أمريكا أو فرنسا مثل المنتج الذي يتم تصديره إلى مصر.

لكن في النهاية هو في متناول المواطن البسيط، وهكذا استطاعت الصين غزو جميع دول العالم بمنتجاتها في شتى المجالات.

لكن الغريب في هذه الدولة أن المواطنين فيها إذا ما ارتكبوا جُرماً سواء كان سياسيًّا أو غيره تكون العقوبة هي ترحيلهم كأيدي عاملة إلي دول الخليج وغيرها، وبذلك تستفيد بهم من كافة النواحي، ولا أدري إن كانت أمريكا وهي على رأس الهرم الدولي تصنع بالعالم هكذا، وهي في مقدمة الدول الديمقراطية.

فماذا إذا ما جلست الصين على رأس الهرم وهي الدولة الشيوعية الدكتاتورية التي لا تعترف بحرية الفرد؟ فماذا ستصنع بنا وبجميع دول العالم؟

الذي أراه إننا أمام تنين مخيف قادم إلينا بشدة، يمتلك ثروة هائلة من البشر، لا تعرف إلا لغة العمل والتجارة؟

وأتذكر هنا صديقي الصيني الأستاذ عثمان الذي تعرفت عليه عبر الإنترنت، وكان أول حديثنا أنه يريد أن يقيم مشروعا تجاريا ، فهم يستغلون كل فرصة من أجل تسويق منتجاتهم، وإذا كانت الصين قد بلغ عدد سكانها مليارا وستمائة مليون نسمة

قد فعلت كل هذا، فلماذا نبكي ونصرخ من الزيادة السكانية؟ ونحن لم نتجاوز المائة مليون.

لكن للأسف إنها مشكلتنا الأزلية، لا نريد أن نعتمد على أنفسنا في الصناعات والحرف البسيطة، وننتظر التعيين الحكومي لكي نجلس على مكتب، ونمسك بقلم وورقة فقط، لكن أن نعمل بأيدينا فتلك ثقافة غير موجودة عندنا.

فلنتخيل أن الأطفال الصينيين قد برعوا في صناعة ما يعرف بصناعات ما تحت السلم من قطع غيار الموبايلات والأدوات الكهربائية، أما نحن فلم نزل نقول لأطفالنا اشرب اللبن الصبح، واسمع كلام بابا وماما.

بل لا نستحي من أنفسنا عندما تصنع لنا الصين فوانيس رمضان، وتصاحبها بنغمات لمطربين مصريين، فهي لم تترك لنا شيئا.

ويبقي السؤال: هل سنظل مكاننا بينما يتقدم الآخرون**!**؟

هل سنظل نتناحر مع أنفسنا وننسى ما حولنا ثم نُفاجأ أننا قد أصبحنا تحت أقدام غيرنا**!**؟ بالتأكيد لابد من استفاقة واستيقاظ ضميرنا لأجل وطننا.

ماذا لو كنت من هذه الطائفة الهندية

من أغرب العادات التي قرأتُ عنها في حياتي تلك العاده الموجودة عند إحدى الطوائف الهندية؛ وتكمن تلك العادة أن الزوج أو الزوجة إذا مات أحدهما فلابد أن يموت معه الآخر، فقد اجتمعا معاً، ولابد أن يذهبا معاً، هذا هو المعتقد والعادة عندهم، وحينما أفكر قليلاً ماذا لو كانت هذه العادة في مجتمعنا العربي.

هل الزوج أوالزوجة سيكون حريصًا على حياة الآخر؟ فقد تعودنا أنّ العاطفة أو الحب غالباً ما تهدأ بعد الزواج، ويحدث لها نوعٌ من الفتور.

لكن ماذا لو أنّ هذه العادة كانت موجودة؟ أعتقد أنّ كلا الزوجين لن يفارق أحدهما الموبايل لكي يطمئن على صحة وأحوال الآخر بالطبع حرصاً على حياة كلا منهما.

فنجد في مجتمعاتنا أن الزوج أو الزوجة في أثناء الحياة الزوجية يظل أحدهما يغني على الآخر، حينما تقول أو يقول هل لو رحلت عن هذه الدنيا فسوف تتزوجين؟ أو تتزوج من بعدي، وبالطبع يكون الجواب مستحيل طبعاً.

ثم بعد أن يرحل أيهما نجد الآخر يتزوج في أقرب فرصة بحجة أن الوحدة صعبة، ولا يوجد من يراعيه، وبالطبع فإنني لا أعمم، ولا أنكر ذلك أيضا فهو أمر لا يخالف الشريعه أو الدين.

فإن الإنسان يعيش لحظته ثم تختلف المعايير إذا ما تغيرت، لكن الملفت للنظر عند هذه الشعوب أقصد شعوب آسيا الوثنية مثل: الهند أو اليابان أو كوريا هذا التقديس بوجه عام للحياة الأسرية، وكثيرا ما أرى ذلك في أساطيرهم وأفلامهم وقصصهم، وربما أدت الأديان عندهم دورًا كبيرًا في هذا الموضوع، فبالرغم من وثنيتها إلّا أن الكثير منها توجد فيه الكثير من التعاليم الإسلامية الجميلة، وأنا على يقين أن الأسر العربية إذا ما نظرت إلى الإسلام بمفهوم شامل وصحيح لأصبحنا أفضل من هذه الشعوب.

بالطبع أتحدث عن المعاملة الزوجية ومعاملة الأبناء، لكن أعود وأفكر ماذا لو أن هذا المعتقد كان عندنا، هل سيكون الزوج أو الزوجة كلٌّ منهما حريصا على الآخر؟

أرجو ذلك، وهل سيكون الدافع المحافظة على حياته أو حياتها، أم أنَّ الرجال والنساء عندنا سيتراجعون عن فكرة الزواج برمتها؟

أرجو عزيزي القارئ أنْ تجيب على هذا السؤال حتى ولو كان بينك وبين نفسك.

حوار بين معلم وتلميذه

دخل المعلم ذات يومٍ الفصل، وبعد أن كتب الدرس على السبورة، وأخذ يشرح وجد أحد الطلاب ينظر فٍي محموله الخاص، فهجم عليه بغتة، فوجده يدردش على الفيس، فأمسك العصا: وأراد أن يضربه، ودار الحوار التالي:

المعلم: أنت طالب مستهتر، لا تعرف معنى التربية أو التعليم.

التلميذ: لماذا يا أستاذ؟

المعلم: لأنك لا تحترم المدرسة ولا المعلم الذي قال فيه الشاعر:

قف للمعلم وفه التبجيلا   كاد المعلم أن يكون رسولًا

التلميذ: كيف يكون المعلم رسولا وهو يفتح بيته من أجل المتاجرة من خلال الدروس الخصوصية؟ وهل يوجد معلم يذهب إلى بيوت التلاميذ من أجل التسول؟

المعلم: ماذا تقول؟ هل نحن متسولون؟

التلميذ: نعم، الدولة تعطي لك راتباً، كما أنه توجد بالمدرسة ما يعرف بدروس التقوية، فلماذا تدور على البيوت؟ وتجعل من بيتك ساحة للتلاميذ.

المعلم: إنها ظروف الحياة الصعبة التي تضطرنا إلى عمل هذا.

التلميذ: وأنا أيضاً أبي يعمل طوال اليوم، وليس متفرغا لي حتى يربيني، فلماذا تعاقبني؟

المعلم: إذاً أنا سأربيك.

التلميذ: ومن سيقوِّم سلوكك الأعوج؟

المعلم: أنا أعمل لدى دولة لها قوانين ومؤسسات، وهي التي تعاقبني وتثيبنى.

التلميذ: وهل الدولة لم تصدر قانوناً بتجريم الدروس الخصوصية التي تخرج عن نطاق المدرسة؟

المعلم: أنت طالب قليل الأدب.

التلميذ: لا تسبني أستاذي، فمن كان بيته من زجاج لا يقذف الناس بالحجارة.

المعلم: لم أكن أتخيل أن تكون بتلك السوقية في الكلام.

التلميذ: بل قصدك لم تكن تتخيل أن أكون بمثل هذه الصراحة يا أستاذي، أعلم أنني صغير السن، وأعلم واجب احترام المعلم، لكنها المصيبة العامة التي انحدرت بأخلاقي وأخلاقِكَ.

المعلم: ما يدريك أيها الغبي بالمصيبة العامة؟ وما يدريك بالأخلاق؟ أنت لا تفهم شيئا ولكن تريد المجادلة.

التلميذ: يبدو أنه ليس هناك فائدة، كلما نصارحكم بالحقيقة تتهموننا بعدم الفهم سواء أنت أو أبي.

المعلم: وعلى فرض قولك أنك فاهم، هل من الفهم أن تقوم بفتح الموبايل في داخل الفصل؟

التلميذ: عندما تقول أنك معلم في التربية والتعليم، فهل يصح أن تمسك السيجارة داخل الفصل وأمام التلاميذ؟

المعلم: أتناول السيجارة لاشمئزازي منكم ومن الدولة فلا يوجد شيء يَسُرُّ.

التلميذ: وأنا أحادث أصدقائي على الفيس لاشمئزازي من المدرسة، وكثرة الأموال التي أدفعها في الدروس الخصوصية.

المعلم: هل لك أن تسمع نصيحتي؟

التلميذ: تفضل.

المعلم: أنصحك أن تترك المدرسة وتبحث عن حرفة تكسب منها الأموال.

التلميذ: هل من الممكن أن أقول لك شيئا؟

المعلم: تفضل.

التلميذ: ولماذا لا تترك الدروس الخصوصية والدوران على البيوت وتعمل عملا إضافيا؟

المعلم: يبدو أنك ثرثار ترد الكلمة بكلمة.

التلميذ: لا يا أستاذي أن أجاريك الحوار، فلماذا تخرج عنه؟ وفجأة ضرب جرس الحصة .

المعلم: ها قد أضعت الحصة في كلام تافه، وأضعت على زملائك فرصة قيمة.

التلميذ في سخرية: بل أنت الذي أضعتها بالتفاتك لي، فلو كنت تغافلت عني من بداية الأمر لكان أفضل.

المعلم بداخله: معك كل الحق .. ثم ترك التلميذ ومضى.

وبعد هذا الحوار صديقي وصديقتي أريد أن أعرف، على من يقع الخطأ الأكبر أرجو الإجابة؟

التعليم في مصر إلى الأمام أم إلى الخلف

يقال: إن الطفل المصري هو أذكى طفل في العالم، ولنفترض أن تلك المقولة صحيحة، فلماذا يتناقص ذكاؤه بمجرد الالتحاق بالمدرسة!؟

هل التعليم عندنا يرتقي بالعقول أم يهبط بها إلى أسفل؟ سؤال ظللت أفكر فيه كثيراً حتى دخلت منظومة التعليم في مصر، ووضعت يدي على كثيرٍ من الأسباب التي أراها أدت لتراجع عقلية الطالب عندنا، وهذه الأشياء هي:

1- طبيعة المناهج التي أراها تافهة لا تليق بطالبٍ تجاوز العشر سنوات من عمره، فالقط يتكلم، والأسد يحاور، والثعلب يفكر، في حين أن الطالب الصيني في تلك السن نراه قد أصبح متمكناً من استخدام أجهزة الحاسوب التي تساعده على الارتقاء بعقليته وفق مناهج منظمة تُقدَّم له في المدارس، وقد عرفت هذا من صديقي الصيني الذي كنت أتحاور معه.

2- انعدام النظام العقلي للطالب، فالمفترض أن المدرسة لتلقي الدروس، وما بعد المدرسة للمذاكرة في البيت أو بعض الترفيه، لكن مع الأسف الشديد فإن معظم الوقت في داخل المدرسة يذهب هباءً دون تعليم، معتمدين على الدروس الخاصة التي يتلقاها الطالب عقب اليوم الدراسي، وبهذا يتم اجهاد عقليته حيث لا راحة ولا ترفيه ولا متسعا من الوقت للمذاكرة داخل المنزل.

3- تفتقر المدارس عندنا إلى حُسن استخدام التكنولوجيا مع اعترافي بمساعي الدولة إلى تطوير النظام التعليمي باستخدام أحدث الوسائل، لكن المشكلة الحقيقية تكمن في انعدام الكوادر المدربة على استخدام تلك التكنولوجيا فضلاً عن الخدمة السيئة من كهرباء وإنترنت خاصة في القرى والمدن الصغيرة.

4- كثافة الطلاب التي تحدث نوعًا من الاختناق وعدم الراحة في تلقي المعلومة أو الانتباه مع المعلم، وأصبح همُّ الطالب الوحيد انتهاء اليوم الدراسي؛ حيث الملل فلا نشاط رياضيا أو فنيا أو أي شيء يرغّبه بالتواجد في المدرسة.

5- افتقدتْ علاقة المعلم بالطالب إلى القداسة والاحترام المتبادل، وأصبحت العلاقةُ مبنيةً على المادة والافتقار إلى الوسائل التربوية في حل المشكلات التي تحدث بينهما خاصة بعد انتشار وباء الدروس الخصوصية، والتي جعلت المعلم يذهب إلى الطالب في بيته بعد أنْ كنا قديماً عندما نرى المعلم في الشارع نهرب منه حتى لا يرانا.

6- خضوع الطالب لرغبة الأب والأم في اختيار مصيره التعليمي، مما جعل بعض الطلاب يدرسون أشياء على غير رغبتهم، ولا تتفق مع ميولهم، فأصبحت النتيجة الطبيعية عدم الوصول إلى ما يطمحون إليه.

7- عجز الدولة عن الاستفادة بخريجي الكليات المتوسطة، وعدم جعلهم قوة فعالة في المجتمع، نتيجة للظروف الاقتصادية مما جعل طموح الطلاب مقتصرًا على كليات القمة فقط، وبالتالي نفورهم من الكليات الأخرى، وتقاعسهم عن الاجتهاد فيها.

8- تدهور حالة المعلم الاقتصادية وعدم تقييمه بالشكل اللائق به، مما جعله يتهافت على الدروس الخصوصية التي تعد الوباء الأكبر في العملية التعليمية، والتي تسبب إزعاجا لأسر الطلاب قبل بداية كل عام دراسي.

9- عدم تأهيل المعلم بالشكل المناسب حتى يصبح مستعداً للعملية التعليمية وفق المناهج والأساليب الحديثة، حيث لا توجد دورات فعّالة، أو تدريب جاد يرفع من قدراته الذهنية، ويطور من أساليبه التربوية في التعامل مع الطالب.

10- قلة الثقافة الخارجية لدى الطالب، حيث المعلومة عنده مقتصرة على الكتاب المدرسي فلا قراءة في المجلات، ولا استخدام أمثل للإنترنت، يخرج منه بمعلومة جديدة بل أصبح مقتصرًا على الألعاب والتسلية فقط.

11- عدم تطبيق قانون الثواب والعقاب على الطالب والمعلم بشكل فعال يمكّن من تنظيم العلاقة بين الطرفين حتى يعلم كل منهما حقوقه وواجباته.

تلك هي أبرز الأسباب التي أراها عائقًا للنهوض بالعملية التعليمية في مصر، والتي تسبب لنا كثيرا من المعاناة في العمل، وأراها تعود بعقلية الطالب إلى الخلف وليس للأمام.

الطلاق ظاهرة العصر

منذ سنوات عديدة تتم دعوتي إلى كثير من حفلات الزواج وما فيها من مظاهر الأفراح المنتشرة هنا وهناك، زيجات كثيرة تتم بسرعة عاجلة، شباب وفتيات صغار السن، بالطبع هذا رائع، فما أجمل أن يعف الإنسان نفسه! لكن مع الأسف الشديد بنفس تلك الكثرة في الزيجات أجد كثرة تقابلها في حالات الطلاق، وكما تم الزواج سريعاً يأتي الطلاق سريعاً، وترتب عليه كثير من المشاحنات واللجوء إلى القضاء، إلى الدرجة التي رأيت فيها ثلاث حالات طلاق في أسبوع واحد، وهذا ما أزعج صديقتي العزيزة التي كانت في زيارة سريعة إلى مدينتنا، وطرحت السؤال التالي: زيجات بسرعة وطلاق أسرع، لماذا؟

وهنا أخذنا نتناقش ونتحاور عن الأسباب الحقيقية التي اتفقنا على معظمها وهي:

1- كان الشاب أو الفتاة في القديم وهما مقدمان على الزواج يدركان أنه مسئولية تحتاج إلى إسلوب جديد في الحياة، وليس مجرد استمتاع فقط.

2- قديماً كان مجرد لفظ طلاق عيب، تخشاه جميع الأسر المصرية، فكان الجميع حريصا على استقرار الأسرة سواء هنا أو هناك، مع توافر الإخلاص في إصلاح ذات البين، إلى الدرجة التي كان يرفض فيها الأب أوالأم قبول ابنته التي تغضب، ويجبرها على العودة إلى بيت زوجها، وتعنيفها حتى ولو كان الحق معها.

3- وهذا السبب أراه شائعا بكثرة في هذا الزمن الذي نعيش فيه، إنها المصلحة المشتركة، أقصد الزواج المبني على المصلحة بين رجلين أو أسرتين، وفي جلسة واحدة يتفق الطرفان أن يأخذ ابن هذا ابنة ذاك، وتتم الزيجة والأبناء لا حول لهم ولا قوة، وبالطبع عندما تتضارب المصالح تنهار معها هذه الزيجة المبرمجة.

4- غياب الوازع الديني فيما يتم من مراسم الزواج، فلا يتقي اللهَ أحدٌ من الأسرتين سواء في تجهيز الأساس أو مراسم الزواج نفسه التي تُبعثر فيها الكثير من الأموال، مما يجعله زواجا يفتقد البركة.

5- مع الأسف الشديد وهي ظاهرة خاصة بالشباب القادم من الخارج، يعود من غربته فرحاً بما معه من أموال، يتقدم إلى أسرة ما، وبالطبع توافق على الفور دون أن تسأل عن عمله، وبعد أن تذهب معظم أمواله في مراسم الزواج يقعد مع زوجته دون عمل حتى ينفد ما معه من مال، كنت أضحك كثيراً عندما تخبرني فتاة أنها مقبلة على الزواج وعندما أسألها عن عمله، تقول: كان برة ورجع، أضحك وأقول هل هذا عمل جديد!؟

6- وهو سبب مهم وحاسم وفاصل أسرة الطرفين؛ مع الأسف الشديد أصبح لفظ طلاق أول ما يجري على لسان الأب أو الأم عند أول خلاف بين الزوج أو الزوجة،

وكل منهما يشجع على تصعيد الخلاف بدلا من تهدئته دون أن يراعي أحد فيهم الخسائر المستقبلية، أو مصير الأولاد، إنما هو العند وحب الغلبة والاستمتاع بإذلال الطرف الآخر.

7- التسرع في الزواج؛ هناك حكمة عظيمة مؤمن بها دائما وهي: ما يأتي عزيزاً يذهب عزيزاً، فقد كان الشاب لكي يتزوج في القديم يواجه صعوبات لدى أهل العروس، وكانت هناك قيود تُفرض عليه، تجعله لا يفكر في مسألة الطلاق إلا نادراً، لكن اليوم أصبح كل شيء يتم بسهولة، ولذا يذهب أيضا بسهولة.

تلك هي أبرز الأسباب التي اتفقتُ فيها مع صديقتي، حيث إن الطلاق قد أصبح ظاهرة بشعة، انعكست آثارها على المجتمع بشكل عام.

الأسماء وما أدراك ما الأسماء

قد يقول البعض: إنّ هذا الموضوع سهل وبسيط، لكن لو يعلم كلُّ أب وأم مدى الآثار التي يتركها الاسم على الابن والابنة في ثنايا حياتهما، لفكرّا كثيراً وكثيراً قبل اختيار الاسم.

فمن حقوق الطفل عند ولادته حسن اختيار اسمه؛ فالواجب على الوالدين أن يختارا للطفل اسمًا حسنًا يُنادى به بين الناس، ويُمَيَّز به عن أشقَّائه وأقرانه، وأوجب الإسلام أن يحمل الاسم صفة حسنة أو معنًى محمودًا، يبعث الراحة في النفس والطمأنينة في القلب؛ يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إِنَّكُمْ تُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَسْمَائِكُمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِكُمْ فَأَحْسِنُوا أَسْمَاءَكُمْ".

وقد كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يسمي أبناء أهله وأقاربه وأصحابه، ويتخيَّر لهم الأسماء الحسنة والجميلة، كما أحب - صلى الله عليه وسلم - الأسماء التي تحمل معنى العبوديَّة لله، والأسماء التي تحمل معاني الخير والجمال والحبِّ والكمال؛ فالاسم الذي يحمل أحد هذه المعاني يُوقظ في وجدان صاحبه المعاني السامية والمشاعر النبيلة، ويُشعره بالعزَّة والفخار باسمه واحترام ذاته، ويُبْعِدُه عن سخرية الناس واستهزائهم، وعلى النقيض من ذلك، فالأسماء القبيحة تُثير في نفس صاحبها عدم الرضا عن النفس، وتدفعه للانطواء على الذات، والانعزال عن الآخرين، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فالأسماء القبيحة تُثير السخرية والاستهزاء من قِبَلِ الآخرين، مما يُوَلِّد في نفس صاحبها مَرَارة وجرحًا غائرًا، وقد يدفعه ذلك إلى الخجل الشديد، وعدم القدرة على مواجهة الناس ومواقف الحياة، وقد يدفعه أيضًا إلى كراهية الناس والابتعاد عنهم.

ومن أصدق ما جاء في ذلك أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - جاء إليه رجلٌ يشكو له عقوق ابنه، فقال عمر للابن: أما تخاف الله في عقوق والدك؟ فقال الابن: يا أمير المؤمنين، أَمَا للابن حقٌّ على والده؟ قال عمر: حقُّه عليه أن يستحسن أُمَّه، ويحسن اسمه، ويعلمه كتاب الله، فقال الابن: فوالله ما استحسنت أمي، وما هي إلا أم مشتراة، ولا أحسن اسمي، بل سماني جعلاً، ولا علَّمني من كتاب الله آية واحدة، فالتفت عمر إلى الرجل، وقال: تشكو من عقوقه، فقد عققته قبل أن يعقَّك.

ولك أن تتخيل عزيزي القارئ هذا الموقف حين كنتُ طالباً في الجامعة، وكان لنا صديقٌ يسمى عماد، وكان هذا هو الاسم المشهور بيننا، ولا نعلم له اسما آخر، حتى دخل أستاذ المادة في يوم وفي يده قائمة الأسماء التي تتضمن الأسماء الحقيقية لكل طالب، وظل ينادي على كل اسم حتى وصل الدور على عماد، فلكم أن تتخيلوا ماذا كان اسمه الحقيقي.

كان اسمه السجان، وعندما سمعنا اسم السجان ظل جميع الطلاب يضحكون ويسخرون حتى أصبح عماد في حالة سيئة جداً، وكم أستغرب من هذه الأسماء التي أجدها في محيط المدارس عند الأجيال الجديدة من الطلبة والطالبات، أمثال: راجو، وباكينام، وليزا، وساندي، ونورسين، وليان، ولاما، وغيرها من الأسماء المعدومة اللون والرائحة، لكن في الوقت نفسه أرى بعض الأسماء القديمة والتي يزخر بها تراثنا العربي والإسلامي قد عادت من جديد وبقوة، مثل: عمر، وخديجة، وزينب، وعبد الرحمن، ومعاذ، وصهيب، وغير ذلك من الأسماء الجميلة التي تذكرنا بصحابة رسول الله.

لكن أشد ما يُلفت الانتباه، وتستطيع أن تعرف من خلاله اتجاه صاحبه السياسي أو الديني، هي مسميات الأصدقاء والصديقات عبر برامج التواصل الاجتماعي، مثل: إخوانية والشرف ليا، وسيساوية والفخر مصرية، ونقابي سر جمالي، وغير ذلك من الإشارات التي تجعلك تأخذ حذرك قبل الخوض في أي حوار مع أصحاب تلك المسميات.

لكن تخيل عزيزي القارئ أن يصل بنا الحال في هذا الوقت أن يكون الاسم سببًا في الطلاق، والله هو ما حدث بالفعل عند أحد الأشخاص الذين أعرفهم فقد طلبت زوجته الطلاق لمجرد أنَّه يريد يُسمي المولود باسم أبيه، بالرغم من أنَّ الاسم رائع وجميل ومن الأسماء المتداولة، إلَّا أنّ الزوجة كان لها رأيٌّ آخر في الاسم، مما دفعها أن تترك البيت وتصر على الانفصال، فرجاء أعزائي الآباء والأمهات أن تتخيروا أسماء أبنائكم بحسب ذوق المجتمع الذي تعيشون فيه.

الحجاج بن يوسف الثقفي رؤية خاصة

منذ الصغر كنت أسمع كثيرًا عن شخصية الحجاج بن يوسف، ذلك الظالم الفاسق السفاح على حسب قول من سمعتهم من أساتذتي، الذين – بالطبع - كانوا ينقلون ما قرأوه عنه في بعض الكتب، وبعد وقت طويل عندما اكتشفت أنه لا يُوجد مصدرٌ ثابت حقيقي إلا القرآن الكريم، كان لابد أن أعيد النظر في البحث عن تلك الشخصية، وبالفعل أخذت أجمع من هنا وهناك حتى اكتشفت الحقائق التالية:

الحقيقة الأولى: تكمن في أنّ الحجاج كان مصدر جدل بين كُتّاب التاريخ، ولم تجتمع المصادر على شخصية الحجاج حتى يكون ذلك الانطباع الذي توارثناه في الصغر، بل درسناه في مدارسنا وجامعاتنا.

أما الحقيقة الثانية: فتكمن في البحث عن نشأة هذا الرجل؛ لأن من الطبيعي أن النشأة يكون لها أثر عميق على طبيعة الشخصية، وقد أجمعت معظم المصادر على أنه نشأ بين أسرة كريمة من بيوت ثقيف، وكان أبوه رجلًا تقياً شريفاً، وقضى معظم حياته في الطائف، يُعلّم أبناءها القرآن الكريم دون أن يتخذ ذلك حرفة، أو يأخذ عليه أجرا، وأمه هي الفارعة بنت همام ابن الصحابي عروة بن مسعود الثقفي، تزوجها الصحابي المغيرة بن شعبة ثم طلقها وندم، فتزوجها أبو الحجاج.

حفظ الحجاج القرآن، ثم تردد على حلقات أئمة العلم من الصحابة والتابعين، مثل: عبد الله بن عباس، وسعيد بن المسيب، وغيرهما، ثم اشتغل بالتعليم مثل أبيه.

وقد كان من أفصح الناس، حتى قال عنه أبو عمرو بن العلاء: "ما رأيت أفصح من الحسن البصري، ومن الحجاج".

الحقيقة الثالثة: فتكمن في هذه الافتراءات والأكاذيب التي تخللتها تلك الأحداث التي وقعت بين الحجاج وعبد الله بن الزبير، فلم يكن للحجاج أن يقوم بمحاربة عبد الله ابن الزبير إلا بعد أن أعلن خلافته بالمدينة، ووقعت الأمة في حالة من التخبط؛ إذ صار هناك خليفتين، واحد بالمدينة وواحد بدمشق، فما كان من الحجاج إلا أن حاصر مكة المشرفة، وضيّق الخناق على ابن الزبير المحتمي بالبيت، وكان أصحابه بما فيهم ولديه قد تفرقوا عنه وخذلوه بسبب سياسته وشدته، ولم يبقَ سوى قلة صابرة لم تغنِ عنه شيئا، وانتهى القتال باستشهاد ابن الزبير والقضاء على دولته، وعودة الوحدة للأمة الإسلامية التي أصبحت في عام (73 هـ) تدين بالطاعة لخليفة واحد، وهو عبد الملك بن مروان.

وكان من أثر هذا الظفر أن أسند الخليفة إلى الحجاج ولاية الحجاز مكافأة له على نجاحه، وكانت تضم مكة والمدينة والطائف، ثم أضاف إليه اليمن واليمامة فكان عند حسن ظن الخليفة، وأظهر حزما وعزما في إدارته؛ حتى تحسنت أحوال الحجاز،

فأعاد بناء الكعبة، وبنى مسجد ابن سلمة بالمدينة المنورة، وحفر الآبار، وشيد السدود.

وأمَّا عن الحقيقة الرابعة: فتكمن في تلك القصة المزيفة التي تواترها كثير من الناس عن ضرب الحجاج للكعبة بالمنجنيق حتى هدمها، وهذه الفرية ردَّ عليها شيخ الإسلام، فيقول في الجواب الصحيح: "والحجاج بن يوسف كان معظما للكعبة، لم يرمها بمنجنيق".

ويقول في الرد على المنطقيين: "والحجاج بن يوسف لم يكن عدوًا لها، ولا أراد هدمها ولا أذاها بوجه من الوجوه، ولا رماها بمنجنيق أصلا".

ويقول في منهاج السنة النبوية: "أما ملوك المسلمين من بني أمية وبني العباس ونوّابهم فلا ريب أنَّ أحدًا منهم لم يقصد إهانة الكعبة: لا نائب يزيد، ولا نائب عبد الملك الحجاج بن يوسف، ولا غيرهما، بل كان المسلمون معظمين للكعبة، وإنما كان مقصدهم حصار ابن الزبير، والضرب بالمنجنيق كان له لا للكعبة. ويزيد لم يهدم الكعبة ولم يقصد إحراقها، لا وهو ولا نوابه باتفاق المسلمين".

وإنما كان احتراق الكعبة أيام يزيد بسبب اقتراب مشعل أحد جنود ابن الزبير من كسائها، فبعد ذلك قام ابن الزبير بهدمها ليعيد بنائها على قواعد إبراهيم، فلما قُتل أمر عبد الملك بإعادة بناء الكعبة على ما كانت عليه، وإخراج حجر إسماعيل منها، لأنه لم يسمع بالحديث الذي استند عليه ابن الزبير.

أما حكاية المنجنيق فأنا أشك بها، فالحجاج قد تقدم جيشه واحتل الأخشبين، جبل أبي قبيس الذي عليه القصر الملكي اليوم، وجبل قيقعان، وهما مطلان على المسجد الحرام من المشرق والمغرب وقريبين إليه جداً، فما الحاجة للمنجنيق؟ والمسجد الحرام من طابق واحد غير مرتفع، ومن السهل على جيش مكون من آلافٍ أن يعلوه ويدخلوه، وهو ليس مبنيا أصلاً ليكون حصناً، وهدمه لا يحتاج أكثر من بضعة أيام، فلمَ طال الحصار إلى عدة شهور؟

كما أن تفاصيل القصة تضمنت مبالغات مفضوحة، فكيف يزعمون أن ابن الزبير وحده قد قاتل بضعة آلاف، وأخرجهم من باب بني شيبة؟ وماذا عن باقي الأبواب؟ هذه أشبه بأساطير الإغريق.

أما عن الحقيقة الخامسة: فتكمن في ذلك الذي كتبه المؤرخون عن الحجاج في العراق، وقبل كل شيء فلا أحد منا ينكر طبيعة العراقيين القائمة على الطائفية والمذهبية وإهانتهم لمن يحكمونهم، ويكفي دعاء الفاروق عمر عليهم بأن يسلط الله ثقفياً عليهم، وبالفعل بعد أن أمضى الحجاج زهاء عامين واليًا على الحجاز نقله الخليفة واليا على العراق بعد وفاة أخيه بشر بن مروان، وكانت الأمور في العراق بالغة الفوضى والاضطراب.

فلبَّى الحجاج أمر الخليفة وأسرع في سنة (75هـ) إلى الكوفة، وحشد الناس للجهاد ضد الخوارج كما سيأتي تفصيله، ثم حدثت حركة تمرد في صفوف الجيش، بقيادة ابن الجارود بعد أن أعلن الحجاج عزمه على إنقاص راتب المحاربين من أهل العراق مائة درهم، ولكن الحجاج تمكن من إخماد الفتنة، وعفا عن المتمردين إلا بعض قادتهم، ثم تطلع الحجاج بعد أن قطع دابر الفتنة، وأحل الأمن والسلام إلى استئناف حركة الفتوحات الإسلامية التي توقفت بسبب الفتن والثورات التي غلت يد الدولة، وكان يأمل في أن يقوم الجيش الذي بعثه تحت قيادة ابن الأشعث بهذه المهمة، وكان جيشا عظيما أنفق في إعداده وتجهيزه أموالا طائلة حتى أُطلق عليه جيش الطواويس، لكنه نكص على عقبيه وأعلن الثورة، واحتاج الحجاج إلى سنوات ثلاثة حتى يخمد هذه الفتنة العمياء.

وخلال هذه السنين الصعبة، حقق ابن الأشعث عددا من الانتصارات فغرّه ذلك، وأعلن العصيان، وخلع طاعة الخليفة، وكان في نفسه عجب وخيلاء واعتداد كريه. وآزره عدد من كبار التابعين انغروا بدعوته، واضطرب أمر العراق وسقطت الكوفة والبصرة في أيدي المتمردين، وعرض عليهم الخليفة خلع الحجاج، فرفضوا وأصروا على القضاء على الخلافة الإسلامية.

غير أن الحجاج صمد واستبسل حتى جاء الجيش الشامي، وتمكن من سحق عدوه في معركة دير الجماجم سنة (83هـ)، ثم انتحر ابن الأشعث.

لقد قتل في هذه الفتنة أعداد عظيمة من المسلمين، بل معظم الذين قتلهم الحجاج في ولايته كانوا من المشتركين في هذه الفتنة العظيمة التي عطلت الفتوحات، وكادت أن تقضي على الخلافة الإسلامية، وهذا سبب تشدده، بعكس تعامله مع ثورة ابن الجارود.

الفتوحات الإسلامية:

بعد إخماد الفتنة عاود الحجاج سياسة الفتح، وأرسل الجيوش المتتابعة، واختار لها القادة الأكفاء، مثل قتيبة بن مسلم الباهلي، الذي ولّاه الحجاج خراسان سنة (85هـ)، وعهد إليه بمواصلة الفتح وحركة الجهاد؛ فأبلى بلاء حسنا، ونجح في فتح ما وراء النهر، وانتشر الإسلام في هذه المناطق، وأصبح كثير من مدنها مراكز هامة للحضارة الإسلامية مثل بخارى وسمرقند.

وهنا نذكر أن مساحة فتوح قتيبة بن مسلم الباهلي وحده تبلغ أربعين بالمائة من مساحة الاتحاد السوفييتي السابق، وثلاثاً وثلاثين بالمائة من مساحة الصين الشعبية في الوقت الحاضر، وأن سكان المناطق التي فتحها في بلاد ما وراء النهر وتركستان الشرقية ضمن الاتحاد السوفييتي والصين لا يزالون مسلمين حتى اليوم، ويعتزون بإسلامهم، هذا فضلاً عن فتوحات باقي قادة الحجاج، وباقي ولاة بني أمية.

وقد بعث الحجاج بابن عمه محمد بن القاسم الثقفي لفتح بلاد السند، وكان شابا عمره سبع عشرة سنة، ولكنه كان قائدًا عظيمًا موفور القدرة، نجح خلال فترة قصيرة لا تزيد عن خمس سنوات أن يفتح مدن وادي السند (باكستان) حالياً، وكتب إلى الحجاج يستأذنه في فتح قنوج أعظم إمارات الهند، التي كانت تمتد بين السند والبنغال، فأجابه إلى طلبه وشجعه على المضي، وكتب إليه "سر فأنت أمير ما افتتحته"، وكتب إلى قتيبة بن مسلم عامله على خراسان يقول له: "أيكما سبق إلى الصين فهو عامل عليها".

وقال ابن كثير في تاريخه عن الجهاد في عهدي بني أمية: "فكانت سوق الجهاد قائمة في بني أمية ليس لهم شغل إلا ذلك، قد علت كلمة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وبرها وبحرها، وقد أذلوا الكفر وأهله، وامتلأت قلوب المشركين من المسلمين رعبا، لا يتوجه المسلمون إلى قطر من الأقطار إلا أخذوه.

وكان في عساكرهم وجيوشهم في الغزو الصالحون والأولياء والعلماء من كبار التابعين، في كل جيش منهم شرذمة عظيمة ينصر الله بهم دينه، فقتيبة بن مسلم يفتح في بلاد الترك، يقتل ويسبي ويغنم، حتى وصل إلى تخوم الصين، وأرسل إلى ملكه يدعوه، فخاف منه وأرسل له هدايا وتحفا وأموالا كثيرة هدية، وبعث يستعطفه مع قوته وكثرة جنده، بحيث أن ملوك تلك النواحي كلها تؤدي إليه الخراج خوفا منه، ولو عاش الحجاج لما أقلع عن بلاد الصين، ولم يبق إلا أن يلتقي مع ملكها، فلما مات الحجاج رجع الجيش كما مر.

ومحمد بن القاسم ابن أخ الحجاج يجاهد في بلاد الهند، ويفتح مدنها في طائفة من جيش العراق وغيرهم".

ولو عاش الحجاج لأكمل قتيبة فتح الصين كلها، ولأكمل ابن القاسم فتح الهند، فرحمة الله عليك يا أبا محمد.

إصلاحات الحجاج:

وفي الفترة التي قضاها الحجاج في ولايته على العراق قام بجهود إصلاحية عظيمة، ولم تشغله الفترة الأولى من ولايته عن القيام بها، وشملت هذه الإصلاحات النواحي الاجتماعية والصحية والإدارية وغيرها؛ فأمر بعدم النواح على الموتى في البيوت، وبقتل الكلاب الضالة ، ومنع التبول أو التغوط في الأماكن العامة، ومنع بيع الخمور، وأمر بإنشاء الجسور، وأنشأ صهاريج لتخزين مياه الأمطار، وأمر بحفر الآبار في المناطق المقطوعة، ومنع هجرة أهل الريف إلى المدن.

ومن أعماله الكبيرة بناء مدينة واسط بين الكوفة والبصرة، واختار لها مكانا بين الكوفة والبصرة والأحواز لتكون عاصمة الخلافة، فجعل القسم الشرقي منها لسكن الجيش الشامي حتى لا يفسده العراقيون، والقسم الغربي جعل فيه دوائر الدولة.

وكان الحجاج يختار ولاته من ذوي القدرة والكفاءة، ويراقب أعمالهم، ويمنع تجاوزاتهم على الناس، وقد أسفرت سياسته الحازمة عن إقرار الأمن الداخلي والضرب على أيدي اللصوص وقطاع الطرق.

ومن أهم إنجازات الحجاج هو تعريبه للدواوين، مما مكّن العرب للمرة الأولى من شغل الوظائف الإدارية في الدولة، بعد أن كانت حكرًا على الفرس.

ونجح كذلك في إصدار الدراهم العربية وضبط معيارها، وقام بإصلاح حال الزراعة في العراق بحفر القنوات، وإحياء الأرض الزراعية، واهتم بالفلاحين وأقرضهم، ووفّر لهم الحيوانات التي تقوم بمهمة الحرث؛ وذلك ليعينهم على الاستمرار في الزراعة.

تنقيط المصحف:

ومن أجلِّ الأعمال التي قام بها الحجاج أمره بتشكيل المصاحف، ونُسب إليه تجزئة القرآن، ووضع إشارات تدل على نصف القرآن، وثلثه، وربعه، وخمسه، ورغّب في أن يعتمد الناس على قراءة واحدة، وأخذ الناس بقراءة عثمان بن عفان، وترك غيرها من القراءات، وكتب مصاحف عديدة موحدة وبعث بها إلى الأمصار.

الحجاج مع بني هاشم:

كانت الكوفة هي مركز التشيع التقليدي، ومنها خرج المختار الثقفي (والي ابن الزبير) بثورته الشيعية، ثم ادّعى النبوة، ومن هنا يقارن بعض الناس بين المختار والحجاج، فيقولون: هذا كذاب وهذا مبير، وهذا شيعي وذاك ناصبي، ويجعلانهما في نفس المستوى، وفي هذا إجحاف وظلم. قال ابن تيمية في منهاج السنة النبوية: "والحجاج بن يوسف خير من المختار بن أبي عبيد، فإن الحجاج كان مبيرا كما سماه النبي - صلى الله عليه وسلم - يسفك الدماء بغير حق، والمختار كان كذَّابًا يدّعي النبوة وإتيان جبريل إليه، وهذا الذنب أعظم من قتل النفوس، فإن هذا كفر، وإن كان لم يتب منه كان مرتدا، والفتنة أعظم من القتل".

إضافة إلى أن مسألة اتهام الحجاج بالنصب فيها نظر، فهو لم يتعرض لبني هاشم طوال فترة حكمه، لا في الحجاز ولا في العراق، بل كان معظماً لهم، وتزوج امرأة منهم وأعظم صداقها، وقد دخل عليه أحد قتلة الحسين فلم يرحب به الحجاج وبشره بالنار، إذ روى الطبراني بإسناد صحيح، وابن معين في التاريخ رواية الدوري بإسناد حسن أن الحجاج قال يوماً: "من كان له بلاء فليقم فلنعطه على بلائه"، فقام رجل (سنان) وقال: قتلت الحسين، قال: وكيف قتلته؟ قال: دَسَرْتُه بالرمح دَسْراً، وهَبَرْتُه بالسيف هَبْراً، وما أشركت معي في قتله أحداً، قال: أما إنك وإياه لن تجتمعا في مكان واحد (أي في الجنة)، وأخرجه ولم يعطه شيئا.

لذلك قال د. الصلابي في كتابه (الدولة الأموية): وكان الحجّاج يحترم أهل البيت ويكرمهم، وما يذكر في كتب التاريخ من كون الحجّاج نصب العداء لأهل البيت غير صحيح.

قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى: وهذا مما يقوله هؤلاء الجهّال أن الحجاج بن يوسف قتل الأشراف وأراد قطع دابرهم، وهذا من الجهل بأحوال الناس، فإن الحجاج مع كونه مبيرا سفاكا للدماء قتل خلقا كثيرا، لم يقتل من أشراف بني هاشم أحدا قط، بل سلطانه عبد الملك بن مروان نهاه عن التعرض لبني هاشم، وذكر أنه أتى إلى الحرب لما تعرضوا لهم (يعني لما قتل الحسين) ولا يُعلم في خلافة عبد الملك والحجاج نائبه على العراق أنه قتل أحداً من بني هاشم.

وقال في جامع المسائل: وكما يروون أن الحجاج بن يوسف قتل أشرافَ بني هاشم، وهذا كذبٌ أيضاً، فإن الحجاج مع ظلمه وغشمِه صَرَفَه الله عن بني هاشم، فلم يقتل منهم أحداً، وبذلك أمرَه خليفته عبد الملك، وقال: إياك وبني هاشم أن تتعرضَ إلى أحدٍ، فإني رأيت آل حرب لما تعرضوا للحسين أصابَهم ما أصابهم، أو كما قال.

ولم يُقتَل في دولة بني مروان من أشراف بني هاشم مَن هو معروف إلا زيد بن علي بن الحسين لما صُلِبَ بالكوفة، وقد تزوَّج الحجاج ابنةَ عبد الله بن جعفر، وأعظَم صداقَها، فلم يَرَوه كفوءاً لها، وسَعَوا في مفارقتِه إيّاها.

ومما سبق يتضح أن التاريخ قد بالغ في إعطاء صورة قبيحة عن هذا الرجل، الذي أراه ظُلم في الكثير من الأمور، وأنه كان مُفترىً عليه في الكثير من المواقف التي سطّرها لنا كُتَّابُ التاريخ، ولم أقصد بتلك السطور السابقة تجميل صورته، أو تغيير ما يعتقده الناس عنه، لكنها مجرد محاولة للوصول إلى شيء من الحقيقة معتمدا في ذلك على العقل والتأمل في النصوص الصحيحة.

تلك هي تأملاتي ووجهة نظري في الكثير من أمور الحياة، وبعض الأشخاص كانت لهم طبيعة خاصة، جعلتنا نختلف عليهم إما بالقبول أو الرفض، وما أنا إلا ذو عقل بسيط مأمور بالنظر والتدبر والتفكر من قبل المولى - سبحانه وتعالى - وتلك هي نتيجة ما توصلت إليه، وهي نتيجة لا أفرضها على أحد، فما يعنيني عزيزي القارئ هو أن أفتح لك باباً أو أعطي لك وميضاً تنطلق مِن خلاله بعقلك المستنير وقلبك النقي، فتجعلهما أداتين تحكم بهما على تصرفات مَن حولك، وعوناً كبيراً في اتخاذ القرارات الحاسمة في الحياة، ومرآة تنظر من خلالها على مَن يعيشون مِن حولك، فأنت لست بمعزل عن هذا العالم الفسيح، ولا تحاول أن تفصل تاريخك عن حاضرك أو مستقبلك، فجميعهم سلسلة يشد بعضها بعضاً، وبالتالي لابد أن تدرك حقائق الأشياء وأغوارها البعيدة، فلا تكن ممن غضب الله عليهم فأعمى قلوبهم وأصم آذانهم، ولتكن من ذوي الألباب والعقل الذي جعله الله تعالى حجة الإنسان في الكون، ودليله في إدراك بواطن الأمور وليس ظاهرها، وما كان لوم الله تعالى لمن

سبقنا من الأقوام والأمم الهالكة، إلا أنهم لم يُعملوا عقولهم، فقال لهم في أكثر من موضع في كتابه العزيز: "أفلا تتفكرون"، "أفلا تعقلون"، "أفلا تتذكرون".

فعلينا بالتفكر والتعقل والتذكر في كل ما يحيط بنا من شؤون الحياة، وما يطل علينا به التاريخ من أشخاص أدت دوراً بارزاً في صنع كثير من الأحداث، والمواقف التي تركت أثرها على غيرها من الناس.

الفصل الثاني

مذكرات السندباد من واقع الحياة

لا أريد من القارئ الاعتقاد بأنّ الهدف من وراء سرد تلك المذكرات هو مجرد التسلية فقط، فما الحياة إلا مواقف، واللبيب هو من يتعلم منها.

لقد جمعتني الظروف بالكثير من الأشخاص، منهم من ترك في نفسي أثرًا إيجابيا أو سلبيًّا، هؤلاء الأشخاص كانوا بمثابة محطات أساسية، توقفت عندها كثيراً بالتأمل والتفكير العميق، وبالطبع كنت أخرج منها في كل مرة بدرس جديد.

بعض تلك المواقف كنت فيها مخطئاً بشكل كبير، وبعضها أساء فيها الآخر تقديره معي، والبعض الأخير لعبت ظروف الحياة القاسية دوراً كبيراً في تكوينها وتشكيلها، والمصير الذي انتهت إليه.

وسوف يلاحظ القارئ أنّ معظم تلك المواقف فيها نوع من الطرافة والسخرية، لكن في واقع الأمر تلك المواقف في حقيقتها قاسية على صاحبها، وذات أثر سلبي عنيف، سواء أكان صاحبها أنا أم غيري من أبطال تلك المواقف، ولعلّ تلك الطرافة والسخرية هي من طبيعة أسلوبي في الكتابة، لكن على أرض الواقع الأمر يختلف تماماً.

بالطبع لن أصرح بالأسماء الحقيقية لأبطال تلك المواقف إلا في مواقف بعينها؛ حتى لا تسبب حرجا لبعضهم، وحتى لا تكون محلا للسخرية.

لقد حباني الله تعالى بسماتٍ شخصية، أراها جعلتني مقرباً ومحبباً لدى كثير من الناس، سواء مَن عرفتهم في الحياة، أو عبر شبكات التواصل الاجتماعي.

فكما قلت من قبل أنا أتقبل الآخر مهما كان رأيه أو دينه أو سلوكه، أحب الحوار مهما كان محتواه، ولعلّ ذلك الأمر خلق نوعا من التفاعل العاطفي والإنساني بيني وبين معظم أبطال تلك المواقف.

لكن أحب أنْ أشير هنا إلى أمر مهم، وهو أنني لم أصطنع أية حبكة درامية، أو مواقف مثيرة من مُخيلتي، فالمقربون مني قد عايشوا معي تلك المواقف، ويعلمون أبطالها الحقيقيين، كذلك لا أريد مِن أحد أنْ يعتقد أنّ بعض تلك المواقف هي عبارة عن التشهير بأشخاص أو التقليل من شأنهم، فأنا كما قلت حريص كل الحرص على عدم التصريح بالأسماء الحقيقية، وما سردي لتلك القصص إلا لإثبات حقيقة مقتنع بها دائما، تكمن في أن الظروف الصعبة هي التي تنحرف بالإنسان نحو الخطيئة كما كان في الفيلم الشهير (جعلوني مجرماً)، وكذلك تعجل الإنسان في الحكم على الآخرين قبل أن يعاشرهم معاشرة حقيقية، تدفعه أن يُصدر أحكاماً خاطئة، أو مواقف متسرعة يندم عليها في المستقبل.

وما كان هذا الكم الكبير من القصص وحكايات السابقين في القرآن الكريم إلا نوعاً من التذكرة والعظة، وحتى يتعلم الإنسان مِن أخطاء مَن سبقوه في تلك الحياة التي تموج بنوعيات من البشر، يضعهم القدر في طريقنا فنصبح مُلزَمين بالتعامل معهم، والعاقل اللبيب من يخرج مستفيداً بقيمة أو حكمة، أو درس ينير له مستقبلاً و دربًا من دروب الظلام.

عزيزي القارئ لا تنظر إلى ظاهر ما أكتبه في هذا الفصل، لكن تأمل الفكرة التي أريد توصيلها، فربما تجد ضالتك التي تبحث عنها في أمر من أمور الحياة من خلال تلك التجارب والمذكرات التي سأسردها، مراعيًا عدم الإسهاب أو الإطالة فيها، بل ستأتي موجزة خالية من التفاصيل المملة؛ حتى يكون المجال فسيحًا لسرد الكثير من المواقف في هذا الفصل.

رُبَّ ضارة نافعة

هل تصدقوني إذا قلت لكم: إني عندما أكتب هذا الموضوع أشعر بوجع في داخلي؛ حيث تلك الذكرى المؤلمة التي لن أنساها أبدا، بدأت الحكاية عندما انتهيت من المرحلة الجامعية، وأخذت أفكر في الخطوة التالية، والتي تتمثل في الالتحاق بالدراسات العليا؛ للحصول على الماجستير ثم العالمية الدكتوراه.

لم تكن بجامعتي فرع دمياط قسما للدراسات العليا، وإنما بفرع المنصورة التابعة لمحافظتي التي أسكن فيها، لكن مع الأسف كان قانون الجامعة آنئذ عدم قبول أحد من خارج الكلية.

ذهبت أنا وأبي إلى القاهرة، وظللنا نبذل كثيرا من الجهود ونشرح لهم الصعوبات التي ستقابلني إذا ما جئت إلى القاهرة.

وبعد جهد كبير وافقت جامعة الأزهر على التحاقي بالدراسات العليا بكلية اللغة العربية بالمنصورة، لكن على شرط واحد وهو أن أقوم بامتحان معادلة.

وافقت أنا وزملائي، وأذكر هذا المجلد الكبير الذي أعطته لنا الكلية وكان للكاتب الهندي تاغور، وقد تجاوزت صفحاته الثمانمائة صفحة.

أخذنا هذا الكتاب يوم السبت على أن يكون الاختبار بالسبت الذي يليه، يبدو أن جامعة الأزهر فرع المنصورة لم تكن ترغب في وجودنا بالكلية، فكانت تحاول تعجيزنا بهذا المجلد الضخم.

ظللت أذاكر في هذا الكتاب ساعات متواصلة حتى وضعت يدي على بعض الصفحات التي ستكون موطن السؤال في الاختبار.

وبالطبع كان الأسلوب المتبع في امتحانات الجامعة هو أن آتي بمرافق، يشترط فيه الحصول على دبلوم فني صناعي أو تجاري لكي يقوم بالكتابة لي في الورقة.

حان موعد الامتحان، وجلست أنا ومرافقي، وبعد أن قرأ لي أسئلة الورقة حمدت الله كثيراً أنها في المتناول، فأخذت أملي عليه الإجابة وهو يكتب، حتى وجدت أحد الأشخاص يقول لي: اخفض صوتك حتى لا يسمعك زملاؤك، فينقلون عنك الإجابة.

وبالفعل خفضت من صوتي الذي لم يكن مرتفعاً، لكن جاء هذا الشخص مرة ثانية وثالثة، وظل ينقلني من مكان إلى مكان، حتى أوشك أن يجلسني على الرصيف خارج الكلية.

انفعلت عليه وقلت له: لماذا تصنع معي هكذا؟ مَنْ حضرتك؟ فرد قائلاً: سوف تعلم قريباً مَن حضرتي. بالطبع كنت أظنه أحد الإداريين بالكلية.

المهم أنني نجحت في امتحان المعادلة بفضل الله، وتم إلحاقي بالدراسات العليا بجامعة الأزهر فرع المنصورة.

ذهبت أنا وزملائي في اليوم الأول لتلك الدراسة، وكان من الطبيعي أن نسأل من سبقونا عن طبيعة المناهج، وطبيعة الأساتذة، فكانت الإجابة التي أجمع عليها الجميع أن من يتمكن من الإفلات من مادة الأستاذ عبد الحميد شيبة فهو ناجح لا محالة.

جلسنا في مقاعدنا ننتظر ذلك الأستاذ المرعب عبد الحميد شيبة، حتى فُتح الباب ودخل علينا، وبعد أن جلس وتمكن في الجلوس خيمت علينا لحظات صمت رهيب.

وتفاجأت بمن يمسك يدي، ويقول: هل عرفت من حضرتي؟

يا الله! إنه الشخص الذي كان يراقبني في امتحان المعادلة، وانفعلت عليه، وقلت له: من حضرتك؟

و بالطبع لن أنسى ضحكته التي كانت تحمل خلفها معاني غامضة لم أدرك وقتها إلى ماذا تشير؟ لكن بدأت الإشارات تبدو في الأفق عندما كان يرفض خروجي من القاعة لكي ألحق بميعاد القطار الذي كنت أعود فيه إلى مدينتي، بل كان يقول: ستكون آخر الخارجين من تلك القاعة؟

وبعد اقتراب موعد امتحان آخر العام توجه لي قائلاً: لو وجدت في ورقتك أي خطأ إملائي فاعلم أن ثلث الدرجة سيضيع منك.

فقلت له: كيف؟ حضرتك تعلم أنِّي كفيفًا، فلا تحملني أخطاء من يكتب لي، فرد قائلاً: ليس لي شأن بهذا.

جاء موعد الامتحان وكنت أحفظ مادته العسيرة كما أحفظ اسمي تمامًا، وزاد ارتياحي عندما جاءت ورقة الأسئلة التي كانت في متناول مذاكرتي.

خرجت من الامتحان وأنا في غاية السرور، وتوقعت حصولي على الامتياز في مادته، وكان قانون الجامعة ينص على أنّ من يرسب في مادة واحدة يعتبر راسباً في جميع المواد، وكانت درجة النجاح ستين من مائة.

كنت في غاية الاطمئنان من نجاحي، وفي يوم إعلان النتيجة، ذهبت أنا وأبي وكلنا ثقة في نجاحي وانتقالي للعام الذي يليه، لكن كانت الصاعقة أنني وجدت نفسي راسباً في امتحان الدور الأول دون أن يخبرني أحد عن سبب رسوبي، أو المادة التي رسبت فيها.

كان كل مَنْ بالجامعة غاضباً من أجلي، لكنهم لا يريدون أن يتكلموا معي في شيء، وظلوا يبثون في الأمل، ويقنعوني بأن أبذل مزيداً من الجهد في امتحان الدور الثاني الذي سيكون بعد شهرين. وبالفعل جاء موعد الدور الثاني، وعند صعودي إلى

المقعد أمسكني أحد المراقبين هامساً في أذني قائلاً: هل حدث شيء بينك وبين الدكتورعبد الحميد؟ فقلت له: لماذا؟ فقال: إن الأستاذ فلان تولى إدارة كنترول الدراسات العليا، ولقد رأيت ورقك أنك حاصل على تقديرات عالية في جميع المواد باستثناء مادة الدكتور عبد الحميد شيبة، فقد أعطاك تسع وخمسين من مائة.

فقلت له منفجراً من الغيظ: جعلني أرسب في كل المواد على درجة واحدة، فقال: نعم، ظللت ألحُّ عليه حتى يعطيك تلك الدرجة فرفض رفضًا قاطعًا.

جلست وأنا أشعر بالقهر واليأس، وانتابني شعور بعدم إكمال الامتحان، لكن هذا الأستاذ ظل يجبر بخاطري، ويهدئ من روعي حتى أقنعني أن أكون هادئاً حتى تمر الامتحانات مرور الكرام.

وبالفعل وفقني الله في الإجابة في جميع المواد، وقلت في قرارة نفسي إذا كان ضمير الأستاذ قد غاب عنه مرة فمحال أن يغيب عنه مرتين، وهو المتظاهر بالتقوى والورع والصلاح.

وفي اليوم الذي ستعلن فيه النتيجة ذهبت أنا وأبي مثل المرة الماضية، وصعدت إلى مكتب شئون الطلاب الذي سيخبرني بنتيجتي. أجلسني رئيس مكتب الشؤون وظل يقبل رأسي دون أن يتكلم، كنت أظن أنه يبارك لي نجاحي، لكن فاجأني أنني رسبت هذا العام.

لأول مرة تتساقط فيها دموعي، وأشعر بالفشل واليأس من الحياة خصوصاً بعد أن اكتشفت الفاجعة، الأستاذ الفاضل أعطاني في مادته تسعا وخمسين ونصف في مادته، أي رسبت العام كله على نصف درجة، وكأنه يريدني أن أموت قهراً وغيظاً.

رجعت إلى البيت محطم الأعصاب، وكأن أبواب الأمل قد أُغْلِقت في وجهي.

سألني أبي: ماذا سنفعل الآن؟ فقلت له: لا أريد أن أكمل هذا المشوار، فقال: مستحيل لابد أن تواصل حتى تحصل على درجة الدكتوراه.

فقلت له: الحل الوحيد أن أذهب إلى الدراسة في القاهرة بعيدا عن هذا الأستاذ الذي لم يرحمني، ويرحم ظروفي الصعبة.

وفي أثناء جلوسي في البيت، دق الباب ليلاً، ولم يكن لدينا هاتفٌ بالمنزل، فوجدت أحد الجيران يقول لي شخص: يريدك عبر الهاتف عندنا، فقلت له: مَن هذا؟ فأنا لا أعرف رقمكم حتى أعطيه لأحد.

ذهبت معه لمعرفة من هذا، فوجدته أستاذي الجميل وأبي الروحي الأستاذ الدكتور حبيب أبو جمعة أستاذي في المرحلة الجامعية، وبالطبع كان سؤالي الأول وتعجبي كيف وصل إلى هذا الرقم؟ فقال: ظللت أحاول إلى أن وصلت إلى سنترال

المنصورة الذي أوصلني بسنترال مدينتكم، فقلت له: هل من الممكن أن تدلني على رقم أحد من جيران محمود فأعطى لي هذا الرقم.

كان أستاذي الفاضل يحمل لي مفاجأة سارة تكمن في أن كليتي التي درست فيها قد فُتح فيها قسمٌ للدراسات العليا، والذي دفعها إلى إنشاء هذا القسم هو معرفتهم بما حدث لي بفرع المنصورة.

وبالطبع تمكنت من الحصول على الدراسات العليا وأنا بين أساتذتي الذين أدين لهم بالفضل الكبير نتيجة لتشجيعهم المتواصل لي حتى حصولي على الدرجة العالمية الدكتوراه.

لكن الطريف في الأمر أنني عندما بدأت البحث عن بعض المراجع التي تساعدني في رسالة الماجستير وكنت أتنقل من مكتبة إلى مكتبة، جاء الدور لأذهب إلى مكتبة جامعة الأزهر فرع المنصورة، وفي أثناء ذهابي إليها كنت أقول لنفسي: ماذا لو تقابلت مع الدكتور عبد الحميد شيبة؟

وكانت الإجابة التي تدور في رأسي هي أنني سأسأله لماذا فعلت معي كل هذا؟ ما سر هذا الانتقام مني؟ لماذا كل هذا الظلم الفاجع الذي صنعته معي؟ وصلت إلى مكتبة الجامعة، وكان لابد أن أسلم على أفضل من عرفته بهذا المكان، إنه طيب القلب الذي سيكون محور الموضوع القادم الأستاذ الدكتور عبد اللطيف الحديدي، دخلت عليه المكتب فقال لي: أنا سعيد بنجاحك وتخطيك لتلك المرحلة الصعبة.

لكن المفاجأة أن الأستاذ عبد الحميد شيبة كان يجلس معه في نفس المكتب، فأمرني الدكتورعبد اللطيف بالسلام عليه، وهنا ترددت كثيراً، لكن وجدت من يقبل رأسي ويطبطب على ظهري، وكأنه يعتذر لي عما فعله معي، إنه الدكتور عبد الحميد شيبه الذي ظلمني وجعلني أعيش عاما من أسود الأعوام التي عرفتها.

فلك عزيزي القارئ بعد أحداث هذه القصة الصعبة، وهذا النمط العجيب من البشر، أريدك أن تعلم أن الحياة لا تقف عند عثرة، ولا تقف عند فشل، ولا يستطيع أحد أن يغلق أبواب الأمل في وجهك.

فالحياة تحمل الشيء ونقيضه، ومهما يحدث من أمور فلن يكون لك إلا ما كتبه الله لك، أهم شيء الصبر وصفاء القلب ونقاء السريرة، وأن تدعو الله أن يجمعك بالطيبين الصالحين من البشر.

غلطة عمري

في القصة السابقة تحدثت عن هذا العام الذي أمضيته بجامعة الأزهر فرع المنصورة، وما حدث لي بين جدرانها، لكن كانت الشمعة المضيئة في تلك الجامعة هو ذلك الأستاذ الذي حباه الله من علمه ما كان يجعلني أقف مذهولاً أمامه، إنه: الأستاذ الدكتور (عبد اللطيف الحديدي) - رحمة الله عليه - تلك الشخصية التي بالرغم من كونها لم تكن محبة لاستخدام الوسائل الحديثة من التكنولوجيا إلا إنه كان يملك عقلاً لم أرَ مثله من قبل.

كان الدكتور عبد اللطيف بالرغم من كونه كفيف البصر يحتفظ في رأسه ببيانات آلاف الكتب من مؤلفين وناشرين وعدد صفحات ومحتويات، وكأنه مكتبة عظيمة متنقلة.

بدأت علاقتي بهذا الرجل عندما جلست أمامه في الامتحان الشفهي، وقد همس له أحد الأشخاص قائلاً: هذا الطالب كفيف يا أستاذنا.

وهنا أخذ الدكتور عبد اللطيف يداعبني ببعض الكلمات، والتي ختمها قائلاً: تفضل بالسلامة أنت ناجح بإذن الله.

وبالفعل منحني الدكتور عبد اللطيف أعلى الدرجات، وكان دائم التشجيع لي، يبث في داخلي الأمل، ويسألني عما إن كنت أحتاج شيئا في داخل الجامعة.

لكن بعد ما حدث، والذي سردته بالتفصيل سابقاً، وعودتي إلى كليتي القديمة، ظل الأستاذ الفاضل على تواصله معي عبر الهاتف، يتبادل معي الآراء السياسية والأدبية.

ولا أنسى موقفه معي أثناء مناقشتي لرسالة الماجستير، حين تبرع بسيارته لاصطحاب السادة لجنة الإشراف، وظل بجانبي من بداية اليوم حتى آخره.

وفي يوم من الأيام حدث خلاف بيني وبين أستاذي الفاضل، هذا الخلاف انتهى بإغلاق الهاتف في وجهي، شعرت يومها بالضيق وجرح كرامتي، وقررت ألَّا أتصل به أبدًا مهما حدث.

حاول أستاذي الفاضل أن يراضيني بشتى السبل، وأرسل مع أصدقائي العديد من الرسائل، لكن كنت ثابتا على موقفي.

مرض الأستاذ عبد اللطيف مرضاً شديداً، وحاول زملائي أن يقنعوني بزيارته أو التحدث إليه، لكن كنت أتهرب من هذا الأمر، وكان كبريائي الملعون قد أعمى قلبي وبصيرتي.

حتى كان اليوم الموعود الذي أبلغني فيه أحد الأصدقاء خبر وفاة أستاذي الجليل،

وهنا انهمرت عيني بالبكاء، وأخذ الندم يدبُّ في كل مناحي قلبي وعقلي، وكانت الغلطة التي أحاول تناسيها لكن دون فائدة، هي عدم زيارتي له أثناء مرضه، رحم الله الأستاذ الجليل، وغفر لي عدم تسامحي معه.

وإليك نصيحتي عزيزي القارئ:

لا تغلق جميع الأبواب أمام من يغضبك، مهما حدث، حتى لا تجد نفسك يوماً وقد أغلقت في وجهك جميع الأبواب دون أمل في فتح باب منها، تمسك دائمًا بشعرة معاوية، ولا تحاول أن تقطعها، فالله تعالى لم يخلق العقل وحده، أو القلب وحده، بل خلقهما معاً، ولذا يجب عليك أن تلجأ لهما دون اللجوء لأحدهما.

أنا والأستاذ الذي احتقرته

إنه ذلك الكائن بجامعة المنصورة كلية الآداب قسم اللغة العربية، والذي أشهد له ببراعته في ميدان الأدب الأندلسي، سمعت عنه كثيراً دون أن أراه؛ لكن كانت كتاباته تعطيني مزيدا من الشغف واللهفة كي أتعرف عليه.

كل هذا بالرغم من تحذير أساتذتي لي، ومن غروره وغطرسته، وكراهيته للأزهر الشريف ورجاله؛ لكن لم أعبأ بكل هذا، وظللت أبحث عن هاتفه حتى عثرت عليه، فقمت بالاتصال به على الفور، وذلك حتى أستشيره في الكثير من مباحث رسالتي في نيل درجة الدكتوراه.

رحَّبَ بي الرجل كثيرا، وظلّ يداعبني في الهاتف، ويشيد بقدراتي العلمية والأدبية بوجهٍ عام، وفي الأندلس بشكل خاص؛ لكنه كان بالفعل كارهاً للأزهر الشريف، ويقلل دائماً من قدرات رجاله العلمية، وكذلك كان مغتراً بنفسه حتى وصل به الأمر إلى مقولته بأنه الفارس الوحيد في ميدان الأندلس وآدابها.

لم أعبأ بكل ذلك، وقررت أن أتغافل عن هذا الجانب السيء في شخصية الرجل، وأحاول قدر الإمكان الاستفاده منه ومن علمه.

تكررت الاتصالات بيننا حتى وجدت نفسي في حالة من غياب الوعي والغفلة، وهي طلبي من السادة مشرفيّ بالجامعة أن يكون هذا الأستاذ هو مناقشي في رسالة الدكتوراه.

حذرني الجميع من هذا الأمر، وقالوا عليك أن تتحمل مسئولية هذا الاختيار، فقلت لهم: نعم سأتحمل كل شيء.

كنت واثقاً من نفسي، وجودة بحثي الذي أشاد به هذا الأستاذ قبل اختياره لمناقشته؛ لكنّ الغريب من هذا الغريب أن هذا الشخص الذي رأيته يتصل بي على الهاتف بحجة أنه يريد التعرف عليّ، ويستفيد مني ومن تبحري في ميدان الأدب الأندلسي وغير ذلك من كلام المجاملة الذي كان مبالغاً فيه.

اكتشفت من كلام هذا الشخص أنه من تلامذة هذا الأستاذ الغريب، وأنه قد أتى برقم هاتفي منه، وظل يطمئنني على بحثي، وعلى موقف هذا الأستاذ منه، وبالفعل جاء اليوم الموعود، وكنت مطمئناً غاية الاطمئنان، وجاء الأستاذ برفقة السيدة زوجته، وبالطبع في مقدمة المناقشة ظللت أثني عليه بعذب الكلام، حتى وصل بي الأمر إلى أن وصفته بعملاق الأدب الأندلسي، ثم جاءت اللحظة الحاسمة والتي سيناقشني فيها في هذا العمل الأدبي الذي صنعته.

لكن بدلا من المناقشة ... أخذ الرجل يهاجمني ويهاجم السادة المتواجدين بالمكان، ووصل به الأمر أن يناقش مشرفي في هذا البحث، وظل يرفع من صوته حتى أن السيدة زوجته كانت في غاية الغضب من أسلوبه وطريقته.

كنت في حالة من الاندهاش والصدمة، واكتفيت ببعض النظرات الصارخة إليه، ظلت المناقشة ثماني ساعات متواصلة، ثم دخل الجميع إلى غرفة المداولة، والذي عرفته أنه ظل يصرخ رافضاً إعطائي أية درجة في البحث، لكن أساتذتي الأعزاء توصلوا معه إلى حلٍ وسطٍ بعد جهد كبير، وهو منحي البحث بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف الثانية وليس مرتبة الشرف الأولى.

بالطبع كانت صدمة ما بعدها صدمة، وظل أساتذتي يلومونني على اختياره قائلين: لقد حذرناك من قبل، لكن لم تنصت لتحذيرنا.

الغريب في الأمر أنَّ هذا الشخص الذي كان يتصل يصرح لي بعد ذلك أنه كان يعلم أن هذا الأستاذ سيرفض منحي الدرجة، وأنَّه قد قال له هذا الكلام، فقلت له: لماذا لم تصارحني بهذا؟ فصمت وعرفت أنَّه كان مدفوعاً من عند أستاذه.

لكن هذا الأستاذ الغريب المغتر بنفسه بعد ما حدث منه ظل يفتخر بين زملائه في كلية الآداب بما فعله معي ومع أساتذتي، وأنه قد أثبت أن جامعة الأزهر لا يوجد فيها تعليم حقيقي.

بالطبع كلام حقير من شخص حقير، فكل إناءٍ ينضح بما فيه ، ولعلّه درسٌ لكن كان قاسياً.

لكن انظروا الفرق بين هذا الشخص وبين أساتذتي بجامعة الأزهر الشريف، ظلّوا يقنعوني ألا أغضب، وأن أخوض التجربة مرة أخرى في بحث آخر، وظللت متردداً حتى اقتنعت بوجهة نظرهم، وبالفعل حصلت على درجة الدكتوراه بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف الأولى في بحث آخر.

أصبحت من القلائل الذين بحوزتهم اثنتين من درجات الدكتوراه، حتى أن أستاذي الجليل الأستاذ الدكتور(حبيب السيد أبو جمعة) عندما يقابلني يقول السادة الدكاترة محمود الذكي.

هذا هو الرجل وتلك هي نصيحتي عزيزي القارئ، ليس لزاماً في جميع الأحيان أن تمشي وحدك، بل ليكن معك دليل ممن تثق بهم، وأن تمشي بمشورتهم مهما كانت استقلاليتك في أخذ القرار.

رحلة الحصول على شهادة الإعفاء من الجيش

إنني عندما أكتب تلك السطور عن رحلة الحصول على شهادة الإعفاء من الجيش فلا شك أنني أتذكر أياما تُعدُّ بلا مبالغة من أسوأ الأيام التي مررت بها على مدار حياتى.

فقد بدأت الرحلة حينما استدعاني مدير شؤون الطلبة بالكلية، وأبلغنى أنني لا يمكنني دخول امتحان العام إلا بعد حصولي على شهادة الإعفاء، وبالفعل اتجهت فوراً إلى مركز الشرطة لعمل الفيش والتشبيه، وتمّ تحديدُ موعدٍ للذهاب إلى محافظة الشرقية كي أحصل على تلك الشهادة.

وحينما جاء اليوم الموعود ركبت مع أبى السيارة بعد صلاة الفجر، واستغرقت المسافة ساعة ونصف معتقداً بل متيقناً أنني سأذهب وأرجع بالشهادة على الفور، ولكن ما حدث لم يكن في الحسبان، حيث كانت البداية حين دخلت البوابة الرئيسية للهيئة العسكرية بالزقازيق، وفوجئت بهذا العدد الهائل من الأشخاص؛ وأيضا عندما وجدت أصدقاء لي لم أرَهم منذ زمن بعيد، وبالفعل أخذنا مكاناً بمفردنا نتذكر فيه أيامنا الجميلة بالجامعة، وما كان يحدث بيننا من مواقف وطرائف، ولكي نضيع مزيداً من الوقت ظللنا نتسامر بتبادل بعض النكات المضحكة، وكان يحيط بنا الكثير من الأشخاص، وجاء الدور عليَّ لقول بعض النكات، فأخذت أقول وأقول حتى وصلت إلى قول نكتة عن أحد الأخوة المسيحين، وبعد أن انتهيت من النكتة، أخذ الأصدقاء يضحكون، فإذا بمظاهرة عنيفة من حولي تحاول الهجوم علينا، فقد كان من حظي التعيس أنّ كل من كان حولي من الأخوة المسيحين، وكاد الأمر يتطور بشكل هائل، لولا تدخل أبي وبعض الأشخاص، وأخذوا بتهدئة الموقف، حتى تمكنوا من الفصل بيننا.

وبعد وقت قصير خرج علينا أحد العساكر بميكروفون ينادي على أسماء الحضور، وكنت أعتقد أنَّ أصحاب الظروف الخاصة مثلي ومن معي سوف يكون لهم مكانا محددا للوقوف، لكن ما حدث عكس ذلك حيث طلبوا من الجميع الوقوف في صف واحدٍ من أجل العرض على الأطباء، الذين كانت مهمتهم كشف من يصلح للالتحاق بالجيش دون غيره، وهنا قال العسكري: استعدوا للدخول على طبيب العظام، وهنا صرخت بصوت عال: يا فندم أنا كفيف وزملائي معي مكفوفون فلماذا لا يتم عرضنا على طبيب العيون بشكل مباشر؟ خصوصاً أنَّ حالتنا الصحية واضحة؟ وبعد أن قلت هذا الكلام إذا بضابطٍ كبيرٍ معه عصا يقف بجانبي ويمد العصا على جسمى بهدوء قائلاً: إن لم تصمت فسوف أضعك في الحجز يوما كاملا؟

وبالفعل لم يكن هناك مفر من السكوت، وظللت وقتاً طويلاً حتى جاء دوري في العرض على طبيب العظام، فإذا بمفاجأة أخرى فهو لم يكن طبيبا بل طبيبة، وإذا بها تطلب منى خلع البنطال، وبالطبع أحسست بحرجٍ شديدٍ وترددٍ رهيبٍ، وإذا بالمرأة

وبصوتٍ عالٍ توجه لي بعض الألفاظ القبيحة التي يستحي بعض الرجال من قولها، لكن في النهاية استسلمت بخلع البنطال، ثم جاء الدور على طبيب العيون وقد حمدت الله أنني قد أوشكت على النهاية، وبالفعل جلس الطبيب وأنا أمامه أنظر إليه وهو يضع الكشاف على عيني، وبعد صمتٍ لبضعة دقائق إذا به يقول: أنا بصراحة شاكك فيك، فأنت تنظر لي بشكلٍ ثاقبٍ، لابد أن تأتي غداً كي أعيد الكشف عليك، وهنا صرخت وبصوتٍ عالٍ قائلاً: والله أنا كفيف، وجميع الناس يعرفون ذلك، وليست عندي أية مساحة للنظر، لكن دون فائدة، وخرجت من عنده محطم الأعصاب أنا وأبي، فسوف نرجع لهذا المكان الذي أصبح ملعوناً بالنسبة لي مرة أخرى.

وفي اليوم التالي ذهبت مع أبي إلى نفس المكان، وتمَّ عرضي على نفس الطبيب لكن كان معه طبيبٌ آخر، وبعد فحص طويل تأكد الاثنان من أنني كفيف وبشكل كامل، وخرجت من عندهما إلى ساحة الهيئة ومعي بقية الأشخاص الذين ينتظرون شهادة المعافاة؛ لكن كان الملاحظ أنَّ عددنا كبيرٌ جداً، فإذا بضابط يخرج علينا قائلاً: من المستحيل أن نعطي لكم جميعاً شهادة المعافاة دون أن نرسل نصفكم على الأقل إلى المؤسسة العامة بالقاهرة؛ ليتم إعادة الكشف مرة أخرى، وهنا توقف قلبي، وارتعش جسدي خاصةً أننا سندخل جميعاً إلى قرعة مفتوحة، يتم من خلالها اختيار الأسماء التي ستحصل على الشهادة، والأسماء التي ستذهب إلى القاهرة لإعادة الكشف.

وأثناء حدوث القرعة شعرت أن قلبي يتوقف وضغطي قد أخذ في النزول من كثرة الرعشة، لكن في النهاية نزلت عليَّ أنا وأبي رحمة الله، فتم اختياري كي أحصل على الشهادة، لكن بعد أن احترق دمي وجفت عروقي، فهي بحقٍ أيامٌ سوداء لم أكن أتوقعها.

عزيزي القارئ بالرغم من كل ما سردته إلا إنني كنت في غاية الانبهار بهذا الضبط والربط والنظام المتناهي في تلك المؤسسة العسكرية، حيث كانت هناك صرامة مع الجميع على اختلاف مؤهلاتهم العلمية، فلم يكن هناك فرق بين هذا وذاك، بل كانت المعاملة سواسية، حفظ اللهُ جيشَ مصر العظيم خير أجناد الأرض.

صدفة المرأة التي تعلقت بها

عندما أكتب سطور هذه القصة أعلم أن البعض سيستغربها، أو يعتقد أنني أضع فيها مزيدًا من الحبكة الدرامية، لكن يشهد الله أن ما حدث فيها حقيقي مائة بالمائة.

تبدأ فصول هذه القصة حينما كنت جالساً في المقهى المقابل لجامعتي، وذلك بعد الانتهاء من اختبارات الدراسات العليا، وكان يجلس بجانبي أبي وبعض زملائي، لكن كان يوجد نقاشٌ بصوتٍ مرتفعٍ بين مجموعة من طلاب الجامعة، وما فهمته منه هو أنهم طلاب في السنة النهائية، وأنّ أحدَهم سيتزوج ويريد أن يجعل حفل زواجه بإحدى القاعات الكبيرة، لكن زملاءه كانوا يعترضون على ذلك بحجة أنه محرم شرعاً.

كذلك فهمت أنّ هذا الشخص الذي سيتزوج من أقارب أحد العاملين بالجامعة ممن أحمل لهم حباً واحتراماً، وكذلك فهمت أنه يسكن في إحدى مدن محافظتي، تلك المدينة التي يسكن فيها أحد أصدقائي.

أخذ أبي يشاركهم النقاش، وأخذت أنا أتحدث مع زملائي دون أن أبالي بنقاش الآخرين.

ثمانية أعوام تقريباً تمر على هذا الموقف، وفي أثناء تواجدي عبر الإنترنت وجدت اتصالا غريباً يحمل اسما لا أعرفه ولا أعرف صاحبته، وجدت طفلة صغيرة تتعالى ضحكاتها، حاولت أن أفهم منها ما اسمها وهل تعرفني أم لا؟

قابلت الطفلة كلامي هذا بضحكات متوالية حتى سمعت صوتاً يصرخ فيها، ويقول لها: ما الذي فعلتيه يا.......؟

كان يبدو أن التي تتكلم هي أمها، كانت ذات صوتٍ مميزٍ، أخذت هي المايك، وظلت تعتذر لي على ما سببته ابنتُها من إزعاج، وأنا أقول لها لا يوجد إزعاج ولا شيء، وبالطبع كان من المستحيل أن أفوت الفرصة، سألتها هل هي مصرية؟ فقالت: نعم، من أين؟ فقالت: محافظة الدقهلية، فقلت لها: أنا أيضًا من نفس المحافظة، لكن حضرتك من أي مدينة فقالت: مدينة كذا، بالفعل إنها المدينة التي يسكنها صديقٌ لي، فقلت لها: هل حضرتك تعملين، فقالت: أنا أعيش مع زوجي الآن بالكويت، وأنا خريجة كلية الحقوق، وكنت أعمل بالمحاماة إلى أن تزوجت.

كان يبدو عليها عدم السعادة، وبعد أن قدمت نفسي لها حدث حوارٌ بسيطٌ لم يستمر إلا دقائق معدودة، حيث إنها استأذنت أن تغلق الصوت، ولعلّ يكون هناك حديث آخر.

شهور قليلة كانت كافية أن أنسى هذا الحوار، وتلك المرأة، حتى جاء يومٌ من أيام الصيف الحار، كانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، فوجئت باتصال من تلك

المرأة عبر الإنترنت، وبعد السلام والتحية أخبرتني أنها قد عادت إلى مصر، وأنها الآن في بيتها بتلك المدينة التي أعرفها جيداً، طلبت مني طلباً غريباً، وهو أن أظل أتحدث معها حتى تنتهي من نسج وضبط فستان فرح ابنة خالتها التي ستتزوج بعد أيام.

بالطبع كنت مرحبًا جدًا، أخذنا نتحدث ساعات طويلة، حتى أوشكت الساعة على الثامنة صباحاً، نسجت الفستان ونسجت معه صداقة حدثت بيننا، أخبرتني أنها غير سعيدة في حياتها، وأنها جاءت إلى مصر حتى تضع حدًا لهذا الزواج، وعندما سألتها عن السبب وكيف تمت هذه الزيجة؟ كانت المفاجأة صارخة وصادمة بالنسبة لي، هل تتذكرون كلامي في بداية هذه القصة؟ النقاش الذي دار في المقهى بين من كانوا يجلسون حولنا عن إقامة عُرس أحدهم في إحدى القاعات الكبرى.

نعم إنها هي العروس، وأنّ هذا الشاب هو زوجها، وكان يصغرها بثلاث سنوات.

ظللت أنصحها أنْ تكمل حياتها مع زوجها، لكن كان عندها من الأسباب والمواقف ما يجعلها تصمم على إنهاء تلك الزيجة، بالرغم من وجود طفلتين بينهما.

بالفعل انتهت هذه الزيجة، وبدأت بعد هذا صداقة متينة بيننا، حيث أخذت تتكشف لي معالم تلك المرأة وسماتها الشخصية، كان الملفت فيها هي قوة الشخصية والاعتزاز بالنفس، وليس أدل على هذا من ذاك الموقف الذي سأرويه لكم.

كان لي صديق بالقاهرة، رجل تخطى عمره الخمسين، وقد أراد أن نقضي يوما من أيام العيد بالمنصورة، رحبت بالفكرة وقررت أن أدعو أصدقائي من هنا وهناك ونتناول الغداء معًا في إحدى المطاعم.

دعوتُ صديقتي وتلك هي المرة الأولى التي كنت سأراها على أرض الواقع، كانت توجد معنا مجموعة من الصديقات لي ولهذا الرجل، لكن هذه المرأة كان لها رونقٌ في الحديث والنقاش، مما دفع هذا الرجل إلى أن يقسم أن يكون الغداء على حسابه.

انتهي اليوم، وكنا في غاية السعادة، حيث كنت منبهراً بشخصية تلك المرأة، وشعرت أن هناك شيئا بداخلي يتحرك نحوها، رجعت إلى البيت وتواصلت مع صديقي هذا عبر الإنترنت، وظل يحكي لباقي أصدقائنا تفاصيل هذا اليوم، لكن ما أغضبني منه هو قوله: إنني قمت بعزومة الجميع على الغداء، كانت الحقيقة غير هذا، حيث إنني قمت بعزومتهم باستثناء صديقتي هذه، حيث صمّم أنْ تكون على حسابه هو.

كنت في غاية الغضب منه ومن كلامه، ورويت ما حدث لصديقتي التي انهارت وتعصّبت، وأقسمت بالله أن تذهب إليه في القاهرة وترد له حساب هذا الغداء.

لك أن تتخيل عزيزي القارئ أن تذهب خصيصاً إلى القاهرة كي ترد له ما دفعه، وأن تلقنه درسا لن ينساه بالرغم من فارق السن الكبير بينهما، إلى هذا الحد كانت قوة شخصيتها.

تمكنت صديقتي من فتح مكتب للمحاماة بمدينتها، واستقرت حياتها وتكررت اللقاءات بيننا، كنت أشعر بالسعادة بتواجدي معها، وكنت أذهب إليها دون أن يعرف صديقي أنني في مدينته، وهذا بناء على رغبة صديقتي، لكن من المواقف الطريفة التي حدثت بيننا هو أنني كنت في زيارة صديقي، وبالطبع لم أخبرها حتى لا أضعها في حرج، لكنها علمت أنني أتواجد بمدينتها، وهنا صممت أنْ تراني حتى لو معي صديقي.

بالطبع ذهبت إلى مكتبها مع صديقي الذي كان مندهشا من علاقتي بها، وكان في غاية الغضب لأنني كنت آتي لبلدته دون أن يعرف، كان صديقي مرتبطًا بموعدٍ ضروري، فقلت له: اذهب وسأظل معها حتى تعود.

ذهب صديقي فقلت لها أقول لك على شيء؟ فقالت: نعم، قلت: أعتقد أن صديقي فلان رأسه تدور الآن؛ لأنه يعتقد أننا نصنع أشياء ونحن بمفردنا.

ضحكت ضحكة عالية، وبالطبع كانت علاقتنا في غاية البراءة، وما ذلك إلا لحرصي على استمرار صداقتي معها.

بالفعل دقائق قليلة وعاد صديقي وعدت معه، وهنا واجهته بالقول أظنك كنت تعتقد أننا نصنع أشياء بعدما تركتنا، فقال: طبعا، فقلت له: لقد قلت هذا لصديقتي لكن اطمئن، فلم يحدث أي شيء.

كنت أعيش حالة رائعة معها حتى ظهر من نغص حياتها وحياتي معها، نعم إنه هذا الشاب المصري الذي كان يطاردها بالكويت، وكانت له أموالٌ عند زوجها السابق، لكن مع الأسف إن الأوراق التي كانت معه كانت باسمها هي وليس طليقها، عاد الشاب من الكويت، وأخذ يساومها إما الأموال وإما أن تلبي له رغباته، الغريب أنه لم يذهب إلى طليقها، ولكن تركيزه كان عليها هي.

كان المبلغُ كبيراً، وقد هدّدها أن يلجأ إلى المحاكم، ويصنع لها فضيحة كبرى.

ظللت أنا وهي في دوامة نبحث عن مخرج، فلم يكن معها تلك الأموال، ولم يكن معي ما أساعدها حتى تنتهي من تلك المشكلة.

تقدم بالفعل هذا الشاب بتلك الأوراق إلى الشرطة، وبدأ صراعٌ كبيرٌ بين صديقتي وبينه في المحاكم، لكن بحكم كونها محامية أخذت تطيل في القضية، وفي الوقت نفسه تحاول العثور على من يعطيها تلك الأموال حتى تخرج منها بسلام.

وهنا أخذت صديقتي تبحث عبر الإنترنت عن فرصة عمل بالخارج وعن شخص يستطيع أن يقف بجانبها من الناحية المادية، وهنا أيضا أخذت الفجوة تتسع بيننا.

تمكنت صديقتي من العثور على من يوفر لها عملا بالخارج، وبالفعل رحلت هي وبناتها، ورحلت معها صداقة تركت بداخلي أثرًا عميقًا إلى الآن.

لقد ارتبطتُ بها ارتباطًا شديداً، لكن كنت على قناعة كاملة باستحالة الزواج منها.

سنوات عديدة لم أقابلها أو أتحدث معها، ولم أعرف عنها شيئًا حتى كتابة هذه السطور، لكن ستظل في ذاكرتي ومخيلتي.

عزيزي القارئ الصدفة تصنع ما لا يدور بعقلك أو خيالك، لكن إياك أن تتخلى عن عقلك حينما تضعك هذه الصدفة في حالة جميلة أو قصة رائعة، فكم من قصص وحكايات بدأت بالسعادة وانتهت بالتعاسة.

من أجل هذا لن نتقدم

ما أرويه في تلك السطور يمثل حقيقةً واقعةً في مصر، لعلّها تغيب عن المسؤولين أو يتجاهلونها عن عمد.

عقب انتهائي من الجامعة أصبح من الضروري أن أعمل، وأن أعتمد على نفسي، أخذتُ أترقب جميع المسابقات التي تعلن عنها الدولة الخاصة بمجال التدريس، لكن كان الأمر صعباً نظراً لهذا العدد الهائل من خريجي الجامعات ممن هم أقدم مني تخرجاً.

أعلنت الدولة عن مسابقة كبرى في عام (2004 م) وكان الأمل فيها ضعيفاً؛ نظراً لكثرة المتقدمين فيها، لكن تقدمت بأوراقي شأني شأن جميع الخريجين، حتى جاء اليوم الذي ستُعلن فيه النتيجة، كان من المفترض أن خطابات التعيين ستأتي عبر البريد، وعندما ذهبت لأسأل عن خطاب لي، قالوا: لم يصل بخصوصك أي شيء، فرجعت إلى البيت وكأن شيئا لم يكن، فأنا كنت على يقينٍ أنه لن يتم تعييني بسبب حداثة تخرجي.

غفلت عيناي عند الساعة الحادية عشرة صباحاً، لكن في أثناء نومي دق الهاتف الأرضي فأيقظني على الفور، ما هذا؟ إنه البريد يخبرني أنه قد وصل خطاب تعييني بوزارة التربية والتعليم.

كنت في غاية الفرح والذهول، غير مصدق نفسي، أخيراً سأعمل بالتدريس وفي وزارة التربية والتعليم حيث معظم أصدقائي الكبار الذين أحبهم، لكن في أية مرحلة سأقوم بالتدريس فيها؟ وفي أي مدرسة سأعمل؟

سؤال كان لابد أن أنتظر أياماً حتى أعلم إجابته، بالفعل كانت الإجابة صادمة وصارخة، إنني لن أعمل بالتدريس بل سأكون أخصائي وسائل تعليمية.

عمل غريب وعجيب لا أفهمه، ويحتاج إلى شخصٍ مبصرٍ، فماذا أصنع أنا؟

يبدوا أنه قد وقع خطأ في توزيع المعينين، نصحني أحد الأشخاص أن أسكت قليلاً وأرضى بهذا العمل حتى أتفرغ إلى بحثي في الماجستير، وقال: إن التدريس يحتاج إلى مجهودٍ ونشاطٍ ذهنيٍّ وبدنيٍّ، وأنت في حاجةٍ إلى الوقت لتكمل رحلتك في نيل درجة الدكتوراه.

كان رأياً مقنعاً، وبكل أسف وجدت نفسي أعمل بدون عمل، أقبض راتبي آخر الشهر دون أي مجهود، كنت في حالة من الغيظ والغيرة خاصة من زملائي عندما كانوا يدخلون فصولهم ويتفاعلون مع طلابهم.

أخيراً قررت أن أنتفض وأثور على تلك الوظيفة التي كنت أرى فيها نوعًا من الإهانة الشديدة لي، ذهبت إلى مديرية التربية والتعليم بالمنصورة، واتجهت نحو هذا المكتب الذي كان يختص بتوزيع المعاقين على مدارس الوزارة.

وجدت سيدة لم ولن أنساها، لقد حباها الله (بوزاً) لم أرَه على امرأة، وأسلوبا في الكلام يشبه أسلوب الفنانة (نجمة إبراهيم) في فيلم ريّا وسكينة، صرخت في وجهي عندما طلبت منها أن أغير مسماي الوظيفي من أخصائي إلى معلم، وقالت بعنفٍ: هل أخطأتُ لأنني أريد أن أجعلك تستريح من العمل؟

فقلتُ لها: يا سيدتي أنا لا أريد أن أكون مستريحًا، أريد أن أستفيد من دراستي وأتعامل مع الطلاب، فدقت على المكتب بقوة، وقالت: لا يُوجد غير هذا، ولتفعل ما يحلو لك، وهنا وجدت شخصًا بجانبها يتجه نحوي، ويقول: ألا يكفي أنك تقبض راتبًا؟ المؤكد أنك تريد التدريس من أجل الدروس الخصوصية.

خرجت من هذا المكتب، وأنا في حالة من الانهيار النفسي حيث شعرت بالإهانة الشديدة، وعلى الفور صعدت لكي أقابل وكيل الوزارة بالمديرية، لكن كان الأمر معقدًا للغاية، بل كان الأمر يبدو مستحيلاً.

وهنا قررت الاستعانة بقريبي الذي كان يحتل منصباً مرموقاً بوزارة العدل، اتصل قريبي بوكيل الوزارة، فسمح لي بالدخول، وهنا رويت له ما حدث بالتفصيل، فقال: اكتب لي طلباً برغبتك في التدريس، وسوف أوافق عليه، لكن بعد موافقة موجه اللغة العربية بالمديرية، كتبت الطلب على الفور، وذهبت به إلى موجه اللغة العربية حتى يوافق عليه، قابلني الرجل بمنتهى الجفاء وسوء المعاملة، وبلهجةٍ شديدةٍ قال: يستحيل أن أوافق لك على العمل بالتدريس، فقلت له: لماذا؟ فقال أخشى عليك من بلطجة الطلاب، وبالطبع كان كلاماً تافهاً لا يقبله العقل.

رجعت مرة أخرى إلى السيد وكيل الوزارة الذي كان منفعلاً من موقف هذا الموجه، فظل يناقشه عبر الهاتف، لكن الآخر كان مصممًا غاية التصميم.

رجعت إلى بيتي ويبدو أن المحاولات قد باءت بالفشل للعمل بالتدريس، وعندما اتصلتُ بقريبي هذا ورويت له ما حدث كان في غاية الانفعال، وقال غداً سأكون في انتظارك وأذهب معك للمديرية.

ذهبت معه ودخلنا سوياً إلى وكيل الوزارة، وهنا لم يجد بُدا من استدعاء موجه اللغة العربية حتى تصبح هناك مواجهة بين الجميع، وجاء موجه اللغة العربية وبعد أن قدّم له وكيلُ الوزارة قريبي أخذ يتراجع في الكلام، ووافق على الفور بعملي بالتدريس.

بحمد الله تمت الموافقة، ولكن يبقى شيء أريد أن أفعله؛ إنه الانتقام من تلك السيدة صاحبة (البوز) الكبير، نزلت إليها المكتب، وظللت أصرخ فيها، وأقول لها: أنت من تسببتِ في كلّ ما حدث لي، وهنا كانت الصاعقة، قالت: لماذا أنت الذي تعترض؟ هناك زملاء مكفوفو البصر مثلك، منهم من تمّ تعيينُه أمينَ مكتبة، ومنهم من تمّ تعيينُه معلمَ تربية فنية، وهنا قلت لها: ماذا تقولين؟ كفيف ومعلم تربية فنية!

كيف سيرسم هذا؟ فقالت: لا أعلم، يكفي أنْ يقبضَ راتبًا.

خرجتُ من عندها وأنا في غاية الحسرة والألم على هذا الجهل وهذا التفريط في تلك الطاقات التي يمكن استغلالها.

نعم عزيزي القارئ هناك الكثير من المعاقين من الممكن أن نستفيد منهم في أكثر من مجال، لكن أن نجعلهم طاقةً معطلةً تعمل بدون عمل، تقبض راتبها فقط، فهذا يجعلني أقول لك: من أجل هذا لن نتقدم، ناهيك أنّ كلَّ مشكلةٍ تنقضي بالواسطة وليس بالموضوعية أو الأحقية، ولأنّ الجميعَ لا يمتلكون هذه الواسطة فلن نتقدم.

الضيف الثقيل

هناك أيام يستحيل أن ننساها، تلك الأيام تظل عالقة بالذاكرة مهما يمضي العمر.

ولعلّ من هذه الأيام عندي ذلك اليوم الذي عندما أشرقت فيه شمس الصباح وجدت جرس الباب يدق دقاتٍ متوالية، من هذا؟ نعم إنه زميلي بالعمل، ذلك المُعلم الذي يكبرني بسنواتٍ طويلةٍ ذهب إلى المدرسة كي يقبض راتبه فوجد الصراف لم يأت هذا اليوم، كان من سوء حظي أن الصرافَ يسكن بالقرب مني، ويبدو أنه قد ذهب خارج المدينة ليقضي شيئا ما، وأن هذا المعلم الذي لم يكن من مدينتي قد أقسم ألا يعود إلى بيته إلا ومعه الراتب، فأين ينتظر؟ قرر الرجل أن ينتظر عندي في البيت، فرحبت به كثيراً بالرغم من أني لا أطيق نقاشه ولا حديثه في ميدان السياسة، فكنا على النقيض تماماً.

اتكأ الرجل على الكنبة ومدد قدميه، وأخذ يقرأ في الجريدة التي كانت معه.

ذهبت كي أحضر إفطاراً له، لعلّ وعسى بعد أن ينتهي الإفطار أن يعود إلى مدينته، جاء الفطور وهنا قال الرجل: لو سمحت أريد بصلة كبيرة، فجئت له بالبصلة، وظلّ يتناول الإفطارَ معي وأنا في حالة من الضيق نتيجة لرائحة البصل التي لا أحبها في غرفتي.

دقّ هاتفُ الرجل في أثناء إفطاره فإذا هي زوجته، فقالت له: لا تعود إلا والراتب معك، فنحن في أشدّ الحاجة إليه، فأقسم لها أن يفعل، وهنا أدركتُ أنّ اليوم لن يمرّ مرور الكرام، فأخذتُ اتصل على الصراف كي يأتي مسرعًا حتى أنتهي من هذا الهم الذي يجثم على صدري، فاجأني الصراف بقوله: إنني سأتأخر بعض الوقت، ولن أعود إلا بعد صلاة العصر.

يا الله! هل يمكنني تحمل هذا الرجل تلك الساعات الطويلة؟ وماذا سنفعل فيها؟ بعد أن انتهى الرجل من كوب الشاي والجريدة تناول ريموت التليفزيون، ودون إذنٍ أخذ يقلب في القنوات الفضائية القناة تلو الأخرى، يبدو أنه يبحث عن شيء معين، فقلت له: ماذا تريد؟ فقال: أين تلك القنوات المرحة التي يتحدثون عنها؟

وهنا شعرت بالصدمة، فالرجل يتفوّه بكلام لا يتفق مع ميوله الدينية المتزمتة، أو شعاره السياسي الذي كان يحارب من أجله عندما نجلس معه.

قلت له بالطبع: أنا لا أشاهد مثل هذه القنوات ولا أحبها، أنا لا أعرف إلا قنوات الرياضية فقط !

صمتَ الرجلُ قليلاً ثم نظر بعينيه إلى مكتبي الكبير وأدراجه العديدة، وكانت تُوجد من فوقه بعضُ الكتب التي كنت أستعين بها في أبحاثي الأدبية، ونهض من مكانه

وأخذ يتصفح الكتب، لكنّ الغريبَ أنه أخذ يفتح الأدراج درجاً درجاً، ويعلق على ما فيها من بعض الأجهزة والمقتنيات التي كنت أحتفظ بها.

قال الرجل: أنا في أشد الحاجة إلى هذا الراديو الصغير حيث إنني وجدت أكثر من راديو في تلك الأدراج، فقلت له: يا سيدي إنه هدية من أحد الأصدقاء، وقد أخذتُ عهدا على نفسي أن الهدية لا تُهدى.

عاد الرجل إلى مكانه على الكنبة، وقمت أنا بفتح جهاز الحاسوب حتى أضيع شيئاً من هذا الوقت الثقيل الذي يمشي بحركة متباطئة، كنت أكتب إلى بعض الأصدقاء على الحاسوب، وهنا وجدت رأسًا تطل من خلفي لترى ماذا أكتب، صمتَ الرجل ولم يخبرني أنه يراقبني إلا بعد مدة طويلة، فكنتُ في حالةٍ من الغيظ وحرقة الدم، وصل الأمر بالرجل أن يطلب مني بأنْ يتحدث مع أصدقائي صوتياً، وبالطبع رفضتُ رفضاً قاطعاً.

أغلقت الحاسوب وخرجت من الغرفة كي أقوم بالاتصال على هذا الصراف وأناشده أنْ يعود بسرعة حتى أنتهي من هذا الرجل.

أصبحنا بعد الظهيرة وما أحوجني في هذا الوقت إلى قسط من النوم، ولكن من أين يأتي وهذا الرجل قد بسط نفوذه على الغرفة من كافة نواحيها؟

أخذنا نستعد للغداء، وهنا همس الرجل في أذني وقال: رجاء لا تقوموا بتحمير الدجاج؛ لأنّ السمن يتعبني كثيراً، استسلم البيتُ كلّه لطلب الرجل، وأكلنا الدجاج دون تحمير.

اتكأ الرجل على الكنبة، وأخذ في النوم، وأخذت أعدّ الدقائق حتى يعود هذا الصراف، وأخيراً جاء الصرّاف بعد صلاة العصر، وقبض الرجل راتبه، ورحل بحمد الله.

بعد أيام ذهبت إلى المدرسة فوجدتُ كلّ مَن فيها يحدثني عن غرفتي وما فيها من مكتب وأدراج كثيرة، وهدايا لا تحصى ولا تعد، وأصدقائي الذين أتحدث معهم عبر الإنترنت، ما هذا؟ لقد روى هذا الرجل كل ما رآه في غرفتي لجميع مَن بالمدرسة.

كنتُ في حالةٍ مِن الغضب إلى الأمر الذي تجرأت فيه، فهاجمته بعنفٍ وقلتُ له: ليس ما فعلته من باب الذوق.

عزيزي القارئ انتبه جيداً، لا تكن ضيفاً ثقيلاً عندما تزور غيرك، واعلمْ أنّ لكلّ بيتٍ حرمتَه وأسراره، فليس من حقك أنْ تسأل عما تراه في بيت مضيفك، ولا أن تتجول بين محتوياتِ المكان، فإذا ما خرجتَ من عنده فكأنك لم ترَ ولم تسمع.

وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خيرٌ لكم

هذه الآية الكريمة تثبت صدق معانيها يوما بعد يوم كلما زادت المواقف في حياتنا اليومية، أما بالنسبة لي فدائما ما رددتها في كثير من المواقف، ولعلني قد ذكرت منها ما حدث لي في مرحلة الدراسات العليا في بداية هذا الفصل، لكنني سأدلل عليها هنا في موقف آخر لعله هو الأشد والأكثر وقعاً عليّ بعد ذلك.

بعد يوم شاقٍ في الجامعة حان موعد العودة إلى مدينتي وبيتي اللذين أشعر فيهما بقمة الراحةً النفسية، في هذا اليوم كنت أتمنى أنْ أمتلك بساط علاء الدين حتى أعود إليهما بأقصى سرعة، فما أطول المسافة! وما أكثر الملل!

ذهبت أنا وصديقي إلى موقف السيارات، وحمدنا الله تعالى عندما سمعنا السائق ينادي علينا قائلا: بسرعة يا أستاذ عشان نمشي، السيارة ممتلئة، ولم يتبق إلا أنتما فقط، صعدنا إلى السيارة لكن المشكلة كانت تكمن في وجود مقعد فارغ فقط، ونحن اثنان لا يمكن أنْ ننفصل عن بعضنا.

حاول السائق بشتى الطرق أنْ يجلسنا على هذا المقعد لكن كل المحاولات باءت بالفشل، أصابني الضيق والإحباط حتى جاء شخص آخر وجلس، وانطلقت السيارة بدوني أنا وصديقي، جلسنا ننتظر السيارة التي تليها، يا له من وقت يمر ببطء، سنظل ننتظر حتى تمتلئ هذه السيارة، لحظات من الانتظار الطويل حتى تحركنا، كنت أداعب صديقي وأقول له: المؤكد أن السيارة السابقة قد وصلت، أوشكنا في الدخول على كوبري فراسكور، لكن ما كل هذا؟

عربات من الإسعاف ذات صوت عالٍ، تصارع الزمن ونحن في السيارة نتساءل عن السبب؟ وصلنا على مقربة من الكوبري فإذا بجمع غفير من الناس وأصوات تتعالى، ويبدو أنّ هناك حادثا أليما قد وقع، توقفت السيارة ونزلنا جميعا واقتربنا من المشهد شيئاً فشيئاً، وهنا صرخ صديقي: إنها السيارة التي كنا سنركب فيها قد غرقت.

أصبحت في حالة من الحسرة والذهول، وفي أثناء عودتي وضعت رأسي على شباك السيارة وأنا مستغرق في التفكير، سبحان الله كنت سأصبح في العالم الآخر وأغادر تلك الحياة الفانية، سأكون أمام ملكين يسألانني، خواطر وأشياء ظللت أفكر فيها، مَن سيحزن على فراقي؟ ومَن لن يفرق معه رحيلي من بقائي؟

وصلت إلى البيت، وأنا في حالة من الصدمة والصمت، هدأت قليلاً ثم رويت لأبي ما حدث، فأقسم عليّ ألا يتركني أذهب وحدي بعد ذلك، وأنه سوف يسخر سيارته لي إذا ما ذهبت لأي مكان كان، موقف في غاية القسوة والوقع على نفسي، لكنه زاد من يقيني بالآية الكريمة.

عزيزي القارئ، لا تتحسر على شيء ضاع من يدك؛ فإرادة الله تحمل لك الخير دائما، ربما تحصلت عليه عاجلاً أم آجلا، لكن كما قال تعالى: "وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم".

فضيحة صديقي التي اكتشفتها

كان لي صديق يجلس معي بشكل دائم في نادي المدينة، وكان دائم الشكوى من عدم التجديد في حياته، ويرى أن الحياة قد أصبحت مملة، خاصة بوجود زوجته التي لم يكن يشعر معها بالراحة، في هذه الأيام أخذ يلاحظ قلة ذهابي إلى النادي، وندرة تواجدي معه، وعندما سألني عن السبب، قلت له: إنني الآن مع عالم الإنترنت، وأصبح لي أصدقاء مثقفون ألتقي بهم كيفما أشاء، وأفارقهم وقتما أشاء، فقال: حدثني عن هذا العالم وماذا تصنع فيه؟ وطبيعة الحوارات التي تحدث بينكم، كان الإنترنت وقتها شيئا جديدا في مدينتنا، فما كان من صديقي إلا إنه ظل يحاول حتى تمكن من إدخال شبكة الإنترنت عنده بالرغم من اعتراض زوجته بحجة أن له بنات في سن المراهقة، ذهبت معه إلى البيت وظللت أشرح له كيفية التعامل مع البرنامج الذي كان يعد من أشهر برامج التعارف من حيث كيفية التعامل معه والبحث عن أشخاص من مختلف دول العالم، ويبدو أن صديقي قد انغمس فيه بشكل ملاحظ حتى أصبح مثلي قليل التواجد بنادي المدينة، وعندما أتصل عليه وأمزح معه ينكر أنه قد تعرف على أحد، أو يتحدث مع أحد عبر الإنترنت.

كنت على يقين بأن صديقي يكذب خاصة أنه يجيد اللغة الإنجليزية إلى درجة التمكن، أي أنه من السهل التواصل مع كثير من البشر.

وفي يوم من الأيام تقابلنا معا ولاحظت عليه أنه يريد قول شيءٍ ما، لكنه كان مترددًا جدًا، ظللتُ ألحّ عليه حتى قال: سأروي لك ما حدث، يقول: تعرفتُ على فتاةٍ عبر الإنترنت قالت إنها من المغرب، وكانت في غاية الدلع والمرح، وهنا قلت له ضاحكاً: وما طبيعة الحوار الذي كان يدور بينكما، فقال متردداً: كانت تسألني عن العلاقة الخاصة بيني وبين زوجتي، ومتى أشعر معها بالرومانسية؟ ومتى أتضايق منها؟ كنت أستغرب من نوعية الأسئلة خاصة أنها لم يكن المقصود منها الإثارة الجنسية، يقول: كانت ترفض أن أراها عبر الكاميرا، وعندما تنتهي أسئلتها كانت تغلق الحديث بشكل مفاجئ حتى قامت بحظري وازالتي من هذا البرنامج، وأنا بكل صراحة أفتقد الحديث معها.

أثار كلام صديقي فضولي الشديد حيث إنني لم أجد تفسيرًا محددًا لما فعلته هذه الفتاة معه، وكان السؤال الأكبر الذي طرحتُه كيف تسأله عن العلاقة الخاصة مع زوجته وتسأل عن الرومانسية ولا يبدو عليها أي نوع من الانحراف الشخصي؟ اتفقتُ مع صديقي أنْ يرسل لي إيميلها بمجرد وصوله إلى البيت لعل وعسى أنْ أصل معها إلى شيء أجد معه الإجابة على السؤال الذي يحيرني، بالفعل أرسل الإيميل، وبحثت عنها فوجدتها، وقبلت إضافتي، ودخلنا معا في محادثة صوتية، كما قال صديقي إنها من المغرب، لكن اللكنة لم تكن مريحة لي، سألتني هل أنت متزوج؟ فكذبت عليها وقلت: نعم، هل أنت رومانسي؟ فقلت لها: جدًا، وأخذت تسألني عن العلاقة الخاصة،

وأنا أراوغها في الحديث، قالت: ثواني من فضلك أغلق هذا الكتاب الذي كنت أقرأه، فقلت: كتاب ماذا، فقالت: البطالة عند الشباب العربي.

زادت حيرتي أكثر، فما الرابط بين أسئلة العلاقات الزوجية الخاصة والبطالة عند الشعب العربي، قلت لكم لم أكن مستريحا إلى لكنتها، فانفجرت فيها قائلاً: يا سيدتي بكل صراحة أنا لست متزوجًا وأيضا كفيف البصر وباحث في جامعة الأزهر، هنا تعجبت وقالت: واو باحث وكفيف، فقلت: نعم، أخذت تحييني على كفاحي في الحياة وإصراري على مواصلة طريقي العلمي.

توجهت لها قائلاً: أنا غير مستريح للكنتك فأنت لست مغربية، قالت: أحييك على ذكائك، وسوف أقول لك الصراحة، فقلت: تفضلي، قالت: أنا إسرائيلية من أصول مغربية، أعمل باحثة في مركز حيفا، وقد كلفتُ بعمل بحث عن العلاقات الزوجية في المجتمعات العربية، وكان لابد من إجراء الكثير من الأحاديث حتى أتمكن من وضع تصور عام، ولم يكن أمامي إلا الإنترنت، قلت لها: ألم أقل لكِ: إنني غير مستريح للكنة فهي لكنة العبرية عندما تنطق العربية، هنا وجدت الإجابة على السؤال الذي كان يحيرني.

لكن المضحك في الأمر هو أنني قد ذهبتُ إلى صديقي، وقلتُ له ساخراً: علاقتك أنت وزوجتك يتم تدريسها الآن في الجامعات الإسرائيلية، كان صديقي مندهشًا غاية الاندهاش عندما رويت له ما حدث، فقلت له: يا صديقي هذا هو عدونا الحقيقي الذي يريد أن يعرف كل شيء عنا، ويراقبنا في كل شيء حتى يتمكن من تدميرنا، فقال: إنها فضيحة، والله أشعر بالخجل من نفسي، فقلت له: وأنا الذي اكتشفتُ فضيحتكَ يا صديقي، تعيش وتاخد غيرها.

المثقف الذي أماته قهر الزمن

عندما كانوا يسألونني في المدينة عن المثقفين فيها كنت أجاوب على الفور فلان وفلان وعبده الكسباني، نعم عبده الذي كان يكبرني بعامين، خريج كلية التجارة، لكن كان الجميع يندهش بسخرية عندما أذكر اسمه ،كان دومًا يشعر بظلم الحياة ومعاكستها له، فهو المسكين الذي يعيش في غرفة واحدة مع جدته، فقد الأب وفقد الأم، ولم يخرج من الحياة بشيء يعتمد عليه إلا بعض المحاولات الفاشلة في العمل، أو عطف بعض الأشخاص عليه، هذا الشعور كان كافيًا أنْ يدفعه إلى التعمق في كتب الفلاسفة والملاحدة، والبحث عن الآراء الشاذة التي تركت فيه أثراً كبيراً.

كنا نعاني منه حين نجلس معه، كان عبده على يقين أنه قد ولد في هذه الحياة وولد معه النحس الذي كان يلازمه في كثير من المواقف، ويكفي هذا الموقف الذي سأسرده، دخل عبده محل كشري ليتناول وجبة الغداء، جلس عبده ليأكل، فقال له صاحب المحل: دقيقة وأرجع، لتنتبه يا عبده ولا تتحرك من مكانك، خرج صاحب المحل فإذا بسيارة شرطة تقتحم المحل، وتعتقد أن عبده صاحبه، فأخذته وظلت تحقق معه في ضرائب المحل وأشياء أخرى، صرخ عبده لست صاحب المحل يا عالم، لكن لا أحد يصدقه حتى تم الإفراج عنه.

كنت أعاني قمة المعاناة في الحديث مع عبده خاصة عندما يتعلق الحديث بالأمور الدينية والعقائدية، حيث ترك ديكارت أثراً بشعاً في تشكيل نظرته لما بعد الحياة، ولعل هذا هو السبب الرئيسي الذي جعل بعض الناس تسخر منه حينما يجلسون معه، كانت تعلو نبرات الحسرة والحزن عند عبده كلما نظر إلى زملائه الذين كانوا أقل منه ثقافة وذكاء حينما يراهم قد أصبحت لهم سيارات فاخرة، وبيوت شاهقة، واستقرت حياتهم الشخصية، وأصبحوا في بحبوحة من العيش، بينما عبده يجلس مقهوراً في كشك بسيط، يجلس فيه يبيع للناس، ولا يتحصل في آخر اليوم إلا على اليسير.

وصل القهر بعبده إلى الدرجة التي قال لي: الشقاء كتبه الله عليّ في الدنيا، وسيكتبه عليّ في الآخرة، وفي يوم من الأيام اختفى عبده، ولم يره أحد في الكشك البسيط الذي كان يجلس فيه، وبعد مرور يومين ذهبوا إلى بيته، لكن لا أحد يرد، دفع أحدهم الباب بقوة ليجد عبده ملقى على الأرض لا يتحرك ولا ينطق، أخذوه على الفور إلى المستشفى ليكتشفوا أنه قد مات منذ يوم بعد إصابته بجلطة في المخ لم يسعفه فيها أحد، هذا المخ الذي حوى الكثير من المعرفة، والتفكير الدائم في قهر الحياة وظلمها لبعض البشر، لم يكن غريباً بعد ذلك أنْ يتوقف ويصبه العطب، عاش عبده وحيداً، ومات وحيداً، وهو الذي لم يتجاوز الاثنتين والأربعين من عمره، جعل الله تلك المعاناة والحياة الصعبة التي كان يقاسيها في ميزان حسناته، وغفر له ذلاته.

الأستاذ الذي ترك أثرًا كبيرًا في حياتي

إنه الأستاذ الفاضل محمود النمر، متعه الله بالصحة والعافية، تعود حكايتي مع هذا الرجل عندما تقابلنا في نادي المدينة، وكنت وقتها في بداية مرحلتي الجامعية، كان الرجل يظن في البداية أن مجال معرفتي مقتصر على الدين فقط، لكنه كان في غاية الاندهاش عندما وجدني متعمقا في الفنون والآداب والسياسة، الحقيقة أن المندهش الأكبر كان أنا، فقد بهرتني ثقافة هذا الرجل الشاملة، الذي ما ترك علمًا من العلوم إلا وقرأ فيه.

رأيت فيه الناقد الأدبي الحصيف، واللغوي الأريب، والمثقف الرهيب الذي يمتلك شخصية منفصلة حين يتأمل في نصٍ من النصوص، أو حدث من أحداث التاريخ، لم يكن يُدلي برأيه من حيث قال فلان أو روى علان، لكن كان يقول: أنا أرى.

تكررت جلساتي مع هذا الرجل، وكنت أخرج من كل جلسة معه بشيء جديد تتسع فيه مداركي، وتشكلت لدي نظرة بعيدة للأشياء بفضل حديثه الشيق، وتحليله العميق.

الأستاذ محمود شديد التعلق بالأديب الكبير نجيب محفوظ والكاتب الكبير توفيق الحكيم، والاثنان لم يكن لي بأعمالهما أي اهتمام سوى ما يعرض لهما من روايات عبر شاشات السينما والتلفزيون، لكنه عندما شرح لي أغوار وأسرار ما تتضمنه كتاباتهم أصبحت شغوفًا بهما، مما جعلني أتعلق بهما مثله.

تطورت العلاقة بيننا إلى الحد الذي كنت لا أفارقه معظم اليوم، وكنت أستشيره في كثير من أمور حياتي الخاصة، الأستاذ محمود إنسان تراثي يعشق القديم، ويرفض الحديث، شديد الكراهية لوسائل التكنولوجيا الحديثة، ويراها قد عادت بعقلية الإنسان إلى الخلف، مما جعلني أختلف معه في كثير من الأشياء.

كان يعشق الكتاب حتى كانت مكتبته لنا الملجأ والملاذ الذي نرجع إليه في كثير من أبحاثنا، كنت أرى فيه شخصية حلال العقد بما يمتلكه من عقلٍ ثاقب ورؤية بعيدة، وأتذكر هنا هذا الموقف: حين زارني أحد زملاء الجامعة، وكان من مدينة تبعد عن مدينتنا، وكنت ألاحظ عليه حالة من القلق والحيرة، وعندما سألته عن السبب، قال: إن رسالتي العلمية متوقفة على هذا المخطوط العجيب الذي فشل الجميع في تفسير الخط الذي كُتب به، فقلت له: وأي خط كُتب به؟ فقال: الخط الأندلسي فإن حروفه تختلف تماماً عن حروف العربية التي نكتبها في الخطوط العادية، وهنا قلت لصديقي قم معي، فقال: إلى أين؟ فقلت له: إلى أستاذي حلال العُقد، فقال: مَن؟ فقلت له: لا تعرفه.

دخلت انا وصديقي على الأستاذ محمود، وبعد إكرام الضيافة، شرحت له سر مجيئنا إليه، فقال: هيا معي إلى مكتبتي، وأخذ الأستاذ يفتش في كتب المكتبة حتى أمسك بكُتَيّبٍ صغيرٍ، وقال: أعطوني المخطوط، نظر الأستاذ في الكتيب وفي المخطوط

وظل يقرأ المخطوط بسلاسة عجيبة وكأنه يقرأ في كتاب مكتوب بخط النسخ المتعارف عليه، كان زميلي في غاية الاندهاش والذهول.

وعندما سألناه ما الذي فعله؟ قال: عندي كُتَيّبٌ صغيرٌ يتضمن كل الخطوط العربية، وكل خط مكتوب به آيتان أو ثلاثة، فترجمت الخط الأندلسي بواسطة معرفة الآيات، ثم ترجمت كل حرف مكتوب إلى الحروف العادية، ومن هنا قرأت المخطوط بشكل سلس، ألم أقل لكم حلّال العقد!

أنظرُ إلى الأستاذ محمود بشيء من الحسرة؛ حيث أراه يستحق أكثر مما هو فيه، فلو كان الزمان منصفاً لوضعه في مقدمة النقاد والكتاب الذين نسمع عنهم، أو نقرأ لهم وليس مجرد معلم لغة عربية يكتفي بشرح المناهج فقط.

حاولت كثيراً أنْ أقربه من عالم التكولوجيا لكن دوما كانت محاولاتي تنتهي بالفشل الذريع؛ فهو يحب الحياة البسيطة، والجلوس مع البسطاء، ويكره التكلف والروتين الحياتي، لكن المشكلة الكبيرة التي تظل بيني وبينه هي عشقه المبالغ فيه للصوفية الذين أكرههم كراهية شديدة، وأرى ما يصنعونه نوعا مِن الدجل والخرافة، بينما يراه هو نوعا من الروحانيات التي تعمق الناحية الإيمانية، كان يتعصب عليّ تعصباً شديداً عندما أنتقد هؤلاء الصوفية، أو أتحدث عن الأضرحة وأصحابها، فضلاً عن اختلاف رؤيتنا لبعض الأحداث التاريخية، لكن يبقى الأستاذ محمود النمر من أكثر الشخصيات التي شكلت نظرتي للكثير من الأمور، فهو المعين الذي لا ينضب أبدا، والكنز الذي لا تفنى جواهره حقا.

الجماعة والغسالة!!!

لا تعجب عزيزي القارئ من هذا العنوان، بعد ثلاثين يونيو التي شاركتُ فيها بقوة، حيث إنني كنت رافضاً أن يتولى حكم مصر أية جماعة دينية مهما كانت. تم نقلي إلى مدرسة أخرى وكانت تضم بعض الأصدقاء لي من جماعة الإخوان المسلمين، كنت أحب نقاشهم والحديث معهم، وأحبهم بشكل شخصي رغم اختلافي الشديد معهم في كثير من الآراء.

في غرفة المعلمين جلست أنا وصديقي الإخواني نتبادل النقاش، فقال: سأوجه لك سؤالا، فقلت له: تفضل، قال: لو كان عندك غسالة وأصابها عطل، وجئت بمن يصلحها، هل تصبر عليه أم تظل تضايقه حتى يتركها؟ فكان ردي الواضح هو أنني إذا ما كنت واثقاً من قدرته على تصليحها فسوف أراقبه بشدة.

انتهى النقاش وذهب صديقي إلى حصته؟ ودخل صديقٌ آخر وكان ينتمي إليهم أيضا، وبدأ نقاشٌ جديد بيننا، فقال سأوجه لك سؤالا، فقلت: تفضل، فقال: لو كان عندك غسالة وأصابها عطل وجئت بمن يصلحها هل تصبر عليه أم تظل تضايقه حتى يتركها؟ فجاوبت بنفس الإجابة على نفس السؤال من صديقي السابق.

انتهي النقاش وانصرف أيضا إلى حصته، وهنا دخلت أستاذتي وأختي الكبيرة التي كنت أعتز بها، وكانت شديدة التعصب للجماعة أيضا، وبعد السلام والتحية وعبارات الود والمحبة، قالت: هل يرضيك ما حدث يا محمود؟ إنني أعلم أنك قد شاركت في المظاهرات، ولكن صدقني ما حدث سوف نندم عليه، فقلت لها: الأمر عادي، لكل واحد منا رؤيته التي يراها، فقالت: سأوجه لك سؤالا، فقلت: تفضلي، فقالت: لو عندك غسالة، وهنا انفعلت انفعالا شديداً، وقلت لها: الله يخرب بيت الغسالة ومن يصلح الغسالة، أنا لو عندي غسالة والنعمة ما أنا جايب حد يصلحها، ارحموني، عندما أناقش أي أحدٍ منكم يقول: الغسالة، أريد كلاما جديدا، فضحكت كثيراً من انفعالي.

عزيزي القارئ أكثر ما كان يضايقني في الجماعات الإسلامية هو كلامهم المكرر، لم أكن أرى تنوعاً في النقاش أو الحوار معهم، رغم اعتزازي الشديد ببعضهم.

أنا ويوسف الآخرس

أنا أعرف يوسف منذ صغري منذ كنت أراه يصنع الأحذية، وكنت أعرف أنه بالرغم من كونه أصم أبكم إلا أنه شديد الذكاء، لكن بعد فقدان بصري لم أكن أعرف أي شيء عن يوسف، بل كنت أتفادى التعامل معه لسبب بسيط يكمن في هذا الموقف الذي تعرضت له أثناء وجودي في إحدى الجمعيات الخيرية، والتي كانت تضم العديد من المعاقين على اختلاف إعاقتهم، وأثناء جلوسي على جهاز الكمبيوتر فوجئت بشاب أبكم أصم يجلس بجانبي، ويحاول أن يقول لي شيئا، لكن بالطبع فإنني لم أفهمه فهو يشاور بأصابعه وأنا لا أراه، فكان موقفا في غاية الحرج حتى أنقذني أحد العاملين بالجمعية، وبعد هذا الموقف قررت عدم الاختلاط بهؤلاء مرة أخرى تفاديا للحرج.

وأعود إلى حكايتي مع يوسف حيث إننا عندما انتقلنا من مسكننا القديم إلى بيتنا الجديد الذي نعيش فيه الآن وجدت نفسي جاراً ليوسف والذي يسكن بجانبي تماماً، وبحكم الجيرة أصبحت له تعاملات مادية مع الأسرة.

في يوم من الأيام قال لي أبي: مر على يوسف اليوم في محله، كي تشتري منه حذاء فإن لي مبلغا عنده، وبالفعل ذهبت إلى يوسف على مضد، وأنا أدعو الله ألا أتعرض للإحراج معه.

وعندما دخلت على يوسف أخذني بالحضن ثم جاء لي ببعض الأحذية كي أجربها، وبالفعل وجدت حذاء مناسبا لي تماماً، فإذا بيوسف يمسك أصابعي يرفع إصبعا ويخفض إصبعا وأنا لا أفهم شيئا، حتى قال أحد الواقفين: إن يوسف يقول لي الحذاء ثمنه كذا وأبي له كذا، ومعنى ذلك أنه سيتبقى مبلغ كذا.

وهنا تعجبت من ذكاء يوسف الشديد؛ لكن الغريب هو ذلك الحب العجيب الذي يكنه يوسف لخالي العزيز أحمد سعد، وقد عرفت هذا عندما عرف يوسف أنني أتكلم مع خالي عبر مواقع التواصل الاجتماعي.

وفي يوم من الأيام أوقفني يوسف ورفع يدي إلى أذني، ثم وضع يدي على محموله الخاص، وهنا تعجبت كثيراً حتى أفهمني أحد الأشخاص أن يوسف يطلب مني أن أبلغ الأستاذ أحمد سعد بأن يوسف يريدك أن تكلمه على الموبايل، وهنا تعجبت أكثر؛ فيوسف أخرس لا يسمع فكيف يتكلم عبر الجوال؟

حتى كان هذا المشهد العجيب حين كنت جالساً في نادي المدينة، ووجدت يوسف ومعه مجموعة من الصم والبكم، وقد أخذوا مكاناً بعيدا عن الناس، وهم يضحكون ويهرجون كما أنهم يتبادلون بعض النكات المضحكة، وكل واحد منهم يشير للآخر وكأنهم في عالم ثانٍ لا يفهمه إلا هم.

حتى جاء يوم عصيب؛ حيث كنت واقفاً على سلم البيت أنتظر فيه التوكتوك أو الموتوسيكل الذي سينقلني إلى مدرستي التي أعمل بها، وأثناء وقوفي جاء أحد الموتوسيكلات ووقف أمامي فركبت معه على الفور معتقداً أنه يعرفني، وأنا بطبيعتي لا أدير حوارا مع من أركب معه إلا إذا بادر هو بالحديث، وصلت إلى مدرستي بالفعل، وعندما نزلت وجدت سيلا من الضحك العالي من أول المديرة حتى عامل المدرسة.

وهنا أخذني الاستغراب مم يضحك هؤلاء؟ فقالوا لي: هل تعرف مع مَن كنت راكباً؟ فقلت : لا، فضحكوا أكثر وأكثر، فقلت: مَن؟ فقالوا: إنه يوسف الأصم، فتوقف قلبي عن النبض، وظل عقلي يشرد بعيدا، وهنا تخيلت لو أنّ يوسف لم يكن يعرف مدرستي وتاه في الطريق، فماذا كنت سأصنع معه؟ إذا أشار بيديه فلن أراه، ومهما تكلمت معه فلن يسمعني، وظللت دقائق من الذهول أتخيل هذا الموقف العصيب.

لكنَّه في النهاية ذكاء يوسف الغير عادي والذي لا يتوفر لدي بعض الأصحاء، أكرمه الله في حياته، وبارك في أولاده.

أنا وعالم النساء في الطب حالة من الهيستريا

لكل إنسان منا حالة من الفوبيا تسبب له ازعاجاً كبيراً، والفوبيا بالنسبة لي هو عمل المرأة في مجال الطب، ومع احترامي لهن جميعاً ولقدراتهن العلمية إلا إنني أرى أن المرأة في هذا المجال بالذات لا يمكن أن تكون مثل الرجل؛ فعاطفتها حاضرة ويديها دائماً مرتعشة، وقلبها رقيق لا يمكن أن يتحمل أي شيء، ولعلّ هذا هو السبب الرئيسي في تحريم الإسلام توليها القضاء.

وأعتقد أن اقتناعي هذا موجود لدى كثير من الرجال والنساء، بدليل أن هناك الكثير من النساء تفضلن الذهاب إلى الأطباء الرجال وليس للمرأة، وبالطبع خوفي هذا ترتب علية الكثير من المواقف والطرائف التي أتذكرها جيداً، وأولها هذا الموقف الذي أصابتني فيه رعشة كبيرة ذهبت على إثرها إلى الصيدلية، وكانت التي تقف فيها زميلتي في المرحلة الابتدائية، فظللنا نروي معاً ذكرياتنا في تلك المرحلة، وأنا على اعتقاد أثناء تجهيزها للحقنة أنها ستكون في الوريد، وأن صاحب الصيدلية هو الذي سيعطيني الحقنة، لكنها قالت: هيا الْتفت يا أستاذ محمود، فقلت لها: ألتفت إلى ماذا؟ فقالت: كي أعطيك الحقنة، وهنا انتابتني حالة من الهيستريا والعصبية فلا يمكن أن آخذ الحقنة من امرأة، كذلك فإن الحقنة ليست في الوريد وإنما في العضل، فظللت أتعصب وأنا رافض تماماً، حتى دخل الصيدلي وأعطاني الحقنة.

لكن أصعب المواقف على الإطلاق هو ذلك الموقف الذي شعرت فيه بألم في ضرسي حين كنت في المدرسة، واشتد الألم عليّ إلى درجة أنني كدتُ أن أضرب رأسي في الحائط، وعلى الفور اصطحبني أحد الزملاء إلى مستشفى عام بجوار المدينة حيث لا يوجد أحد من الأطباء المتخصصين في هذا الوقت، فوجدت أمامي طابورا طويلا، والألم يشتد عليّ بشكل غير طبيعي حتى جاء دوري، فكانت المفاجأة أن الطبيب الذي سيقوم بخلع ضرسي امرأة، وهنا ركبني عفريت اسمه لن أخلعه، فظلت الطبيبة تجادلني والألم يشتد من ناحية أخرى وأنا رافض تماماً، فقالت الدكتورة: أنت حر، فلتتحمل الألم حتى تجد طبيبا آخر، وهنا أصبحت بين نارين أحلاهما مر: إما أن أتحمل ألم الضرس، وإما أن تخلعه لي طبيبة امرأة، وبين هذا وذاك نطقتُ الشهادة واستعنت بالله، ووافقت على أن تقوم بخلع ضرسي، وعندما جلست على الكرسي دار حوارٌ بيني وبينها أرادت أن تعرف سبب موقفي هذا، فظللت أشرح لها وهي تضحك ثم وضعتْ يديها الناعمتين على فمي، وبدأت بخلع ضرسي حتى تم بفضل الله خلعه، ومر الموقف على خير، لكن أيضاً لم أزل على اقتناعي بعدم دخول المرأة هذا العالم، حتى جاء أخطر المواقف وأصعبها على الإطلاق بالنسبة لي، وهو عندما أجريت أول عملية في حياتي وكانت عملية حساسة جداً، ظللت ألح على الطبيب وأستحلفه بالله ألا تحضر أي امرأة لغرفة العمليات، فظل الطبيب - رحمه الله – يضحك، ويقول: إن شاء الله، حتى جاء وقت العملية واسترخيت على السرير، وجاء موعد حقنة المخدر، وهنا لم أجد امرأة بل اثنتين كل

واحدة تمسكني من ناحية، وكأنني سوف أجري منهما، وأنا وسط كل هذا منفعل غاية الانفعال، حتى أخذت حقنة البنج فقامت المرأتان بوضعي على السرير، وهما تتبادلان الضحكات، وأنا أنظر إليهما في غيظ وحسرة، حتى دخل الطبيب وظل يداعبني هو والمرأتان، فقالت: إحداهما والله لا أعرف يا دكتور إذا كان يصنع كل هذا الآن، فماذا سيصنع عندما يتزوج، وهو ينفر من النساء بتلك الطريقة، فدار حوار بيني وبينهما حتى انتهى الدكتور من إجراء العملية، وبعد ذهاب البنج شعرت بألم، فلحقتني إحداهما بحقنة مسكنة، وظلتا تداعباني حتى انتهى هذا اليوم بسلام.

وبعد كل هذا ورغم أنني كنت أفلت منهن في كل مرة بفضل الله، إلا إنني لا زلت على قناعتي الشديدة بعدم صلاحية المرأة في مجال الطب مهما كانت قدراتها العلمية والعقلية والطبية مع اعتذاري الشديد لهن جميعا، مجرد وجهة نظر.

ليلة سوداء وانهيار نفسي غير مسبوق، رحمتك يا الله

كانت ليلة من أسوأ الليالي التي قضيتها في حياتي، ولم أذق فيها النوم إلا العاشرة في صباح اليوم التالي، ما بين صديقي الذي أغضبني، وأثر الدواء الذي أنهكني، والحر الشديد الذي يخنقني، وعداد الكهرباء وفاتورته التي تشغلني.

كلها أسباب تجمعت حتى أفقدتني لذة النوم، بعد مباراة شيلي وكولومبيا في بطولة أمريكا الجنوبية، والتي انتهت عقب الفجر مباشرة، أصبحت في حيرة من أمري.

أريد أن أسمع شيئا يهون عليَّ هذا الليل الطويل والجو الكئيب، أمسكت التليفون وتجولت عبر اليوتيوب لعلّي أجد فيه شيئا يساعدني على النوم، وبعد بحث طويل قررت أن أستمع إلى برنامج بلا حدود، وكانت حلقة مسجلة يؤرخ فيها أحمد منصور لحلقات برنامج شاهد على العصر، وظل يأتي بأبرز المقاطع في جميع الحلقات.

توقفت عند مقطع لضابط مغربي يسمى أحمد المرزوقي، وكان يتحدث فيه عن سجن (تازمامرت) اسم السجن هكذا، وهنا قررت أن أستمع إلى شهادة هذا الضابط والتي ستستغرق ساعات طويلة، وقررت أن أسمع حلقة أو حلقتين كل يوم قبل أن أنام.

وبدأت أول حلقة معي في حوالي الساعة الخامسة صباحًا، وحتى لا أطيل عليكم،

سأنثر لكم ملخص تلك الحلقات في التالي:

في سنة (1971 م) قرر اثنان من جنرالات الجيش المغربي الإنقلاب على الملك، وكان هذا الظابط الذي يُدلي بشهادتة مجرد ظابط صغير يتبعهما، وفي يوم عيد ميلاد الملك الحسن الثاني، وكالعادة كان القصر الفسيح يمتلئ بالسياسيين والفنانين من شتى بقاع العالم، دخل الجنرالات القصر، وأخذت الرشاشات تقذف الرصاصات بداخل القصر، فحدث هرج ومرج واختفى الملك، شعر أحد الجنرالين بخيانة الآخر فقام بقتله، وسيطر على القصر بأكمله.

ظل الضابط يروي ما حدث داخل القصر حتى قال: أوصى الجنرال قائد الإنقلاب أخاه أن يظل بالقصر مع بعض الجنود، بينما ذهب هو إلى مقر وزارة الدفاع ويسيطر عليها بالكامل، ثم أرسل بعض جنوده إلى مبنى الإذاعة والتلفزيون حتى يحاصروه، ويعلنوا قيام الجمهورية المغربية في بيان يُتلى على الشعب من خلال الإذاعة.

وهنا يروي الضابط موقفا طريفا، كان عبد الحليم حافظ بداخل الإذاعة يسجل أغنية في مدح الملك الحسن الثاني، بينما ظل محمد عبد الوهاب وشادية ومحمد الموجي بالفندق الذي يقيمون فيه.

أخذت الشهامة محمد الموجي ومعه شادية لإنقاذ عبد الحليم، أما محمد عبد الوهاب، فقد كان جباناً رفض الخروج من الفندق، وعندما وصل الموجي وشادية إلى مبنى الإذاعة وجدوا الكثير من الضباط يحاصرون المبنى، فحاولوا إقناعهم بخروج عبد الحليم حتى نجحوا في ذلك.

ومن الطرائف هنا أن من قرأ البيان في الإذاعة هو ملحن مغربي شهير، وكان كفيف البصر، وقد أجبروه على حفظ البيان وتلاوته.

نعود إلى الجنرال الذي ظل بوزارة الدفاع بينما ترك أخاه بالقصر دون إذن، وهنا ظهر الملك الحسن الثاني، وقد كلف أحد الجنرالات المقربين له بالقضاء على هذا الإنقلاب، وبالفعل نجح في القضاء عليه، أُعدم الكثير من الجنرالات رمياً بالرصاص، لكن ماذا كان مصير الضباط الصغار ومنهم هذا الظابط الذي كان يروي ما حدث؟

يقول الضابط: قمنا بتسليم أنفسنا إلى الأمن معتقدين أن الملك سيتركنا لأننا لا حول لنا ولا قوة، ما نحن إلا منساقون خلف قائدنا العسكري، لكن ما حدث عكس هذا، تم محاكمة هؤلاء الضباط، وحُكم عليهم بالسجن لمدة خمس سنوات.

وهنا يأخذ الحديث منحىً آخر، أمر الملك الحسن الثاني بصنع سجن في الصحراء تحت الأرض، وكان هذا بواسطة وزير داخليته الذي يُعد أشرس وزير داخلية في تاريخ العرب إنه (إدريس البصري)، هذا السجن يسمى (تازمامرت) أشهر سجن في التاريخ، لم يُحبس هؤلاء الضباط الصغار في السجن خمس سنوات كما قالت المحكمة، ولكن عشرين عاما.

عشرون عاما ظل هؤلاء في غُرف تحت الأرض منعزلة عن بعضها، كل غرفة تحوي عشر أفراد في مساحة ضيقة، وبجانبهم برميل صغير لقضاء الحاجة.

عشرون عاما وهم برداء واحد لم يتغير وبلا ملابس داخلية، ومع توالي السنوات أصبح الرداء ممتزجا بلحوم أجسامهم بحيث لا يمكن فصله.

عشرون عاما بلا أدوية، ولا أدوات تساعدهم على تنظيف أجسامهم من الشعر والأوساخ.

نسى هؤلاء الزمن والحياة في وسط هذا الظلام الدامس الكئيب، لا يعرف أحد منهم ماذا حدث لعائلته، وكيف أصبح أبناؤه، أصبحوا عبارة عن هياكل عظمية تتساقط منها اللحوم عاما بعد عام.

ظل الأمر هكذا حتى عام (1986 م)، وهنا نجح أحد المساجين، والذي كان متزوجاً من امرأة أمريكية الجنسية، أن يرسل لها رسالة شفوية مع أحد الحراس الذي كان

من أقاربه، فما كان من تلك المرأة إلا أن اتصلت بالسفارة الأمريكية، وأخذت تتصل بمنظمات حقوق الإنسان، وبدأ اسم (تازمامرت) يتردد على ألسنة الجميع.

كل هذا والملك ينفي، والحكومة تنفي وتقول: هذا من الأساطير.

يروي أحد الصحفيين الفرنسيين، والذي كان صديقاً للملك، أنه قد توسل إليه للإفراج عن سجناء (تازمامرت)، فما كان من الملك إلا أن طرده من القصر.

زادت الضغوط الدولية حتى جاء عام (1991 م)، وفي عيد الأضحى وصلت عربة عسكرية إلى السجن، وقامت بحمل السجناء ونقلهم إلى العاصمة الرباط في ثكنة عسكرية.

كل سجين بغرفة، وظلوا يطعمونهم، ويأتون إليهم بالأطباء حتى لا يظهروا أمام العالم بالحالة التي كانوا عليها في السجن.

وتم التنبيه عليهم جميعاً أن يقدموا الشكر للملك الذي أفرج عنهم، كان الضابط يروي وأنا في حالة من البكاء والانهيار النفسي، ولم تعرف عيني النوم.

ظللت أستمع إلى شهادة الرجل حتى أصبحت الساعة العاشرة صباحاً، وهنا غلبني النوم وأنا أفكر في سجن (تازمامرت).

وبدأت الكوابيس تفعل فعلتها معي، فأنا حبيس في السجن، عبارة عن هيكل عظمي،

لم أتحمل الكابوس، فقمت فزعاً بعد ساعة فقط من نومي.

ظللت في قلقٍ شديدٍ أتخيل هؤلاء الذين أمضوا عشرين عاما دون أن يروا الشمس، أو يرى بعضهم البعض، بل عاشوا أمواتا.

كانت ليلة سوداء بمعنى الكلمة، وانهيار نفسي أعاذكم الله منه.

موقف أوشك قلبي فيه أن يتوقف

في بيتنا القديم كنت أسكن في غرفة تطل على الخارج مباشرة، بمعنى أنّ أي شخص يمكنه أن يدق على باب غرفتي دون الاحتياج لجرس باب البيت.

وفي يوم من الأيام نمت كعادتي بعد الفجر، وهنا ظللت أسمع في نومي صوتا مخيفا مرعباً، أكثر رعبا من صوت الغيلان أو التنين الذي يظهر في أفلام الرعب الشهيرة، أو قصص ألف ليلة وليلة.

ظللت أتقلب في نومي والصوت المرعب لا يفارق أذني ولا يريد أن يتوقف، كان الحل الوحيد بالنسبة لي أن أستيقظ من هذا الكابوس المرعب، وبالفعل أستيقظت وجلست على سريري، لكن كانت الصدمة والمفاجأة أن الصوت لم يتوقف.

الصوت خارج الباب، صوت شيء مخيف يهمهم بأشياء، شعرت بالرعب أكثر فأكثر، وبالطبع لم تكن عندي الجرأة كي أفتح الباب، لكن كل ما فعلته أن ظللت أصرخ بصوت عالٍ على مَن في البيت حتي يستيقظوا؛ ليروا ما هذا الغول أو التنين أو الوحش ذو الصوت المخيف الذي ينتظرني أمام الباب.

وعندما خرج الجميع وفتحوا الباب كانت المفاجأة الصادمة، أحد الجيران رحمة الله عليه كان يربي ماعز ويطلقهم في الشارع، وعندما حدثت خناقة بينه وبين جار آخر لنا رحمه الله أيضا، قام هذا الجار بوضع السم لهذا الماعز بعد صلاة الفجر.

نام الماعز أمام باب غرفتي يصارع الموت نتيجة لهذا السم، ويخرج أشياء من فمه، وبالطبع يخرج هذا الصوت المخيف الذي كاد قلبي أن يتوقف فيه.

مشهد لن أنساه ولن يذهب من ذاكرتي أبدا.

سامح الله من تسببوا فيه، ورحم الله الجميع برحمته الواسعة.

أنا وراديو المشاكل العجيب

كنت طالباً في الجامعة، وقبل ظهور الدش والكمبيوتر والإنترنت، كنت أهتم كثيراً باقتناء الراديو، وأعشق الإذاعة عشقاً منقطع النظير، إلى أن جاء يوم حدثني فيه أحد الأصدقاء الذي كان يعاني من مشكلة مادية حادة، فطلب مني أن يبيع لي راديو بثمن قليلٍ جداً، وعندما ذهبتُ إليه كي آخذ الراديو وجدته يشبه الموبايل تماماً، فهو في حجم راحة اليد أو أطول قليلاً، لكن صديقي قال لي: إنَّ فيه أمرا غريبا، فقلت له: ما هو؟ فقال : إن موجة (FM) عليه تلتقط المكالمات التليفونية التي تتم عبر أجهزة اللاسلكي المتواجدة مع الناس، فقلت له: ولماذا تبيعه؟ فقال: إني أحتاج المال بشدة، وهنا اشتريت منه هذا الراديو كنوع من المجاملة، ثم أهملته بعض الأيام حتى جاء يوم أردت أن أتفقده، وأتفقد ما به من موجات وإذاعات حتى أتيت على موجة (FM)، وهنا سمعت مكالمة تليفونية بين اثنين، وبالطبع لا أنكر عليكم أنني ظللت أستمع للمكالمة حتى اكتشفت شخصية المتحدثين، وكانوا من مدينتي.

ثم بعد أن أنهوا المكالمة وجدت مكالمة ثانية وثالثة ورابعة، والمفاجأة أن هذا الراديو كان يلتقط جميع المكالمات التي تتم في مدينتي والمدن التي حولها وعلى مسافات بعيدة بشرط أن يكون أحد الهاتفين عبارة عن لاسلكي.

وهنا أصبحت أقضي وقت فراغي في الاستماع إلي تلك المكالمات التي كانت تتم في باطن الليل وفي وضح النهار، مع علمي بأن ذلك خطأ وفيه من الحرمة الكثير لكنه فضول الشباب، وفراغ الأجازة الصيفية في هذا الوقت، وأما عن طبيعة المكالمات فهي إما مكالمات للأهل، أو لمراكز الشرطة، أو المكالمات العاطفية التي كانت تتم بين الزوجين أوالخطيبين أوالحبيبين، وبالطبع كان كل تركيزي على مثل هذه المكالمات، ولا أخفيكم سِراً أنني علمت من الأسرار والحكايات من خلال هذا الراديو ما لم أكن أعلمه طوال عمري، حتى أن جاءت غلطتي الكبيرة الفادحة، وهي أن عرفت أحد أصدقائي على هذا السر العجيب الذي معي، وهو الراديو، وكنت جالساً عنده وبعد إلحاح شديد طلب مني أن أُسمعه بعض المكالمات التي تتم، وبالفعل كانت أول مكالمة يسمعها صديقي وكان من مدينتي التي أسكن بها بين صاحب مكتبة كبيرة بالمدينة وبين آخر يعمل محامياً، وكان الحوار بينهما يدور حول تاجر كبير اتهمه صاحب المكتبة بأنه مُرابي ومرتشي، وينصُب على كثير من الناس، وظل يسرد للمحامى كثيراً من أفعال هذا التاجر، وأنا وصديقي نستمع لهما بإمعان وهدوء حتى أنهى المكالمة، وكان صديقي في غاية العجب والدهشة من هذا الحوار، ثم كانت المكالمة الثانية بين وكيل المجلس المحلي عندنا وبين أحد العاملين بالمجلس، وكان الحوار يدور حول شخص آخر يعمل بالمجلس المحلي وكان يشتهر بكثرة شكاويه في زملائه، وكان من بينهم هذا الشخص المتحدث مع وكيل المجلس، فظل يسبُ فيه ويلعنه حتى أنهى كلامه بقوله: والله لسوف أُلفق له مصيبة حتى

ننتهي منه ومن مشاكله، وهنا أذكر هذه الجملة التي أعتبرها هي المكسب الوحيد من شراء هذا الراديو، والتي قالها وكيل المجلس وأعمل بها في حياتي دائماً وتلك الجملة هي: يا فلان إللي ما تكسبوش ما تخسروش، لكن الطرف الآخر صمم على أن يلفق مصيبة لهذا الشخص ثم أنهى المكالمة، وأنا قفلت الراديو واستأذنت صديقي في الانصراف لكن ما الذي حدث بعد ذلك؟

حدث أنّ صديقي قد ذهب للتاجر المرابي وروى له ما حدث بين صاحب المكتبة وبين هذا المحامي، ثم ذهب بعد ذلك إلى هذا الشخص الذي كان محور الكلام بين وكيل المجلس المحلي وبين أحد العاملين فيه، وروى له ما حدث بالحرف الواحد، وهنا علمت بأن هناك شجارا عنيفا وقع بين التاجر وصاحب المكتبة حتى وصلت إلى جلسة كبيرة حضرتها شخصيات كبيرة بالمدينة، أما الشخص الآخر فقد ضرب زميله ضرباً عنيفاً وأشهد عليه وكيل المجلس المحلي الذي لم ينكر المكالمة، لأنه قد أقسم عليه بأن يقول الحقيقة، لكن يظل السؤال من أين عرفتم تلك المكالمات؟ مع الأسف الشديد بعد تصالح جميع الأطراف أقروا جميعاً بما حدث، ومن ذلك كلام صديقي الذي اعترف لهم بكل شيء، وهنا وجدت المحامي يتصل بي وقد هددني بأن أسلم هذا الراديو له وبصفة شخصية دون أن أقول لأحد، وبالطبع رفضت رفضاً شديداً لأنني أعلم أنه سوف يستخدمه لمصالحه الشخصية، لكن كانت المشكلة الكبرى هي في الشخص الذي كان يعمل في المجلس المحلي، والذي جاء لي إلى البيت، وصنع لي فضيحة كبيرة، وظل يراوغني ويهددني، حتى حكم عليَّ بعض الناس بأن أكسر هذا الراديو، لكن بالطبع هو الكنز الذي أملكه، لكن هي إرادة الله وعقابه لي، حيث غلبني النوم وأنا أسمع بعض المكالمات عليه وبحجمه الصغير ظل يتدحرج تحت جسمي، وفي أثناء تقلبي في النوم انكسر إريال الإرسال الذي كان يتحكم في استقبال الإذاعات والمكالمات، وحاولت إصلاحه بشتى السبل والوسائل لكن دون جدوى، وكان عندي استعداد كبير أن أدفع فيه مبلغاً كبيراً، لكن قدَّر الله وما شاء فعل، غفر الله ذنبي الكبير هذا، وأرجو من تلك الشخصيات التي ذكرتها وبالتأكيد أنهم إذا قرأوا كلامي هذا سيتذكرون تلك الحكاية، فأرجو منهم المغفرة والسماح على هذا الفعل المشين الذي ارتكبته في حقهم.

الفيلم الأمريكي الذي شاركت في بطولته وكانت النهاية

منذ سنوات كنت دائم التجول بطبقي الكبير بين مختلف الأقمار الصناعية، وذلك بحثاً عن مباريات كرة القدم، أما الأفلام فكنت أكتفي منها بهذا الفيلم الذي كان يعرض ليلة الأحد على قناة صاين سينما على القمر التركي.

وبيني وبينكم ودائماً ما يكون هذا الفيلم رائعاً في قصته، ورومانسيته التي كانت تزيد عن الحد في الكثير من الأحيان، وكنت أنتظر السبت بفارغ الصبر، أغني أغنية السيدة أم كلثوم (أنا في انتظارك) بالطبع انتظار الفيلم الذي سيبدأ مع منتصف ليل القاهرة.

وعندما اقترب الميعاد المنتظر قُمت بتقفيل الأبواب والشبابيك بالرغم من أني أعيش في الشقة بمفردي، وجلست مسترخيا على السرير.

ودقت الساعة الثانية عشرة وبدأ الفيلم (المشهد الأول) حفل عيد ميلاد فيه صخب كبير وحديث جانبي بين ثلاث رجال انتهى على الاتفاق بأن يقوموا في الغد برحلة بحرية مع زوجاتهم في مركب واحد.

وبالفعل عندما حل الصباح اجتمع الثلاث أزواج ومعهم زوجاتهم وصعدوا إلى المركب، ويبدو أن الرحلة ستكون طويلة جدا، وهنا قررت الزوجات الثلاثة أن يجلسن معاً في ركن من أركان المركب يتبادلن الحديث حتى يضيع الوقت بسرعة، وهنا اتفقن في أثناء الحديث على أن تروي كل واحدة منهن مغامراتها السابقة مع من أحبت.

وبدأت الأولى تحكي والفيلم يعود إلى الخلف بنظام الفلاش باك، كانت مغامرات الأولى رائعة ممتعة فيها جميع مشاهد الإثارة والتشويق، كنت أحسد فيها كل من أحب هذه المرأة وقضى معها وقتا، وكنت أود لو كنت واحدا منهم.

ثم بدأت الثانية تروي مغامراتها وهنا أخذت عيني تغفو شيئا فشيئا حتى ذهبت إلى عالم آخر، ما هذا؟ إنه لأمر عجيب غريب! أنا غير مصدق نفسي، أنا بطل مغامرات المرأة الثانية.

تقابلت معها في إحدى المطاعم، وظللت أنظر إليها بنظرات إعجاب، فجلستْ بجانبي وأخذنا نتبادل الحديث، ثم شربنا كأسين من النبيذ، ثم طلبتْ مني أن تصحبني بسيارتها، إنني لمحظوظ، أخذت رأسي تدور وتدور أين ستذهب بي المرأة، ورائحتها العطرة تلعب بمشاعري وأحاسيسي، وقامت بتشغيل كاسيت السيارة بأغاني رومانسية توحي أننا سنقضي ليلة ممتعة، كانت الشوارع مزدحمة شديدة الأنوار، لا أعلم أين أنا ثم فجأة دخلت بي في مكان أظن أنني رأيته قبل هذا على شاشات التلفاز.

دققت عيني قليلاً، ما هذا؟ إنني في حالة من الذهول، صاعقة نزلت على رأسي إنه الأقصى، وهذه هي قبة الصخرة.

فصرخت في وجه المرأة، أين نحن؟ فقالت: نحن في أورشليم في إسرائيل، وهنا هيكل سليمان.

نعم إنهم يرتدون الطواقي المميزة لهم، فقلت لها : أنا مصري مسلم، كيف تقولين هذا؟ وهنا سمعني بعض الفلسطينيين المتواجدين في المكان.

فما كان منهم إلا أن رموني بالحجارة؛ أنت خائن، من الذي جاء بك هنا؟ ثم فجأة شعرت بمزيد من الحجارة على الشبابيك والأبواب، استيقظ أيها الغافل، القدس عاصمة فلسطين، الرمي يزيد شيئا فشيئا وجماهير الناس تحاول أن تقتحم باب الشقة، إنني في صراع رهيب كيف أهرب؟ رحمتك يا الله، أستغفر الله العظيم.

الحمد لله إنه كان كابوسا، الحلم مفزع، استيقظت من نومي فوجدت أن الفيلم قد انتهى، وأنني أنا الذي كنت بطل المغامرة الثانية؛ لكن مغامرة بشكل آخر، جعلتني آخذ عهدا على نفسي ألا أعود إلى هذه القناة مرة ثانية.

أنا وصديقتي الملحدة التي ذهبت إلى حال سبيلها

هل تقول صديقتك؟ نعم هي صديقتي، كيف وأنت تقول ملحدة**!؟**

كانت فتاة متشعبة الثقافة، من أسرة بسيطة من محافظات الدلتا، عرفتها وقد تعدت سن الثلاثين، كانت تحلم بالزواج شأنها شأن باقي الفتيات، تقربت منها كثيراً إلى درجة أنني كنت أعتمد عليها في كثير من الأمور، وكانت تحاول الاقتراب مني أكثر فأكثر حتى ينتهي هذا الاقتراب بالزواج، لكن دائما ما كنت أشعر بحاجز كبير بيني وبينها، رغم أنها كانت تحمل ثقافة رائعة تجعلني منبهراً بها يوما بعد يوم، لكن عندما يئست من هذا الأمر، لاحظت عليها مزيدا من التوتر والعصبية التي أخذت تضايقني في الكثير من الأحيان، أخذت نظرتها للحياة تسود شيئا فشيئا حتى طرحت سؤالًا غريباً مضمونه: ماذا تفعل بعد وفاتك ودخولك القبر ثم اكتشفت أنه لا يوجد حساب، ولا عذاب، ولا سؤال، ولا إله، ولا جنة، ولا نار؟

بالطبع كانت صاعقة بكل الأوجه، وبعد استفاقتي من هذا السؤال أخذت أتناقش معها، وأصبح محور حديثنا اليومي هذا الأمر، وأخذت هي تعلن شيئا فشيئا عن إلحادها أمام الجميع، وعبر صفحات مواقع التواصل الاجتماعي، لكن هذا الإلحاد كان دافعه الرئيسي هو: اليأس وسوء الحظ، والدنيا التي كانت تعاكسها كما تقول.

وبالطبع أصبح محالا التواصل بيني وبينها، حتى تزوجت من أحد الملحدين ممن له شهرة عبر هذا الوسط في المجتمع المصري، فذهبت إلى حياة جديدة أدعو الله ألا يكتبها لأحد.

انتقلت صديقتي إلى حياة أخرى، وكما هو اعتقادي دوما فإن الانحراف لا يتجزأ، كانت هذه الزيجة مبنية على الكذب والخداع من ناحية الرجل، أما هي فقد تعجلت ولم تنظر إلى النواحي الأخرى للزواج التي فرضها الشرع، وتعد بمثابة حماية قوية للمرأة المتزوجة، أوهمها الرجل أنه ذو منصب كبير في الجامعة، وأنه لم يتزوج إلا مرة واحدة انتهت بالفشل، ولا يربطه بزواجه السابق أي ارتباط، بينما تساهلت هي في عقد زواجها، حيث لا اعتراف بشرع ولا دين ولا عادات أو تقاليد، لم يكن هناك مهر أو مؤخر أو أي شيء يضمن لها الاستمرارية في تلك الزيجة الغامضة.

يمر أسبوعان من الزواج ويأتيها اتصالا من امرأة تخبرها فيه أنها هي الزوجة الأولى، وأنها لم تزل على ذمته، والأكثر من هذا أن معها أربعة أبناء منه.

كانت صدمة كبيرة بمعناها الحرفي، كانت تستدعي معها موقفاً صارما، ولكن إنه هو الرجل الذي تحدثْ به المجتمع، ويحمل نفس أفكارها الإلحادية، فماذا تقول لمن حولها؟ كل هذا كان كافياً أن تلتزم الصمت، وتستمر في تلك الزيجة التعيسة.

حتى جاء يوم وجدت فيه طفلين على الباب أخبراها أنهما أبناء زوجها، وأنهما في أشد الحاجة إلى المساعدة، حيث أن أباهما لا يعطيهما من المال إلا القليل، لم تجد صديقتنا مفرا من مساعدتهما، لكن أخذ الشك يراودها في طبيعة عمل زوجها وهو من يتولى منصبا كبيرا في الجامعة كما أخبرها.

ذهبت بنفسها إلى الجامعة كي تتحرى الأمر، فكانت المفاجأة الثانية، زوجها يعمل إداريا بحسب قانون الخمسة في المائة نتيجة لنظره الضعيف نسبياً، بل إنه يعمل بدون عمل، أي إنه لا يذهب إلى الجامعة، بل يقضي معظم يومه على المقاهي والأماكن المشبوهة، وضع لا يمكن معه التحمل، وأصبح لابد من المواجهة.

اكتفي الزوج بقوله لها هل أجبرك أحد على هذا؟

حدث شجار عنيف بينها وأخيها من ناحية، وزوجها من ناحية أخرى، ترتب على ذلك خروجها من تلك الزيجة بملابسها فقط، دون الحصول على أي حق من الحقوق، وهكذا فالفشل لا يجلب معه إلا الفشل، والانحراف لا يتجزأ، فالانحراف في العقيدة ينعكس بشكل فوري على سلوكيات صاحبه، وبالرغم من كل ما حدث إلا أن صديقتنا لم تقف مع نفسها لحظة تفكر فيما حدث لها أو تراجع نفسها، فظلت على إلحادها وبالتالي فالمؤكد أن التعاسة لن تفارقها.

موقف علمني كيف أكون حليماً

منذ سنوات كنت ذاهبا إلى القاهرة، ومن طبيعتي لبعد المسافة بين مدينتي والعاصمة اصطحاب مستلزمات السفر الخاصة بي، وهي: الراديو، والتليفون، وسماعة الرأس.

كل هذا بالطبع عند عدم وجود نقاش مثمر مع ركاب السيارة، أو سيدة جميلة تجلس بجانبي يحلو الحديث معها، لم يكن شيء من هذا موجودا بداخل السيارة.

جلست في مقعدي المفضل في آخر السيارة بجوار الشباك، وكان الهدوء سمة ركاب السيارة.

أخرجت تليفوني ووضعت سماعة الرأس على أذني، وظللت أتجول في التليفون بين ما عليه من أغاني وأفلام وبرامج تلفزيونية وإذاعية، حتى ارتضيت في النهاية أغنية لوردة الجزائرية.

ظللت أهتز مع الأغنية وكأنني في عالم آخر، ثم فجأة رأيت من يضع يده على صدري ويحاول تنبيهي إلى شيء ما، إنه الرجل الذي كان يجلس في المقعد الأمامي.

قال لي بالحرف الواحد، أليست الأغاني حراما؟ عيب يا أستاذ.

وهنا انفعلت انفعالا شديدا، وما شعرت بنفسي إلا بيدي على وجه الرجل وبعنف.
قلت له: أنظر أمامك وليس لك شأن بي.

شعر الرجل بالحرج الشديد أمام الركاب، وعلا صوته، وزاد انفعالي عليه، وتدخل الركاب لتهدئة الأمر.

لكن الملفت كان هذا الصوت الجميل الذي أتى من جانب الرجل، وكان يبدو عليها البكاء والحرج، فقالت لي: هل هذا أسلوب في الكلام؟

هل يصح أن تضع يدك بعنف على وجه رجل في سن أبيك؟

هدأت قليلاً، وقلت لها: يا أستاذة أنا لم أستفزه، بل هو من بدأ بالاستفزاز بوضع يده على صدري.

كان الرجل في حالة سيئة، واكتشفت في النهاية أن تلك الفتاة هي ابنته، وقد أُحرج أمامها حرجاً شديداً من رد فعلي، وهي بالطبع أُحرجت أمام جميع الركاب خصوصاً أن معظمهم كان متعاطفا معي.

ظللت أحاول إرضاء الرجل، بالطبع من أجل ابنته ذات الصوت الجميل، ودار نقاش طويل بيننا نحن الثلاثة، كانت نتيجته أن اعتذر الرجل لي، وظللت أبادلهما البسمات حتى وصلنا إلى العاصمة.

بالطبع مع مرور الوقت عرفت أن هناك مواقفا يجب أن تكون فيها حليماً، يجب عليك الصبر قبل رد الفعل مهما كان الموقف الذي تتعرض له.

مواصلات وحكايات

أحب ركوب المواصلات العامة، أشعر بمتعة غريبة بالتفاعل مع البسطاء داخل السيارة، ما بين حديث في السياسة أو الاقتصاد أو الرياضة، وما أجمل أن يخرج الرأي من أفواه البسطاء دون تكلف! وإذا لم يتوفر الحديث بالسيارة ألجأ إلى هاتفي وما عليه من بعض البرامج أو الأغاني، وأسرح مع نفسي حتى أصل إلى نهاية الطريق.

لكن الغريب الذي بدأت ألاحظه هي كمية الحكايات والأسرار التي من الممكن أن تسمعها من راكب يجلس بجانبك أو أمامك أو خلفك وذلك عبر الهاتف أثناء حديثه مع شخص آخر.

كانت أولى الحكايات عندما دق هاتف الراكب الذي أمامي، وبصوته العالي الذي يفتقد إلى التركيز ظل يصرخ ويقول لمن يتصل به: عايزني أعمل إيه؟ الراجل مضايفني في بيته سبع سنوات، مش مشكلة يعني لما أحضر له فرح اليوم وإن كان الفرح ثقيل على قلبي، والجو شديد الحرارة، وربنا يخلصني من المشوار ده على خير، كانت تبدو على الرجل علامات التأفف والاشمئزاز من حضور فرح الرجل الذي قام بمضايفته سبع سنوات، وبالطبع كان هذا على مسمع راكبي السيارة.

الحكاية الثانية...هي حكاية تلك السيدة البسيطة التي بدت عليها العصبية الشديدة، من بداية تحرك السيارة مع السؤال المتكرر، لسه كم بلد ونوصل للمكان الفلاني يا أسطى، دق هاتف السيدة، وفي عصبية شديدة ظلت تصرخ لابنتها قائلة لها: لا تتحركي من مكانك أنا جيالك أهو، لكن حرّصِي على الحاجة هننهي كل شيء اليوم.

من عنده قدر من العقل يفهم أن هذه المرأه ذاهبة إلى ابنتها التي على وشك الطلاق، والتي جمعت عفشها؛ تمهيداً لإنهاء الحياة الزوجية.

كان كل هذا في أثناء سفرنا إلى القاهرة، ولعلّ العودة منها كانت أكثر هدوءًا، وأقل قصصاً؛ ولكن حدث أن جمعتنا السيارة ببعض الفتيات الخارجات من العمل، ويبدو عليهن خفة الظل، وسرعة البديهة، من خلال حوارهن مع السائق الذي لا يريد أن يتحرك، إلا عندما تمتلئ السيارة.

دق هاتف إحدى الفتيات، وفي صوت هادئ ظلت تكرر كلمة حاضر حاضر حاضر حاضر، دقيقتان ولا أسمع منها إلا تلك الكلمة.

قلت في عقلي: ما هذه الزوجة المطيعة التي كانت تبدو أنها تحدث زوجها، ويطلب منها أشياء تصنعها في البيت عقب وصولها.

لكن الفاجعة...عندما أنهت تلك الفتاة حديثها مع زوجها نفخت نفخة كبيرة وقالت في حالة من الزهق: والله حاجة تقرف، بالطبع كانت تعلق على مكالمة زوجها، تغير الانطباع عندي من النقيض إلى النقيض.

عزيزي القارئ..

ليست السيارة المكان المناسب الذي تطيل فيه الحديث عبر الهاتف، وتفشي بالكثير من أسرارك أمام من حولك، عليك بالحذر الشديد، فمن الممكن أن يجلس معك من يعرفك، ويستمع إلى كل ما تقوله.

أكثر المواقف المحرجة التي تعرضت لها

من المؤكد أننا جميعاً نمر بظروف طارئة تضعنا أحيانا في مواقف محرجة، لا نعرف كيف نتصرف فيها، لكن أكثر الناس عُرضة لتلك المواقف هم أصحاب الاحتياجات الخاصة من أمثال فاقدي البصر.

وقد روى لنا التاريخ حكايات مضحكة عن هؤلاء، وما حدث لهم كبشار بن برد وغيره، أما أنا فلا أنكر أن الظروف قد وضعتنى في بعض تلك المواقف، أذكر منها حين كنت أصعد إلى سلم الأتوبيس، وكانت أمامى فتاة، وقد بدت رائحة العطر تفوح منها، ومن شدة التزاحم ارتطمت يدي بجسدها، ولم تكن تعلم أني كفيف، فما كان منها إلا أن صفعتنى على وجهي مرتين، كل هذا أمام جميع الركاب، فما شعرت بنفسى إلا ويدي تنزل على وجهها بشكل جنوني، حتى تمكن الناس في أن يحولوا بيني وبينها، وترتب على ذلك إصابة الفتاة بحالة من الإغماء الشديد.

ما دفعني إلى فعل هذا ليس رداً على صفعها لي، ولكن خشيت استعطاف الناس ونظراتهم، مما دفعني إلى هذا التصرف الخطأ.

ولا أنسى ذلك اليوم حين كنت طالبا في الجامعة، وكان جميع الأساتذة فيها على قدر عالٍ من الأخلاق والتواضع، اللهم إلا أستاذاً واحداً كان بمثابة الشيء المرعب لي ولجميع الزملاء.

وفي يوم من الأيام كنت واقفا على سور الجامعة، وكنت بمفردي وشعرت بشيء قريب من أذني، فتخيلت أنه زميلٌ لي يداعبني، فقررت في نفسي أن أعطي له درسًا لا ينساه أبدا، فما كان مني إلا أن التفت على الفور، وقد قبضت يدي، وأعطيته لكمة شديدة، فتأوه هذا الشخص من شدة الألم وسط جميع المتواجدين، لكن المفاجأة المذهلة بالنسبة لي أن هذا الشخص هو الدكتور نفسه المرعب، وبعد معرفتي أنه هو شعرت بأني أتهاوى شيئا فشيئا، حيث قد ضاع مستقبلي، ولكن من رحمة الله بي أنّ هذا الدكتور قد تفهم موقفي، وظل يداعبني بعدها، ومر الموقف بسلام.

لكن من أصعب الأمور التي مررت بها في حياتى على الإطلاق، هو ذلك الموقف الذي حدث في الإسكندرية، حين كنت في المصيف مع أصدقائي، وكان المصيف في غاية الفوضى، وعندما نزلنا الماء، ظللت أنا وأصدقائى نلعب مع بعضنا البعض ما بين جري وقفز وشد وجذب، وفجأة دفعني أحد أصدقائي بعيداً داخل المياه، وأنا أسمع ضحكاتهم من بعيد، فقررت أن أقفز فوقه وأنزل به تحت الماء، وبالفعل ظللت أجري متتبعاً نبرات صوته حتى شعرت بأقدام أمامي، لكنها تبتعد عني بسرعة عالية، فظننت أنه هو، وعلى الفور جريت بسرعة وقمت بالقفز عليه، لكن فوجئت بأنّ مَن قفزت عليه كان ذا شعر طويل، وكتف ناعم، فضلاً عن الصراخ الذي لا يصدر إلا من امرأة، إنها الصاعقة الكبرى لقد قفزت على كتف امرأة، وكانت في

الأربعين من عمرها، ولولا أن أحد أصدقائي هرول نحوي بسرعة وانتشلني، لا أدرى ماذا كان سيحدث لي من تلك السيدة، وبعد مرور وقت قليل من هذا الموقف ذهبت إليها واعتذرت لها، ومن حسن حظي أنها كانت خفيفة الظل، تفهمت الأمر بشكل سريع.

وهكذا لا تخلو حياة أصحاب ذوي الاحتياجات الخاصة من المواقف الطريفة، التي تسبب لهم حرجاً شديداً، بالرغم من أنهم قد يصطنعون بعض هذه المواقف في بعض الأحيان!

طرائف المكفوفين الذين أعرفهم

إنّ عالم المكفوفين مليء بالنوادر والمواقف المضحكة، سواء ما كان منها في الحياة أو عبر مواقع التواصل الاجتماعي، وأظن أننا جميعاً قد رأينا ذلك في فيلم (الكيت كات)، وإن كان فيه بعض المبالغات إلا أن في الكثير من الحقائق.

وأحب أن أروي هنا بعض المواقف التي مرت بهؤلاء ممن أعرفهم معرفة جيدة، وأبدأ مع العم (صالح) ذلك الكفيف السعودي، الذي خرج مع أصدقائه في رحلة صيفية، الرحلة في السعودية أن يذهبوا إلى الصحراء ثم ينصبوا خيمة، ويعيشوا حياة بدائية جداً.

لكن في إحدى الليالي كان الجميع في الخيمة، وناموا جميعاً إلا العم صالح الذي كان سهران، يسمع أم كلثوم عبر إذاعة صوت العرب، لكنه أراد أن يذهب إلى الحمام، والحمام في الصحراء يكون في الهواء الطلق، وهنا جعل العم صالح صوت الراديو عالياً كي يكون دليله في العودة للخيمة، وبالفعل خرج العم صالح لقضاء حاجته لكن ما الذي حدث؟

الذي حدث أن صديقه الذي كان نائما بجواره قد أزعجه صوت الراديو، فقام بإغلاقه تماماً، ولم ينتبه إلى عدم وجود العم صالح، وبعد أن فرغ العم صالح من الحمام، لم يجد صوت الراديو أو أي دليل يمكنه من الوصول إلى الخيمة، فظل يمشي ويمشي، يصعد جبل وينزل من جبل لعلّه يصطدم بالخيمة، وظل على ذلك خمس ساعات دون فائدة، حتى أدركه الصباح فوقع مغشياً عليه من التعب والإرهاق، حتى جاءت سيارة كانت تعبر بالصدفة، فحملته إلى بيته وظل مريضاً أياما طويلة.

وأترك العم صالح وأنتقل إلى (فارس وطارق) وهما كفيفان يعيشان بجوار بعضهما، وقد قام صديقهما المبصر بعزومتهما على الغداء فذهبا معاً، لكن كان لهما شرطٌ واحدٌ وهو أن يتناولا الغداء في غرفة منغلقة عليهما دون أن يراهما أحد، وبالفعل جاء هذا الصديق بمائدة الطعام ثم وضعها أمامهما، وشرح لهما خريطة المائدة وما فيها من أطباق، ثم تركهما وأغلق الغرفة، وبدأ الكفيفان في تناول الطعام، لكن أين طبق اللحم الذي قال عليه صديقهما؟ لا يوجد لحم، فظل الكفيفان يتبادلان الاتهامات كل منهما إلى الآخر، بحجة أنه يصنع مقلب وأنه يداري طبق اللحم، وظلوا كذلك حتى دخل عليهما صديقهما الذي وجد طبق اللحم مرمياً على الأرض، ومبعثر ما فيه، فقال لهما: من الذي أوقع طبق اللحم؟

فقالوا له: لحم ماذا؟ لا يوجد لحم، أنت تسخر منا، فقال والله كان يوجد لحم، وفجأة وجد هذا الصديق أنّ هناك شيئا يتحرك تحت الكنبة: فظل يفتش ويفتش حتى وجد قطا من النوع السمين، وقد بدا علية آثار أكل اللحم، فالقط قد استغل ظروف الاثنين،

وسحب الطبق منهما، وأكل هو اللحم، وترك الاثنين يتبادلان الاتهامات لبعضهما البعض.

وأترك (طارق وفارس) إلى (مصعب)، هذا الشاب الذي دائماً أراه يلعن الزمن والدنيا بسبب أنه قد فقد بصره، ثم رجع إليه، ثم فقده مرة أخرى، فتولدت عنده حالة من اليأس والإحباط.

وكان مصعب معتاد الجلوس أمام شاشة الحاسوب، ويفتح الكاميرا كي يراه الأصدقاء ويراهم، لكن بعد أن فقد بصره ظل محتفظا بالكاميرا، يفتحها لمن يريد.

وفي يوم من الأيام طلبت منه إحدى الصديقات المغربيات فتح الكاميرا كي تراه، ففتح الكاميرا لكنها قالت له: لا أرى شيئا، فظل مصعب يعدل فيها، فقالت: أرى الآن حائطا، وظل يعدل فيها، فقالت: أرى صورة رجل عجوز، فاستغرب مصعب، وعدلها مرة أخرى، فقالت أرى سيدة عجوزة، فظن مصعب أن المغربية تسخر منه، فأسرع إلى أخته كي تكشف له الأمر، فظلت أخته تضحك وتضحك، فقال لها: ما الذي يضحكك؟ فقالت له: يا مصعب، لقد وضعت الكاميرا بالمقلوب، فهي موجهة إلى الحائط الذي عليه صورة والدك ووالدتك، وهنا ظل مصعب يلعن في الزمن والظروف التي جعلته هكذا.

تلك هي بعض طرائف المكفوفين الذين أعرفهم، وإن كان بعضُها مأساويًّا بعض الشيء، إلا إنها تصبح بعد ذلك ذكرى مضحكة.

موقف لن أنساه في المترو

في يوم من الأيام كنتُ أنا وأحد الأصدقاء بالقاهرة، وكنا في منتصف النهار أي ساعة الذروة، واتفقتُ أنا وصديقي على ركوب المترو، وبالفعل ركبنا المترو لكنه كان مزدحماً بشكلٍ فظيع، إلى الدرجة التي لم نجد فيها مكانا للوقوف وليس للجلوس.

وفي أحد المحطات ركب شابٌ يحمل على يديه طفلاً صغيراً، فوقف معنا ويبدو أن هذا الطفل قد أثار عطف إحدى الفتيات التي تجلس على كرسي، فقالت للشاب: أعطني الطفل أحمله عنك، وبالفعل جلس الطفل على رجل الفتاة، وبعد مرور محطة أو محطتين نادى الطفل بصوت عالٍ على الشاب الذي كان يحمله، فقال: يا مصطفى، فقال مصطفى: نعم، فقال: هل نقلت المحاضرات إلى كشكولي الخاص بي، وهنا فزعت الفتاة، ودُهشنا جميعًا، ثم كانت المفاجأة أن وجدنا هذا الطفل هو قزم يبلغ العشرين من عمره، فما كان من الفتاة إلا أن رمت به على الأرض، وظلت تهرول في المترو، كل هذا ونحن في غاية الضحك والاستغراب، فكان موقفاً لا يُنسى.

الطشت!!!

لعلّ ما سأسرده في تلك السطور يتشابه تقريباً مع ما ورد في موضوع المترو، لكن الفارق أنني لم أحضره بنفسي؛ ففي أحد الأيام كنت جالساً مع بعض أساتذتي، وكانوا يتحدثون في موضوع ما، فذكر أحدُهم شخصا يُسمى الطشت، وهنا ضحكتُ كثيراً، وقلت: ما سر هذا المسمى؟ فضحك الجميع، ويبدو أنهم يعرفونه بلا استثناء، فذكر أحدهم تلك القصة التي على أثرها سُمي بهذا الاسم.

يقول: كنا مجموعة من الطلاب نسكن في محافظة دمياط، وكان الطشت هذا الشقيق الأكبر لزميل لنا، وكان حجمه ضئيلًا جداً يشبه حجم طفل عمره خمس سنوات، وفي أحد الأيام جاء لزيارة أخيه في البيت الذي كنا نستأجر إحدى شققه، فظل معنا أكثر من أربعة أيام.

وهنا اعتقدتْ صاحبة البيت أنه طفلٌ صغيرٌ، ولاحظت عليه رائحته الغير طيبة وملابسه المتسخة، وهنا عرضت عليه أن تحميه في طشت الماء فهو أصغر من أصغر أبنائها.

ذهب معها دون أن يتكلم، وعندما خلع الطشت ملابسه وجلس في المياه، أخذت المرأة تسكب عليه الصابون والماء، لكن كانت المفاجأة المريعة عندما نظرت إليه وهو عارٍ تماماً، حيث اكتشفت أنّ جسمه ليس بجسم طفلٍ صغيرٍ بل شاب جسمه جسم قزمٍ، وهنا هرولت بسرعة إلى هؤلاء الطلاب، وظلت تصرخ، وتقول: ما عمر هذا الضيف الذي معكم؟ فقالوا: اثنان وعشرون عامًا، وهنا لطمت على وجهها، ووبختهم بأفظع كلمات التوبيخ.

كان هذا الموقف الساخر سبب رئيسي في تسمية هذا القزم بالطشت نظراً للطشت الذي قامت المرأة بوضعه فيه.

الباحث الذي أجرى معي حوارًا وكانت النهاية مفاجِئة

اتصلت بي إحدى الصديقات التي قالت لي: أريد منك شيئا مهما، فقلتُ لها: تفضلي، فقالت: هناك شاب ابن صديقة عزيزة على قلبي، ويريد أن يدخل معك في حوار كي يتمم بحثه الذي يريد أن يقدمه لإحدى الجامعات بالقاهرة، فقلتُ لها: بكل سرور.

وبالفعل اتفقنا على موعدٍ محددٍ، وجاء الباحث لي إلى البيت، وفي بداية الكلام شكرني كثيراً على قبولي الدعوة، وقال: هناك الكثير من المكفوفين قد رفضوا أن أجري معهم أي حوار، فقلت له: لا شكر على واجب، هذا بحث، ويجب أن أساعدك فيه.

فقال الباحث: هل تريد أن نبدأ، فقلت له: تفضل، وبالفعل أخرج الباحثُ ورقتين، وقال: في هاتين الورقتين ثلاثون سؤالا، هل من الممكن أن تجاوبني عنها؟ فقلت: تفضل، وبدأت الأسئلة.

وكان النصف الأول منها عن حياتي ودراستي وطموحي الشخصي، لكن نأتي إلى النصف الآخر الذي استوقفني كثيراً، حيث كان يشمل أسئلة غريبة الشكل والنوع، مثل: أنت ككفيف وأريد منك أن تُعمل خيالك معي فيما سأطرحه من أسئلة، فقلت: تفضل، فقال: بالنسبة لمجال القراءة والكتابة ما خيالك المستقبلي الذي تتمناه من خلالهما؟ فقلت: أن يكون هناك جهاز أُملي عليه الكلام وهو يكتب من تلقاء نفسه، وأن يكون في نفس الجهاز مكان أضع فيه الورقة ويقرأها من تلقاء نفسه، فقال الباحث: وما الذي تتمناه بالنسبة لوسائل المواصلات؟

فقلت له: أتمنى أن يكون هناك جهاز يرسل إشارات للسيارة القادمة من على بعد لكي تتوقف أمامي.

قال: وما الذي تتمناه أن يكون في حركة سيرك؟ فقلت: أن يكون هناك جهاز يصدر إشارات عند وجود حفر أو الاصطدام بشيء أمامي.

فقال: وبالنسبة لأمور البيت، ما الذي تريده أن يتوفر من الوسائل الحديثة حتى يسهل عليك إستعمالها؟ فقلت: أن تكون هناك ثلاجة متضمنة جهاز يخبرني بمحتوياتها؟ كذلك أن يصمم تلفزيون يترجم المشاهد الصامتة.

واستمر الباحث في طرح أسئلة من هذا النوع ثم انتهت الأسئلة.

فقلت له: أريد أن أسألك سؤالا واحدا، فقال: تفضل، فقلت: لماذا كل هذه الأسئلة الغريبة والعجيبة؟ فقال: هل تريد الصراحة؟ فقلت: نعم، فقال: الشركات والمؤسسات الغربية في أوربا والولايات المتحدة هي التي ترسل لنا هذا النوع من الأسئلة، ثم تأخذ تلك الإجابات لتحاول أن تبني عليها الاختراعات والأجهزة المتطورة.

وهنا امتلكني العجب والاستغراب من شدة ذكاء هؤلاء، وكيفية استغلالهم لحاجة أصحاب الحالات الخاصة من أجل بناء مخترعات تساعدهم في الحياة، وقلت: لو أن مصر توفر المزيد من الإمكانيات، بالتأكيد كنا تقدمنا في هذا المجال، لأننا نمتلك عقولا كبيرة، لديها القدرة على الابتكار والاختراع، ولكن الجميع قد تفرغ للسياسة وهمومها .. وحسبي الله ونعم الوكيل.

رغم ضعفها قضت عليها

لا تستغرب عزيزي القارئ من هذا العنوان، فهذا ما حدث منذ سنواتٍ طويلة، عندما كنت في المرحلة الابتدائية، وكنت لا أزال مبصرًا، أحمل حقيبتي وأتوجه إلى مدرستي الكائنة في آخر هذا الشارع الطويل الذي كان يمتلئ بالكثير من صنوف البشر، كثيري الحركة، كثيري النشاط.

ولا أخفيكم سرًا سعادتي الكبرى عندما كنت أرى وأستمع إلى شجار النساء، وما يقال فيه من مفردات لفظية، وحركات جسمانية، تجعلني في غاية الاستمتاع والمرح العقلي.

لكن أتذكر هذا الموقف الذي لا أنساه أبدًا مهما تقدم بي العمر، حينما كنت ذاهبًا إلى المدرسة في الصباح، وجدت خناقة كبيرة بين امرأتين على النقيض من بعضهما،

فالأولى ضخمة البنيان ثقيلة الوزن، وكأنها مصارعٌ كبيرٌ من المصارعين المحترفين.

أمَّا الأخرى فجسم نحيل وبنيان هزيل، وكأنها ريشة تمشي على الأرض؛ لكن ما كان يجمعهما هو ذلك اللسان المحمَّل بمعجم الألفاظ القبيحة التي كانت تقذفها كلٌّ منهما للأخرى.

توقفت عن السير لأرى كيف ستنتهي تلك المباراة الغير متكافئة بين الطرفين، وكلٌّ منهما يشتد بالألفاظ على الآخر، حتى انفعلت تلك السيدة العظيمة البنيان، فقررت أن تتخلَّى عن لسانها وتستخدم يدها.

الغريب في الأمر أن الأخرى لم تلجأ للفرار بل ثبتت في مكانها، حتى اشتبك الطرفان، وبالطبع يقول العقل أن القوة الجسمانية لابد أن تكون لها الغلبة، هذا ما حدث بالفعل، حيث وضعت هذه المرأة قوية البنيان الأخرى تحت فخذيها وظلت الثانية تصرخ دون فائدة.

تجمهر الناس وحاول البعض فصلهما عن بعضهما، لكن فشلت المحاولات، وبالطبع كان الجميعُ متعاطفًا مع تلك الضعيفة النحيلة، وما هي إلا لحظات وترك هذا الوحش الكاسر فريسته بعد أن أعطتها درسًا في استعراض القوة.

وقفت ضعيفة البنيان تبكي بعينيها، والثانية أمامها وساكني الشارع يطلون من شبابيكهم وشرفاتهم، وهناك جمهور يحيط بهم، ثم فجأة حدث أمر مروع، فما هو؟

لقد هجمت ضعيفة البنيان على الأخرى بعد أن انحنت إلى الأرض، وأمسكت بطرف ملابسها من أسفل ثم رفعتها إلى أعلى، وهنا انكشفت عورة المرأة بعد أن تم تجريدها من ملابسها الداخلية.

كل هذا حدث في لمحة خاطفة من المرأة الضعيفة البسيطة، انكشفت عورة المرأة أمام الجميع، فما كان منها إلا أن سقطت بنفسها على الأرض خجلاً وحياءً ممن كانوا يشاهدون المنظر، فأضحت مغشيًا عليها، ومن ثَمَّ فهي فضيحة لها ولأبنائها الذين كان لهم قَدْرٌ واحترام بالشارع.

بيني وبينكم أُعجبتُ كثيرًا بتلك الحيلة الذكية لتلك المرأة الضعيفة، التي انتقمت لنفسها شرَّ انتقام، واستطاعت بعقلها البسيط أن تتغلب على هذا الجبروت الجسماني للمرأة الأخرى.

وهذا درس لك عزيزي القارئ، ليستْ القوةُ البدنيةُ وحدَها من تصنع الفارق، فهناك أعظمُ قوةٍ خلقها الله تعالى، إنه العقلُ والدهاءُ والذكاءُ والفطنةُ، فجميعهم يمكنك من الانتصار على خصمك مهما كانت قوته وعتاده.

أنا والقفز من السور!!!

موقف من المواقف التي لن تُمحى من ذاكرتي، كان في بداية عملي بمجال التربية والتعليم، وكنت في إحدى المدارس التي تعاني من تعنت مديرها وسوء معاملته لجميع العاملين بالمدرسة، لم تكن هناك سابق معرفة بيني وبين هذا المدير، بالرغم من أننا نسكن في مدينة واحدة لكن كنت أتوقع منه المعاملة الحسنة التي يُكفلها لي القانون والعلاقات الإنسانية.

كان هذا المدير على العكس من كل هذا، فكان يتعمد مضايقة الجميع بما فيهم أنا ولا أدري ما السبب في ذلك، كان الجميع يعلم بمدى شغفي وجنوني بكرة القدم، فكانت هناك مباراة في وقتٍ مبكرٍ في الدوري الإنجليزي، وكانت مباراة حاسمة تحدد بطل الدوري، وقد فرغت من جميع التزماتي بالمدرسة، فذهبت إلى هذا المدير كي يأذن لي بالانصراف، لكنه رفض رفضاً شديداً بحجة أنه سيطبق القانون بحذافيره، ولن نخرج إلا في الساعة الثانية، وأن مفتاح بوابة المدرسة معه ولن يعطيه لأحد.

ظللت ألحُّ عليه وأقول: ما الذي ستستفيده من جلوسي بالمدرسة، لقد انتهيت من جميع أعمالي، ولا يصح أن تفعل معي هكذا، فعندي أمر مهم يجب أن ألحق به.

تعصب هذا المدير تعصباً شديداً، وقال سأفعل هذا معك كل يوم.

خرجت من عنده وأنا في حالة من الضيق والغضب، وجلستُ بجانب بوابة المدرسة مع صديقي المقرب لي معلم التربية الفنية، فقلت له : ماذا أفعل؟ أريد أن أخرج بشتى الطرق؟ فقال: ليس أمامك حلٌ غير القفز من أعلى السور، وهذا أمر مستحيل؛ لأنه مرتفع، وأخشى عليك من إصابتك بالكسر.

لم أبالِ بكلامه، وقلت له ما عليك إلا أن تجعلني أمسك الحائط ثم تتركني، رفض صديقي، وظللت ألحُّ عليه حتى فعل معي ما قلته، استجمعت قوتي وحيويتي ولم أعبأ بكوني كفيف البصر، وكوني قد أسقط سقوطاً خاطئاً فتنكسر قدماي.

وقفت أعلى السور ثم قفزت من فوقه بطريقة مثالية، فسقطت واقفاً دون أن أشعر بشيء، ثم أخذت توكتوك، ورجعت إلى البيت.

أصيب زميلي المعلم بالذهول، وإذا به يهرول إلى هذا المدير قائلاً له: إذا قلت لك على أمر حدث فهل تقسم ألا تفعل شيئا، فقال: أقسم لك ألا أفعل شيئا، فقال: لقد قفز محمود الذكي من على السور، وهرب إلى البيت.

فظن المدير أن هذا المعلم يسخر منه، فخرج إلى البوابة فلم يجدني، وعرف ممن في الخارج أنني قد أخذت توكتوك ورجعت إلى البيت.

التزم هذا المدير الصمت حتى جاء اليوم التالي، فوجدت وكيلَ المدرسة يطلبني للتحقيق فيما فعلت، وبالطبع غضبت من زميلي غضباً شديداً حينما وجدته شاهدا على الواقعة.

وفي أثناء التحقيق سمعت صوتاً عالياً، ومشاجرة كبيرة كانت بين زميلي وهذا المدير الذي أخلف وعده، وحنث في يمينه وخان القسم والعهد، فما كان من هذا المدير إلا أن شعر بالحرج، وقلة القيمة أمام العاملين بالمدرسة، خصوصاً أن جميعَهم كانوا متعاطفين معي أشد التعاطف إلا شخصًا واحدًا كان يحمل كراهية لهذا المدير، ولم تكن كذلك علاقتي به قوية، وكان ينتظر أية هفوة لهذا المدير كي يكتب فيه شكوى إلى المديرية.

استغل هذا الشخص الموقف وأرسل شكوى إلى مديرية التعليم بحجة أن هذا المدير قد رأى معلما يقفز من السور دون أن يعاقبه، جاءت على الفور لجنة تحقيق من المديرية، وتمَّ إحضاري لهم، وبدت عليهم علامات الدهشة والعجب خصوصاً عندما شاهدوا ارتفاع السور، فقالوا ما اسمك؟ فقلت لهم كذا، فقال أحدهم: هل أنت قريب فلان الذي يعمل مستشارا؟ فقلت: نعم إنه عمي، فسكت الرجلُ وأغلق التحقيقَ، وظل يتحدث معي بعيدا عن الشكوى، حتى قال لي: أنا في غاية الإعجاب بلباقتك وثقافتك، فشكرته كثيراً ثم طلب مني أن يسير معي خارج المدرسة، وبالفعل خرجت معه، وظللت واقفاً بجانبه حتى تأتي السيارة التي تذهب به إلى مدينته، وهنا همس في أذني قائلاً: أريد أن أسألك سؤالا وتعدني أن تقول لي الصراحة، ولن أفعل شيئا؟ فقلت له: تفضل، فقال: هل قفزت بالفعل من فوق السور؟ فقلت له: نعم، ورويت له ما حدث بالتفصيل، فضحك الرجل كثيرًا، وتم إغلاق الموضوع كأنّ شيئا لم يكن.

عزيزي القارئ الظروف قد تجعلك تصنع الصعب والمستحيل حتى لو كان خاطئا، لكن المؤسف هنا أن بعض قيادات العمل في مصر توظف قدراتها في بسط السيطرة على الآخرين، والنرجسية والاعتقاد بأن القائد الناجح هو من يتعامل بشدة مع مرؤوسيه.

الفضيحة حققت لها ما تمنت

لعلّ القصد من كتابة هذا الموقف هو التنبيه على أمر سلبي يحدث عندنا في مختلف مؤسسات الدولة التي لا تراعي طبيعة قرب العامل من محل عمله، فتجد كثيرا من الموظفين يعملون في أماكن بعيدة، يعانون مُرّ المواصلات ومصاريفها فضلاً عن الإرهاق الشديد الذي يبدو عليهم، وليس أدلَّ على ذلك من هذا الموقف الذي حدث لإحدى الزميلات بالتربية والتعليم، وكانت تأتي إلى مدينتنا من مكانٍ بعيدٍ.

وبالرغم من كثرة الشكاوى والتظلمات والتوسلات التي قامت بها كي يتم نقلها إلى مدينتها، فتكون بالقرب من البيت والأولاد، لكنها في النهاية لم تجد سوى الرفض الشديد.

إن القانون المصري يضع شروطاً كي يتم نقل الموظف من عمله، أبرزها حدوث شيء خارج عن المألوف، أو بالمسمى الطبيعي عندنا فضيحة لا يمكن معها الموظف مواجهة زملائه.

حتى كنا في أحد الأيام وكان الجوُّ ممطرًا، والشوارعُ يُرثى لها، وكان خلفَ المدرسة سورٌ منخفضٌ، يعبر عليه الطلاب والمعلمون الذين يريدون الخروج مبكرًا من المدرسة، ونتيجة لسوء حالة الجو أرادت زميلتنا أن تذهب قبل أن يسوء الجو أكثر فأكثر، فاتجهت إلى السور المنخفض وكانت بجانبه حفرة بسيطة يمكن تخطيها بسهولة شديدة ، وعندما رفعت زميلتنا رجليها لكي تعبر تلك الحفرة تعرقلت بفعل الطين والمياه، فسقطت في داخل الحفرة، ظلت تصرخ وتصرخ حتى أقبل عليها الطلاب والمعلمون يحاولون إخراجها من تلك الحفرة، لكن ما حدث كان أمرًا مأساوياً،عندما خرجت زميلتنا اشتبكت ملابسها في شيء داخل هذه الحفرة فارتفعت إلى أعلى.

وبالطبع كانت كارثة وشيئا مخجلا للجميع، ترتب عليه نقل هذه المعلمة إلى مدينتها البعيدة لكن كان الفرجُ من خلالِ موقفٍ سيء.

عزيزي القارئ إننا نعيش مأساة حقيقية في مؤسساتنا؛ حيث التعنت والجفاء والأفق الضيق الذي لا يراعي مشاعر إنسانية، وما حدث لزميلتنا هذه شيء بسيط لكثير من المصائب والكوارث التي تحدث كلّ يوم، ولو كانت هناك خطة منظمة ومحكمة لتوزيع العاملين بالقرب من مسكنهم لَمَا وجدنا شكوى واحدة.

زميلي اللص الشيك

لم تكن من عادتي أن أنتبه إلى تصرفات زملائي بالعمل، أو أن أشغل نفسي بهم، لكن أتذكر في أول سنوات عملي هذا الزميل الذي قدم علينا من خارج مدينتنا، كان أنيقاً شيكاً لبقاً ذو لهجة جذابة، ولم يكن هذا بغريبٍ على معلم اللغة الفرنسية.

بالطبع كنا نجتمع معًا بغرفة المعلمين، وكانت هناك أحداث وحوارات بمجالات متعددة، سياسة أو رياضة أو أي شيء يخص مصر بشكل عام.

لكن الملاحظ أن زميلنا هذا كان دائم الحديث عن بيته وما فيه من التحف والأنتيكات والأجهزة الحديثة، وما يقوم به من رحلات إلى المدن الساحلية والتاريخية.

كنا نعتقد جميعًا أننا أمام شخصية استثنائية لا تبالي بمواعيد المدرسة، يأتي كيفما يشاء، ويخرج كيفما يشاء دون أن يلتفت إلى ما تقوم به المدرسة ضده من إجراءات.

ظل هذا الزميل هكذا حتى كان يوم من الأيام، دخل علينا أحد الزملاء وكان يمتلك منحلاً للعسل، فقال لزميل لنا: لقد جئتك بما طلبت، اذهب إلى غرفتي ستجده في الدولاب، ستجد كيلو من العسل النظيف.

بالطبع قام زميلنا بإعطاء مبلغ له مقابل العسل، ثم انصرف كل منهما إلى حصته.

أمّا بطل قصتنا فرأيته يتحرك من المكان دون أن يكون عنده حصة مطلوبة، وبعد ساعات قليلة فوجيء زميلنا بعدم وجود العسل في المكان المحدد، فقال لمن جلبه: لم أجد شيئا، ظل الرجل يقسم ويقسم أنه قد أتى به، فإلى أين ذهب العسل؟

في اليوم التالي اعترف بطل قصتنا بأنه من أخذ العسل لأنه يحبه، ويبحث عنه منذ زمن طويل، لكن دون أن يعطي ثمنه للبائع الأصلي، أو حتى لزميلنا الآخر الذي دفع ثمنه.

كان موقفاً غريباً من هذا الشخص، حتى جاء يوم ووجدنا أصوات تتعالى وترتفع، وعندما اتجهنا نحو هذه الأصوات، وجدنا هذا الشخص مع زميل آخر يتشاجران دون معرفة السبب.

وما هي إلا دقائق حتى عرفنا ما حدث، فبطل قصتنا قد استلف مبلغًا من المال من زميلنا هذا ولم يسدده في الميعاد المناسب.

احتار الجميع في تلك الشخصية العجيبة التي تدّعي الغنى، ثم فجأة تسطو على بعض العسل الذي لا يساوي بضعة جنيهات، ثم تستدين من زميل آخر بعض الأموال البسيطة.

تراكمت العقوبات على بطل قصتنا، حتى قامت الإدارة بنقله إلى مكان بعيد، وهنا وجدنا مظاهرة من الزميلات الفضليات وصراخ منهن، فقلنا: ما بكن؟

فكانت المفاجأة أنّ بطل قصتنا قد أخذ من جميعهن أموالا بحجة مرض ابنته قبل الرحيل من المدرسة بيومٍ واحد.

عملية سرقة كبرى من شخص غامض، كانت تتوجب علينا أن نبحث عنه، ونلح في معرفة ظروفه، فماذا كانت الحقيقة؟

كان هذا الشخص مسكينًا يسكن في شقة إيجار، يعاني من ظروف نفسية، كانت زوجته على وشك الانفصال، والأكثر من ذلك أننا لم نكن المدرسة الوحيدة التي قام بالنصب عليها، كل هذا رغم شياكته ومظهره الخادع.

وهنا نصيحتي لك عزيزي القارئ، لا تنخدع بمظاهر الأشخاص، فالملابس تُخفي وراءها ما قد يفاجئك في يوم من الأيام.

الغزال الذي بحثتُ عنه حتى تورَّمت قدماي

قد يظن البعض أنّ الحصول على الدرجات العلمية أمرًا يسيرًا أو سهلاً بعد أن وفَّر عالم الإنترنت المزيد من ملايين الكتب والمكتبات؛ لكن الأمر ليس هكذا في أغلب الأحيان، ودليل ذلك ما حدث معي في أثناء بحثي لنيل درجة التخصص الماجستير.

لقد وفقني الله تعالى إلى اختيار شخصية أدبية لم تكن معلومة لكثيرٍ من الناس، تلك الشخصية التي تُعدُّ من طلائع شعراء الأندلس عاشت حياةً غريبةً مليئةً بالأحداث والمفارقات العجيبة، فقد كان من المقربين لبلاط الأمراء، وكذلك كان سفيرًا في بلاد الروم والنورمان المجوس، إنه الأديب الشاعر (يحيى بن حكم الغزال).

كنت أعتقد أنَّ مجرد العثور على ديوانه سيوفر عليَّ الكثير من التعب في البحث عن معلومات عنه، لكن كانت المفاجأة أنّ ديوانه ليس به الكثير عن حياته، وأنّ حياته جاءت مبعثرة في بطون الكتب والمصادر، ولذا كان لزاماً عليّ البحث عن تلك المصادر وقراءتها، ودراسة ما فيها، حتى أضع تصوراً كاملاً عن حياة هذا الرجل.

وفي يوم من الأيام في أثناء تصفحي وتجولي في مكتبة الجامعة، وجدتُ كتابًا يتحدث عن هذا الأديب حديثاً عابرًا، لكن وجدت مكتوبا في أسفل الكتاب هناك كتاب تحدث عن حياة هذا الشاعر بشكل تفصيلي وتحليلي يسمي يحيى بن حكم الغزال لكاتب لبناني يُسمَّى (محمد صالح البنداق)، من هذه اللحظة أصبح عقلي وتركيزي منصبين على إيجاد هذا الكتاب بشتى الطرق.

ذهبت إلى جميع المكتبات أبحث عنه لكن دون جدوى، قمتُ بالاتصال بجميع أصدقائي في كلّ مكان أن يحاولوا البحث معي عن هذا الكتاب، وسوف أرصدُ له هدية كبيرة.

وبالطبع ظلوا يبحثون ويبحثون حتى أخذ الأمرُ شكلَ السخرية، فقد لقبوني بالغزال، بل وصل الأمر أنّ مِن أصحاب هذه المكتبات مَن حفظ وجهي، فكان يناديني بالغزال من كثرة إلحاحي وسؤالي لهم عن هذا الكتاب.

أصبح الحل الوحيد أمامي أن أنتظر معرض القاهرة الدولي للكتاب حتى أتمكن من العثورعليه في دار النشر اللبنانية التي طُبع فيها الكتاب، وبالفعل ذهبت إلى المعرض، وكلي ثقة في الحصول على هذا الكتاب.

ظللت أتنقل من دار لدار، ولا أجد اسم الدار صاحبة الكتاب، وعندما سألت صاحب أكبر مكتبة لبنانية بالمعرض ضحك كثيراً، وقال: لقد خربت هذه الدار وأعلنت إفلاسها، لكن بالتأكيد أن الكتاب يُباع في المكتبات الصغرى بلبنان.

تسرب اليأس إلى نفسي من الحصول على هذا الكتاب، وأدركت أنَّ النحس عنواني فيه، ولكن كانت هناك بارقة أمل تتمثل في أمرين:

الأول: هؤلاء الأشخاص الذين يذهبون إلى لبنان من المدينة التي تجاورنا، ويعرضون هناك الملاهي التي يملكونها، وسوف أعرض عليهم مبلغاً ضخماً لمن يأتي لي بالكتاب من هناك.

الأمر الآخر: أصدقائي اللبنانيون الذين أعرفهم عبر شبكات التواصل الاجتماعي، فقد طلبتُ منهم جميعًا أن يبحثوا في وطنهم عن هذا الكتاب الذي أتعبني وأرهقني.

ربما كان الكتاب لا يساوي خمسين جنيها، لكني رصدت لمن يعثر عليه خمسمائة جنيه، هذا السعر كان في بدايات الألفية الثانية، وليس في الوقت الذي نعيش فيه، كنت أمزح مع أصدقائي قائلاً: يفكر الناس في لبنان من خلال مطربيها وفناناتها الحسان، وأنا أفكر في لبنان من أجل كتاب واحد.

ومرت الأيام والجميع يريد أن يساعدني بالإتيان بهذا الكتاب إمَّا منفعة أو محبة فالأمر لم يكن يفرق عندي، المهم في النهاية أنْ أجد الكتاب مهما حصل، حتى كان هذا اليوم الذي رجعت فيه إلى البيت، فوجدت أبي يقول لي زميلك شادي قد اتصل بك هاتفياً ويريدك في أمرٍ ضروري.

شادي من أقرب الأصدقاء إلى قلبي، وقد طلب مني أن أذهب معه إلى القاهرة كي نبحث مرة أخرى فهو يريد مراجع عن بحثه، وكذلك لعلّني أجد كتاب الغزال؛ لكن لم أعد قادراً على السير في شوارع القاهرة، والتنقل من مكتبة إلى أخرى، فقد سيطرعليَّ التعب والإرهاق، لكن فيما يبدو أن شادي قد عاد من القاهرة وعنده شيء ما يريد قوله.

اتصلت بشادي حتى أعرف منه ما الخبر، فقال: كنت أتجول في سور الأزبكية، فقلت له: وماذا بعد؟ فقال: وجدت رجلا مسكينا يجلس في كشك بسيط لبيع الكتب فقلت له: وماذا بعد؟ فقال: ظللت أقرأ في عناوين الكتب بتركيز شديد، فقلت له: وماذا بعد؟ فقال: ولم أعثر على كتابك في النهاية.

وبالطبع تعصبت على شادي، وقلت له: هل هذا وقت مزاح؟ فضحك شادي ضحكة عالية، ثم قال: لقد وجدت كتابك في أحد أرفف تلك المكتبة، وعندما وجدته ارتميت عليه، فنظر الرجل لي باستغراب، وكان يبيع الكتاب بعشرة جنيهات؛ لكن عندما رآني متلهفاً على هذا الكتاب قال لي: هذا الكتاب بالخصوص بعشرين جنيها.

وهنا كاد قلبي يتوقف من الفرحة، وقلت سبحان الله، أبحث في معرض القاهرة وأبحث في لبنان بأكملها، ثم يكون الكتاب عند صاحب كشك بسيط، وأرصد له خمسمائة جنيه ثم أجده بعشرين جنيه فقط.

بالطبع شكرت شادي، ولم أنسَ له هذا الموقف حتى الآن، ولعلّ هذا ما دفعني أن أسمي ابن أخي باسمه.

عزيزي القارئ، قد تبحث عن الأشياء في أماكن بعيدة وهي متواجدة أمامك أو بالقرب منك، قد تكون مستعداً لدفع ثمن كبير في أمر ما، ويجده غيرك لك بأبخس الأثمان، نصيحتي لك أن تبحث في القريب قبل البعيد، وأن تتخير أصدقاءك بشدة، فقد يوفرون عليك الكثير من صعاب الحياة.

من حكايات بلدنا المضحكة

منذ الصغر كنت من أشد المغرمين بالسينما الهندية وأفلام الأكشن، ولذا كنت دائم التردد على أحد المقاهي التي كان يوجد بها فيديو، وكان هذا المقهى يقع في شارع يسكنه اثنان: عم صبحي البقال، وعم أمين القهوجي.

وكان عم صبحي يعمل بجانب البقالة عاملا في أحد المساجد، بل إنه أحيانا كان إذا غاب خطيب المسجد أو تأخر يقوم بإلقاء الخطبة بدلا منه.

وفي يوم من الأيام حدث شجار كبير بين عم أمين وعم صبحي البقال وترتب على هذا مقاطعة عم أمين عن شراء مستلزمات المقهى من عم صبحي، مما أثار غضب عم صبحي كثيراً فقرر أن يعطيه درسًا لا ينساه.

جاء موعد صلاة الجمعة، استأذن عم صبحي إمام المسجد في أن يقوم بالخطبة بدلا منه، وكان عم أمين يصلى في هذا المسجد باستمرار، وبعد أن صعد عم صبحي إلى المنبر ألقى التحية وصلّى على المصطفى - صلى الله عليه وسلم - إذا به يقول: أيها الناس لقد انتشرت في هذه الأيام أماكن اللهو واللعب، ومن تلك الأماكن المقاهي وما يحدث فيها من ارتكاب المعاصي والذنوب كشرب المسكرات ولعب الميسر فضلاً عن النميمة فإياكم والذهاب إليها.

وهنا أحسّ عم أمين بخوف شديد؛ حيث شعر أنه هو وقهوته المقصودون بموضوع تلك الخطبة، وبعد انتهاء الصلاة لم يكن أمام عم أمين إلا أن يأخذ بعض الرجال ويذهب إلى مصالحة عم صبحي، وبالفعل تمت المصالحة، وترتب على ذلك عودة عم أمين لشراء مستلزمات المقهى منه.

ثم جاءت صلاة الجمعة التالية، استأذن عم صبحي خطيب المسجد مرة ثانية بأن يقوم بإلقاء الخطبة بدلا منه، وبالفعل صعد عم صبحي على المنبر، وبعد التحية والسلام قال: أيها الناس، إذا كنا في الخطبة الماضية قد تحدثنا عن سلبيات المقاهي، فاليوم سوف نتحدث عن محاسنها، فبدلا من أن تأخذ صديقك وضيفك إلى البيت وتنكشف عورات بيتك، ويعرف أسرارك أنت وزوجتك، فاذهب به إلى المقهى فهو مكان مناسب، فما كان من عم أمين بعد انتهاء الخطبة إلا أن أخذ عم صبحي بالأحضان أمام الناس رحم الله الاثنين وغفر لهما.

عزيزي القارئ كان هؤلاء الناس رغم بساطتهم وقلة تعليمهم يجدون الحلول لكل شيء، حتى وإن اختلفت مع قواعد الشريعة والعرف، لكنهم كانوا يحدثون حالة في المجتمع يصلحون فيها بين الناس، وكانوا سببا في عدم لجوء البعض إلى القضاء، فكانت سريرتهم طيبة، ونواياهم حسنة، رغم سلوكياتهم التي لا نتفق عليها في بعض الأحيان.

صحيح فلاح آخر زمن

حملت يوماً جهاز الريسيفر الخاص بي إلى صاحب محل فك شفرات القنوات الفضائية من أجل التجديد السنوي لباقة الجزيرة الرياضية، وعند الدخول عليه وجدت رجلاً يسلم عليَّ ويقول: هل أنت تعرفني؟ فقلت: لا، فقال: أنا فلان، فتذكرته على الفور.

هو فلاح بسيط يعمل بالزراعة، لا يعرف من الدنيا إلَّا الأرض والأكل والنوم، هذا هو الذي أعرفه، فجلست أتبادل معه الكلام، ولم يخطر ببالي ما الذي جاء به هنا، فقلت: من الممكن أنه يريد أن يشتري جهازاً لأحد أولاده، أو هناك مصلحة شخصية بينه وبين صاحب المحل، ونحن نتبادل الحديث تحدث شخص آخر يبدو أنه أحد جيرانه.

وفجأة أثناء الكلام قال هذا الفلاح يا باشمهندس الباقة الفرنسية بتقطع كثيراً على القمر الأوربي، وهنا انتبهت بشدة ماذا يقول هذا الرجل؟ باقة فرنسية! أوربي! ولم يكن معروف غير الأولى والثانية المصرية، قال صديقه الفلاح: لكن هذه الباقة تعمل باستمرار على القمر الألماني أسترا، وهنا شعرت بذهول شديد، فقلت لهما: هل أنتما تتابعان القنوات الأجنبية؟ فقالوا: طبعاً، كل القنوات فأردت أن أختبرهما.

فقلت لهما: وما هي القنوات المفضلة لديكما؟ فقالا: كذا وكذا وكذا، وهنا اشتد عجبي، فكل هذه القنوات تدور ما بين قنوات الأكشن والمصارعة والثقافة، نعم أقصد الثقافة بالمفهوم الخاص الذي كان في الفيلم الشهير فيلم ثقافي.

وهنا سألت سؤالا آخر: بتحبوا تتفرجوا الساعة كم؟ فقالوا: بعد منتصف الليل إلى ما بعد الفجر!

فقلت لهما: والأرض؟ فقالا: إحنا يا أستاذ هنفضل نقضيها شَقَى في شَقَى، عاوزين ننبسط شوية، فقلت لهما: هناك قنوات خاصة بالزراعة من الممكن أن تستفيدا منها، فقالا: يووووووه هي ورانا ورانا يا أستاذ، ماذا سنفعل بها؟ فقال لي صاحب المحل: مالك يا دكتور أنت جاي تقطع علينا الرزق، ما تسيبهم يتفرجوا وينبسطوا.

فقلت: حسبي الله ونعم الوكيل، وتذكرت ذاك الفلاح الجميل الذي لم يكن يعرف من الدنيا إلا الأرض والزرع، ورغم هذا كله كان يتمتع بذكاء شديد، فكنا نطلق عليه فلاح أراري، أي لا يستطيع أحد أن يغلبه في الكلام، لكن طالما الأمر وصل إلى القمر الأوربي والألماني، فالأمر من المؤكد قد تغير كثيرًا، ولا أدري كيف يحفظ هؤلاء أسماء تلك القنوات، ولا أدري كيف يستطيعون أن يتنقلوا بين تلك الأقمار.

لكن يبدو أنني أنا الذي في غيبوبة عن التقدم الحادث في مجتمعنا، لكن بعد خروجي من المحل قلت: صحيح فلاحين آخر زمن.

من أعلام مدينتي السيدة (تفيدة الغنام)

كانت امرأة عشرة في واحد أو Multi System رحمة الله عليها.

قد يظن البعض من الجيل الحديث أنني أتحدث عن طبيبة أو فنانة أو مبدعة، لكني أتحدث عن المرحومة السيدة تفيدة الغنام، تلك المرأة البسيطة التي خرجت من بيتٍ طيبٍ، يشهد له الجميع بالتدين والعراقة والأصالة.

وبالرغم من أنها لم تعرف طريق المدارس، أو التعليم الأكاديمي الموجود في بواطن الكتب، إلا إنها كانت تمتلك من المواهب والإبداع ما يجعلها تتفوق على نساء عصرها.

فهي لم تُجِد القراءة والكتابة إلا بعد أن جاوزت سن الخمسين، وكان هذا الأمر معجزاً في تلك الفترة، وهو ما دفع المذيع الشهير (عبد البديع قمحاوي) أن يستضيفها في برنامج (عز الظهر) في الإذاعة المصرية، فكانت أول سيدة يسمع صوتَها أبناءُ مدينتنا عبر الإذاعة، لكن كيف كانت تلك السيدة عشرة في واحد؟

أقول فرق كبير بين أن تتحدث عن شخصية سمعت عنها من أشخاص، أو قرأت عنها في صفحات الكتب، وبين شخصية عايشتها بالفعل، وتشاهد إبداعها، والأكثر من ذلك أنك كنت تسكن معها في حارة واحدة، نعم لقد رأيت تلك السيدة عن قرب، ولا يمكن أن أنسى حينما كانت تشرق الشمس، كانت هذه السيدة بخطواتها السريعة الرشيقة كالفراشة، تفوق مَن هُمْ أصغر منها بعشرات السنين، وهي تبدأ يومها سواء في أعمال البيت أو في الأعمال الأخرى.

كانت السيدة تفيدة الغنام فنانة بمعنى الكلمة، وما من بيت في مدينتي إلا ويشهد لها بذلك، فمعظم الزيجات التي تمت في حياتها تركت فيها بصماتها الرائعة، وليتخيل أيُّ شخص أنها كانت قادرة وحدها على القيام بأمور الحفل من بدايته وحتى نهايته.

فكانت في بدايته تستلم العروسة، وفي ذلك الزمن كانت الأوزان ثقيلة جداً والبنات "متختخة خالص".

هي الفنانة الكوافيرة التي تمتلك من الأدوات والأشياء التي كانت تخبئها في شنطتها الذكية الشهيرة، مما يحوّل ويقلب تلك العروسة "المتختخة" إلى قمر أو غزال يتألق جمالاً وإبداعاً بجانب عريسها.

وفي أثناء الحفل كنت أرى السيدة تفيدة في القسم المخصص بالنساء، وكنت طفلا في ذلك الوقت، وهي تغني الأغاني الجميلة التي كان معظمها من تأليفها وتلحينها وتوزيعها.

وكان الجميع يردد معها في بهجة وسرور، فكانت تمنح الحفل بريقاً ورونقاً ومذاقاً غير الذي نراه الآن.

فكانت توفرعلى الأُسرالمسكينة في مدينتي المبالغ الباهظة، وربما لم تتقاضَ أجرًا مقابل ما تصنعه.

لكن الشيء العجيب والغريب في تلك السيدة التي محت أمّيتَها بعد سن الخمسين هو ثقافتها الطبية الغير معقولة، ويشهد الله كم كنت أشاهد حالات كسر ووجع وأمراض وكانت تقوم بعلاجها من خلال الوصفات البسيطة، أو بإرشاداتها السليمة، وكأنني أمام طبيب عبقري حصل على أعلى الشهادات من أرقى الجامعات.

وعلى جانبٍ آخر كانت المسئولة عن الأمور الصحية لنساء وبنات مدينتي دون أن تحدث مشكلة واحدة، بل كانت محل ثقة الجميع بلا استثناء، وكانت طلتها في أي بيت توحي بالبشرى والسرور لابتسامتها الدائمة، ووجهها السمح الطلق الجميل الذي كان يشفي القلوب قبل الأجسام.

فكانت تستطيع بكلمة واحدة أن تحلّ أكبر مشكلة عجز عن حلها كبار الرجال، وكانت تتميز بذكاء خارق، وفطنة بنت البلد التي تمتلك خبرة السنين والأيام.

كل هذا كان يجعل النساء في مدينتنا تلجأن إليها في أي مشكلة أو أزمة، فكانت تملك الحل السحري والنصيحة التي لا تخيب أبداً.

وأمَّا عن سيرتها الشخصية فيشهد الله أنني أو أي أحد من المكان لم يرَها قد صنعت مشكلة مع أحد، أو تفوهت بكلمة أغضبت أحداً بل كانت ربة بيت من طراز فريد، ربت فيه أولادها وأحفادها على العادات والتقاليد الجميلة، فكان نسلها نعم الخلف لأجمل سلف.

رحمها الله تعالى وأسكنها فسيح جناته، وجعلها في أعلى مراتب الجنة وبارك الله في أسرتها.

أنا والزعيم عادل إمام

قبل كل شيء رجائي عزيزي القارئ ألا تغضب من كلامي إذا كنت من محبي الفنان عادل إمام.

في البداية يجب أن أسجل هنا بعض الأشياء في صالح هذا الرجل:

أولها: حياته الخاصة المنغلقة التي حجبها عن وسائل الإعلام، فلم يكن عُرضة إلى الكثير من الإشاعات كغيره من الفنانين.

ثانيها: التزامه الشديد خارج نطاق الفن، وأعني بالالتزام هنا عدم المغامرات النسائية، أو دخول الأماكن المشبوهة، أو القيام بفعل فاضح في جلسة من الجلسات.

ثالثها: ندرة ظهوره الإعلامي على شاشات التلفزيون هو أو زوجته، وبالتالي لم يكن محل جدل هنا أو هناك.

رابعها: جرأته الشديدة في تناول الموضوعات، حتى وإن كانت ستهدد حياته كما حدث مع فيلم الإرهابي، والإرهاب والكباب، وطيورالظلام، حيث لم يعبأ بتهديدات الجماعات الإرهابية.

تلك هي الأشياء التي أسجلها لصالح هذا الرجل، حتى لا أكون مغرضاً فيما أقوله في السطور التالية:

الحقيقة أن عادل إمام على أرض الواقع هو واجهة سيئة للفن الهادف، وقد رأينا ذلك في الكثير من أعماله، فمن منّا لا ينسى فيلم (خمسة باب) الذي يعطي عن مصر صورة سيئة تظل منطبعة في رؤوس العرب، أقصد هنا تلك الكباريهات والراقصات التي كانت على واجهة الفيلم الأمر الذي جعل الكثير من المصريين يعانون أشد المعاناة في البلاد العربية، حينما يحدثونهم عما يحدث في مصر من هذه الأمور التي يرونها على شاشات التلفزيون في مثل هذه الأفلام.

كذلك أستغرب شخصية هذا الرجل الذي كثيراً ما تطاول على الإسلام، بل وصل به الأمر أن يتجرأ على الله في الكثير من المشاهد، فمن منا ينسى جملته الشهيرة في مسرحيته (شاهد ماشفش حاجة) حينما سخر من أسماء الله الحسنى بقوله: عبد السفنكرير وغير ذلك حاشا لله.

وكذلك من منا ينسى استهزاءه بالسيرة النبوية في مسرحيته (الواد سيد الشغال) في مشهده مع المأذون، وكذلك فيلمه (حسن ومرقص).

وكذلك أرى هذا الرجل كان له أثر كبير في إفساد المنظومة التعليمية والعلاقة بين المعلم والطالب، أقصد بذلك مسرحية (مدرسة المشاغبين) وما تضمنته من إسفاف

وأشياء خارجة عن قدسية التعليم، جعلت كثيرًا من الطلاب والطالبات يقلدونها دون وعي أو إدراك.

لقد أثبت هذا الرجل من خلال أعماله، تكالبه على المال وأنه مستعدٌ أن يفعل أي شيء مقابل الاستزاده منه، فلم نرَ منه عملاً هادفاً ذا قيمة، ودليل ذلك أنه لم يتحصل على جائزة كبيرة من أي مهرجان معترف به على مستوى العالم.

وأذكر هنا هذا الموقف الذي رواه لي أحد الأشخاص الذين يسكنون بمدينة (شُها) وهي محل مسقط رأس عادل إمام بالمنصورة، يقول: ذهب عمي ومجموعة من كبار المدينة إلى لقائه في مكتبه بالقاهرة، وذلك من أجل أن يطلبوا منه التبرع لمستشفى المدينة وبعض مدارسها، فما كان منه إلا أن سخر منهم، ثم نادى على سكرتيره بأن يعطيهم أجرة السكة، وقام بطردهم من مكتبه.

لم أقتنع أبدًا أن هذا الرجل يحصل على أي نوع من الثقافة، بالرغم من أنه يحاول دائمًا أن يثبت ثقافته وكثرة اطلاعه، لكن من يقوم بمثل هذه الأعمال، ويخرج عن النص بهذا الشكل الوقح لا يمكن أن يملك أدنى نوع من الثقافة.

قصة صديقتي التي أتمنى أن يتعظ بها بعض الفتيات

قبل بداية الحديث أود الإشارة إلى أنني لم أكتب حرفا إلا بعد أن استأذنت صاحبة هذه القصة، وذلك من أجل عدم الوقوع في الحرج أمام صديقتي الغالية.

في البداية أشير إلى أنني قد أيقنت أنَّ موضوع الإنجاب وعدمه بيد المولى - عزَّ وجلَّ - ثم بعد ذلك نوع من التوافق الروحي والعقلي، فقد كان لي معلم فاضل وكان لا ينجب أولادًا، وعندما ذهب إلى الطبيب مع زوجته، قال له الطبيب: إن زوجتك تعاني عيبا خلقي، فأخذ يعالجها دون فائدة، حتى قرر الزواج وهذا حقه بالطبع؛ لكن الزوجة رفضت ذلك وطلبت الانفصال، فكان لها ما أرادت.

ثم تزوج هذا المعلم فرزقه الله بالأولاد من زوجته الثانية، وقد كان لهذا المعلم صديق أعرفه جيدا، ولم يكن ينجب أيضاً لكن العيب منه ولم يكن من زوجته، فطلبت منه الزوجة الانفصال، فكان لها ما أرادت، ولم يجد الصديق أفضل من زوجة المعلم الأولى كي يتزوجها، فهما نفس الحالة ونفس المشكلة، لكنها إرادة الله والقدر المحتوم، حيث حملت الزوجة العقيمة من زوجها العقيم دون أي تدخل طبي، فأنجبت له الأولاد.

تلك القصة حقيقية يشهد عليها المولى - سبحانه - وبعد تلك القصة أصبح عندي يقين بأن الإنجاب إرادة من الذات العلّية في البداية والنهاية.

أعود إلى صديقتي الخليجية التي أحمل لها في قلبي مزيدًا من التقدير والإعزاز، فقد تعرفت عليها منذ أعوام، وكانت دائمة الحزن، تتوارى خلف ضحكاتها أحزان كثيرة، وكلما سألتها عن الزواج، كانت تقول لي: إنها لن تتزوج أبداً بالرغم من أن عمرها لم يجاوز الثلاثين عاما، ثم فجأة أخبرتني بأنها ستتزوج ثانية وأنها ستكون الزوجة الثانية، وهذا الرجل له من الزوجة الأولى أولاد؛ وعندما عاتبتها على هذا الاختيار وقلت لها: لماذا لا تتزوجين شابا مثلك تكونين بالنسبة له الأولى والأخيرة؟ صارحتني بهذا السبب حيث إنها قد ذهبت من أجل أداء العُمرة، ولكي تواصل المناسك والسنن تناولت نوعًا من الحبوب يمنع من نزول الحيض عليها، ثم كانت الكارثة عندما اكتشفت أن تلك الحبوب قد تسببت في إحداث نوع من الورم بداخل الرحم، وأخبرتها الطبيبة بأنه يستحيل أن تنجب إذا ما تزوجت، وبعد سماعي لتلك القصة قلت لها: يا صديقتي كل شيء بأمر الله، ثم رويت لها ما حدث للمعلم وصديقه؛ لكنها تزوجت بالفعل ولم أكن أراها مرتاحة لهذا الزواج.

وبعد أشهر قليلة وجدتها تريد أن تقول لي شيئا، ولكن كان هناك أمر يمنعها، ووجدت عندها حيرة كبيرة فألححت عليها في الكلام، حتى قالت لي: إنني كنت على حق فيما قلته، فقد اكتشفت صديقتي بأنها حامل في الشهر الرابع، وقد شعرت بالندم على هذا الاختيار في الزواج.

وبالفعل أنجبت صديقتي طفلة جميلة، وبعد ولادتها بأشهر قليلة وقع الطلاق بينها وبين زوجها الذي كان يعاملها بقسوة، وكأنه لم يرد لها أن تنجب.

تلك هي حكاية صديقتي الخليجية، وهنا أوجه نصيحتي إلى كل فتاة، بألا تقبل على الزواج وهي تحمل فكرة معينة في رأسها، يعني أي مقدمات أو مخاطر في عملية الإنجاب فهي تخضع لإرادة المولى - سبحانه وتعالى - فحسب، وليس للبشر فيها يد مهما حدث.

هنا القاهرة

أعلم أن هذه السطور ستخالف ما نراه على شاشات التلفزيون من تلك الصورة السيئة عن العاصمة القاهرة؛ لكن هذا ما حدث معي بالفعل دون مبالغة أو مجاملة بحكم دراستي ودخولي مجال البحث العلمي، فالأمر كان يقتضي مني السفر إلى كثير من المحافظات، ودخول الكثير من الأماكن والمكتبات، وبالرغم من المحافظات الكثيرة التي ذهبت إليها لم أجد معاملة حسنة وسلوكا طيبا مثل الذي وجدته في القاهرة العاصمة.

عندما أدخل مترو الأنفاق الذي دائمًا يزدحم بالكثير من الركاب، ولا يوجد مقعد خالي للجلوس عليه، أجد الكثير منهم يقومون من مقاعدهم، ويجذبونني من أجل الجلوس، بل عندما أتقدم لقطع تذكرة المترو دائما ما أشعر بالحرج أن أقول للشخص أن الدولة تكفل لي ركوب المترو مجاني بلا تذكرة، لكن أجد هذا الشخص يقول لي بشكل تلقائي يا أستاذ تذكرتك مجانية.

كذلك أجد هذا الذوق الرفيع في سائقي التاكسي، وأتذكر هنا موقفين لن أنساهما:

الأول: عندما كنت في غاية العطش، وأنا أركب مع صديقي بالتاكسي فصرحت له بذلك معتقداً أن السائق لا يلتفت إلى كلامي، وهنا رأيت السائق يقف في منتصف الطريق مستأذناً لبعض الوقت، ثم عاد وفي يديه زجاجة ماء قد اشتراها من أحد المحلات خصيصاً لي، وقال: تفضل اشرب يا أستاذ، وبالطبع شكرته على هذا الفعل

الآخر: فقد كنت أنا وزملائي ذاهبين إلى إحدى المكتبات بالزمالك، وقد حددنا ميزانية لهذا اليوم، فاقترح أحدنا أن نتناول كوبا من العصير في أحد الأماكن، وبالفعل دخلنا فوجدنا كوبا مليئا بالفاكهة، طلبناه دون أن نسأل عن سعره، لكن كانت الصدمة أننا بعد أن تناولناه وجدنا ثمنه أضعاف ما كنا نتوقعه، حينئذٍ قررنا أن نذهب إلى تلك المكتبة سيراً على الأقدام مهما كان بُعد المسافة، وبعد دقائق من سيرنا وجدنا أحد التاكسيات قد توقف بجانبنا، فقال: إلى أين تريدون أن تذهبوا؟ فقلنا: لا شيء، لكن السائق أصرَّ على ذلك.

فقلنا له ليس معنا ما يكفي للأجرة، فقال: اركبوا وبعدين نتحاسب، وبالفعل ركبنا وعندما وصلنا إلى المكان أخذ مني أقل ما عرضناه عليه.

ولا يمكن هنا أن أنسى العاملين بمكتبات القاهرة، وما يتحلون به من صبر ورفق بمن يدخلون تلك المكتبات، وأذكر هنا عندما دخلت دار الكتب والوثائق بجانب كورنيش النيل قام الموظف من مكانه ثم أجلسني وقال: أي كتاب تريد؟

فقلت له: كذا وكذا، فقال: لحظات، وما هي إلا دقيقتان، ووجدت الكتب أمامي، والأكثر من ذلك أنه أخذ يتصفح لي الكتاب ويكتب أرقام الصفحات التي أريد تصويرها، وعندما انتهيت، قال الرجل: بضعة دقائق وسوف أعود لك، وعندما عاد الرجل رأيته وقد صور لي ما طلبته من الورقات وكان رافضاً أن يأخذ مني ثمن التصوير بحجة أنه لا يستحق، بالطبع رفضت وغير ذلك من المواقف كثير.

بصراحة شديدة ما وجدته في القاهرة لم أجده في أي مكان آخر بمصر حتى في محافظتي الدقهلية مع إقراري أنّ كل مكان فيه الحسن والسيء.

أسوأ المواقف مع الطلاب والطالبات

على مر تلك السنوات الطويلة بين جدران المدارس بالتأكيد حدثت مواقف مع الطلاب والطالبات، منها ما يثير الضحك، ومنها ما يثير الحزن والاشمئزاز .

لكن في النهاية عليك أن تتوقع كل شيء، فأنت أمام خليط من السلوكيات القادمة من بيئات متباينة فيما بينها.

فهناك نماذج لا تملك أمامها سوى السكوت، كأن تُقبل على عقاب طالبة خرجت عن المألوف فتجدها تهمس في أذنيك قائلة: يا أستاذ أبي وأمي منفصلان، أو موقف يثير الضحك كأن تريد تعاقب طالبة، فيأتي الفارس الهمام حبيبها القابع في نفس الفصل ويتبرع لها بقوله: عاقبني بدلا منها يا أستاذ، أو تسأل آخر: مَن الذي أمر المسلمين بحفر الخندق؟ فيقول لك: الملك فاروق.

كلها مواقف طبيعية نتيجة للأوضاع السيئة التي يعيشها قطاع كبير من المجتمع، من الجهل والانحدار الأخلاقي.

لكن هناك مواقف أقف عندها كثيراً مستغرباً، ومتعجباً من سلوكيات أصحابها خصوصاً في هذا السن الصغير، ولا تجد لها تفسيراً في نهاية الأمر.

فتلك فتاة متزوجة وهي في سن صغيرة، جاء بها زوجها لأعطيها درسًا مع زميلاتها، ثم أفاجأ بعدم مجيء تلك الفتاة في موعدها، وأجدها تتصل بي هاتفياً أرجوك يا أستاذ إذا اتصل بك زوجي، فقل له: إني قد أخذت الدرس، فهو يمنعني من زيارة أهلي، وتلك هي الفرصة الوحيدة التي أقوم بزيارتهم فيها، تقصد فرصة الدرس بالطبع، وتكون الكارثة بعد ذلك أنها لم تزر أهلها، أين كانت؟ لا أعلم.

لم تكن تلك حالة فريدة، بل تكررت معي أكثر من مرة، وأجد نفسي في حيرة كبيرة، فلو صارحت زوجها بهذا فسوف تكون النهاية مؤلمة، ولو سكتُ، فكأنني أتستر على الخطأ وأخون الأمانة التي كُلفت بها، فيكون الحل الوحيد أمامي أن أعتذر إلى زوجها من إكمال دروسي معها.

ولعلّ سبب هذا السلوك السيء هو تعجل الأسرة في زواج ابنتها بشكل مبكر، دون أن تمتلك الوعي والعقل الناضج الذي يمكنها من حسن الاختيار، ولا يجعلها تندم بعد ذلك، فهي تبتهج بفرحة الزواج في بداية الأمر، وتعتقد أنه طوق نجاة من قيود الأهل، ثم تتفاجأ بأنه مسؤولية كبرى لا يمكن تحملها في هذه السن.

مطاردة غرامية ... وهذه أيضاً كارثة أخرى، فتاة من مدينة تبعد عن مدينتي وتأتي خصيصاً كي تتحصل على دروسها عندي برفقة زملائها، ثم تسمع صراخاً أسفل البيت، وعندما أسأل عن السبب أجد من يقود سيارته ملاحقاً تلك الفتاة، يريد أن يصدمها لأنها قد أحبت شخصا آخر.

المريضة بالكذب ... تلك هي فتاة فريدة من نوعها تعشق الكذب كعشقها للطعام، تأتي قبل ميعادها بساعة بحجة أن زميلتها قد أعطتها الموعد بشكل خاطئ، لكن بالطبع هذه حجة لكي تخلو بهاتفها بعيدا عن الأهل ونظرات الناس في الشوارع حتى تتمكن من الحديث مع المحبوب.

وعندما انتبهت لهذا الأمر وأبلغت إحدى قريباتها وجدتها تعلم تلك العلاقة الغرامية والتي لا تصدقها أسرتها.

تسرق المال لأجل الطعام ... أظنك عزيزي القارئ ستشعر بالسخرية من هذا النموذج، تلك الفتاة التي حباها الله هذا الجسم الضخم الذي يصل إلى درجة البشاعة، فحين تدخل من الباب أجد في اليد اليمنى عدد خمس أو ست سندوتشات، أمَّا اليد اليسرى ففيها كيس الشيبسي ذو الحجم الكبير.

ولا تتوقف عن الطعام سواء علانية أو خفية، وعند انتهاء الشهر لا أرى منها مقابلا بحجة أنّ أباها لم يرسل أموالا من الخارج، وعندما تجمعني الصدفة بوالدتها، أُفاجأ أنها قد أعطتها المستحق من مال الدرس، لكن الهانم قد ضربت المال في جيبها من أجل الصرف على بطنها.

وبالطبع هناك أشياء أخرى لا يمكن البوح بها، لكن تلك بعض الأمور المؤلمة التي أواجهها أنا وغيري من المعلمين، والتي تحمل في داخلها الحزن والسخرية معًا.

حكايتي مع إصبعي المكسور

أثناء صعودي على سُلم البيت في يوم من الأيام اندفعت بشدة نحو الباب ولم أكن أعلم بوجود جسم صلب يتواجد بجانب الباب، فاصطدم إصبعي البنصر بهذا الجسم فكسر كسراً شديدا، فتألمت لكن دون أن أصرخ.

والمؤلم في الموضوع أنه الإصبع الأضعف بيدي اليمنى، تمكنت بعد وقت طويل من تغيير ملابسي بيد واحدة، ثم هممت كي أتوضأ لصلاة العشاء، فلم أستطع أن أرفع يدي اليمنى، فتوضأتُ بيد واحدة، والضرورات تبيح المحظورات.

ودخلت أصلي فوجدت إصبعي أحدث وجعا كبيرا في جسمي كله، فقلت أستخدم الرخصة وهي أن أصلي جالساً، وهنا دخلت عليَّ ابنة أخي فوجدتني جالساً أهمهم بكلمات، وهي تكلمني ولا أرد عليها، فأخذت تضحك وتهزني بيديها ويبدو أنها اعتقدتْ أنني قد جننت.

انتهيت من الصلاة وبررت لها الأمر، لكن لم أصرح أنّ إصبعي مكسور، فبتُ ليلتي، وأنا في حالة يُرثى لها ثم صحوت من نومي، كي أذهب إلى الجامعة، والمشكلة هنا أنني سأذهب خلف صديقي على دراجته البخارية، وسوف تستغرق المسافة ساعة ونصف.

المهم ركبت خلف صديقي دون أن أفكر في شيء، يد منطلقة في الهواء والأخرى أخبئها من شدة الألم، وبعد مرور دقائق قال أحد المارين: ألم تعلم أن هذا محرم قانوناً، وسيتم القبض عليك بحسب القانون الجديد، وهنا تذكرت قانون الشرطة الذي يمنع ركوب اثنين على دراجة واحدة، وظللنا نسير وأنا في حالة رعب شديدة، فقال صديقي: أطلق يدك الأخرى حتى لا يظن أحد أنك تخبئ فيها شيئا.

وبالطبع كان معه كل الحق، فأطلقتها وأنا أصرخ من شدة الوجع وشدة الهواء البارد الذي يقابلنا، لكن بحمد الله وصلنا إلى الجامعة، وأنا في حالة من الإرهاق والتعب، فدخلت غرفة أساتذتي، وتناولت الشاي معهم، وهنا جاء أستاذي السابق الذي كان يُدرس لي في سنوات الجامعة، إنه صاحب الدم الثقيل والذي كنت لا أطيقه، وعندما جاء مد يده لي ليسلم عليَّ، وأنا بالطبع لم أكن في استطاعتي أنْ أمدّها بسبب إصبعي المكسور المنهك من طول الطريق، وهنا انفعل الأستاذ من تأخري في السلام عليه، واتهمني بالغرور والتعالي، وأني لم أعد أحترمه، ودار حوار طويل بيننا تدخلت فيه الأساتذة حتى هدأتْ الأجواء بيني وبينه، المهم انتهيت من مشوار الجامعة، وعُدتُ إلى البيت.

وفي زيارتي لأحد الأصدقاء، قابلت صديقة قديمة لم أرها من زمن طويل، وكان صديقي يحاول إقناعها أنني قد انضممت إلى إحدى الجماعات الإسلامية، وعندما تقابلنا وجها لوجه مدت يدها كي تسلم عليَّ، أمَّا أنا فلم أستطع أن أمد يدي، فقالت:

أكيد الكلام صحيح، أصبحت لا تسلم على النساء، ولا تمد يدك لمصافحتهم أيها المتزمت، كل هذا وأنا لم أصرح بإصبعي المكسور، فدار حوار سياسي عنيف بيننا، وكنا مجموعة من الأصدقاء، حاولت أن أشرح لها لكن دون جدوي.

وانتهت المقابلة وهي على اعتقادها، وعدت لبيتي وجلست على حاسوبي، فوجدت إحدى الرسائل من إحدى السيدات التي تريد أن تتعرف عليَّ، فكتبت لها بيد واحدة ، فكانت هناك أخطاء إملائية كثيرة، فقالت السيدة: طريقة كتابتك لا تدل على رجل حاصل على الشهادة الابتدائية.

وظلت تعطيني بعض الكلام الجارح، وأنا أكتب بيد واحدة حتى انفجرت في النهاية ألعن إصبعي المكسور الذي تسبب لي في كل هذا الحرج مع جميع هؤلاء البشر.

أنا وآية والملاهي

يوم لا ينسى، خرجت يوماً مع آية ابنة أخي ودار حوار بيننا ذكرتني فيه بهذا اليوم العصيب الذي لن أنساه طوال حياتي، وهو اليوم الذي قررت فيه من ثلاثة أعوام اصطحاب أولاد أخي إلى ملاهي السندباد بالقاهرة، وأولاد أخي هم: آية وشادي، ونعود إلى ذلك اليوم، دخلت معهم ملاهي السندباد، ولم تكن من طبيعتي دخول هذه الأماكن؛ لأنني ببساطة لا أحب المخاطرة، وأخشى أن تتسبب لي هذه الألعاب في أمر غير محمود العواقب.

ويبدو أن آية قد زارت هذا المكان من قبل، أما أنا فكانت تلك أول زيارة لي، ومن هنا قررت أن أجلس بمفردي وأترك آية وأخاها لكي يمارسا الألعاب المتاحة لهما، لكن تحت إلحاح آية وافقت أن أصطحبها إلى أول لعبة وهي بيت الرعب، خصوصاً أنَّ آية لم تلعبها من قبل أما أنا فالموضوع بسيط لأني ببساطة كفيف، ومهما تظهر من أشكال مخيفة أو مرعبة فأنا لن أراها، وبالتالي الأمر بسيط جداً بالنسبة لي.

ركبت أنا وآية العربة الكهربائية وتحركت العربة، وفجأة صرخت آية بصوت عال: أنا خايفة يا عمو، أنا هموت يا عمو، فقلت لها: يا آية، ماذا يحدث، فقالت: عنكبوت شكله مخيف حاسه إنه هياكلني، وبالطبع قلت: أستغل سن آية الصغير، وأقول لها: خليكي شجاعة مثل عمك، خلي قلبك جامد لا تخافي، مش شايفاني مش خايف وبضحك، فقالت آية على الفور: نعم يا أخويا ماهو أنت مش شايف، لو كنت شايف العنكبوت كنت اترعبت مثلي، فانصدمت من رد فعل آية الذي أحرجني كثيراً.

انتهت اللعبة بسلام ودخلنا في اللعبة الثانية، وهنا صممت على عدم الدخول فيها، لكن تحت إلحاح آية أيضا ذهبتُ معها لكن الأمر اختلف هذه المرة، آية قد لعبت هذه اللعبة من قبل، إنها لعبة السجادة ولا أعرف بالطبع ما هي السجادة.

ركبتُ مع آية داخل صندوق، وقالت: امسك هذه الحديدة التي أمامك بقوة ولا تتركها، فأمسكتها بالفعل وكنا على الأرض لكن فجأة وجدت نفسي في السماء في ظرف ثانية، ثم في ظرف ثانية أيضًا وجدتُ نفسي على الأرض، وهكذا في ثواني متتابعة أرى نفسي في الأرض والسماء، فارتعبت كثيراً وأحسست بروحي تنسحب مني، فصرخت بشدة في آية، قولي للرجل صاحب اللعبة يوقفها، فقالت آية: خليك شجاع قلبك جامد مثل بنت أخيك، فقلت لها: يا آية أنا لست شجاعا، ظلت آية تضحك وتضحك وتضحك.

نحمد الله انتهت هذه اللعبة ونزلنا منها جميعاً، فقررت قرارًا صارمًا ألّا ألعب مرة أخرى، لكن آية قالت: يا عمو أنت تعبت جدا، فاركب معنا هذه اللعبة الأخيرة هتضحك منها كثيرًا.

فقلت: بالتأكيد ستكون لعبة مفرحة ليس فيها هذا الكم من الخوف أو الرعب، إنها لعبة الغربال، وبالفعل صعدتُ إلى صندوق، ثم قالت آية: امسك يا عمو تلك الحديدة التي فوقك بشدة، قولت لها: يا آية ما هذه اللعبة؟ لعلّه مقلب مثل السجادة، فقالت: لا سوف تضحك كثيرًا، فقلت: سوف نرى، وبعد مرور دقيقة أو دقيقتين إذا بالدنيا تهتزّ من تحتي وأرى نفسي في دوامة رهيبة، ولولا أني أمسك بالحديدة لسقطت على الأرض سقوطاً شنيعاً، وهنا ضحكت آية بشدة وأنا أصرخ بشدة، وأقول: يا آية أنا هموت كل هذا والصندوق يهتزّ يميناً ويساراً بسرعة متلاحقة، حتى نطقت الشهادة وتيقنت أن هذا هو آخر يوم في عمري، ولولا أن صرخت بشدة لما أوقف الرجل اللعبة، وهنا نزلتُ من الصندوق وأنا في حالة دوران ودوخة لم أرها في حياتي من قبل، فخرجت أنا وآية وشادي من ملاهي السندباد، وقد أقسمتُ ألَّا أعود إلى هذا المكان مرة أخرى، وألَّا أدَّعي الشجاعة أمام أحدٍ مرة أخرى.

فيا عزيزي القارئ، احترس من عقلية الطفل دون استخفاف بها حتى لا تزل قدمك في مكان لا تريد الوقوع فيه.

المتسولة أصبحت آخر حلاوة

إلى وقت قريب كان المتسول أو الشحات في مدينتي أو المدن الأخرى يمتاز بصفات رائعة تكمن في صراحته ومباشرته في طلب المال.

فكان على الفور إمّا يقول: لله يا محسنين، أو حسنة قليلة تمنع بلاوي كثيرة، وأنت إمَّا تعطي وإمَّا تتركه وتمشي.

لكن في السنوات الأخيرة حدث تغيّر عجيب، كما لو أنه متفق عليه من نقابة الشحاتين، حيث رأينا فنونا جديدة في التسول.

تكون جالساً في الأتوبيس أو السيارة وتصعد إحدى النساء تهدي إليك إما صورا إسلامية أو قطعة حلوى، وبالتأكيد يكون مقابلها مبلغا من المال، أو أن تجد أخرى تزيد في البكاء بحجة أن ابنها أو والدها في غرفة العناية المركزة ويحتاج إلى المال.

لكن الطريقة الشائعة والتي رأيتها في كل مكان هي أن تكون في محطة القطار أو الأتوبيس وتجد امرأة أو رجلا يقول لك: والله يا أستاذنا أنا مسافر إسكندرية أو بورسعيد، وضاعت مني المحفظة فهل من الممكن أن تساعدني؟ وبالفعل يحدث ذلك مع غيرك طوال اليوم، كل هذه الطرق معقولة ومستساغة، لكن من غير المعقول أن أرى متسولا بداخل توكتوك يمسك ميكروفونا يتسول فيه الناس بصوت عال، أو أرى سيدة تجلس على كرسي متحرك، وأخرى تمشي بها وهم يتسولون من المارة، وبالطبع الجميع يتذكر ما فعله ضابط الشرطة حين ضرب تلك المرأة الجالسة بالعصى، فوقفت على قدميها تهرول.

قصص عجيبة، لكن ما توقفت عنده هي تلك المرأة أو الفتاة التي في يوم من الأيام كنت أصلي الجمعة في مسجد الجمعية الخيرية، وفجأة بعد أن انتهى الإمام من الصلاة وتأهبنا جميعاً للخروج وقفتْ تلك المرأة على باب المسجد وبصوتٍ عالٍ قالت: يا أهلي وحبايبي لحظة من فضلكم اسمعوني، أنا بنت فلان، وجار علينا الزمن، وأمي في المستشفى وليس معي أي فلوس للعلاج، وظلت تبكي وتبكي وبالطبع أعطاها البعض وتركها البعض، وبعد مرور شهر تقريباً وفي نفس المسجد وعند انتهاء الإمام وقفتْ نفس المرأة على الباب، وقالت: نفس الكلام، لكن هذه المرة ليستْ أمها وإنما هو أخوها الذي في المستشفى.

ثم بعد مرور شهر آخر نفس الكلام، لكن هذه المرة ليست أمها ولا أخوها بل أختها، وهنا انتظرت أحدًا من المتواجدين بالمسجد أن يكلمها كلمة لم يحدث أبداً.
حتى كنا في ليلة أحد الأعياد، وكنت جالسا عند أحد أساتذتي، فدقَّ جرس الباب فرد أستاذي: مَن أنت؟ فقالت: واحدة أريدك في أمر مهم، فاستأذنتُ أستاذي كي أخرج.
فقال: اجلس معي حتي نعرف سويا ما الموضوع، فظللتُ معه، ودخلت المرأة وإذا بها وبدون مقدمات تروي نفس الأسطوانة التي سمعتها في المسجد، وهنا عرفت مِن

الكلام ومِن نبرة الصوت أنها هي التي كانت تأتي إلينا في المسجد كلّ شهر، لكن أستاذي العزيز من المحبين للدعابة والمرح، فظلّ يسألها عن عمرها وحياتها، فانقلب حال المرأة رأسا على عقب، فعَلَتْ ضحكاتها، وظلت تتدلع في الكلام، وأنا معه أزيد في المداعبة كي أعرف نهايتها، وهنا سألتها: هل أنت متزوجة؟ فقالت المرأة: لا، على الرغم من أنه يتقدم لي كثيرون، فقلت لها: ولماذا ترفضين؟ فقالت مفيش حد مناسب.

وهنا ضحكت أنا وأستاذي فقال لها: أنتِ على كده تمتلكين مقومات غير موجودة في فتيات أخريات، فقالت: وقد نفشت ريشها يا أساتذتي أمامكم امرأة آخر حلاوة، فقلت: حسبي الله ونعم الوكيل فعلاً متسولة آخر حلاوة.

عزيزي القارئ، إن ظاهرة التسول أصبحتْ مرضًا مستشريًا في المجتمع، وأصبحنا لا نفرق بين المحتاج وغيره، وقد زاد من هذه الظاهرة بكل أسف قدوم الإخوة السوريين الذين نراهم يتسولون في المقابر والمساجد والشوارع مع اعترافي أن بعضهم نجح واجتهد في عمله.

تحفة العروس الذي عصف بصديقي المنحوس

(تحفة العروس) هو كتاب رائع حاول المؤلف أن يبسط فيه ما يجب على المتزوج فعله في ليلة الزفاف، وذلك بأسلوب مهذب جميل بعيد عن الألفاظ أو الجُمل التي تخدش الحياء.

يتواجد الكتاب في الكثير من المكتبات، ويُقبل على شرائه المقبلون على الزواج حديثاً، لكن كان هناك صديق لي منذ صغره وهو دائم التفكير في مجريات وأحداث ليلة الزفاف.

عندما كنا نجلس كان دائم السؤال عن هذا الأمر، لكن كانت السخرية الحقيقية في أنه عندما يجد متزوجا جديدا يظل يسأله: ماذا فعلت؟ وبالطبع كان هناك من يجيبه، وهناك من يمتنع، وهناك من يجعل له من البحر طحينة، فيبالغ فيما فعل ويرسم له أشياء خيالية لا تفعلها قدرات الإنسان الطبيعية.

ويبدو أن صديقي قد وجد ضالته في كتاب تحفة العروس، فكان لا يفارقه من يده، وعندما ينتهي من قراءته يعود من بدايته مرة أخرى، إذا ذهبت إليه البيت أجد على مكتبه تحفة العروس، وإذا جلست على فراشه أجد تحفة العروس، أصبح تحفة العروس الشغل الشاغل له، حتى نصحته بالزواج المبكر، لكن فيما يبدو أن إرادة الله شاءت أن يضعف نظر صديقي بسبب هذا الكتاب، فظل نظره يتناقص شيئا فشيئا حتى نصحه الأطباء بعدم النظر في الكتب والأوراق.

كان عشق صديقي لتحفة العروس أكبر من نصيحة الأصدقاء، فلم يمتنع عنه بل عندما يعلم أنّ صديقا لنا سيتزوج يذهب إليه، ويقص عليه ما ورد في تحفة العروس من نصائح، وما يجب أن يفعل.

حتى جاءت اللحظة الحاسمة، وأصبح صديقي على وشك الزواج، وقد استعد إليه استعداداً تاماً، فتحفة العروس محفور في عقله، وحان الوقت ليطبق ما ورد في الكتاب، تزوَّج صديقي ولم نشأ أن نفسد عليه متعته، فانتظرنا أياما قليلة ثم ذهبنا إليه كي نرى كيف سارت الأمور.

خرج علينا صديقنا في حالة من الاضطراب والتردد ويبدو أنه كان مهموماً، فقلت له: ماذا حدث؟ هل ترجمت ما ورد في تحفة العروس؟ فقال: الله يخرب بيت تحفة العروس وسنين تحفة العروس والأوقات التي ضيعها مني تحفة العروس، ضعف نظري وقلت حيلتي، يا أصدقائي ليس كل ما ورد في الكتب يمكن تطبيقه على أرض الواقع، كان هذا كلام صديقي الذي فقد الكثير من نظره الآن، وكلما قابلته أذكره بتحفة العروس الذي انتهى به إلى حيث يتواجد النحوس.

المعاقون في مصر شيء يُرْثَى له

إن من أصعب الأشياء التي قابلتها في حياتي نماذج من هذا القطاع الكبير من الشعب المصري، إنهم المعاقون على اختلاف إعاقاتهم.

لكن يجب أن أسجل حقيقة هنا قبل أن أتكلم عن أي شيء يكمن في أنّ مصر من أفضل الدول التي تعامل المعاقين وتوفر لهم فرص عمل، لكن هناك أشياء توقف عندها عقلي كثيراً مع تلك الفئة.

في أحد المؤتمرات التي كانت تقيمها المحافظة بالمركز الذي أقيمُ فيه، فوجئت بهذا الأمر الصادم، حيث يبلغ عدد المعاقين في مركزنا ثلاثة آلاف وخمسمائة معاق، عدد مهول وكبير لكن ما السبب في ذلك؟

كانت الحقيقة المريرة التي اكتشفناها من خلال النقاشات أن أهل هؤلاء المعاقين يسعون إلى زواجهم من نفس إعاقتهم، وبالتالي يلعب العامل الوراثي دوره في إنجاب كثير من المعاقين ذهنياً، ولكم أن تتخيلوا هذه الأم التي رزقها الله بثلاث فتيات كفيفات، وجاءت تبكي في المؤتمر من قلة المال، وقولها يكفي أنهم لن يتزوجوا عندما يكبروا، فقلت لها ما تعليمهم؟ فقالت: خفت عليهم من الناس فلم أقدم لهم في المدارس.

بالطبع انفعلت عليها وقلت: صحيح لن يتزوجوا فما الذي يدعو شخصا إلى الزواج من كفيفة إلا إن كانت ذو عقلية علمية فريدة، وفتياتك لم تكلفي نفسك أن تعلميهم حرفاً واحداً.

كانت الكارثة أنني اكتشفت أنّ الكثير من الفتيات الكفيفات وذوات الإعاقة الأخرى محبوسات في بيوتهن، لا يعرف عنهن أحدٌ شيئا، أقعدهن جهل الأمهات والآباء.

وأذكر هذا اليوم الذي جاء فيه باحث ياباني لزيارة جمعيتنا، ودار حوار بيني وبينه، فوجهت له سؤالا: ما هي الأعمال والوظائف المتاحة للمكفوفين عندكم؟ فقال: هناك وظائف مثل عامل اتصالات، وهناك صالونات المساج والتدليك وغيره من الممارسات الرياضية، هذا بالإضافة إلى الحِرَف المتاحة كالغزل والمنسوجات والمصنوعات الخشبية.

وهنا استغربت كثيراً، فمصر بها وظائف للمعاقين تثير الضحك والاستغراب، فلك أن تتخيل كفيفًا يتم تعيينه معلمًا للتربية الفنية، أو كفيفا يعمل بالحسابات بإحدى المستشفيات، أو كفيفا يعمل بشركات المحمول.

وبالطبع هو لا يعمل، ولكنه مسمى وظيفي القصد منه توفير راتبٍ له بأية طريقة، لكن في الحقيقة إنها قوة معطلة وغير مستغلة يكون فيها المعاق محلًا للسخرية والاستهزاء.

و بالرغم من تواجد عقليات فزة من هؤلاء في مجال الحاسوب وغيره من الوسائل الحديثة يمكن استغلالها والارتقاء بها، لكن من تواجدي وسط هذه الفئة أقول: يجب على الدولة أن تقف بصرامة لمنع تلك الزيجات بين المعاقين بعضهم البعض، وكذلك معاقبة الأهالي التي تمنع أبناءها المعاقين من التعليم، وكذلك أن يتيحوا مجالا أكبر من الدمج بين تلك الفئة وبين العاديين، كي تنتهي ظاهرة الانطواء والخوف من التعامل مع الآخرين لدى تلك الفئة وحتى تتاح لهم فرص في الزواج من غيرهم.

أمور كثيرة في هذا المجال تحتاج إلى تصحيح مسار، لكن أشير هنا إلى ملاحظة مهمة لاحظتها من خلال دخول جمعيات المعاقين، وهي تلك النسبة العالية من الفساد والسرقة والاستغلال من أصحاب تلك الجمعيات دون أن يدري بهم أحد، فالحكومة والقوانين تغفل عنهم وعن تصرفاتهم وتلاعبهم في الأوراق، وتلك هي كارثة كبرى لا يشعر بها غير ذوي الضمير ممن يعملون بتلك الجمعيات، وأتذكر هنا رئيس هذه الجمعية الذي أعرفه جيداً وقد سخرها لمتعته ورحلاته، وبالرغم من أنه كفيف لكنه يتفنن في إضاعة أموالها على مزاجه الشخصي، ثم يضع هذه الأموال في بنود أخرى حتى لا يؤاخذ عليها.

عزيزي القارئ، متعك الله بالصحة والعافية وأبعد عنك هذه المعاناة التي تعانيها تلك الفئة المظلومة من فئات المجتمع.

من أجل هذا لن أصعد المنبر مرة أخرى

في فترة ما من عمري كانت تلحّ عليّ فكرة أن أجرب كل شيء متاح لي، كنت في الصف الأول الثانوي، وكان عندي فضول أنْ أصعد المنبر لإلقاء خطبة الجمعة، شجعني أساتذتي بقوة، وظلوا يعلمونني قواعد وأساسيات الخطبة.

اخترت موضوعًا ما، وارتديت الملابس المناسبة التي تليق بخطيب الجمعة، صعدت المنبر وألقيت الخطبة، وتوسم الجميع في شخصي خيراً، لكن عندما دخل المساء ذهبت كالعادة إلى نادي الفيديو الذي كنت أواظب على دخوله، وكان يعرض الفيلم الشهير حمام الملاطيلي، اندمجت كثيراً مع أحداث الفيلم، حتى وجدت أحد الأشخاص يناديني من الخلف فقلت له: ماذا تريد؟

فقال: يا عم مش حضرتك اللي كنت بتخطب لنا الجمعة اليوم؟ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم، وكأن الرجل أسقط على رأسي دلوًا من الماء البارد، هنا أقسمت ألّا أصعد المنبر مرة أخرى حتى لا تتضاعف سيئاتي، ولا أكون ممن قال الله فيهم: "أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم".

عزيزي القارئ، لا تنصح الناس بما لا تستطيع أن تفعله، حاول أن تكون على قدر كلامك وأفعالك، حتى لا تكون عرضة للسخرية.

ثلاث فتاوى وقفتُ أمامها متحيرًا

بحكم تعليمي الأزهري وثقافتي الدينية التي أحمد الله عليها كثيرا كنت أتعرض للسؤال في جوانب الدين المختلفة، وكما تعلمت من علمائنا فإنْ كنت على يقين من جواب السؤال نطقت به، غير ذلك فالقول المفضل لي: الله أعلم.

لكن ثلاثة أسئلة وقفتُ أمامها متحيراً لا أملك جوابًا، ليس لأني لا أملك جواباً لكن لأنني دائما أضع نفسي مكان السائل، وبناءً على ذلك يكون جوابي المحدد.

أمَّا تلك المواقف التي ذكرت لي أو أمامي، فإنني ظللت أفكر فيها طويلاً لا أستقر على جواب محدد، بالرغم من أن غيري من الممكن أن يفتي فيها على الفور.

الأولى: سألتني إحدى الفتيات التي تزوجت حديثاً، وعاشت في بيت عائلة وكانت أخت زوجها لا تطيقها، ودائمًا ما تنتظرها أن تنطق بكلمة حتى تقلب عليها البيت ومَن فيه، وكان زوجها في معظم الأحيان يأخذ صف شقيقته وعائلته، فيوجه لها كثيرا من التعنيف والكلام الجارح، حتى قال لها في نهاية الأمر: ليس لك شأن بأختي وعائلتي.

وفي كان يوم من الأيام كانت هذه الزوجة تنشر ملابس العائلة، فوجدت شقيقة أخيها تمارس الرذيلة مع ابن جيرانها، سكتت في أول الأمر لكنها ظلت تراقبها في نفس المكان والوقت حتى وجدتهم يكررون الفعل يومًا بعد يوم، وهنا سألتني الفتاة هل أخبر زوجي وعائلته أم لا؟

وهنا وضعتُ نفسي مكانها، فلو صارحت الزوج والعائلة لانقلبت الدنيا عليها بتهمة تشويه سُمعة ابنتهم، ولو سكتت يصبح سكوتاً عن كبيرة من الكبائر.

بيني وبينكم رأيت الأفضل أن تذهب لغيري، وتعفيني من الإجابة على هذا السؤال.

الثانية: كنت أستمع إلى إحدى الإذاعات الخليجية، وكانت مستضيفة شيخاً فكان السؤال الموجه له: ما هي أغرب فتوى تعرضت لها؟

وهنا أصبحتُ شغوفاً بمعرفة هذه الفتوى فكان جواب الشيخ كالتالي: جاءني أحد الأطباء المغتربين هنا، وقال لي: يا شيخ عندي سؤال لك، فقال له: تفضل، قال الطبيب: جاءني أحد الأصدقاء المقربين من أجل إجراء تحليل كامل وشامل، وبعد فحص التحليل اكتشفتُ مفاجأة صاعقة، صديقي هذا متزوج وسعيد في حياته وعنده أربعة من الأبناء، لكن التحليل يقول: إنه عقيم، ويستحيل أن ينجب أبدًا.

معنى هذا أنّ زوجته تخونه مع رجل آخر، وأنّ الأبناء ليسوا أبناءه.

وهنا كان السؤال، هل يصارح الزوج ويتشرد الأربعة أطفال؟ أم يسكت ويخون الأمانة العلمية والدينية قبل كل هذا؟

بيني وبينكم إن نقطة ضعفي في تلك الحياة هم الأطفال، وكم ألعن أمهات وآباء فضلوا مصلحتهم الشخصية على استقرار حياة أبنائهم.

أعلم أن الواجب العلمي والديني يقول بمصارحة الزوج، لكن عندما فكرت قليلاً قلت: وما ذنب هؤلاء الأطفال المساكين؟ فأضعف الإيمان أنْ يحذر هذا الطبيب الزوجة بعدم الاستمرار في ممارسة الرذيلة وإلَّا سيصارح زوجها.

الأخيرة: وجدت اتصالاً من أحد الأشخاص بواسطة صديقٍ لي، وكانت بداية الحديث قوله: أرجوك قبل أن تنصحني تضع نفسك مكاني، فقلت له: إن شاء الله - تعالى -

يقول الرجل: كنت متزوجًا من امرأة زواجاً تقليدياً مبنيا على الاحترام والتفاهم، ثم كلّل الله هذا الزواج بثلاثة أطفال، كانت زوجتي هذه تعمل وكانت تحافظ على صلاتها وفروضها، لكن في يوم من الأيام طلبت زوجتي مني طلباً نزل على رأسي كالصاعقة، فقلت له: ما هو؟ فقال: طلبتْ أن ننفصل وستترك لي الأبناء، وعندما سألتُها عن السبب، قالت: أحببت زميلي في العمل، ولا أريدُ أنْ أرتكب أي شيء يخالف الله ورسوله، أريدُ أنْ أظل على عفتي وأخلاقي، فالشيء الوحيد أمامي هو زواجي من هذا الشخص، يقول الرجل: شعرت بإهانة كرامتي، فقمت بطلاقها على الفور، وقمت أنا بخدمة أبنائي ولم أتزوج بعدها، لكن ما حدث بعد ذلك أن زوجتي السابقة قد انفصلتْ عن زوجها، وترغب في عودتها لي، وتمارس عليَّ مزيدا من الضغوطات بواسطة أبنائي الذين يحبونها، فما نصيحتك لي؟

بيني وبينكم وضعت نفسي مكان الزوج كما طلب، فقلت في داخلي: يستحيل أن تقبل كرامتي العودة إلى تلك المرأة، فكرتُ قليلاً، ثم قلتُ: وما ذنب هؤلاء الأطفال، ليرجعها وليعاملها معاملة الخدم؟

بين هذا وذاك التزمتُ صمتاً رهيباً وقلتُ للرجل: والله لا أدري ماذا أقول لك؛ لأنك ببساطة قلت لي: ضع نفسك مكاني.

عزيزي القارئ، في بعض الأحيان قد تتعارض الحكمة والتسامح مع الكرامة الشخصية، وهنا يصبح الأمر مأساويًّا ومحزنًا في آنٍ واحدٍ، وتبقى إرادة الله التي قد تنزل بالسكينة على النفس، فتهديها إلى أفضل اختيارٍ.

أنا والمتحولون مع النساء

إنها فئة من الرجال، ومع الأسف الشديد بعضهم أصدقائي، كثيرًا ما كانوا يتوددون لي بعبارات الحب والوفاء ومشاركة الرأي الصائب، لكن عندما تظهر المرأة بيننا يتحولون مائة وثمانين درجة بالطبع لصالح المرأة.

وكثيرة هي المواقف التي وضحت لي ذلك، سواء في العمل أو في المعاملات اليومية أو حتى عبر مواقع التواصل الاجتماعي، لكن سأكتفي هنا بموقف واحد لأن باقي المواقف ستضع بعض أصدقائي في حرجٍ شديدٍ، وهم معرفون لدى كثير من الناس.

هناك شخصٌ عزيزٌ من مدينتي أقدّره كثيراً، وأقدّر آراءه السياسية والدينية والاجتماعية، صديقي هذا يكره الإيرانيين كُرهًا شديدًا، ويراهم مثلي أصحاب اليد العليا فيما يحدث للعرب.

دومًا ما كان يحدثني عن الفُرس ونعرتهم القومية، واستغلالهم للمذهب الشيعي في محاولة بسط نفوذهم على أرض العرب شرقًا وغربًا.

كان رأي صديقي هذا يعجبني كثيرًا، وكنت أردده في كل مكان حتى مع أصدقائي الشيعة سواء في لبنان أوالعراق، وكانوا يغضبون مني غضبًا شديدًا حتى تعودوا على أسلوبي وصراحتي في الحديث معهم.

وفي يوم من الأيام وجدت فتاة إيرانية تريد التعرف عليّ، وعندما سألتها عن السبب قالت: أنها تحضر بحثًا في ميدان الأدب الأندلسي، وتريد أنْ أساعدها، رحبت كثيرًا بها خصوصًا أنّ الفتاة كانت لطيفة لبقة في حوارها، كانت هذه الفتاة تحاول أن تتجنب معي الحديث في السياسة إذ يبدو أنها على علم مسبق بموقفي من الإيرانيين، حتى جاء اليوم الذي كنت فيه أنا وصديقي هذا الكاره للإيرانيين الفُرس، وظهرتْ تلك الفتاة، وأصبحنا معًا يشملنا حديثٌ واحدٌ.

وهنا توقعتُ أنْ ينفجر صديقي في وجه الإيرانية، وينزل عليها اللعنات والسباب والألفاظ الجارحة، لكن ما حدث جعلني أشعر بنفسي وكأنها في حالة من الجنون.

قال صديقي لتلك الإيرانية: اسمحي لي يا أستاذة ليلى أنْ أعبّرَ لكِ عن تقديري واحترامي للشعب الإيراني وحكومته، فيكفي إيران أنها تساعد الفلسطينيين، وحزب الله الذي أوقف إسرائيل عند حدها.

إيران دولة عظيمة تنهض بنفسها دون الاعتماد على الدول الأخرى مثلما نفعل نحن العرب.

بالطبع وقع كلام صديقي على نفسي كالصاعقة، فما كان مني إلا أن أطحت بليلى من المكالمة، وصرخت في وجهه وقلتُ له: ما الذي قلته يا معتوه؟ فقال صديقي: الفتاة صوتها جميل، وذوقها راقي، ولا بدّ أنْ أرضيها بهذا الكلام.

عزيزي القارئ، صديقي هذا منه نماذجُ كثيرةٌ في الحياة، قد تنظر إلى الأمر من زاوية خفة الدم، لكن هناك مواقفُ مؤسفةٌ وكارثيةٌ يخسر فيها الرجالُ بعضُهم بعضًا من أجلِ امرأةٍ لا تستحق.

إن ربك لبالمرصاد

منذُ عامٍ ونصفٍ تقريبًا عايشتُ تلك القصة لحظةً بلحظة مع صديقتي القاهرية التي كانت تروي لي تفاصيل الأحداث أولا بأول، وقد ترددت كثيرًا في نشر تفاصيل القصة، لكن أرى أنّ الوقت قد حان للكشف عنها حتى أنبّه على شيءٍ ما.

تبدأ تفاصيل القصة مع تلك المعلمة المهذبة زميلة صديقتي في العمل، كان زوجها يعمل بالخارج، وكان لهم أبناءٌ في مقتبل العمر، كانت هذه المعلمة تراسل زوجها بشكلٍ دائم عبر برامج الإنترنت، وكانت المراسلة ما بين أحاديث وصور وغير ذلك.

وفي يومٍ من الأيام سقط هاتفُ المعلمةُ من حقيبتها، ولم تدرك هذا الأمر إلا بعد ساعات، فشلت كل محاولات البحث من المعلمة حتى كانت الصدمة.

اتصل الزوج على هاتف أحد الأبناء، وقال لزوجته وكان في حالة من الارتباك والذعر الشديد: هاتفك وقع في يد أحد الأشخاص، وهو الآن يحدثني من برنامج الواتساب، وقد قام بالاحتفاظ بجميع الصور التي تخصك، ويهددني بها مقابل مبلغٍ كبيرٍ من المال.

بالطبع كانت صور الزوجة عبارة عن ملابس خفيفة وأشياء لم يكن لتلك المعلمة أن تكشفها إلا لزوجها، حاول الزوج أنْ يساوم الرجل على مبلغٍ محددٍ، لكن كان طمع الرجل في كثير من المال، وهذا الطمع دفعه أن يهدده بأن يرسل جميع صور زوجته إلى الأصدقاء والأقرباء الذين تحتفظ بهم على هاتفها.

وهنا ضاق الزوج بالرجل واعتقد في نفسه أن الرجل يهدد فقط، فقال له: افعل ما شئت، وبالفعل انتزعت من الرجل جميع صفات الإنسانية، فلا نخوة ولا تقوى ولا خوف من الله.

قام بإرسال جميع صور الزوجة ومحادثاتها إلى جميع الأصدقاء وكان من بينهم صديقتي التي روت لي ما حدث.

بالطبع كانت فضيحة ترتبتْ عليها مغادرة الزوجة لمحل عملها إلى مكان آخر.

وما هي إلا شهور قليلة، وكما قال الله تعالى "إن ربك لبالمرصاد".

اتصل الرجل على الزوج مرة أخرى، وكان يبكي بكاءً شديدًا، حيث أصيب بورم خبيث، وظل يطلب من الزوج وأهله العفو والمغفرة، بالطبع أغلق الزوج الهاتف في وجهه، فما حدث لا يمكن أن يتحمله أحد.

تلك هي القصة، ولو راجعت أحداث التاريخ، أو ما يحدث حولك من قصص وحكايات وما تعيشه من أحداث، يثبت الحكمة التي تقول: كما تدين تُدان، حقيقة

ثابتة لا مراء فيها تتحقق كلّ يوم، وإنْ تأخرت في بعض الأحيان، فإنّ ذلك لحكمة لا يعلمها إلا هو.

فلنكن حريصين أشدَّ الحرص بأنْ يكفينا اللهُ انتقامَه، فلا نظلم أحدا مهما كانت درجة الظلم، فما تراه صغيرًا يصبح عند ربك كبيرًا.

تلك هي بعضُ المذكراتِ والمواقفِ مِن واقعِ حياتي، وأقولُ البعضَ وليس كلها، فالمؤكد أنّ هناك ما لا يُقال وما لا يصلحُ سردُه، فلكلٍّ منّا أسرارُه وجوانبُه الخفيةُ التي لا يريدُ أنْ يطّلعُ عليها أحدٌ.

وكما قلْتُ سابقًا: لم يكن هدفي مِن سردِ تلك المواقف التشهيرَ بأحدٍ أو التعريضَ بأحدٍ أو الإساءةَ لأحدٍ، لكن الهدفَ الأسمى أنْ يتعلّم القارئُ بعضاً مِن دروسِ الحياة، وما أكثرَها تلك الدروس التي لا تأتي مِن خلالِ الخطابةِ أو الوعظِ! لكن مِن خلالِ تجاربِ الحياةِ سواء أكانت مريرة أم جميلة.

فالمواقفُ وحدَها هي مَن تثبتُ صحةَ التجربةِ أو فشلَها، ولعلّني قدّمتُ في سطورِ هذا الفصل بعضًا مِن تلك الدروسِ التي حدثتْ معي أو مع غيري، وكم كنت حريصًا أنْ تكونَ بعيدةً عن المبالغةِ أو إعمالِ الخيالِ أو الإطنابِ الذي يملُّ منه القارئ.

الفصل الثالث

مذكرات السندباد من عالم الإنترنت

في منتصف التسعينات كنت شديد الشغف بسماع الإذاعة وما فيها من برامج تحتوي على أخبار طريفة، وما يستجد في هذا العالم من مخترعات وطفرة في وسائل التكنولوجيا، وأتذكر هنا أنني قد توقفت عند خبرين:

الأول: تمكن اليابان من صنع جهاز حاسوب في حجم شنطة اليد، يستطيع الإنسان أن يحمله معه في أي مكان.

الثاني: هو تمكن الولايات المتحدة من صنع شبكة اتصال في إحدى الولايات تمكن أي شخص من التواصل والبحث، وهو ما عُرف بعد ذلك بشبكة الإنترنت.

خبران أثارا في عقلي الدهشة والاستغراب من هذا التفوق العلمي الذي وصل إليه البشر، لكن السؤال الذي ظل يدور برأسي، هل سأعيش تلك اللحظة التي أتمكن فيها من استخدام هذه الأشياء؟ خاصة أن هناك عوائقَ كثيرةً مثل إعاقتي بكف البصر وقلة الأموال، خاصة أن تلك الأجهزة كانت باهظة الثمن في هذا الوقت.

عشر سنوات كانت كفيلة للإجابة عن هذا السؤال، حيث لا أنسى هذا اليوم الذي قرر فيه أبي شراء حاسوب لي حتى أتمكن من كتابة أبحاثي عليه، بالطبع لم أكن أنا الذي سأقوم بهذا الأمر، حيث إن الحاسوب يحتاج إلى مبصر يتولى الكتابة عليه، وقد تكفلت زوجة أخي - جزاها الله عني خيرا- بهذا الأمر، وكم كنت أشعر بالحسرة والعجز نتيجة عدم تفاعلي مع هذا الحاسوب، خاصة عندما كان يزورني صديقي المقرّب وأنا أراه يتحاور مع أصدقائه بالخارج، مرت الأيام حتى أخبرني أحدهم أنّ هناك ناطقا يوضع على الحاسوب، يتمكن الكفيف من خلاله التعامل معه، وهنا ظللت أبحث وأنقب وأسأل هذا وذاك حتى تمكنت بفضل الله من العثور على هذا الناطق، وكم كانت سعادتي حين لمست أناملي أزرار الحاسوب لأول مرة، وتمكنت من التعامل معه بشكل تدريجي، أتاح لي تلك الفرصة العظيمة حتى أتعامل مع العالم من حولي خاصة أنني كنت أحب المكوث في البيت.

عرفت عالم الإنترنت ببرامجه المختلفة وما عليها من صنوف البشر من نساء ورجال، متعلمين وأنصاف متعلمين، أغنياء وفقراء، ذوي أخلاق ومعدومي الأخلاق، أنماط عجيبة وغريبة حاولت التكيّف معها قدر الإمكان حتى أصل في النهاية إلى معرفة ما يريده هؤلاء من هذا العالم الافتراضي.

عايشت أحداثاً وقصصًا كنت أحد أبطالها تارة، ومكتفيا بالمشاهدة تارة أخرى، لكن الشيء الذي لم أكن أتوقعه هو أن يتحول تفاعلي مع هؤلاء من شاشة الحاسوب إلى أرض الواقع، ويجب هنا التنويه إلى أمر مهم، وهو أنني التزمت أعلى درجات

المصداقية في تعاملي مع هؤلاء الأشخاص، ولم أستغل فرصة أنني أتوارى خلف شاشة لا يعرف فيها أحد عني شيئا.

كذا كنت أتعامل مع الجميع دون تعصب ديني أو قومي، وهذا السبب كان كافياً أنْ يطيل مدة رحلتي عبر الإنترنت، ويزيد من تفاعلي مع كثير من الأشخاص.

معظم مَن عرفتهم أحبوني حباً شديداً، والبعض أبغضني بغضاً شديداً، وكل منهم له أسبابه في موقفه مني، المهم في الأمر أنّ الرحلة كانت لها ثمارها الحلوة والمريرة في بعض الأحيان.

وأشير هنا إلى أمر مهم هو أنني لم أقصد من كلامي السابق أنني كنت مثالياً في تعاملي مع الغير، فالمؤكد أنني كنت مخطئاً في بعض المواقف، وأسأت التقدير مع بعض الأشخاص، لكن عزيزي القارئ لابد أن تعرف أنّ هذا العالم الافتراضي قد تسبب في وقوع الكثير من الكوارث على أرض الواقع، وكذلك القليل من الصدف الجميلة التي نتجت عنها علاقات إنسانية رائعة بين البشر من مختلف الأماكن، وهذا ما ستعرفه في مذكراتي، والتي سأسردها في السطور التالية.

أنا وأول محاولة للزواج

لن أخفي عليكم أن ما أرويه في السطور القادمة قد ندمت عليه ندماً شديداً؛ لكنها صراحتي وعقلي الذي لم يعرف حقيقة النقاش في الأمور الحاسمة.

ولعلّه كان درسًا آخر من دروس الحياة الكثيرة التي أردتك عزيزي القارئ أنْ تتعلم منها في صفحات هذا الكتاب.

في يوم من الأيام جمعتني إرادة الله مع فتاة ذات صوتٍ هادئٍ، وطريقةٍ منظمةٍ في الكلام، وثقافةٍ فيما يبدو أنها كانت متشعبة في الكثير من المجالات.

كانت تلك صفات من أريد الارتباط بها، تحدثنا كثيراً، لكن في أيام قليلة شعرنا معًا أنّ هناك شيئا ما قد أخذ يربط بيننا، لكن ما هو؟ لا نعلم.

بيني وبينكم لم أكن أريد أنْ أطيل في تلك الحوارات، خصوصاً أنّ مَن حولي كان يلح على رأسي بفكرة الزواج، وكانت الفتاة مناسبة لي من وجوه كثيرة، فأبوها طبيب مشهور بمحافظة بورسعيد، والفتاة نفسها معلِّمة للغة الفرنسية، والأكثر مِن كل هذا أنها قد أعفتني من الحرج حينما أبدت لي استعدادها للزواج مني مهما كانت الظروف، لكن كانت عقدتي في الحياة والتي استمرت حتى الآن هي أنني لا أحب الفتيات والنساء من ذوي الأوزان الثقيلة، ولعلّ السبب في هذا بسيط جداً يكمن في أنني سأخرج معها كثيراً، ولا أريد أن تكون حركتها ثقيلة أو تكون موضع تعليقٍ من أحد.

كان هذا تفكيري في هذا الوقت، وأعلم أنّ كثيرًا سيغضبون مني في هذا الكلام.

لم ألتقِ بها وجها لوجه، بل كان حديثنا عبر الهاتف أو شبكات التواصل الاجتماعي، وبالطبع لم أتلاعب بالفتاة ومشاعرها، وهذا ما جعلني أتصل بصديقتي التي تسكن في مدينة بورسعيد، وأطلب منها أن تقابلها، وتشرح لي طبيعتها سواء الشخصية أو الجسمانية، وعلى أساس كلامها سأذهب لأتقدم إليها.

أخذتْ صديقتي هاتفها ودار حوار بين الاثنين عبر الهاتف، اتفقتا فيه معاً على أن تزور تلك الفتاة صديقتي في شقتها، وبالفعل تمت الزيارة، وكنت أنتظرها على أحر من الجمر، وأتمنى من الله أن تكون الفتاة خالية من هذا العيب الذي أكرهه أقصد ثقل الوزن.

بعد تلك الزيارة اتصلتْ بي صديقتي وهي في غاية الانبهار والإعجاب بتلك الفتاة، وظلت تتحدث عن شخصيتها الساحرة، وجسمها السمبتيك، وذاك العود الملفوف، وقالت ستخسر الكثير لو لم تتزوجها، فهي في غاية الذوق، حيث دخلت عليّ بالكثير من الهدايا.

بيني وبينكم تلك الجملة الأخيرة أربكت عقلي، أعني جملة فقد دخلت عليَّ بالكثير من الهدايا، ووضعت في رأسي احتمال واحد في المائة أنها تُجمّل الكلام.

هنا أخذت قراراً حاسماً أن أنطلق أنا وأستاذي الذي يكبرني سناً وخبرةً في الحياة إلى مدينة بورسعيد، كي يشاهدها بنفسه، وأجلس معها حتى أكون على أرض ثابتة.

وبالفعل اتفقنا أنْ نلتقي في شقة صديقتنا على وجبة الغداء، وهنا قلت لأستاذي رجائي منك أن تصارحني في البداية، أقصد مع مجرد رؤيتها ولو بالغمز أو أي حركة حتى لا أطيل معها الكلام، وأدخل في أشياء تضعني في نطاق الوعود والعهود.

وصلنا إلى شقة صديقتي، وكنا الأسبق إليها وظللت أكرر الرجاء لأستاذي حتى وصلت تلك الفتاة بالفعل.

جلست معها وكانت في غاية الخجل، وكنت أيضاً مثلها فلأول مرة أضع نفسي في هذا الموقف المحرج، ظللنا نتكلم جميعاً حتى قال أستاذي اذهب معها بمفردكم كي تتفقوا على كل شيء، بالطبع فهمت منه أنّ كل شيء على ما يرام، وأنّ الفتاة كما قالت صديقتي، دخلت معها وظللنا نتبادل الحوار والضحكات، وفي نهاية الجلسة اتفقت معها بالإتيان بالأهل لزيارة بيتها.

خرجت أنا وأستاذي وكنت مسروراً من اللقاء حتى كنا على سلم البيت، سألته متعجلاً: ما رأيك؟ فقال : اصبر حتى نركب السيارة، ظل أستاذي صامتاً حتى ركبنا السيارة معاً، فقلت له: ما رأيك؟

فقال: هل انتهت النساء في مدينتنا حتى تتزوج من تلك المدينة، حرام عليك الفتاة جسمها مليء جدا من كافة النواحي، وتحتاج إلى سنوات من (الرجيم).

وبالطبع انصدمت كثيراً وعلا صوتي في السيارة، وقلت له: يا أستاذي ألم أقل لك أنْ تنبهني من بداية الأمر حتى لا أقع في وعد أو عهد؟ فقال: لقد شعرت بالحرج من الفتاة وصديقتك التي كانت تنظر إليَّ طويلاً.

سيطر الحزن والتفكيرعلى رأسي، فما الذي سأقوله لتلك الفتاة؟ ولكن اللوم على صديقتي التي أغرتها الهدايا، ولم تصارحني بالحقيقة المُرة.

وعندما وصلت إلى البيت اتصلت بصديقتي، وقد انفعلت عليها بشكل كبير، فقالت لي: معظم الفتيات هكذا، ومن الممكن أن تصنع رجيم أو تمارس رياضة وسيقل وزنها بالطبع.

وهنا عرفت أنها قد كذبت عليَّ، وأنّ أستاذي صادق فيما قاله؛ لكن ماذا أقول للفتاة؟

ظللت أفكر حتى منتصف الليل، وهنا لم أجد مفرا من المصارحة التي أقتنع بها في مثل هذه الأمور.

قلت لها: أنت فتاة يتمناها كل شخص، لكن أريد منك أن تحاولي إنقاص وزنك بشتى الطرق، وأنا لست متعجلاً في الزواج.

بالطبع انهارت الفتاة وأغلقت السكة، ولم أرها حتى الآن.

عزيزي القارئ، هذا هو الدرس الذي تعلمته، لا تنظر إلى الأمور من زاوية واحدة، فكل شيء قابل للتفكير والمناقشة، والصراحة ليست مطلوبة في جميع الأحيان، لو عاد بي الزمن لارتبطت بالفتاة فهي أفضل من كثير قابلتهم بعد ذلك، وكانوا يمتازون بالرشاقة والخفة، لكن يفتقدون إلى أخلاق تلك الفتاة وثقافتها العالية وأصالة بيتها، لم أكن أريد أنْ أكتب تلك القصة لكن الدرس جدير أنْ يُذكر، ويتعلم منه الجميع.

أنا والشريفان

إذا كانت أرزاق الله للبشر كثيرة فإن من حظي الجميل هذين الشخصين الذين يحملان اسماً واحداً وهو (شريف).

لكن كل منهما في مكان بعيد عن الآخر، فالأول مقيم بالولايات المتحدة الأمريكية، والآخر مقيم بالسويد، وكذلك الأول مسلم الديانة، والآخر مسيحي الديانة، لكن لكلا الاثنين حكاية معي، أحببت أنْ أسطّرها لكم في كلمات بسيطة.

الأول: هو الذي أحببته بصدق وأصبح جزءاً من حياتي، أتعلم منه كل يوم شيئا جديدا في تلك الحياة التي لا تنتهي دروسها.

فهو باختصار في منتهى الذكاء، بسيط كل البساطة، صريح صراحة قد تضايق البعض، واقعي يفهم أمور الحياة بكل دقائقها، لا يتبجح في العلم، ولا يدّعي الفهم، ولا يُخفي سلوكاً حتى ولو كان سيئاً.

شريف يقيم بالولايات المتحدة الأمريكية منذ ثلاثين عاما، ورغم ذلك لا تشعر بأنه قد خرج من شوارع القاهرة، لا تزال فيه أصالة ابن البلد، وجدعنة شبابها، كل هذا بالرغم من أنه لم يتخطى سنه الثامنة والخمسين.

فهو شريك لأخيه في مطعم بولاية (كَنَاتيكَا)، ويعيش وسط خليط من البشر، لم يكن متقبلا لي في بداية الأمر، وكان دائمًا ما يصفني بـ(الرخامة) وثقل الدم، لكن مع مرور الأيام توطدت العلاقة بيننا حتى أصبح شريف هو الصديق المقرَّب إلى قلبي، وتكررت لقاءاتنا في القاهرة كلما نزل إجازة إلى مصر، دخلتُ بيته وتعرفتُ على عائلته.

ربما تسال عزيزي القارئ ما الذي سأستفيده من هذه القصة؟

إجابتي بسيطة جداً وهي: إنَّ شخصية شريف فيها من السمات والصفات التي تجعل كل إنسان يتمنى التعلم منها، وإليك هذا الموقف:

أعطى شريف السيدة شقيقته مبلغ سبعة آلاف دولار، أي ما يعادل مائة وعشرين ألف جنيه مصري، وكانت شقيقته في زيارة للولايات المتحدة، وكان الهدف من إعطائها هذا المبلغ الكبير هو أن تضعه في حسابه بالبنك المصري حينما تعود إلى مصر، وبالفعل عندما عادت شقيقته وهَمَّتْ بفتح حقيبتها لم تجد المبلغ الذي فيما يبدو أنه قد سُرق بالمطار أو في داخل الطائرة، وبالطبع أبلغته شقيقته بما حدث؛ لكن ماذا كان رد فعل شريف عقب سرقة هذا المبلغ الكبير؟

كان رد الفعل مفاجئاً لنا حين قال: في ستين داهية نحن مَن نصنع الأموال، وليست الأموال تصنعنا.

موقف آخر:

إن الولاية التي يقيم بها شريف تتميز بندرة العرب فيها، فهم قليلون جداً، لكن في يومٍ من الأيام أوقعتني الصدفة عبر مواقع التواصل الاجتماعي مع سيدة لبنانية تقيم بنفّس الولاية، وكانت سيدة منفصلة، وتمتاز بالجمال وخفة الظل، وفرحتْ كثيراً عندما علمتْ أنني أعرف شخصا مصريا في نفس تلك الولاية.

وعندما اجتمعتُ أنا وشريف وهي في مكالمة واحدة كانت المفاجأة، وهي أنّ تلك المرأة تسكن في الشارع الخلفي لسكنه، فقامتْ المرأة بدعوته على الغداء، وبالطبع رحّب شريف غاية الترحيب، لكن فوجئتُ أنَّه لم يذهب، وعندما سألته عن السبب قال لي: إنني تعمدت الهروب منها، فلا أريد أنْ يراني أحدٌ معها، ولا أريد أنْ يتحدث أحدٌ عن شخصي بكلمة حتى لو كنا على أرض الحريات.

موقف ثالث:

شريف إنسان نبيل، يمتلك قلباً رقيقاً، وأتذكرعندما اشتكتْ لي إحدى الصديقات المقربة لنا بأنها تمر بضائقة مالية حادة، وبمجرد أنْ قلتُ أمام شريف حديثها قام على الفور بإرسال مبلغ كبير لها، كما يساعد شريف أهل مدينتي سواء الطلاب البسطاء في المدارس أو المرضى أو المحتاجين.

شريف يمتاز بخفة دم عالية وأسلوب ساخر، وأتذكر في يوم من الأيام وهو جالس في مطعمه وكنت أتحدث معه صوتيًا، قد دخل رجلان عليه يطلبان وجبة غداء، وعندما جلس الرجلان همس لي شريف قائلاً: هذان رجلان شاذان، فهما متزوجان من بعضهما منذ وقت طويل، استغربت كثيراً لهذا الأمر، لكن المضحك في الأمر أنَّ أحد الرجلين قد اشتكى شريفا لأحد العاملين معه بالمطعم، وكانت شكوته أنّ شريفا كثير النظرإلى الرجل الثاني الذي معه، فهو يغار عليه كثيراً، ولا يحب أنْ ينظر إليه أحد.

أما شريف الآخر:

إنه شريف القبطي ابن الصعيد الحاصل على دكتوراه في القانون، تعرفتُ عليه من خلال مواقع التواصل الاجتماعي، وهو يقيم بالسويد، وله مكتب محاماة، ويقوم بالتدريس في كلية الحقوق بجامعة (استكهولم).

يمتاز شريف بعدة صفات فريدة من نوعها، ثقافة متناهية، تعصُّبٌ زائد إلى قوميته ومصريته، عشق زائد عن الحد للنساء.

تلك الصفات اكتشفتها بعد معرفتي له بمدة طويلة، وكثرت الحوارات بيننا بين شد وجذب، كنا نختلف في كثير من الآراء والمفاهيم.

فبالرغم من أنه مسيحي الديانة إلا إنه بداخله غير معترف بالأديان، وكانت له مقولة شهيرة: (خرجنا من الأرض وسنعود إليها ولن نخرج منها مرة أخرى) لكنه مع كل هذا كان متعصباً لقوميته القبطية ومصريته، ويعتبر المسلمين غُزاة لمصر، ولم أكن أستغرب هذا، فهو رأي كثير من المسيحيين الذين أعرفهم، لكن أذكر هذا الموقف له عندما كنت أجلس معه وكان يقرأ في كتاب نهج البلاغة للإمام علي - كرم الله وجهه- وهنا سألته: لماذا نهج البلاغة ولماذا الإمام علي - كرم الله وجهه - فكانت إجابته غريبة جداً، قال شريف: إنني عاشق للإمام علي - كرم الله وجهه - إذ يكفي أنه قد تربى في بيت الأستاذ، فقلت له: ومن الأستاذ؟ فقال: محمد - صلى الله عليه وسلم - فقلت: عجباً لا تؤمن به وتعتبره أستاذا! فقال: الشخصية شيء والدين شيء آخر.

وقد كان في معظم الأحيان متقلب المزاج، كثير الشك في الآخرين، كنت أخشى عصبيته، وكان مع كل حدث بين المسلمين والمسيحيين ينفعل انفعالاً شديداً، لكنه كان طيب القلب، صادق النصيحة، يحبني كثيراً، يحترم الكثير من أفكاري، حريص على الحديث معي بشكل يومي.

لكن لابد أن أذكر له هذا الموقف النبيل الذي لن أنساه أبدًا، حينما كنت أطيل الجلوس على جهاز الكمبيوتر جالساً على مقعد، فأتعبني الجلوس حتى أصبحت الضرورة ملحة لإجراء عملية جراحية، وهنا نصحني الطبيب بعدم الجلوس قاعداً بل نائماً.

وعندما اتصل بي شريف للاطمئنان على صحتي، ورويت له ما حدث، قال لا تستخدم هذا الكمبيوتر الكبير مرة أخرى، وسوف أرسل لك جهاز لاب توب حتى يسهل عليك استخدامه وأنت نائم.

اعتقدت أن شريف قالها من قبيل المجاملة أو العزومة فشكرته على شعوره هذا، لكن المفاجأة أنني وجدت الجهاز مُرسلا لي بعد كلامه هذا بإسبوع فقط.

شريف شخصية قد لا تعجب البعض، لكن أحببته من قلبي كثيرًا، وحزنت عندما علمت بمرضه، ودعوت له من أعماق قلبي أن يشفيه الله، ويمتعه بالصحة والعافية.

أنا ومدام ناني فاتنة المهندسين

في يوم من الأيام كنت جالسا على برنامج التواصل الاجتماعي (اسكاي بي)، فوجدت إضافة قادمة باسم (بنت النيل)، فأعجبني الاسم كثيراً، فقمت باستقبال الإضافة ثم كان هذا الحوار الذي دار بيننا: أهلا بكِ، ما اسمكِ؟ فقالت: ناني، فقلت: أهلا ناني، من أين وكم عمركِ؟ فقالت: مصرية عمرى 58 سنة، وبالطبع فوجئت بالسن، فقلت: أهلا بحضرتك أستاذتي، فقالت: أنا لست أستاذة، قل لي: يا ناني أو مدام ناني، فقمت بتعريف نفسي لها، فطلبت مني مايك على الفور، وإذا بصوت عذب يملؤه الفرح والمرح والبشاشة، فقالت: هل أنت متزوج يا محمود؟ فقلت: لا، قلتُ: وأنتِ؟ قالتْ: أنا حاليا غير متزوجة، فقلتُ: وقبل هذا؟ قالت: تستطيع أن تقول أرملة ومطلقة، فقلتُ: كيف؟ قالتْ: أنا تزوجت ثماني مرات، منهم مرة طلقت ورجعت ثلاث مرات، معنى هذا أنها تزوجت 11 مرة، فقلتُ متعجباً: لماذا ثماني مرات؟ قالت: أنا بطبيعتي جميلة، ولا يظهر السن على وجهي أو جسمي أو حتى صوتي، فقلت: (ولو)، ليس هذا سببا لكل هذه الزيجات، فقالتْ ضاحكة: لو كنت مبصرا يا محمود لعرفتَ السبب، فقلتُ: والثمانية على قيد الحياة؟ فقالتْ: ثلاثة منهم فقط، والباقي في ذمة الله، ثم قالتْ: كنتُ أخرج بمكسب بعد كل زيجة، فقلتُ لها: هل هي تجارة، فقالتْ: كانت بالنسبة لي تجارة.

أنا الآن أمتلك أربعة منازل، ومحلين، ومنزلا بلبنان، ومطحنة بن، فقلت: ما شاء الله، ثم سألتُها عن آخر زيجة لها، فقالت: من أربعة أشهر فقط، ثم ظلتْ تحكى وتحكى وأنا في حالة من الذهول من شخصية هذه المرأة العجوز الشابة!

وكنت على يقين أنها تبالغ فيما تقوله عن نفسها، وبعد مرور وقت أصبحنا أصدقاء كالعادة، فطلبتْ تراني على أرض الواقع، فقلتُ لها: إن شاء الله حين تسنح الظروف.

وفي يوم من الأيام اقترح صديقٌ لي أنْ نذهب إلى القاهرة لإتمام بعض الأوراق الخاصة به، فقلتُ له: فرصة سوف أقابل سيدة هناك، فقال: كم عمرها؟ فقلتُ: 58 سنة، فقال: يا رجل، حرام عليك، ثم اتفقنا بعد الوصول إلى القاهرة بأنْ تأتى (ناني) وتأخذني بسيارتها، أما صديقي فسوف يذهب إلى قضاء حوائجه ثم يعود في المساء.

وبالفعل وصلتُ أنا وصديقي إلى القاهرة، ووقفنا ننتظر سيارة (ناني)، وبعد مرور وقت قصير وجدنا سيارة تحوم حولنا، فقال صديقي: ليس هذا معقولا أن تكون هذه ناني، فقلت له: ماذا ترى؟ فقال: لم أرَ في حياتي جمالا مثل هذا الجمال، ثم استقرتْ سيارة ناني أمامنا، وفتحت الباب، وأمسكتْ بيدي، وقالت: من المؤكد أنك محمود، فقلتُ: نعم، وكانت رائحتها العطرة تفوح علينا، فقالت: هيا بنا.

وكان من المفترض أنْ يفارقنا صديقي ثم يأتي ليلا كما اتفقنا، لكن ناني من باب المجاملة قالت له: تفضل معنا، وهنا لم يتردد صديقي في فتح الباب الأمامي ليجلس بجوار ناني ويتركني في المقعد الخلفي بمفردي، فقلتُ له هامسا: ألن تذهب لقضاء حوائجك؟ فقال: لقد عزمت عليَّ، وليس من اللائق أنْ أرفض لها طلبا، فقلتُ لها مباشرة: ممكن نوصل فلان إلى المكان الفلاني، فقالت: بكل سرور، وبالفعل أوصلتْ صديقي إلى المكان الذي جاء من أجله، وكان صديقي يعتقد أنني سأنتظره حتى ينتهي، لكن بمجرد نزوله قلتُ له: سوف أتصل بك كي تأتيني في المكان الذي سأحدده ، فأحسستُ بضيق قد وقع في صدره، ووجدتُ منه كل مشاعر الحقد والحسد، وانطلقتُ أنا وناني إلى مقر سكنها بالمهندسين، وكانت تمتلك بوتيك فخما، فذهبتْ بي إليه، وجلسنا حيث قدمتْ لي العصائر ثم ظللنا نتحدث.

والحق أنه قد امتلكني شعور أنني لم أجلس في حياتي مع أنثى من قبل، إنّ ما قالته ناني عن نفسها قليل جدا، وبعد أن انتهينا من الجلوس في البوتيك ذهبت بي إلى شقتها، وظلت تحكي لي مكونات الشقة، وما تمتلكه من تحف وأنتيكات، وكانت تعشق (أم كلثوم)، فأسمعتنا أسطوانة (الحب كده)، وأنا في غاية السعادة والانبهار، وكانت ناني سريعة البديهة، بشوشة الوجه، عذبة الكلام.

وبعد مدة ليست بالطويلة اتصل صديقي وقال: لقد انتهيتُ، أين أنت؟ فقالت ناني: ليأتِ لنا عند البوتيك، فقلتُ: يا ناني قبل أنْ نخرج ممكن طلب، فقالت: عيوني، فقلت لها: ألا تريدين أن تتزوجي التاسع؟ لكنك لن تغنمي منه شيئا هذه المرة، فضحكتْ كثيراً وكثيراً، ثم وضعتْ قبلة على خدي لم ولن أنساها.

ونزلنا وجاء صديقي، وعدتُ إلى مدينتي وناني تشغل فكري ووجداني، لكن يبدو أنّ قدومي على ناني لم يكن جيداً، فقد أصابها المرض بعد ذلك، ثم توفاها الله بعد إصابتها بنوبة قلبية، وتركتْ كل ما أخذته من أزواجها الثمانية لابنتها، فرحم الله ناني، وأسكنها فسيح جناته.

دمعة الحزن التي أبكتني بكاءً شديداً

في يوم من الأيام كنت جالسا على أحد برامج التواصل الاجتماعي فوجدت إيميل غريب يسمى دمعة حزن.

كتبت لصاحب أو صاحبة هذا الإيميل حتى أعرف من هو أو هي.

دقائق قليلة حتى وصلني اتصالٌ مباشرٌ من هذا الإيميل، فإذا بسيدة ذات صوت هادئ تبدو عليها أصالة بنت البلد.

لكن ما كان ملاحظا هو تلك الضوضاء التي كانت حولها، إذ يبدو أنها تجلس في مكان عام.

صرحت تلك السيدة لي بأنها معجبة بلقبي سندباد الأندلس، وأنها تعشق الأندلس عشقاً كبيرًا.

أغلقت السكة معي لبضع دقائق ثم عادت تتصل بي، وتطلب مني أن أعرفها بنفسي.

وبعد أن قدمت نفسي لها جاء الدور لكي أتعرف عليها أيضا.

تنهدت السيدة تنهيدة كبيرة، ثم قالت: قصتي قصة طويلة، وأنا أريد أن أسردها لك، لكن الوقت غير مناسب بإذن الله عند العاشرة مساءً سوف أتصل بك وأروي لك كل شيء، أخذني الفضول بشدة حتى جاءت العاشرة، فوجدت اتصالا منها لكن هذه المرة كان الجو هادئا إذ يبدو أنها كانت تتحدث من غرفتها الخاصة.

أخذت السيدة تروي قصتها وتقول: كنت أعيش في أسرة يعولها أبٌ مريضٌ وأُمٌّ توفيت مبكراً، وكان لي أربعة إخوة، تُوفي الأب وأنا لم أزل في الجامعة في كلية الآداب قسم جغرافيا.

أصبحتُ مسؤولة عن جميع إخوتي، وهنا لم أجد مفرًا من العمل بجانب الدراسة في الجامعة.

تقول: كنت أخرج صباحًا وأعود ليلًا في حالة من التعب والإرهاق، كل هذا حتى أتمكن من الصرف على إخوتي، فجميعهم كان بمراحل دراسية مختلفة.

بفضل الله تعالى انتهيت من الجامعة، وكذا أصبحت عندي خبرة كبيرة بعمل الملابس، وتقدم شاب من مدينتي لخطبتي، وكان عريساً مناسباً، شعرت أنه سيعوضني عن رحلة الشقاء التي عشتها.

ظلت الخطوبة بضعة أشهر حتى فاجأني بقوله: بإذن الله تعالى إذا ما تم الزواج ليكن بعلمك أنني لن أسمح أن تساعدي إخوتك بمليم واحد، فهُمْ شبابٌ يستطيع كل واحد منهم تحمّل مسؤولية نفسه.

تقول: ظللتُ أفكر في هذا الكلام، وكنت أشعر بصراع داخلي بين مسؤوليتي نحو إخوتي، ومشاعري الفياضة ناحية خطيبي هذا، تغلبت مشاعري على مسؤوليتي، وبالفعل تمّ الزواج.

أيام معدودة ثم أخذتْ المشاكل تزداد بيننا، حيث كان يطمع فيما أُحصّلُه من أموال، كذا كان يحاول أنْ يضغط عليّ حتى أزيد من الدروس الخصوصية، لكن كانت المشكلة الكبرى بيننا هو تعامله مع إخوتي، حيث كان تعاملاً جافاً خاليا من الرحمة والذوق.

شهورًا تحملت فيها هذا الوضع، وأدعو من الله تعالى أنْ يستجيب دعوتي بطفل يخفف عني تلك المشاكل، ولعلّه يصبح نقطة تحول في العلاقة بيننا.

تقول: تأخر الحمل، فشعرت بالقلق مع بعض الأوجاع في بطني، وهنا ذهبت إلى أحد الأطباء حتى يشخص حالتي، فكانت الصدمة الكبرى، وهي أنني مصابة بورم في عنق الرحم، مما يجعل فرصة إنجابي شبه مستحيلة.

خرجت من عند الطبيب في حالةٍ يُرثى لها، وكأن الحياة سوداء لا تريد أن ترحمني،

وقررت أن أصارح زوجي، وأترك له حرية الاختيار.

تقول: كان رد فعل زوجي هادئا يخلو من أي آثار للصدمة، لكن الملاحظ أنه قد أخذ يعاملني على أنني مورد للمال فقط، وتطورت المشاكل بيننا حتى انسدتْ جميع الطرق لإصلاحه، فكان الطلاق هو الحل الوحيد.

تقول: قررت أن أمنح جميع اهتماماتي لإخوتي، وأنْ أجعل كل همي سعادتهم في الحياة، لذا كنت في غاية الفرح عندما جاءني عقد عمل للتدريس بالمملكة العربية السعودية.

ذهبت إلى هناك، ومع مرور الوقت أصبح لي حساب كبير في البنوك خاصة مع عملي بالملابس، هنا شعرت أن الحياة قد ضحكت لي، وأن الله تعالى قد عوضني عما حدث لي، حتى جاءت اللحظة الفارقة!

تعرفت بالسعودية على رجل وسيم من صعيد مصر، تبدو عليه شهامة ابن البلد، حيث الوجه المبتسم، والتدين الذي كنت ألاحظه فيه، تقربت منه كثيراً حتى صارحني أنه متزوج، لكنه يعاني من مرض زوجته المصابة بالكانسر، ولا يستطيع أن يفارقها حتى لا يتهمه أحدٌ بالندالة.

تقول: تفهمت موقفه ومع مرور الأيام أخذ حبي له يزداد شيئاً فشيئاً، حتى جاءت اللحظة التي كنت أنتظرها حين صارحني برغبته في الزواج مني، وهنا وافقتُ على الفور، وقمنا بقضاء بعض الأيام في لبنان.

ثم رجعنا إلى السعودية، فقمتُ على الفور بزيارة ضُرتي بناء على رغبة زوجي، وقد أبدت ترحيبها بي وعدم انزعاجها من زواجي منه، وأنّ كل ما يهمها هو رد بعض الجميل له.

خرجت من عندها مستريحة الضمير، لا أشعر بذنب ناحيتها، وأصبح كلُّ همي سعادة زوجي هذا.

أيام قليلة حتى همس زوجي في أذني أنْ أحاول تقديم هدية ثمينة لزوجته الأولى، حتى لا تتضايق من إقامته معي أياما كثيرة، وبالفعل ذهبت إليها وقدمتُ لها هدية من الذهب، فكانت في غاية السعادة، لكن الملاحظ أنها لم تتردد في أخذها.

أخذ زوجي يسألني عن حسابي في البنك، وما أمتلكه من أشياء، وعندما سألته عن السبب، قال: لي صديق هندي عرض عليّ مشروعاً كبيراً سيجلب لنا خيراً كثيراً.

تقول: تحمست لهذا المشروع واقتنعت به، وعلى هذا فتحت حسابي لزوجي على مصراعيه حتى نتمم هذا المشروع، وتركت لزوجي التصرف في كل شيء، ولم يعطني فرصة حتى أناقشه في أرباح أو خسائر هذا المشروع، حتى صدمني في النهاية بقوله: لقد تلاعب بي صديقي الهندي وخدعني بهذا المشروع حتى خسرنا كل شيء.

تقول: لطمتُ على وجهي، وصرختُ بقوة، إنه شقا عمري.

أخذ زوجي يهدئ من روعي، ويقول: سأعوضك عن كل هذا بكل الوسائل، لم يكن أمامي إلا الصمت والرضا بما قدّره الله لي، حتى جاءت الأجازة الصيفية.

فذهبتُ إلى زيارة إخوتي، وذهب زوجي إلى زيارة أهله بالصعيد، وعندما تقابلنا قال لي: عندي مفاجأة رائعة لكِ، لقد وجدتُ شقةً بالجيزة بسعرٍ مناسبٍ ومن الغباء أنْ نترك تلك الفرصة.

تقول: على الفور قمت بعمل توكيلٍ له بعد أن سحبتُ آخر ما تبقى لي في حسابي البنكي.

ثم رجعنا إلى السعودية بعد شراء الشقة، لكن صحتي أخذتْ تتدهور شيئاً فشيئاً خاصة مع صعوبة الجو هناك.

جاء زوجي في يوم من الأيام، وقال لي: لابد من نزولي إلى مصر فورًا حيث إن أختي تعاني من مشاكل كبيرة.

نزل زوجي بضعة أيام ثم عاد لكن هناك أمر قد تغير، أصبح زوجي عصبيا، يهاجمني بقوة، ويتطاول عليّ بأفظع الكلمات، إلى الحد الذي قال فيه: لا أعرف كيف ابتلاني الله بكِ.

هنا طلبتُ منه الطلاق على الفور، فقال: لن أطلقكِ حتى تتنازلي عن كل مستحقاتك، بالفعل تنازلتُ عن كل شيء، وقررتُ النزول نهائياً إلى مصر، حتى أجد من يرعاني في مرضي، وكان أملي أن أبيع الشقة التي اشتريتها بالجيزة، وأحاول بأموالها أنْ أعيش باقي حياتي.

ذهبتُ إلى العمارة التي بها الشقة، وهنا قال البواب الذي كان يعرفني جيداً: هل تريدين شيئا يا سيدتي؟ فقلت: جئت كي أبيع شقتي، فنظر لي البواب في اندهاش، وقال: يا سيدتي لقد بِيعتْ بالفعل، جاء زوجك وقال: أريد بيع الشقة بناء على رغبة زوجتي.

لم أشعر بنفسي إلا وأنا بالمستشفى، وإخوتي من حولي، فقد استغلّ توكيلي له وقام ببيع الشقة.

لم يكن معي أيّ سندٍ قانوني أستند إليه ضده، فما كان مني إلا أنْ ذهبتُ إلى أهله بالصعيد؛ لعلّ الشهامة تأخذهم، ويرجعون لي بعض حقي.

تنكر أهله منه وتبرؤوا مما فعل، وقالوا: لن نستطيع أنْ نصنع لكِ شيئا.

رجعتُ إلى مدينتي، ولم أتحصل على مليمٍ واحدٍ، ومع تدهور صحتي عطف عليّ أحدُ الأشخاص، ووفّر لي عملا في أحد المحلات، هذا المحل الذي كنت أحدثك منه نهاراً.

تلك قصتي يا سندباد الأندلس، انهمرت الدموعُ من عيني بعد سماع قصتها، وكم وددت أنْ أساعد تلك السيدة بأي شيء، لكن الظروف وقتها لم تكن تمكنني من هذا.

انقطعتْ صلتي بها بعد ذلك، ولم أعرف عنها شيئًا إلى الآن.

متعها الله بالصحة والعافية إنْ كانت على قيد الحياة، ورحمة الله عليها إن كانت فارقت الحياة.

عزيزي القارئ، تلك هي قصة دمعة حزن، وكما ترى كيف تصنع الحياة ببعض الناس، فلا تضع ثقتك كاملة في أي شخص مهما كان، ولا تنجرف خلف عواطفك فلربما عصفت بك إلى الهاوية.

كوارث الزواج عبر الإنترنت التي عايشتها

لو أراد كاتبٌ قصصي أن يكتب بخياله الواسع قصصاً من الممكن أنْ تدور عن زيجات الإنترنت وخطورتها، فالمؤكد أنها لن تكون أكثر إثارة من تلك القصص التي شاهدتُ بعضها، وعايشتُ البعض الآخر.

منذ دخولي هذا العالم الفسيح وأنا ألاحظ ملاحظة غريبة، تكمن في هذا الكم الهائل من النساء والفتيات اللائي يسعين في الزواج بشتى الطرق من المصريين خاصة، وأقصد هنا منطقة عربية معينة، وهي منطقة شمال إفريقيا التي تضم المغرب والجزائر وتونس.

رأيتُ من نساء تلك البلاد أمورا عجيبة كأن تجد إحداها تكتب على حسابها الخاص أريد زوجاً مصريًّا.

أو أخرى دون سابق حديث تعبر لك عن شعورها بالارتياح والإعجاب بصداقتك، الأمر الذي يجعلها ترحب بفكرة الارتباط بك.

أمور عجيبة خلقت كوارث لا حصر لها مع معدومي الضمير من بعض الرجال المصريين الذين كانت لهم فرصة لممارسة مجال النصب والاحتيال، وإليكم بعضاً من تلك القصص التي عايشتها:

حنان والأستاذ حكيم..

حنان فتاة مغربية تعمل مربية لأبناء خالها، يتيمة الأب والأم، لم تكن حنان فائقة الجمال بل فتاة عادية جداً، لكن كان كل هدفها في الحياة أن تأتي إلى مصر، وتتزوج أحد رجالها.

بالطبع كنت أرفض الفكرة بشكل شخصي، ولم أكن أسمح لواحدة منهن أن تفتح معي باب في هذا الحوار، لكني كنت أحب أن أستمع إليهن، وبعد مدة طويلة من حديثي مع حنان صارحتني بالتالي:

حنان تحب معلماً مصريًّا يُسمَّى حكيم، يكبرها بحوالي ثمانية عشر عاما، متزوج وعنده ثلاثة أطفال، لكنه بالطبع يفتقر إلى الحب والحنان والرومانسية التي وجدها مع حنان.

وهنا سألتُ حنان: هل أنتِ أيضاً تحبينه؟ قالت حنان: لا يُعنيني هذا الأمر، بل يعنيني هو أن آتي إلى مصر وأتزوج فيها.

مرتْ الأيام وجاءت حنان لتسألني السؤال التالي: كم يبلغ الدرهم المغربي بالجنيه المصري؟ فقلتُ لها: لماذا؟ وكأني أشعر بأمر ما.

فقالت حنان بعد إلحاحٍ: أريد أنْ أرسل مبلغا كبيرا من المال لحكيم حتى يتمكن من بناء الدور الثالث الذيِ سنسكن فيه معاً، فضحكتُ بصوتٍ مرتفعٍ، وقلت لها: وماذا ستفعلين مع زوجته؟ فقالت شيئا غريباً: إنّ زوجته قد تحدثتْ معها، وأبدت موافقتها على زواجهما، وأنها ستتفرغ لتربية الأولاد، وتترك زوجَها يمارس حياته مع زوجته الجديدة تقصد بالطبع حنان.

فقلتُ على الفور: وهل هذا أمرٌ يُعقل؟ فقالت: لا أعرف، وهنا قالت: سأحاول أن أجمع بينك وبينه، وتتحدث معه حتى تقول لي رأيك.

وبالفعل جمعتْ بيني وبين الأستاذ حكيم، الذي تأكدت بالفعل أنه مُعلِّم، لكن لم أكن أبداً مرتاحاً للحوار، ولا من تلك المبالغات التي قالها في عشقه لحنان، وبعد انتهاء المكالمة قلتُ لها: أخشى عليكِ من ضياع أموالكِ، ولابد أنْ تضعيه في اختبار جدي، فقالت: كيف؟ قلت: عليكِ أن تقولي له أنكِ ليس معكِ أموالٌ، وأنكِ تعيشين على راتبك البسيط الذي يعطيه لكِ خالكِ، وبالفعل فعلتْ ما قلتُه لها، فماذا كانت النتيجة؟

عندما أخبرته بهذا الأمر، قام وجاء بزوجته التي أعطت حنان وصلة كبيرة من الردح والسباب والشتائم، وهددتها بأنْ تبتعد عن زوجها، وإلا ستقوم بنشر صورها التي كانت ترسلها إلى حكيم عبر مواقع الإنترنت وصفحات الفيس بوك.

كانت صدمة كبيرة لتلك الفتاة المسكينة التي استوعبتْ هذا الدرس القاسي حتى كتب لها الله الزواج من أحد أبناء وطنها.

سهام وحسام...

لعلّ هذه القصة أصعب قليلاً من سابقتها، وقد رأيتُ تطور الأحداث فيها يوما بعد يوم، حسام شاب مصري، أبوه ذو أصول إفريقية، أمَّا أمه فمصرية الأصل، يعيش في القاهرة ذو مستوى مادي متوسط، أمَّا سهام فهي فتاة مغربية، تسكن بالدار البيضاء، ولا تعمل، بسيطة جداً لم تكمل تعليمها، لكن كان هدفُها الأكبر أنْ تتزوج بأي شخص.

حاول حسام التقرب منها حتى استطاع أنْ يسيطر على مشاعرها، وأبدى استعداده الكامل للزواج منها، وكنت أراه يتظاهر بصورة الشاب المستقيم الهادئ الذي يختار ألفاظه بشدة.

لكنه كان صريحاً مع سهام حين قال لها: لا يمكنني الذهاب إليك في المغرب، لأنني ببساطة لا أمتلك ثمن تذكرة السفر، وهنا قالتْ له: سهام لا تقلق، فذهبتْ وباعتْ ما كان معها من ذهب، وأرسلتْ ثمن التذكرة إلى حسام.

أوفى حسام بوعده وانطلق إلى المغرب حيثما تتواجد سهام، وبالفعل أخبرتْ سهام عائلتها التي تجهزتْ للعرس، وأعدتْ استقبالاً حافلاً لحسام القادم من مصر لأخذ سهام والطير بها إلى قاهرة المعز.

وصل حسام بسلامة الله، واستضافته عائلة سهام بكل الود والترحاب، وخرج حسام مع سهام يجوبان شوارع الدار البيضاء، وبعد يومين قالتْ له: أهلي يسألونني هل نحضر المأذون اليوم لكتب الكتاب؟ فقال لها: إللي تشوفوه، وتركها بحجة زيارة صديقه المغربي الذي يسكن في منطقة قريبة من الدار البيضاء، وبعد ساعات اتصلتْ عليه لكن الجوال مغلق.

ظلت تتصل كثيراً وكثيراً حتى أصبحتْ في حيرةٍ من أمرها، ثم اتصلتْ بهيئة المطار المغربية، وعرفتْ أنّه لم يسافر، ولم يترك المغرب، فظلتْ تبحث عنه لكن دون فائدة، فما الذي حدث؟

يبدو أنه قد قام بتغيير شريحة الموبايل، وذهب إلى مكانٍ آخر في المغرب، ثم عاد إلى مصر دون أن يشعر به أحد.

أصبح موقف سهام أمام عائلتها في غاية الحرج، فكيف لها أنْ تأمن لهذا النصاب، وتدخله البيت، وتعطيه ثمن تذكرة مجيئه؟

دخلت علينا سهام والدموع تغرق عينيها، وهنا كان أحد الأشخاص المتواجدين معنا يعرف حسام ويعرف عنوانه، فذهب إليه وظل يطالبه بتلك الأموال التي تحصل عليها من سهام، لكنه لم يستجب، وكانت مأساة حقيقية لتلك الفتاة التي اختفت عن الأنظار.

مها وسعيد...

مها سيدة مغربية تجاوزت الأربعين من عمرها، منفصلة ليس عندها أولاد، صاحبة محل لبيع العبايات المغربية.

تعرفت على سعيد، وكالعادة شعرت أمامه بالجاذبية الشديدة التي جعلتها تلحُّ عليه في الزواج، مخالفة بذلك طبيعة المرأة التي من طبعها الحياء والخجل.

سعيد كان شاباً مصريًّا في الثلاثينيات من عمره، يعني أصغر منها بسنوات قليلة، وكان شأنه شأن بقية الشباب الطامحين إلى مستوى مادي رفيع.

لكن سعيد لم يشأ أن يُصرح لها بحالته المتوسطة، وأوهمها أنه يمتلك شقة فاخرة في الإسكندرية، وأنه سيجعلها لا تحتاج إلى شيء.

بالفعل اقتنعت مها بكلام سعيد، وهيأت نفسها وجمعت أمورها ونزلت مصر، وكان في استقبالها الزوج المنتظر، تزوجها سعيد في حفل بسيط، حضره بعض من

أصدقائه، لكن الملفت أنّ أحدا من عائلته لم يحضر، وأخذ سعيد عروسه وطار بها إلى الإسكندرية، كانت شقته فاخرة بالفعل، وكانت مها تصطحب معها بعض الأموال والأجهزة الحديثة من حاسوب وجوال.

وبعد أيام قليلة قال سعيد لمها: أريدك أن تقفي بجانبي، فأموالي جميعها وضعتها في أحد المشاريع التي ستجلب لنا ربحًا في القريب العاجل، وبالفعل أعطتْ مها سعيد كل ما معها من أموال، حتى جاء اليوم الذي فوجئت بعدم وجوده معها بالشقة، وقد ترك لها ورقة طلاقها، وبعد أن استوعبتْ الصدمة ذهبتْ لتسأل عليه مَنْ بالعمارة، فقال لها أحدهم: إنه قد أجرها لمدة شهر فقط.

ظلتْ تبحث عنه، وقامتْ بواسطة السفارة المغربية بتقديم بلاغ للشرطة بتهمة سرقة أموالها وجوالها، لكن كان الأمر سيستدعي وقتاً طويلاً، فقام بعضُ المصريين بمساعدتها وبعضُ العاملين بالسفارة المغربية، حتى عادت إلى وطنها خالية الوفاض.

كريمة وأبو عماد ...

لعلّ هذه القصة هي التي تركت أثرًا كبيرًا في نفسي، وأشعر أنني كنت سببًا من أسبابها.

كريمة سيدة فاضلة أرملة من تونس الخضراء، كانت أُمًّا لابن وبنت، وقد أوشكت على سن الخمسين، لكن كنا جميعاً نشعر بعاطفة زائدة نحوها؛ لأنها كانت مصابة بمرضٍ خبيثٍ.

في ليلة من الليالي دخل معنا أحدُ الأصدقاء الذين كنت أحبهم وأقدرهم غاية التقدير، كان أستاذا فاضلا يعمل بالتربية والتعليم، وفوق كل هذا كان متيسراً ماديًّا ، فكان يملك عقارات وأراضي زراعية بمحافظته كفر الشيخ.

دخل معنا وتعرف على كريمة، وكنتُ أعلم أنه يعاني مع زوجته أم الثلاث فتيات، حيث كان دائم الشكوى منها ومن إهمالها له، بالرغم من أنه في منتصف الخمسينيات من عمره.

بعد هذا اللقاء اختفت كريمة، ولم يعد لها وجود أو ظهور عبر مواقع التواصل الاجتماعي، وظللنا نسأل عنها لكن دون فائدة.

وبعد عشرة أشهر تقريباً وجدت اتصالا على هاتفي يخبرني بأنّ كريمة مريضة بإحدى المستشفيات، وتريد أنْ تتحدث معك لأنّ حالتها سيئة للغاية، قمتُ على الفور بالاتصال عليها، وعندما سمعتْ صوتي انهمرت بالبكاء الشديد، وكان يبدو على صوتها الإرهاق والتعب، فقلتُ لها: ما بك وماذا حدث؟

قالت: يا ليتني سمعتُ نصيحتكَ ولم أنخدع بأي حوار أو حديث عبر النت! فكررت لها السؤال مرة أخرى ماذا حدث؟ فقالت: أبو عماد دخل معي في حديثٍ جانبي عندما تعرفت عليه لأول مرة، وقال: إنّ صوتك جميلٌ يفيض رومانسيةً وحنانا أفتقدهم في حياتي مع زوجتي.

فقلتُ: لستُ من هؤلاء النساء اللاتي يمكن التلاعب بهن، فقال: أنا لا ألعب بأحدٍ، فأنا شخصٌ لي مركزي ووضعي الاجتماعي.

تقول كريمة: شعرت بالارتياح نحوه، وما زاد من راحتي واطمئناني تلك الهدية التي أرسلها لي في عيد الحب من مصر إلى تونس، عرفتُ أنه صادقٌ، وأنه يريد الارتباطَ بي بالفعل.

كنتُ أجلس معه كلّ يوم ساعات طويلة، يحدثني فيها عن حياتنا المستقبلية، حتى أراني عبر الكام حقيبة، وظل يعدد ما فيها من أموال، حتى بلغتْ المليون والنصف، فقلتُ: ما كل هذه الأموال؟ فقال: سأشتري بها شقتنا التي سنقيم فيها بالإسكندرية.

شعرتْ كريمة أنّ الحياة تبتسم لها، حتى قام أبو عماد بتحديد موعد الزواج، وكانت الترتيبات على النحو التالي:

سيقوم أبو عماد بإرسال ثلاث تذاكر إلى تونس لكريمة وشقيقها وابنتها، حيث سيقيمون معها أسبوعاً كاملاً، بالفعل تجهزتْ كريمة، وحصل أخوها على إجازة من العمل، وقامتْ بشراء ملابس جديدة ،ونشرتْ خبر زواجها بين أفراد العائلة.

وعندما جاء اليوم المحدد الذي سيرسل فيه أبو عماد التذاكر، بالطبع أغلق هاتفه واختفى عن الأعين، وظلت كريمة تبحث عنه حتى وصلت لها تلك الرسالة من أبي عماد يقول فيها: كريمة أرجو ألا تغضبي مني، فزوجتي عندما علمتْ بما سأفعل أقامتْ عليَّ الدنيا، وأقسمتْ فتياتي ألا يتحدثوا معي أبدًا إذا قمت بهذا العمل.

انهارتْ كريمة واشتد عليها المرض، وشعرتْ أنه قد افتضح أمرها في وسط أهلها، وجيرانها، فنقلوها إلى المستشفى حيث تدهورتْ صحتها بشكلٍ كبيرٍ.

تلك هي القصة التي تركت في نفسي أثرًا كبيرًا، وأعلم عزيزي القارئ ما يدور برأسك من أسئلة، لماذا نساء المغرب العربي دون مصر؟

الحق إن المصرية تتمتع بحرصٍ شديدٍ في هذا الأمر، ولا تسلم نفسها بسهولة لتلك الوعود الواهية، وهذا لا يمنع وقوع بعضهن في تلك القصص، لكن مع المصريين أنفسهم.

لماذا كل من ذكرتهم من النصابين الرجال مصريين؟ تلك هي القصص التي عشتها بنفسي، والمؤكد أنّ هناك قصصا أخرى لرجال عرب آخرين سمعتُ عنها، لكن لم أعايشها حتى أكتبها بشكل دقيق.

هناك أمر آخر يجب التنبيه عليه هو أنَّ هناك العديد من الزيجات الناجحة عبر الإنترنت، لكنها قليلة ومعدودة، وبعضها قد أصابها الفشل بعد ذلك، لكن أصل المشكلة يكمن في أنّ كلا من الطرفين يعتقد أنه سيجد عند الآخر ما يفتقده، فالرجل يبحث عن الأموال والهجرة إلى أوربا، وهو يعتقد أن مثل هذه الزيجات ستمكنه من هذا الأمر.

أمّا المرأة فتبحث عن الاستقرار والحياة الأسرية الكريمة، لكن الرجل يعاني البطالة والفقر، ولا يتمكن من تحقيق هذا الهدف، إنها مشكلة بالفعل، وقصص تدور كل يوم وليلة، ولا يتعلم أحدٌ من الدرس، وسبحان الله هادي العباد.

أنا والأستاذة هيام النصّابة

لا شك أن الإنسان عبر شبكة الإنترنت قد تصادفه من الشخصيات والسلوكيات ما لم يتخيل يوماً أنْ يجدها على أرض الواقع، لكن هذا أمر طبيعي، لأننا خلف جهاز الحاسوب نبوح بأشياء ونغفل البعض الآخر، ومن تلك الشخصيات التي أتوقف عندها كثيراً شخصية هيام، تلك المرأة التي عرفتها وقد لفت انتباهي إليها صوتها العالي، وضحكتها الرنانة، ودلعها الزائد عن الحد، كل هذا كان من الطبيعي أن يثير فضولي، وبالفعل استطعتُ الحصول على بريدها الإكتروني والانفراد بها، ودار بيننا حوارٌ طويلٌ تكمن خلاصته في أنها كانت من محافظة دمياط، وتقع بمدينة على مشارف محافظة الدقهلية، وعرفتُ من خلالها أنها تعمل مدرسة موسيقى، وأنها مطلقة ولديها ابنة واحدة.

وكانت هيام تبلغ من العمر 42 سنة، وقد أعجبتنى شخصيتها كثيراً في بداية الأمر، فقررتُ أن أصطحبها إلى رومي الخاص على سكاي بي، وبما أنّ الروم يشمل العديد والعديد من الشخصيات والعقليات والتوجهات المختلفة، فكنت أراقب سلوك هيام من خلال تفاعلها مع هؤلاء الأشخاص، لكن أبرز الأشياء التي لاحظتها هو ذلك الحديث المتكرر عن بيتها وما فيه من شتى أنواع الطعام والتحف والأنتيكات وكأنني أمام برنسيسة من أحفاد محمد علي، وكان من بين الأشخاص الذين يتواجدون معنا بالروم أكثر من شخصية كانت تقيم بخارج مصر، وقد لاحظت على هيام حرصها الشديد على التعرف عليهم، ومحاولة الانفراد بهم بشكل خاص، حتى إذا جاء يوم من الأيام وكنا في شهر رمضان المبارك، وكنت جالسا مع صديقي طارق الذي كان يعمل مهندساً، وكان من أبرز الشخصيات التي تتصف بالمنظرة بسبب وضعه المادي والأسري، فإذا بطارق يقول لي أدخلْ هيام معنا في المكالمة، لأنها تريد أن تتحدث معنا، وبالفعل أدخلت هيام وقد بدا عليها الحزن الذي يصل إلى حد البكاء، فطبيعي كان أول سؤال يصدر منا ما السبب الذي جعلك هكذا يا هيام؟ فقالت على الفور: اشتريت ملابس وأشياء لكي أقوم بتوزيعها على الأيتام كما هي عادتي في كل سنة، ثم قمت بوضع هذه الأشياء في توكتوك وتركته، ودخلتُ أحد المحلات كي أشتري شيئا آخر، وعندما خرجت لم أجد التوكتوك، فظللتُ أبكي، ولا أدري الآن ماذا أفعل؟ والجميع ينتظر مني تلك العادة بصفة سنوية، وليس معي من المال ما يكفي لشرائها مرة أخرى.

وأثناء مكالمتها دخل أحمد صديقنا، وكان يعمل بالكويت، وقد سمع القصة من بدايتها حتى نهايتها، ويبدو أنه قد حدث حوارٌ خاصٌ بين أحمد وهيام عن طريق الكتابة، وعلى إثره خرج الاثنان من المكالمة دون أن نشعر، وبعد مرور أسبوعين تقريباً، وجدنا أحمد في غاية الضيق والغضب، فلما سألتُه عن السبب تردد كثيراً قبل أن يقول الآتي: هل تتذكر المكالمة التي كنتَ فيها وطارق وهيام والتي حكت فيها كيف

سرقت؟ فقلت: نعم، فقال: لقد كتبت إليها سراً، وطلبتُ منها أن نخرج، ثم عرضتُ عليها أنْ أرسل إليها مبلغا من المال كي تشترى ملابس الأيتام مرة أخري، ففرحت هيام وبالفعل أرسلتُ المال عن طريقِ صديقٍ لي، وبعد مرور يومين وجدت هيام تتصل بي، وتقول: أحمد أنا في حالة لا يعلمها إلا الله، ولا يوجد في جيبى سوى خمسة جنيهات، وابنتي تحتاج إلى مصاريف كثيرة قبل العيد، فأرسلتُ إليها على الفورمبلغا آخر، وظل أحمد يحكي ويحكي حتى اكتشفتُ منه أنها قد أخذت منة مبلغًا كبيرًا.

لكن يبدو أنّ صديقي أحمد كان في غاية الذكاء؛ حيث لاحظ على هيام ملابسها الجديدة، والمكياج العالي الذي لا يدل على أنّ هذه امرأة في حاجة إلى المال، فقررعدم إرسال أى شئ إليها بعد ذلك، وفي هذا الوقت تعرفتُ على هالة، وكانت سيدة متزوجة وعندها ثلاثة أولاد، وعلى الفور أقامتْ صداقة حميمة مع هيام، وكانت هالة تمتاز بأنها لا تداري عني شيئا مهما كان، لكن بالطبع قررتُ أنا وأصدقائى أنْ نقاطع هيام إلى الأبد، لكنها ظلت على علاقة بهالة حتى جاء يوم قالت هالة: محمود أريد أن أقول لك سرا، فقلتُ تفضلى، فقالت: غداً أنا وزوجي ومعنا رجل آخر معزومان عند هيام، فقلتُ لها وما المناسبة؟ فقالت: هذا الرجل يريد أنْ يتقدم إلى هيام بعد أن رأى صورتها، وهو أرمل وعنده ثلاثة أولاد ومناسب جداً لها، فقلتُ: ربنا يتمم بخير دون أن أعقب بكلمة واحدة.

وفي اليوم التالى وبعد أن عادتْ هالة وزوجها والرجل من عند هيام اتصلتْ بي هالة على الفور ويبدو أنها لم تحتمل الصبر حتى الغد، فسألتها: ما بكِ؟ وماذا فعلتم عند هيام؟ فقالتْ: آه يا محمود لو تعرف، عندما دخلنا شقتها وجدناها في غاية البساطة وليس كما تدَّعي، وبعد أنْ تناولنا وجبة الغداء بدأ الكلام في الموضوع الذي ذهبنا من أجله، فقالت هيام: أنا موافقة لكن بثلاثة شروط، فقالوا: وما هي؟ قالت: أن تسدد ديوني والتي تبلغ 34 ألف جنيها، أمَّا الثاني: فهو أن يكون لابنتي غرفة خاصة بها ومجهزة بجهاز كمبيوتر وإنترنت، أمَّا الثالث: فهو أن تكتب لي نصف ممتلكاتك لأنني لا أضمن ما الذي سيفعله أولادك معي، وبالطبع استغرب الجميع من شروط هيام فقاموا على الفور.

وحينما نزلوا إلى الشارع يبدو أن هالة قد أخذها الفضول لتسأل عن هيام من خلال جيرانها، فوجدتْ محلا لبيع العصائر، وبعد أن شربتْ هي ومن معها، سألتْ صاحب المحل: هل تعرف هيام؟ قال: نعم، فقالت: ما عملها؟ وهنا كانت الصاعقة، إذ قال أنّ هيام تعمل عاملة بإحدى المدارس، فقالتْ هالة: يعنى ليست مدرسة موسيقى؟ فضحك الرجل، وقال: بالطبع لا، ثم سألته هالة عن زوجها الأول، فقال إنه كان يعمل بالجيش، ثم أصابه لغم فبُتِرَتْ قدماه، وعلى الفور طلبتْ منه هيام الطلاق، وأخذتْ ابنتها.

خرجتْ هالة من عند الرجل وهي في حالة ذهول غير طبيعي، وقررتْ أنْ تقطع علاقتها بهيام بشكل نهائي.

ومر عامٌ ونصف تقريباً دون أنْ أعلم شيئا عن هيام، حتى كنتُ في إحدى الرومات فسمعتُ نبرة صوتِها المميزة، فقلتُ لها: أنتِ هيام؟ فقالتْ: نعم، فسألتُها عن حالها، فقالتْ: إنها تزوجتْ دكتور في كلية الهندسة، وهي تسكن حاليا في المهندسين بالقاهرة، وبالطبع ظللتُ أضحك كثيراً وكثيراً؛ لأنني كنتُ على يقينٍ من كذبها.

وفي أحد الأيام كنت ذاهباً إلى كليتي بدمياط الجديدة، وكانت المواصلات تقتضي أنْ أنزل في مدينة هيام كي أركب مواصلة أخرى، وعندما نزلتُ تذكرتُ على الفور كلام هالة من أنّ بيت هيام يقع على جانبي محطة السيارات بمدينتها، وهنا قررتُ أنْ أتناول العصير في أحد المحلات التي كانت أمامي، وكان لابد من حوار بيني وبين صاحب المحل، وكنت أقصد من وراء الحوار في النهاية أنْ أسأله بالطبع عن هيام، وبالفعل كان الرجل على معرفة بهيام لكن وجّه لي سؤالا: لماذا تسأل عنها؟ فقلتُ له: كان لي صديقٌ يريد أنْ يتقدّم إليها، فضحك الرجل كثيرًا، فقلتُ له: ما الذي يضحكك؟ فقال: هيام في السجن يا أستاذ، بعد أن عجزتْ عن تسديدِ ديونها، والحق أنني قد صدمتُ كثيرًا؛ لكن في النهاية صدق المثل القائل: (امشى عدل يحتار عدوك فيك).

الراقصة والسادة المشايخ

العم عليّ إنسان جميل، يمتلك قدراتٍ خاصةٍ على تقمص أي شخصية مهما كانت،

فكنا ثنائيا متكاملا عبر محادثتنا في غرف الدردشة التي نمتلكها، ولم يكن يعجبني أنا والعم عليّ بعض الأمور خصوصاً السلوكيات المتناقضة الصادرة من بعض الأشخاص وخاصة رجال الدين.

وكان معنا أكثر من شيخٍ يأتي على الملأ متحدثاً بقال الله وقال رسول الله لكن في الخفاء يأتي بأشياء عكسٍ ذلك مع بعض النساء، وقد اشتكى منهم البعض.

فاتفقنا أنا والعم عليّ على كشف هؤلاء المشايخ أمام الناس، لكن بأي طريقة سيتم كشفهم؟ وفجأة خطرت ببالي فكرة أنْ أضع عنواناً للدردشة هو: الليلة سيكون هناك لقاء مع إحدى الراقصات التي تريد أنْ تتوب إلى الله لكن بشرط، هكذا كان العنوان.

وبالطبع بمجرد وضع اسم راقصة على عنوان الدردشة، وجدنا الجميع قد اشترك فيها ليلاً، فكان عدد المتواجدين بالدردشة حوالي خمسة وعشرين شخصا ومن بينهم السادة المشايخ المستهدفين.

لكن مَن التي ستقوم بدور الراقصة، إنها خفيفة الظل صديقتنا مها، التي تتميز بتلقائيتها الشديدة في الكلام وفي التعامل مع الآخرين.

اتفقنا معها على الدور الذي ستقوم به، أمّا العم عليّ فقد قام بدور المحاور أو المذيع الذي سيجري الحوار مع الأخت الراقصة، وبعد انتهاء الحوار سيكون من حق أعضاء الدردشة توجيه الأسئلة لها، وأمَّا دوري فهو المنظم لهذا اللقاء، وهنا بدأ العم عليّ في طرح الأسئلة:

السؤال الأول: السن والحالة الاجتماعية، فقالت مها: إنها قد جمعتْ من الرقص الكثير والكثير، لكنها أخيرًا أرادتْ أنْ تتوب إلى الله بشرطٍ أنْ تتزوج.

وهنا عرض الجميع الزواج منها بما في ذلك السادة المشايخ، وهنا قالت مها: الذي يريد أنْ يتزوجني يضيف إيميلي لديه، وبالطبع الذي قام بفتح هذا الإيميل أنا وليس مها، وما في ذلك من كتابات أو حوارات مع هؤلاء الأعضاء.

وبالفعل أخذ السادة المشايخ يكتبون لها كلاما في منتهى القبح، مثل: أريد أنْ تفتحي الكاميرا، وأرى رقصَكِ ثم أتزوجك بعد ذلك، وآخر يقول: أريد منكِ مقابلةً في الحقيقة قبل الزواج.

هذا الكلام كانوا يعتقدون أنه يصل إلى مها، لكن الحقيقة أنه كان يصل لي، وظللنا في حوار مع مها لمدة أربع ساعات، وأنا والعم علي في حالة من الضحك

الهيستري، وأمّا مها فكانت تتميز بهدوء أعصاب من النوع العجيب، الأمر الذي جعل لكلامهما مزيدًا من الإقناع والصدق.

وفي نهاية البرنامج تصارع الجميع على طلب الزواج من مها؟ ومنهم السادة المشايخ الذي ظلّ كل واحد منهم يتغنى بأخلاقه ومؤهلاته، حتى جاءت اللحظة الحاسمة عندما كشفت عن رسائلهم على الخاص، وكيف طلبوا من مها أشياء قبيحة تتنافى مع كلامهم، ومن يومها لم نرَ هؤلاء المشايخ مرةً أخرى بعد فضحهم أمام الجميع، وبالطبع كان يستحيل زواجهم من مها، لأنّ مها ببساطة متزوجة بالفعل.

عزيزي القارئ، أعلم أنك لن توافق على ما فعلنا، وأنا أتفق معك، فأصعب شيء في الحياة فضيحة شخص على الملأ مهما ساء سلوكه، فالنصيحة إنْ لم تنفع صاحبها، فالتحذير في نطاق محدود هو الحل الأمثل، وإن كُتب لي لقاء هؤلاء المشايخ فأرجو منهم مسامحتي.

فادية وانفصام الشخصية

فادية سيدة تتجاوز الخمسين من عمرها، لكنها سيدة مرحة تشعر فيها بنبض الشباب وحيويته، فالبسمة لا تفارقها، والدعابة لا تتركها، تعرفتُ عليها في أحد الأماكن وتكونتْ صداقة متينة بيننا، وهي من سكان القاهرة، زوجة رجل أعمال، وأُم لابنتين.

في تلك الفترة كان زوجها يُعالج بألمانيا، وكانت دائما تحكي لي مغامراتها في سفرياتها العديدة التي شملت أغلب قارات العالم.

كانت لها صديقة تقيم بالمنصورة، وعندما جاءت لزيارتها أتتْ إلى بيتي، وتناولنا الغداء معاً وأصبحنا كأسرة واحدة.

وكانت تمتلك شقة في الساحل الشمالي، تقضي فيها أغلب فترات الصيف، وكانت لي صديقه أعرفها عبر مواقع التواصل الاجتماعي تسكن قريبة من هذا المكان، فلما تجمعنا معًا تعرَّف الاثنان على بعضهما، وقررت فادية أن تعزم تلك الصديقة في بيتها.

وبالفعل ذهبت هذه الصديقة إليها، وظلت معها وقتاً طويلاً ثم عادت إلى بيتها، وقد التزمتْ الصمت، فقلت لها: ماذا فعلتِ؟ فقالتْ: لا شيء، هل أعجبتكِ فادية وشخصيتها؟ فتمتمتْ ببعض الكلمات التي تنم عن عدم راحتها، زاد فضولي خصوصاً أنّ فادية قد أصبحت صديقة مقربة، وجاءتْ إلى بيتي، ظللتُ ألحُّ على صديقتي حتى صارحتني بما حدث.

تقول صديقتي: انتظرتني فادية بسيارتها البسيطة في مكان ما، ثم توقفتْ في منتصف الشارع، وقالت لي: أرجوكِ لا تتحدثي مع محمود بشأن ما ستجديه في شقتي، فزوجي يعالج بالبيت وليس في ألمانيا.

وذهبتْ معها فوجدت زوجها يجلس في غرفة بمفرده لا يتكلم ولا يتحرك من مكانه، تعجبتْ صديقتي من هذا المنظر، وخرجتْ من عندها في حالة من الصدمة.

بالطبع وعدتُ صديقتي ألا أتحدث مع فادية في هذا الأمر، لكن العجيب أن فادية اتصلتْ بي، وقالتْ: إنّ صديقتكَ هذه ليست على قدر من الجمال، وأنّ صوتها الجميل لا يعكس وجهها أو خلقتها، لم ألتفتْ إلى كلام فادية، والتزمتُ الصمت حتى أخبرتني فادية أنها ذاهبة إلى السوق لشراء بعض الأشياء.

أغلقتُ معها الاتصال وما هي إلا دقائق قليلة، ووجدتُ اتصالاً آخر من فادية، لكن المفاجأة أنها لم تكن فادية إنه زوجها الذي بمجرد أنْ تكلم شعرتُ بجسمي ينتفض وقلبي يرتعد، فقال الرجل: أستاذ محمود أعلم أنّ فادية قد ذهبتْ إليك في البيت،

وأعلم انها تعزك معزة خاصة، وأنا أيضا أحترمك احتراماً شديداً، لكن حان الوقت أنْ تعلم الحقيقة.

فادية زوجتي مصابة بمرض انفصام في الشخصية، الأمر الذي يجعلها تكذب كثيراً، فلستُ برجل أعمال، ولم أعالج في ألمانيا، وليستْ اسمها فادية، ولم تخرج من مصر إلى أي بلد آخر.

أنا مصاب بمرض خطير، وهي تهملني في البيت، لا تناولني الدواء ولا تهتم باحتياجاتي الضرورية، ثم بكى الرجل وهنا شعرتُ بالانكسار والخجل منه، وهنا كان لابد من وقفة مع فادية.

عندما رجعتْ فادية رويت لها ما حدث بالتفصيل، وظللتُ أعنفها وكنتُ منفعلاً، أمَّا هي فظلتْ تصرخ وتتهم زوجها بالكذب والجنون وأنه يكرهها.

وهنا قررتُ على الفور إنهاء تلك الصداقة التي ستجلب لي وخز الضمير، وصداع الرأس.

من أجل ذلك لم أستسلم لأي امرأة

في يوم من الأيام كنت أتحدث مع صديقي الذي ذكرته سابقا، وهو شريف القبطي، لا أقول إنني أحبه، بل أعشقه وأعشق الجلوس والحديث معه عبر الإنترنت، وكان يقيم بإحدى الدول الأوربية.

كان على درجة عالية من الثقافة، وخفة الدم، ويتمتع ببساطة وروح مصرية جميلة مع شيء من التعصب والميول النسائية.

كنا نتحدث كل يوم عبر برنامج سكاي بي، فهو يعمل بروفسير في القانون وله أعمال حرة، وكان حديثنا في الغالب يدور حول السياسة، أو ذكرياته وهو صغير، أو يروي لي مشكلة الأقباط في مصر من وجهة نظره.

كنت بالطبع أخالفه في الكثير من الآراء، لكن يظل الود والاحترام قائما بيننا.

وفي يوم من الأيام استمعت إلى اتصال جاء له عبر البرنامج الذي كنا نتحدث من خلاله، فقلت له: لو تحب أن أتركك كي ترد على الاتصال وتكون علي راحتك، فقال لي: لا، إنها امرأة نصابة من بلد عربي كل يوم تتصل بي وتفتح الكاميرا، وتحاول أن تغريني لكي تحصل على بعض الأموال، فقلت له: هل هذا معقول؟ فقال: نعم يا صديقي وما أكثرهن، فأعطاني إيميلها لأتأكد بنفسي.

وبالطبع بمجرد إضافتي لتلك المرأة اتصلت بي، فوجدتها هادئة الطباع، رائعة الصوت، يبدو عليها الوقار والاحترام، وهنا أخذت أتشكك في كلام صديقي هذا.

كان أول سؤال توجهه لي ما دراستك؟ فقلت لها: أنا خريج الأزهر، متخصص في الأدب الأندلسي، فقالت: هل تحفظ القرآن الكريم؟ فقلت لها: أحفظه لكن يحتاج مني دائما إلى مراجعة.

فقالت لي: أنا معلمة أقيم ببلجيكا، أقوم بتحفيظ الأطفال الصغار القرآن، وظلت تتلو على مسامعي الآيات بصوتٍ جميلٍ، وترتيلٍ بديعٍ كأني أستمع لشيخ مدرب على تلاوة القرآن الكريم.

هنا تأكدت أنّ صديقي هذا يكذب إلى الدرجة التي جعلتني أنفعل عليه، وأتهمه بالحقد والكراهية، فقلت له: كيف تتهم سيدة تحفظ القرآن بهذا الاتهام؟ فظلّ يضحك، وقال: لا تنجرف بسرعة خلف أحاديث النساء عبر الإنترنت، فقلت له: أنا غيرُ مصدقٍ لكلامك عن تلك المرأة، فقال: سأثبت لك صحة كلامي، فقلت له: كيف؟ قال: ارجع، واتصل عليها، وبعد ذلك سأقوم أنا بالاتصال عليها، وعندما ترد على مكالمتي سأقوم بالاتصال عليك من برنامج آخر، وأفتح خطوط البرنامجين حتى تسمع الحوار الذي سيدور بيننا.

بيني وبينكم تملكني الفضول، وكانت عندي رغبة شديدة لمعرفة نهاية ونتيجة هذا الحوار، لكن كنت على يقين أن صديقي هذا كاذب لا محاله.

بالفعل اتصلتُ على المرأة وفي أثناء حديثي معها سمعتُ اتصال صديقي عليها، وهنا قالت لي: ممكن أستأذنك فإن أختي تتصل بي، وهنا أخذ الذهول يتملكني، وعلى الفور اتصل بي صديقي من برنامج آخر، فكانت الصدمة التي أخرست جميع حواسي.

سمعتُ هذه المرأة وهي تتسول لصديقي وتطلب منه الأموال، وتعرض عليه أشياء تفعلها عبر الكاميرا التي كانت تفتحها له.

هذا الصوت الذي أسمعني الآيات، وكان يتصف بالسكينة والوقار، تحوّل إلى صوتٍ آخر يتصف بالميوعة الفجة بالرغم من أنّ الصوت هو هو.

زادتْ صدمتي عندما تبين لي أن هذه المرأة تعرف ديانة صديقي هذا، وعندما انتهي هذا الحوار، قال لي صديقي: يا محمود لا تنجرف خلف أصوات وأحاديث النساء ودموعهن، نحن هنا في بلاد الغرب نرى منهن أشكالا وأفعالا، فالمالُ قد يجبرهن على صنع أي شيء، والأمر ليس مرتبط بدين ولا بجنسية.

وهكذا بعض النساء في كل مكان، فلا تستسلم لِما يدّعونه من المسكنة والاحتياج، ولا ترضخ لواحدة منهن إلا أن تكون على يقين ومعرفة بكل شيء عنها.

ثم روى لي موقفا عجيبا، حين اصطحبه أحد أصدقائه لبيت من بيوت البغاء، وكانت تديره إحدى النساء من بلاد شمال أفريقيا، وكان هذا قبيل الفجر في شهر رمضان المعظم، يقول صديقي: عندما أتى الدور عليَّ لممارسة الرذيلة قالت لي: حاول أن تنتهي بسرعة قبل أذان الفجر حتى أبدأ الصيام، يقول: بعد أن سمعت هذا تركتها وخرجت مباشرة دون أن أفعل شيئا، ولعلّ هذا من المفارقات العجيبة لهؤلاء النساء في تلك البلاد.

بيني وبينكم كانت نصيحة صديقي شريف نصيحة غالية، تعلمتها وجعلتني أقف صلباً في الكثير من الأحيان أمام الكثير من النساء.

فنصيحتي لك عزيزي القارئ لا تنجرف بسرعة خلف بعض النساء عبر الإنترنت، فقد تخسر الكثير سواء مال أو أسرة أو وقت تضيعه دون فائدة.

أعلم أن البعض قد يعترض على السطور السابقة، لكن يشهد الله أنه يخلو من أية مبالغة أو سرد خارج نطاق القصة.

شخصية الأم فعلت فيه هكذا

لا تتعجب عندما تفاجئك الحياة بأشخاص ذوي سمات نادرة وطبيعة، خاصة كهذا الذي عرفته في يوم من الأيام، شخص تجاوز عمره الخمسينات، ذو شهادة عُليا، له زوجة هادئة يشهد لها الجميع بحُسن الأخلاق وحُسن المظهر، له أولاد ناجحون في حياتهم.

تخيل أسرة بهذا الشكل المفترض أن تكون السعادة عنوانها، وراحة البال سر نجاحها، لكن مع الأسف الأمر ليس هكذا فما السر إذاً؟

ربُّ هذه الأسرة كان يحب أمَّه حبًا شديداً، وكانت ذات شخصية قوية على أبيه، تسيطر عليه، وتتحكم في أمور البيت على كافة النواحي، تمنى هذا الشخص أن تصبح له زوجة بنفس السمات ونفس الطبيعة (السيطرة، التحكم، إدارة البيت) لكن لم تكن زوجته بتلك الشخصية التي تشبه شخصية أمه.

حاول هذا الشخص مراراً وتكراراً البحث عن هذه الشخصية، ولم يعبأ بزوجته ولا أولاده الذين أصبحوا في سن كبير، فذهب يبحث عنها عبر مواقع التواصل الاجتماعي، وكانت الظروف متاحة له حيث يقيم بمفرده بإحدى دول الخليج، وكذلك طبيعة العمل تجلب له المال الكثير، لكن السؤال ما الذي سيسفر عنه هذا البحث.

ظللتُ أنا ومن معي ممن يعرفون هذا الرجل نراقب تصرفاته وحكاياته التي لم تتوقف، لكن عايشنا جميعاً قصته الأشهر التي كانت حديث الجميع.

تعرف هذا الشخص على امرأة تتجاوز الخمسين مثل سنه تقريباً، كنا نعرفها جميعاً، تبدو عليها قوة الشخصية والصوت العالي، كانت منفصلة وعندها أربعة أولاد، يبدو أن هذا الرجل قد وجد شخصية أمه فيها، فظل يطاردها عبر مواقع التواصل الاجتماعي حتى تجاوبت معه.

المدهش في المسألة أنها على حد قولها سمراء، ليست بالجميلة، لا تشعر معها بأي جاذبية أو أنوثة، وقع الرجل في براثن حبها حتى بدأت معه رحلة الاستغلال المادي.

أرسل لها الرجل الهاتف تلو الآخر، والحاسوب تلو الآخر، والهدية بعد الهدية، وأموالا خلف أموال، وظل الأمر هكذا على أن الطرفين قد اتفقا على الزواج بمجرد نزوله إلى مصر، وأننا جميعاً معزومون على هذا العُرس الذي سيكون كبيراً.

لم يبالِ الرجل بزوجته ولا بأولاده، وظل يرسل الهدايا والأموال حتى اقترب موعد نزوله، وهنا طلبت منه المرأة نوعيات من الملابس لها ولأبنائها، وبالفعل حدد الرجل يوم عودته، واتفقا أنها ستكون في انتظاره في ميناء نويبع.

استعد الرجل تمام الاستعداد للعُرس الكبير، وتحدث مع أصدقائه بالخليج والقاهرة، لكن كانت المشكلة أنه لم يعثر على الملابس التي طلبتها تلك المرأة، وهنا قال لها: سأشتريها وأنا قادم في الطريق؛ لأن عودته ستكون عن طريق البر، وبالفعل وصل الرجل إلى نويبع، فكانت الصدمة في انتظاره.

الصدمة أن المرأة لم تأتِ لاستقباله بل كانت الزوجة، وهنا تعجب كل العجب، ووقف مذهولا معقود اللسان، فهو لم يخبر زوجته بموعد رجوعه، وكذلك تساءل من الذي أخبر زوجته؟

وجد الدموع تنزل من عينيها قائلة له: هل هذا جزائي بعد تلك العِشرة الطويلة، ثم سردت له الزوجة تفاصيل هذا الاتصال الهاتفي الذي جاء لها من تلك المرأة وهي تصرخ في وجهها، أبعدي زوجك عني أنا لا أطيقه، ولا أريده، هو يلح عليَّ أن أنتظره في ميناء نويبع وأنا لا أريده.

بالطبع صعقت الزوجة من هذا الكلام، وذهبتْ هي لتكن في انتظاره، حاول الرجل الاتصال بالمرأة والذهاب إلى بيتها لكنه فشل في ذلك.

وبعد أسابيع قليلة رأيناه يخرج علينا عبر مواقع التواصل الاجتماعي صارخاً يريد أمواله وثمن تلك الأجهزة التي أرسلها إليها، واتهمها بالنصب لكن المرأة بالطبع رفضت رفضاً شديداً.

لكن تخيلوا ماذا حدث من الرجل بعد ذلك؟ ما حدث أن الرجل ظل يلح على المرأة أن تعود للحديث معه، ومجالسته فهو قد تناسى الزواج منها، ولكن يريد أن يستمتع بالحديث معها، وهنا وافقت المرأة ولكن مقابل راتب شهري كبير، فوافق الرجل وبالطبع كان الحوار محل اشمئزاز الجميع.

أعلم عزيزي القارئ أنك تقول: ما هذا الرجل منتقص الرجولة، إنه بالفعل هكذا، لكنها النفسية المريضة التي انعكست على شخصيته، فهو يريد شخصية مثل أمه، تفعل معه مثلما كان يريد الفنان حسن عابدين في فيلم ضرب الهوى، حين كان يصرخ أنا عايز ست تهزقني تهزقني.

الموقف الذي أعطاني درساً لن أنساه

ما أجمل أنْ نتعلم من مواقف الحياة حتى لو كانت بسيطة أو صغيرة، لكنها على المدى البعيد تجعلك تتفادى الكثير من المشكلات الكبيرة، والحرج أمام الناس.

وأذكر هنا هذا الموقف الذي كان من عشر سنوات تقريباً، وكنت مندفعاً في الكلام، يأخذني الحماس عند الحوار أو سماع أمر ما، كنا مجتمعين في أحد برامج التواصل الاجتماعي، وكنا مجموعة من الشخصيات من شتى البلاد العربية، لكن كان الجميع يضع نُصب عينيه على تلك المرأة ذات الصوت الجميل والأسلوب الراقي الهادئ، الذي ينم عن شخصية ذات ذوقٍ عالٍ رفيعٍ.

كانت تلك الشخصية تمتاز بقول الشعر وإلقائه على أجمل ما يكون، وكان الجميع معها في حالة من الاسترخاء والمتعة الذهنية، كانت تتلقى عبارات الإشادة من الجميع، أمَّا أنا فكنت جديدًا عليهم غير مستوعب لما يحدث.

ثم فجأة قالت تلك المرأة سأسمعكم أروع قصائدي وهي بعنوان: دعوة حب وكان مطلعها (يا من رمى سهم الهوى) ظلت المرأة تُلقي القصيدة بأسلوب جذاب، وقد ساعدها على ذلك روعة القصيدة، وتسلسل أبياتها، وعذوبة كلماتها.

وهنا انتفضت مثل الأسد قائلاً لها: يا سيدتي هل تلك القصيدة من تأليفك؟ فقالت بكل ثقة: نعم، فقلت لها: أنتِ تكذبين، هذه القصيدة للشاعر الإماراتي مانع سعيد العُتيبة، وقد غنتها الفنانة ميادة الحناوي ولحنها بليغ حمدي، ثم قمت بتشغيل الأغنية للحضور، وهنا اختفت المرأة.

انقسم الحاضرون بين مؤيدٍ لما فعلتُ وبين معارض، فالمؤيد يقول: إنها كاذبة بالفعل، ولابد أن تنسب القصيدة لصاحبها وأن ما فعلتُه كان واجباً، فمهما كانت المرأة وطبيعتها فلا يجوز لها السرقة.

أمَّا الفريق المعارض فكان يرى أني أحرجتها، وكان من الأفضل أن أكتب لها عبر الخاص، وأوضح لها أنّ ما فعلته لا يصح، وألا تعود إلى هذا مرة أخرى.

وبين هذا وذاك حدث نقاشٌ طويلٌ أخذتُ أشعر فيه ببعض الندم على إحراجي لتلك المرأة، خصوصاً بعد أنْ وصلتني رسالة منها تقول فيها: ليس من الذوق أن تصنع معي هكذا، أنا امرأةٌ مرهفةُ المشاعر، وأحظى باحترام الجميع، لكنك أظهرتني بصورة سيئة جداً.

أخذتُ أعتذر لها على ما فعلتُ، حتى وإن كنتُ مُحقًا فيما قلتُه، ثم أصبحنا أصدقاء بعد ذلك.

عزيزي القارئ، لا تندفع بقوة في إحراج الغير سواء رجل أو امرأة، وإن كانت من ملاحظة أو نصيحة فلتكن بينك وبين الطرف الآخر، حتى لا يستغل البعض الفرصة فيعايره بذلك على المدى الطويل، ويظل هذا الشخص يحمل لك كراهيةً شديدةً.

كان درسًا قاسيًا تعلمتُ منه ألَّا أحرج أحدًا بعد ذلك على الملأ، خاصة إذا كانت من الجنس اللطيف.

صديقي والكمثرى

في إحدى جلساتنا اليومية أنا وأصدقائي عبر مواقع التواصل الاجتماعي روى لنا أحدُ الأصدقاء هذا الموقف الذي أحببتُ ذكره لكم.

صديقي هذا تجاوز الخمسين من عمره، ويتمتع برومانسية شديدة، ويود الزواج عبر الإنترنت، وبالفعل تعرف على إحدى الفتيات من مدينة الإسكندرية، وهو من سكان القاهرة.

وبعد أخذ ورد وشد وجذب، اتفق الاثنان على أن يذهب إلى الإسكندرية وتقابله الفتاة في محطة سيدي جابر، ثم تصطحبه إلى بيت أبيها حتى يتقدم لها بشكل رسمي.

قام صديقنا بتعطير نفسه، وارتداء بدلته الزاهية، وصفف شعره، وهندم نفسه، واستعد لهذا اللقاء المهم في حياته.

وصل صديقنا بالفعل إلى محطة سيدي جابر، ونزل منها وأخذ يلتفت يمينا وشمالًا بحثاً عن فتاة الأحلام.

ظل يتأمل في النساء المارين أمامه علّه يجدها، وهنا دق الجوال فوجدها تقول له أين أنت؟ فقال: أنا في المكان الفلاني، فقالت: أنا أمامك أرتدي فستانًا أخضر، فنظر صديقنا وعلى حد قوله: رأيت حباية كمثرى من الحجم الكبير؛ بمعني وجه صغير وجسم ذو حجم كبير، فقررتُ الفرار والعودة إلى القاهرة، لكنها أسرعت إليَّ وقامت بإحراجي، فقلتُ لها: قبل أن نذهب إلى أبيك أودُّ أن أعزمك في إحدى الكافيهات.

وبالفعل ذهبتُ معها، وبعد أن شرب الاثنان كوب العصير، استأذن صديقنا للذهاب إلى الحمام، وقام بمحاسبة الجرسون ثم أسرع من الباب الخلفي وعاد إلى القاهرة، وقد نُسفتْ معه كل الأحلام التي جاء بها وكانت في جعبته.

بالطبع معظمنا أخذها بسخرية؛ لأنها ببساطة تحدث كل يوم عبر الإنترنت دون أن يتعلم أحد، فالحقيقة المريرة تقول: إن تلك الأجهزة تحمل خلف شاشاتها الكثير من المفاجآت، فلا تغتر بظاهر الكلام، ولا ترسم صورة وهمية لمن تحب أو تعجب به حتى لا تفاجأ بكارثة على أرض الواقع، والكلام هنا موجه للجنسين معًا وليس لجنس واحدٍ.

العم سامي الرجل الاستثنائي

شخصية لن تُمحى من عقلي، فعلى مدى سنواتٍ طويلةٍ قابلتُ كثيرًا من الأشخاص عبر الإنترنت، لكن القليل منهم من ترك في نفسي وذاكرتي أثرًا ملموسًا، يظل عالقا بذهني العم سامي، رجلٌ مصريٌّ ذهب في بعثة طبية إلى لبنان، ويبدو أنّها قد سيطرت على قلبه، الجو البديع، الخضرة الرائعة، الوجه الحسن، فرص العمل، كلها أسباب جعلتْ الرجل يقرر البقاء في لبنان، وعدم العودة إلى مصر.

أراد الرجل أنْ تصبح إقامته شرعية، فكان لابد أنْ يتزوج لبنانية، فقرر أنْ يرتبط بأول امرأة يميل إليها قلبه، وبعد مجموعة من القصص الفاشلة وجد ما يبحث عنه مع امرأة اجتمعتْ فيها شتى الصفات التي ينشدها، ولكن المرأة كانت من الطائفة الشيعية، والعم سامي سُني أصيل، وهنا فرض أبو العروس عليه شرطاً حتى يتم الزواج بأنْ يتحول من المذهب السني إلى المذهب الشيعي على الأقل على الورق، وافق العم سامي، وتم الزواج، وعاش بجنوب لبنان، وبدأت رحلة المفارقات العجيبة.

أحب العم سامي المكان، ووجد العمل المناسب، واستقرت حياته الشخصية، لكن السياسة فعلت أفاعيلها باللبنانيين ما بين طوائف تناحر بعضها، وبين المقاومة الفلسطينية التي اتخذت من لبنان منطلقا لها، وبين المسيحيين الموارنة الذين استعانوا بإسرائيل حتى تحقق لهم أهدافهم، حرب أهلية بمعنى الكلمة، انفجار هنا، وقتل هناك، وقذائف تُرمى دون تفريق بين مدني أو عسكري.

عاش العم سامي كل هذه الأحداث، وتكيف معها دون أن يفكر لحظة واحدة في ترك لبنان والعودة إلى مصر، بل على العكس أصبح العم سامي شخصية فعالة في منطقته، لبناني أكثر من اللبنانيين أنفسهم، حتى جاءت اللحظة الفارقة، اجتياح إسرائيل للبنان في عام(1982 م) بعد أن استعان بهم (بشير الجميل)، فتعاون حزب القوات اللبنانية مع الجيش الإسرائيلي فكانت على يديهم مذبحة صبرا وشتيلا.

يروي العم سامي أنّ هذا اليوم كان أشبه بيوم القيامة، كان بالعمل وسمع الصراخ وأصوات السيارات، فهرول حتى يتمكن من إنقاذ عائلته التي تسكن في البيت القريب من المخيمات التي شهدت المذبحة، يقول: رأيت رجالا أجسام بلا رؤوس، وأطفالا بطونهم مفتوحة وأحشاؤهم في الخارج، نساء غارقة في دمائهم.

منظر بشع لا تتحمله العين، لكن كانت المفاجأة بالنسبة لي هو ما قاله عن عدد المصريين الذين قتلوا في تلك المذبحة، العدد كان كثيرا، معظمهم كان من العمال الذين يعملون في تلك المخيمات.

نجا العم سامي وأسرته من هذه المذبحة، ولم يفكر للحظة في ترك لبنان، وظل يمارس حياته رغم تصارع الأحداث على الأرض، استقرت إسرائيل بجنوب لبنان ومعها القوات اللبنانية العميلة بقيادة (سعد حداد) ثم (أنطوان لحد).

كيف سيتعايش الرجل مع هؤلاء في مكان واحد؟ يقول العم سامي تعودنا على أصوات الطائرات الإسرائيلية التي تخترق حاجز الصوت، وتعودنا على القذائف والألغام التي كانت تُزرع هنا وهناك، أصبح هذا هو العادي في حياتنا اليومية، كنا ننتظر الموت في أي لحظة، ورغم هذا كانت تسير الحياة بي بين العمل والبيت وتربية الأبناء.

كنت أرى الدبابات الإسرائيلية كل يوم، وكانت القوات العميلة تقتحم علينا البيوت، وبالرغم من استقرار الأوضاع في باقي مدن لبنان وانتهاء الحرب الأهلية مع بداية التسعينيات إلا إنني لم أفكر في ترك الجنوب وما فيه من قلاقل وتهديد مستمر لحياتنا، ظللنا نقاوم الاحتلال حتى تركَنا وانسحب من الجنوب.

الآن العم سامي يعيش حياته كما بدأها، جد ونشاط وإقبال على الحياة رغم السن المتقدم.

ومن طرائفه التي أضحكتني كثيراً ما رواه لي عن حبه الأول في لبنان، تلك المرأة التي لم يتمكن من الزواج منها بسبب رفض العائلة، انقطعت أخبارها، وأصبح لا يعرف عنها شيئا، ومن أشهر قليلة حاول كتابة اسمها على بحث الفيس بوك ، فوجد أكثر من اسم، فظل يتفحص الصور حتى عثر عليها، وبمجرد أن رأته حدثته صوتيا، وأخبرته أنها تبحث عنه منذ زمن طويل، وعاد الحبيبان إلى سابق عهدهما من حب مفرط، ورومانسية شديدة بالرغم من تجاوزهما السبعين من العمر، لقاءات متوالية، ومشاعر متبادلة، ويدينان بالفضل في هذا كله للفيس بوك.

هذا بعضٌ من كثير عن العم سامي كنت أود قوله، لكنه بالعموم شخصية استثنائية، أحب الحديث معه، يبهرني بخفة ظله، وثقافته الشاملة، وتحليله للأحداث السياسية.

متّعه اللهُ بالصحة والعافية، وأطالَ في عمره.

موقف طريف لصديقي شريف (جنارو) في بأمريكا

في ليلة من الليالي كنت أتحدث مع شريف صديقي عبر الإنترنت، ثم فجأة دخلت عليه زوجته الأمريكية تعلوها الضحكات، ظلتْ تتحدث معه وهو يضحك مثلها، وأنا أستمع إليهما دون أنْ أفهم طبيعة الحوار.

وبعد أن انتهى الاثنان من الحوار، روى لي شريف هذا الموقف، يقول: حدث عطل بجزء من أجزاء غسالة البيت، وهو الجزء الخاص بتنشيف الملابس، ونظراً لارتفاع ثمن هذا الجزء وثمن تصليحه قرر شريف أنْ يتخلص من غسالته ويشتري واحدة جديدة بخمسمائة دولار، قال شريف لزوجته: ضعي الغسالة أمام باب المنزل حتى يحملها عمال الزبالة، وسوف أخرج بعد ساعتين لشراء الجديدة.

بالفعل قامت زوجته بوضع الغسالة أمام الباب، لكن ماذا حدث بعد ذلك؟

الذي حدث هو أن أحد جيران شريف قال لزوجته: هل تعطلت تلك الغسالة؟ فقالت: نعم، فقال: عندي غسالة جديدة أريد التخلص منها؛ لأنني سأغادر منزلي إلى منزل آخر، ولا أريد معي حمولة كبيرة، فتلك الغسالة لكم، وسوف أقوم بتركيبها في بيتكم، وبالفعل جاء وقام بتركيب الغسالة دون أن يتقاضى سنتا واحدا من شريف.

بيني وبينكم انبهرت بما فعله هذا الجار الأمريكي مع شريف، وظللنا نضحك معا حتى قال شريف ساخرًا: سأضع الثلاجة أمام باب المنزل لعلّ أحد الجيران يأتي لنا بثلاجة أحدث، فقلتُ في نفسي: سبحان الله! لو كان الجيران في مصر بهذا الرقي وهذا الترفع عن الأشياء التي لا يحتاجونها.

بالفعل ليس المجتمع الأمريكي بهذا السوء الذي نتخيله، أو الانحدار الأخلاقي الذي نتصوره، إنهم يملكون قيما أخلاقية نادرا ما نجدها عندنا، أو لنقل افتقدناها في السنوات الأخيرة.

لكن ما أضحكني أكثر فأكثر هو أنني عندما قمت بنشر هذا الموضوع عبر الفيس رأيت تعليقًا من صديقتنا (همسات)، هذا التعليق عندما أتذكره أضحك بصوت عالٍ، لقد علقت صديقتي على الموضوع قائلة: اجعل شريفا يضع زوجته أمام الباب لعلّ الجيران يأتون له بامرأة أجمل منها.

ابتلاه الله فلم يعتبر

نعم إنه هذا الرجل الذي أثار عاطفتي وشفقتي وأبكى قلبي عندما سمعت قصته، هذا الرجل كان شاباً صحيح البدن معافى الصحة، لكن شاءت إرادة الله أن يُبتلى بمرض.

إنه المرض الذي لم يصب به إلا سبعون شخصا على مستوى العالم، إنه مرض (بهجت)، وقد سُمي بهذا الاسم لأن مكتشفه هو طبيب تركي يُسمى بهجت.

المرض عبارة عن ضعف في النظر، وضعف في السمع، وضعف في الحركة، وارتعاش في الأطراف، وثقل في النطق، إنها تركيبة مجموعة من الأمراض أصيب بها هذا الشاب.

ولم يكن هناك علاج لهذا المرض إلا في الولايات المتحدة بواسطة طبيب هندي مسلم يُسمَّى يوسف، وقد حصل الرجل على وعد من أحد الصحفيين أنْ ينشر حالته، ويطلب له المعونة والسفر إلى الولايات المتحدة على حساب الدولة، لكن كل هذا كان متوقفا على تقرير الطبيب يوسف ورأيه بعد أن ينظر إلى تقرير الأطباء المصريين.

لكن كيف يصل إلى الطبيب يوسف بالولايات المتحدة؟ وكيف يرسل إليه هذا التقرير من الأطباء المصريين؟.

بعد أن سمعتُ حالته هذه أخذني الحماس بأن أساعده، فتحدثتُ مع أصدقائي بالولايات المتحدة الأمريكية، وبالفعل تبرعتْ صديقتي هناك أنْ تبحث عن الدكتور يوسف، وظلت تبحث حتى اهتدتْ إلى عنوانه وهاتف عيادته، وقامتْ بالتحدث معه فأبدى استعداده لاستقبال تلك الحالة لكن بعد رؤية التقرير.

بالفعل أرسلنا له التقرير وأخبرنا أنّ العلاجَ متاحٌ ومتيسرٌ، وهنا طلب هذا الرجل أنْ يشكر صديقتي هذه، أحببت أنْ أرفع من معنوياته المنهارة، فأتيتُ بصديقتي وظلت تغرس بداخله الأمل، فما كان منه بعد ذلك إلا أنْ توجه إليها بعبارات الغزل والحب والإعجاب.

وهنا انصدمتْ صديقتي صدمة شديدة من رد فعله، فبدلاً من أنْ يشكرها على ما فعلتْ، توجه إليها بعبارات منفرة، جعلتها تقسم ألا تتحدث معه مرة أخرى.

الأغرب من ذلك أنّ هذا الرجل رغم مرضه كان متمرداً على إرادة الله، وكان مصمماً على أنْ يخسر الناس بأفعاله المشينة، وألفاظه البذيئة، حتى أوقعته إحدى النساء في شر أعماله، فسجلتْ له حواراً وكلاماً لا يصدر من أبناء الحواري والأزقة، ثم نشرتْ هذا التسجيل عبر شبكة الإنترنت، فافتضح أمره ونفر منه

الجميع، حتى الدولة التي وعدته أنْ تساعده تخلت عنه بعد أنْ تخلت صديقتي عنه بالولايات المتحدة.

هذا الشخص يعيش الآن وحيداً برفقة مرضه، وقد حاول أكثر من مرة أنْ يكلمني، لكني امتنعتُ عنه حتى لا يصيبني لسانه القذر، الذي أغضب منه جميع الناس.

عزيزي القارئ، عليك أنْ تعلم أنّ الله إذا ابتلاك بشيء فعليك أنْ تتقرب منه أولاً ثم مَن حولك، فربما وضع الله في طريقك مَن يساعدك، ويكشف عنك هذا البلاء، ولا تكن كهذا الشخص الذي ابتعد عن الله فابتعد عنه الناس.

المرأة التي ساقتها الظروف إلى بحر الرذيلة

كما نوهتُ سابقًا في بعض سطور هذا الكتاب في أن الظروف قد تسوق الإنسان إلى ما لا يحب وما لا يرغب، وليس أدل على ذلك من قصة تلك المرأة التي جمعني بها جهاز الحاسوب.

لأول مرة تكلمت مع تلك المرأة، كانت تقول لي دائمًا أنا مشغولة، مشغولة في ماذا بالطبع لا أعلم، وفي يوم من الأيام جلسْنا نتبادل الحوار، وكانت النهايةُ مزيدًا من الاطمئنان والثقة في شخصيتي، بينما لم أعرف عنها شيئًا واحدًا، بل قالت: اترك تلك المعرفة للأيام القادمة.

احترمتُ رغبتها، وذات يوم قامت بالاتصال بي، لكن هذا الاتصال كان مسبوقاً برسالة مضمونها رجاء محمود لا تتكلم بكلمة واحدة ولا تعلق على ما أقوله في الهاتف لمن أتحدث معهم.

فقلتُ لها: لا تخافِ سأسكت حتى تنتهي من الحوار على الهاتف.

لكن ماذا كان الحوار عبر الهاتف؟

كان الحوار عبارة عن ضحكات وكلام مغلف بالإثارة الجنسية، أمَّا نوعية من كان معها على الهاتف، فمعظمهم كان من الشباب الذين تبدو لهجتهم من الخليج والمغرب العربي.

وبالطبع أخذني الفضول عما تفعله تلك المرأة، فكان هذا أول سؤالي لها عقب الانتهاء من تلك المحاورات، قالت لي: أعلم أنك كونتَ عن شخصيتي فكرة سيئة، وأراك محقاً فيها، فأنا امرأة قد أوقعها الفقر والحاجة في بئرٍ عميقٍ لم يعد بإمكاني الخروج منه.

فقلت لها: كيف ذلك؟ فقالت: تزوجت في سن صغيرة من ميكانيكي سيارات، وكان يكسب آلاف الجنيهات بشكل يومي، لكنه كان بخيل في حقي وحق أولادي الثلاثة الذين أنجبتهم منه، مات أبي، وماتت أمي، وسافر أخي دون أن أعلم عنه شيئا، وأصبحتُ لا أتحمل بخل زوجي وضربه المستمر لي وقسوته على أطفاله، وهنا قررت الانفصال.

أصبح شغلي الشاغل بعد ذلك كيف أنفق على هؤلاء المساكين، حتى طلبتْ أسرة كبيرة خادمة فوافقت على الفور، وظللت معها شهوراً حتى حدث ما يلي:

كان لصاحبة هذا البيت أخ دائم الزيارة لها، كان ينظر لي نظرات غريبة وعجيبة، وكنت لا أبالي، ولا ألتفت إليها، حتى جاء يومٌ قالت لي فيه صاحبة المنزل: أريد أنْ تصنعي طعاماً وتذهبي به إلى بيت أخي الكائن في الشارع الفلاني، كنتُ أظن أنّ أخاها متزوجٌ ومعه أسرته، لكن فوجئتُ أنه يقيم بمفرده، وبالطبع حاول الرجل

مراودتي حتى نجح في ذلك، أخفيت هذا الأمر عن شقيقته، لكن لم أعد أتحمل الخدمة، ولا أتحمل إلحاح شقيق صاحبة المنزل، فتركتُها ورجعتُ إلى بيتي.

في تلك الفترة سكنتْ بجواري امرأة كنتُ أراها تذهب صباحاً وتعود في فترة متأخرة من الليل، وبعد أن صرنا أصدقاء سألتُها إلى أين تذهبين؟ فقالت: أعمل في أحد الأماكن عند سيده تتميز بالسخاء الشديد وتعطني أموالاً كثيرة، وبالطبع كان سؤالي ما نوع العمل؟ وهنا ضحكت جارتي ضحكة مطولة وقالت: الترفيه يا أختي.

تقول هذه المرأة ضاقتْ عليَّ الظروف بشكل كبير، وأصبحتُ أستدين من جارتي حتى خضعتُ إليها في الذهاب إلى المكان الذي تذهب إليه.

كان المكان عبارة عن شقة فخمة منصوباً عليها كاميرات من الخارج، وتوجد بالصالة امرأة كبيرة السن تمسك سيجاراً، أجلستني بجانبها، وقالت لي: سألبي لك جميع ما تطلبين أنت وأولادك مقابل أن تسمعي كلامي وتأخذي بنصيحتي.

تقول صديقتي: عرفتُ أنه بيتٌ للبغاء وممارسة الرذيلة، ولم يكن هناك مفر من موافقتي، فالحياة أصبحتْ صعبة، ودروس الأولاد تستنفذ الكثير من أموالي.

تقول: كنتُ أتحصل في اليوم على ألف جنيه من تلك السيدة التي كان زوجها يأتي ليلاً ليأخذ نصيبه ويذهب.

ظللتُ هكذا إلى أنْ اعتلت صحتي وأصبحت مريضة بالكلى، ظهر على جسمي المرض وأصبح وجهي شاحباً، وبالطبع لم أعد أصلح لهذا العمل فطردتني المرأة، ولم أكن أدري ماذا أفعل، فقالت لي جارتي: عندي لك عمل ستقومين به دون أن تتحركي خارج البيت خطوة واحدة.

فقلت لها: وما هو؟ فقالت: هل تشاهدين تلك القنوات التي تعرض أرقاماً تليفونية من أجل الدردشة؟ فقلت لها: نعم، فقالت جارتها: إنها شركة للهاتف هدفها الكسب من المكالمات الدولية، هذه الأرقام أنتِ ستكونين صاحبة رقم منهم، وسوف يُعرض هذا الرقم على شاشة التلفزيون، وسيتصل بك أشخاصٌ من شتى البلاد العربية، وشطارتك هنا في أن تطيلي مدة تلك المكالمات معهم فيما يريدونه من حوار وحديث.

بالطبع فهمتُ طبيعة ذلك العمل، ووافقتُ عليه، وكنتُ أظل من الساعة العاشرة صباحاً إلى العاشرة مساءً أتحدث مع المتصلين العرب الذين بالطبع كان محور حديثهم حول موضوع واحد ومعروف.

تعجبتُ من كلام هذه المرأة وقصتها وأصبح لساني معقوداً عن الكلام، فلم أشأ أنْ أقسو عليها؛ لكن نصحتها ببعض الكلمات الهادئة، وقلتُ لها: إن هذا الطريق نهايته سوداء، سواء في الدنيا أو الآخرة، فكانت إجابتها الهداية من عند الله.

توالت الأيام ولم تزل هذه المرأة تقوم بهذا العمل حتى اشتد عليها المرض، ولم يتمكن ابنها في المرحلة الثانوية من إكمال تعليمه، والكارثة الكبرى أن ابنتها التي تحبها قد أصابها مرض السكر.

غابت تلك المرأة عن الظهور ولم أعد أراها ولا أتحدث معها، وبالطبع هذه النوعية من النساء كنت أخفي عليهن رقم هاتفي، فلم أكن أريد أنْ تمتد علاقتي بهن خارج جهاز الحاسوب.

عزيزي القارئ، يجب أنْ تدرك أنّ الظروف السيئة كافية أنْ تعصف بالإنسان إلى أي اتجاه، فكل شخص فينا يريد الأفضلية والصلاح، لكن صعوبات الحياة لا تمكنه بأنْ يحقق ما يريد، كل هذا بالرغم مِن أني لا أعفي تلك المرأة من مسؤولية شططها وانحرافها وسوء ردود أفعالها في الحياة.

أنا والمرأة والصدمة الكبرى

أعلم أن الكثير سيستغرب هذه القصة، ويرى فيها نوعًا من الخيال أو الاصطناع، لكن يعلم الله أنها قد حدثت وأمام العديد من الأصدقاء، ومنهم من معنا في منتدانا الجميل.

تبدأ القصة حينما تعرفتُ يوماً على سيدة عبر مواقع التواصل الاجتماعي، وكانت لبنانية مقيمة بهولندا، ولم يكن الحوار بيننا في أول الأمر على أحسن حال، فهي دائماً كانت تعاملني بجفاء، كثيرة الأسئلة، سيئة الظن، دائمة الشك، وكانت تقول لي دائماً: أنت أول شخص أكلمه عبر النت بخلاف أهلي وزوجي.

وعندما كنت أسألها عن عمل زوجها لم تكن تعطيني جواباً واحداً، وكانت تبلغ من العمر الأربعين، وكانت من إخواننا الشيعة، تعمل صحفية بإحدى المجلات العربية التي تصدر في (امستردام) العاصمة الهولندية.

وبعد مرور أشهر من التعارف، جاءني فضولٌ عجيبٌ لكي أسمع صوتها؛ لكنها دائماً ما كانت تقابل هذا الطلب بالرفض الشديد، حتى جاء اليوم الذي كنت أتحدث فيه مع صديقي الذي كان يسكن بالمعادي، وكانت من طبيعتي أنا وهو أن نقيم مكالمات جماعية بعيدة عن الأحاديث الفردية أو الجانبية، وأثناء ذلك إذا بتلك السيدة اللبنانية تكتب لي بأنها في غاية الضيق والكآبة، وأنها تريد أنْ تخرج مما هي فيه، وهنا قلتُ لها على الفور: معي مجموعة من الأصدقاء والصديقات المحترمين، ونحن الآن نتكلم في موضوع شيق وجميل فهل تشاركينا الحوار؟ فوافقت السيدة على الفور، وفرحتُ كثيراً خاصة أنني سوف أسمع صوتها لأول مرة.

وبالفعل دخلتْ معنا السيدة، وتبادلنا معها جميعاً الحوار وكنا في غاية السعادة، حتى قطع صديقي الحوار قائلاً: يوجد صديق لي يسكن معي في نفس الحي، ولم أره منذ مدة كبيرة، فهو مقيم بإحدى البلاد الأوربية، وقد رجع إلى مصر في أجازة وأريد أنْ أحضره معنا في المكالمة فأنا لم أره منذ وقت طويل.

فرحبنا جميعاً به، وعندما دخل معنا قمتُ على الفور بتقديم الجميع وعرفتُ كل واحد على الآخر.

وكانت البداية مع تقديم السيدة اللبنانية، وجاء الدور على الضيف فقام بتعريف نفسه تعريفاً شاملاً، وهنا لم أشعر إلا بالسيدة اللبنانية، وقد سقطت من المكالمة متعمدة فكتبتُ لها أين أنت؟ فقالت على الفور: إنّ هذا الرجل الذي معكم هو زوجي، فلم أستوعب الصدمة حتى قال الرجل: مَنْ منكم قد أتى بزوجتي في المكالمة؟ ومن الذي يعرفها؟ فقال صديقي على الفور: محمود، فرويت له ما حدث، وكنت ألاحظ على الرجل قمة الارتباك والصدمة.

أمَّا المرأة فقالت: إنّ حياتي قد انتهتْ، فزوجي لا يعلم أني أتحدث مع شخص غريب ولا يعلم أني أعرف مثل هذه البرامج، ثم طلبتْ مني أنْ أقوم بإزالتها من عندي، ففعلتُ لها ما أرادتْ ولم أتكلم معها منذ هذا اليوم.

لكن بالطبع عندي فضول قاتل أنْ أعرف ماذا صنع معها زوجها بعد ذلك؛ لكن كنتُ أشعر أنا وأصدقائي بصدمة ممزوجة بالاستغراب، حيث لم أكن أتخيل أنها متزوجة من مصري، فهل من المعقول أنْ تجمع الصدفة الاثنين معاً في مكالمة واحدة؟ الله قادر على كل شيء.

عزيزي القارئ، لا تعتقد أنك تعيش في عالم فسيح، بل صدقني إنها قرية صغيرة أو صندوق عجيب قد يجمعك يوماً بمن تعتقد استحالة رؤيته، ولعلّ القصة السابقة خير دليل على ذلك، ودائمًا ما أستشهد بها على مَن يظنون أنهم بعيدون عن رصد العيون والأفهام.

المرأة الحقيرة

في صفحات سابقة قد نبهت أني مقتنع في الكثير من الأحيان بأنّ الظروف السيئة قد تقذف الإنسان إلى قاع الأخلاق أو السلوكيات المنحرفة.

لكن أنْ تتهيأ لك الظروف الحسنة والاستقرار الطبيعي، ثم تنحرف بسلوكياتك إلى ما فيه أذى الآخرين فهذا ما لا يمكن تقبله.

مع الأسف الشديد هذا ما حدث مع تلك السيدة التي كانت تقيم بالمملكة العربية السعودية، كانت زوجة لطبيب يكبرها بثمانية عشر عامًا، وقد رزقها الله بطفل واحد، كانت لا تتجاوز الأربعين من عمرها، تمتلك لباقة في الحديث، ثقافة لا بئس بها، قدرة على التحاور، هذا ما كنت أظنه في بداية الأمر، كانت طبيعة عمل زوجها تبدأ في منتصف الليل، وهو كان موعد دخولها معنا في الجروب الشهير الذي كنا نجتمع فيه بشكل يومي عبر مواقع التواصل الاجتماعي.

ومع توالي الأيام أخذتْ هذه المرأة تركز في حديثها على الأمراض الجنسية، وهو تخصص زوجها، فكان البعض يستغل الفرصة للتفوه بالمفردات اللفظية القبيحة، ويحاول استدراجها للتعمق في هذا الموضوع الذي كان مرفوضًا طرحُه في هذا الجروب، حتى لا يتجاوز البعض حدود الأدب.

الغريب أن هذه المرأة قد انساقت خلفهم، وأخذتْ تكشف عن وجهها الحقيقي وتربيتها المنحطة، فجمعتْ حولها مجموعة من الشباب والرجال، أمَّا أنا فقد استطاعت التخلص مني ومن مضايقتي لها والقيود التي كنت أفرضها عليها في الكلام والموضوعات، تركتْ لها الجمل بما حمل، لكن كان يأخذني الفضول إلى تتبع أخبارها والنهاية التي ستصل إليها.

في تلك الأيام كانت هناك امرأة مصرية تقيم بمكة المكرمة، حيث يعمل زوجها، وكانت من مدينة تجاورها بمحافظة الإسكندرية، كانت امرأة بسيطة، أُم لخمسة أولاد، عندما كان يخرج زوجها للعمل تتشارك معنا في الجروب، كانت ضحكاتها عالية مثيرة تبدو عليها السذاجة والبساطة التي تصل إلى حد العبط.

استغلتْ زوجة الطبيب بطلة هذه القصة تلك المرأة وأدخلتها معها في هذا المستنقع، وأخذتْ تعرفها على كثير من الشباب والرجال، حتى دخل أحد الأشخاص الذي كان يسكن بنفس البلدة التي منها تلك المرأة البسيطة، وبالطبع تعرف عليها وعلى أهلها بتلك البلدة التي كانت بلدة زوجها أيضًا.

تلك المرأة البسيطة قالت لي: كنتُ أرسل صوري بشكل دائم إلى زوجة الطبيب، وكنتُ أخبرها دائمًا بجميع أسراري، ولم أكن أخفي عنها شيئًا.

حاول شاب أنْ يستدرج هذه المرأة إلى الرذيلة عبر مواقع التواصل الاجتماعي، وأنْ تقابله بعد عودتها إلى مصر، لكنها رفضت رفضاً تاماً، وأعطَتْه فاصلا من الشتائم والإهانة، وهنا لجأ هذا الشاب إلى زوجة الطبيب، فما كان منها إلا أنْ أرسلتْ له جميع صور هذه المرأة وهي بداخل البيت.

فما الذي سيصنعه بعد ذلك؟

حاول الشاب ابتزازها، لكنها قد اختفتْ عن الأنظار حيث استعدتْ للنزول إلى مصر، فما كان من هذا الشاب المستهتر الحقير إلا أن أرسل صورها لأشقاء زوجها وعائلتها وعائلة زوجها ومَن يعرفهم مِن جيرانها.

أصبحت فضيحة بجميع المقاييس، فكانت النتيجة الطبيعية أنْ طُلقت هذه المرأة التي لن أقول عليها مسكينة، فهي تستحق ما حدث لها، فكم كنتُ أحذرها من زوجة هذا الطبيب، وأنصحها دائما ألا تبوح بأسرارها لأحد، وألا ترسل صوراً أو شيئا خاصاً ببيتها؛ لكن تلك الحقيرة زوجة الطبيب، لم تراعِ ضميراً ولا أخلاقاً، دمرتْ أسرة بأكملها، فكانت النهاية الطبيعية أنْ ينتهي وجودها، بعد أنْ كشفتْ تلك المرأة التي تضررتْ منها بما فعلته معها، فكانت فضيحة بجميع المقاييس.

عزيزي القارئ، ليأخذ كل منكم حذره، فكل مكان يمتلئ بخليط من البشر، فلا تغتر بالمظهر أو الثقافة، ولا تُخدع ببعض الكلمات، وأنتِ عزيزتي المرأة لا تغضبي إذا ما وجدت زوجكِ يراقبكِ، ويراقب أفعالكِ، فلربما كان هذا الأمرُ أرحمَ من عواقبَ قد تعصف بحياتكِ واستقراركِ.

أنا وصديقتي العراقية التي لم أرَ مثلها في البلاد

قد يقول لي أحد الأصدقاء من خلال العنوان يا سندباد ألست كفيفاً؟ أقول له: بلى.

فيقول: كيف لم ترَ مثلها في البلاد؟

أقول: في يوم من الأيام يا سادة يا كرام جمعتني شبكات التواصل الاجتماعي بصديقة كان يتكون اسمها من خمس أسماء، اسمها هي واسم أبيها وجدها وأبو جدها وجد جدها، وبيني وبينكم عجبني كثيراً تركيبة الاسم، فقلت لابد من التعرف عليها.

وهنا كتبت لها أجمل الصباحات مع أرق التحيات، فكان الرد بأفضل منه مئات المرات، حيث قامت بتحيتي لمدة نصف ساعة، ثم طلبتُ منها أنْ أتعرف عليها، فظلت تعرفني بنفسها فيما لا يقل عن ساعة.

ولا أبالغ في الكلام، والله على ما أقول شهيد، حيث ظلت تحدثني عن عراقة عائلتها في العراق، وهي عائلة قحطان، ثم ظلت تحدثني عن شخصيتها الرومانسية وطبيعة عملها في مجال التدريس كمعلمة للتربية الرياضية، وكيف تزاول الرياضة وبأشكال مختلفة.

ثم جاء دوري لكي أعرفها بنفسي، وحمدت الله أنه قد جاء دوري، فبعد أنْ ذكرتُ سني واسمي ذكرتُ مجال تخصصي في الأدب الأندلسي، وهنا أخذت الأخت ميدان الكتابة مرة أخرى، وأخذت تبين لي ما تحفظه من الشعر الأندلسي والعباسي والمصري والعربي علي وجه العموم.

فقلت في عقل بالي: ما شاء الله تلك هي المرأة التي أبحث عنها، ثقافة، رومانسية، لباقة، وأشياء أخرى تخيلتها في رأسي، لكن بالطبع كان يستحيل أن نكمل الحوار عن طريق الكتابة، فطلبت منها أنْ أسمع صوتها.

وبالفعل كانت البداية مع ضحكات متناثرة هنا وهناك، أخذتْ تداعب قلبي وعقلي معاً، ثم كان صوتها الجميل الرقيق، فسلمتُ عليها وكان هذا السلام هو الشيء الوحيد الذي نطقتُه في كلامي معها؛ حيث قامت برد السلام ثم شرح الوضع في العراق، ثم قالتْ: وما أدراك ما العراق يا محمود**!؟**

ثم ظلت تبكي على صدام حسين، وتروي تاريخ الشيعة ثم الأكراد، ثم عائلة قحطان التي تنتسب إليها، وأخيراً ظلتْ تروي قصة حبها مع المصري الذي كان يعمل هناك، ثم نزل وكيف تتواصل معه، وكيف تساعده بالمال وكيف أنهما سيتزوجان بعد شهر عندما تأتي إلى مصر.

ساعتين متواصلتين والأخت تتكلم، ولم أستطع أنْ أتفوه بكلمة واحدة، فقلتُ: لا توجد مشكلة، أتركها اليوم تتكلم، وغدا سيكون لي الكلام.

وجاء الغد، وليته ما جاء، حيث ظلتْ الأخت تروي تفاصيل يومها من المأكل والمشرب، ودخول الحمام وعن الكلام الذي تكلمت به مع حبيبها وأبيها وأخواتها وتلاميذها، وقد فشلتُ فشلاً ذريعاً في أنْ أتكلم بكلمة واحدة.

بالطبع ظللتُ أتهرب منها بعد ذلك بشتى الحيل والوسائل، حتى جاء يوم وجدتُها تكتب لي بأنها في داخل المستشفي، فقد أصيبتْ بانهيار عصبي وصدمة ما بعدها صدمة؛ لأنها اكتشفت أن الذي تحبه في مصر قد تزوج، وأنه قد أخذ جميع المال من قبيل النصب لا من قبيل الزواج منها، فحزنتُ عليها كثيرا، وقلتُ: إنها مريضة ولن تتكلم بالشكل الذي كانت تتكلم به سابقاً، فقمتُ بالاتصال بها فإذا بها تبكي بكاءً حاراً وتنعي حالها ثم توقفتْ عن البكاء، وظلت ساعة كاملة تسب في المصريين وتاريخهم الفرعوني والقبطي والمملوكي والأيوبي وكل من جاء بعد ذلك، فقلتُ: أتحمل تلك الساعة أو الساعتين رفقاً بحالها.

ومضت بعض الأيام، وعادتْ الأخت إلى بيتها، وكان لي صديق عزيز لا يستطيع أحد أن يغلبه في الكلام، إنه عليّ صديقي، وكنت متخفيا من الأخت، كنت أراهن عليًّا على بعض الأمور لكنه كان يكسب الرهان دائما، ثم جاءتني الفكرة الجهنمية وهي أن أراهن عليا على إسكات الأخت إذا ما تواصلنا بها، وأنْ يوقفها عن مواصلة الكلام، فقال عليّ: بسيطة اتصل بها، فاتصلتُ بالأخت وقدمتُ عليا لها، وجه عليّ لها هذا السؤال: ممكن نتشرف بمعرفتك، وهنا انطلق القطار دون توقف، وظل عليّ يستخدم جميع الحيل لإسكاتها لكن دون فائدة، يأتي لها من اليمين واليسار دون فائدة، ظللتُ أضحك على عليّ وأنا في حالة هستيريا، حتى وجدتُ عليا يكتب لي قائلاً: لقد كرهتُ النساء، ولن تراني على شبكات التواصل الاجتماعي بعد اليوم، ما تلك المرأة! وأنا في حالة من الضحك المتواصل، حتى تركْنا جميعاً المكالمة والأخت لا زالتْ تتكلم دون توقف.

وفي تلك الأثناء كان هناك رجل أكرهه بشدة، وكان يعلم ذلك، لأنه ببساطة يدخل المحادثات من أجل النساء فقط، فكتبتُ له أني أريدك في أمر مهم فحدثني صوتياً، فقلتُ له: عندي أخت من العراق الشقيق في غاية الثقافة والأنوثة وأريد أنْ أعرفها عليك، فقال فرحاً: بكل سرور.

فأتيتُ له بالأخت، ثم تركتُهما ونمتُ حتى الصباح، وعندما فتحتُ جهازي وجدتُ رسالة طويلة من الأخ يقول فيها: أخي محمود، ماذا صنعتُ لك حتى تنتقم مني كل هذا الانتقام!؟ إنها بالله كارثة ومصيبة، فقد علمتني لغة الصمت، ولم أستطع حتى أنْ أجد مساحة من الوقت كي أذهب إلى الحمام، أو تناول العشاء، أعلم أنك لا تحبني، لكن لا يكون الانتقام هكذا يا صديقي.

وهنا حمدتُ الله على أنني قد انتقمت من هذا الرجل شر انتقام فتخلصتُ منه، ومن الأخت إلى الأبد، فكانت امرأة لم أرَ مثلها في تلك البلاد التي سمعتُ عنها على الخارطة أو عبر شبكات التواصل الاجتماعي.

كل هذا مع احترامي لنساء العراق، فبالتأكيد ليسوا مثلها، ولن يكون هناك أحد عبر شبكات التواصل الاجتماعي مثلها، فهي فريدة من نوعها.

أنا وزياد

إنّ لكل إنسان محطات في حياته، تنعكس بالإيجاب أو السلب على شخصيته، وكم كنت محظوظا أنْ أقف في تلك المحطة التي تزودتُ منها بكثير من الوقود العلمي والإبداعي الذي لم أرَه في محطة أخرى.

ولا أبالغ حينما أقول: إن زياد هو أكثر شخص تعلمت منه في الحياة، ولعلّ معظم ثقافتي العلمية والحياتية كانت مستمدة من ثقافة زياد اللامحدودة.

فمن هو زياد؟

زياد لبناني يعمل بهندسة الديكور، يكبرني بخمسة أعوام، له نشاط في الغطس والسفر وقيادة الطائرات، وغير ذلك من الهوايات التي ترتقي بالعقل إلى أبعد ما يكون، وبالرغم من أنه مسيحي ماروني، لكنه مدير لإحدى الشركات بمكة المكرمة، تعرفتُ عليه منذ سنوات، وقضيتُ معه كثيرًا من الأوقات، زياد من نوعية الأشخاص أعشق مجالستها، فهو يفاجئك بما لا تتوقعه من فكرة أو رأي أو إبداع أو أي شأن من شؤون الحياة.

كنت أراه وهو يتعامل مع موظفيه بالشركة، وأستغرب مِن هذا الهدوء في الأعصاب الذي كان يحمل خلفه الكثير من الأشياء التي كانت تجعل مَن أمامه يعمل له ألف حساب.

كنت أراه وهو في بيته، وكيف يتعامل مع زوجته بأسلوبٍ راقٍ فيه من السمو والرفعة ما يثير الاندهاش، وأتذكر هذا اليوم الذي اشترى فيه لزوجته سيارة من نوع ما، وبعد أنْ ركبتْ زوجته إياها شعرتْ بعدم الراحة، فقام على الفور بتغييرها رغم خسارته لآلاف الدولارات.

زياد عقلية علمية أزعم أنها لا نظير لها في وطننا العربي، لها قدرة عجيبة على التخيل والابتكار، وأتذكر هذا اليوم الذي قلتُ فيه لزياد: تعرف أنا نفسي في إيه؟ فقال: إيه؟ فقلتُ له: أتمنى فرنا صغيرا يعمل بالفحم أشوي عليه الأكلات البسيطة التي أحبها دون أنْ يلحقني منه ضرر، وهنا قال زياد: دعني أفكر في تصميم هذا الفرن، وما هو إلا يوم واحد وقد صممه وأمر المصنع بصنعه حتى أخرجه بالصورة التي أبهرتْ كل من رآه، أرسل لي زياد الفرن، وكلما صنعتُ عليه شيئا أدعو لزياد وعبقرية زياد.

لكن بالتأكيد دارتْ بيننا الكثير من الحوارات والنقاشات في جميع الأمور حتى الدينية، وحدثتْ بيننا مناظرات كثيرة كانت تكشف لي عن مدى ثقافة زياد الإسلامية والمسيحية، وإن كنتُ أختلف معه في كثير من الأشياء بحكم اختلافنا الأساسي في العقيدة، ولعلّ أكثر الآراء التي انتبهتُ إليها هي اعتقاده الجازم بأن جميع البشر منذ

آدم وحتى قيام الساعة سيدخلون الجنة دون محاسبة من ثواب أو عقاب، فالرحمة ستشمل الجميع حتى من تجبروا في الأرض وسفكوا الدماء.

بالطبع كنت أثور حين سماع هذا الرأي، وأناقشه فيه بالعقل والبرهان.

ويحضرني هذا الموقف الطريف الذي دار بيني وبين زياد، قال لي زياد في يوم: هل تريد أن يعود إليك بصرك؟ فقلت: بالتأكيد نعم، فقال: انتظر بضع دقائق وسوف يأتي لك شخص بالغرفة، ما عليك إلا أن تُحسن استقباله على أجمل ما يكون، فقلتُ له: أهلاً به.

انتظرت ساعة أو أكثر، وبالطبع لم يأتِ أحد فقلتُ له: أين من أرسلته يا زياد؟ فقال: لقد جاءك ولكنه وجد قلبك غير مخلص له، ضحكت بصوت عالٍ وأخذتُ الموضوع على سبيل المزاح والدعابة.

زياد ذو طبيعة رومانسية كانت تجذب إليها الكثير من الفتيات من شتى الأماكن، فكان لطيفاً في مغازلته، حريصاً على عدم غضب أحد منه، وأتذكر هذا اليوم الذي كنت أجلس فيه معه، وكانت إحدى الفتيات بالمغرب في لجنة امتحان من الامتحانات الجامعية، فأرسلت لزياد عبر برنامج الواتساب نموذجا من الأسئلة في مادة اللغة الفرنسية التي يجيدها زياد مثل العربية، فقام بحل الأسئلة على الفور، وأرسل إليها الإجابة عبر برنامج الواتساب.

كنت في غاية العجب من هذا الأمر، لكن المذهل في الموضوع أن الفتاة بعد خروجها من الامتحان ظلت تشكر زياد، ثم طلبت منه أن يكمل معروفه بأن يرسل إليها بعض الأموال، بالطبع زياد كان يملك من الفطنة والدهاء ما يجعله يتهرب من متسولات الإنترنت، وما أكثرهم! والغريب أنهم كانوا يهرولون خلفه بالرغم من امتناعه عن مساعدتهم مادياً.

كنت أشعر بداخلي أنّ علاقتي بزياد لن تستمر، ولا أدري ما سر هذا الشعور، كان عندي يقين أنّ امرأة ستفسد العلاقات بيننا رغم صداقتنا المتينة، والتي كان يحسدنا عليها كثير من الناس خصوصاً النساء.

تحول شعوري إلى يقين وتوترت العلاقة بيني وبينه دون أنْ أعلم السبب، فهو على مدى سنة كاملة يكتم عني سر هذا التحول المفاجئ الذي كان محل استغراب الجميع من أصدقائنا، ابتعد زياد وأصبحنا محرومين من مجالسته، وعلمه، وخفة ظله التي كانت تضحكني كلما تذكرتها بيني وبين نفسي، حتى عاد الود بيننا بعد أنْ اكتشف الحقيقة، وأنني بريء مما كان يظنه.

من أجله اعتنقَتْ الإسلام ثم عادَتْ

نعم إنها (سُهَا) صاحبة القلب الطيب، والطبيعة الجميلة، والهدوء الذي كان يضع أمامي كثيرًا من علامات الاستفهام.

سُها كانت فتاة في الثلاثين مِن عمرها مصرية الأب والأم، لكن كان أبوها متزوجًا من سوريه قبل أمها، فأنجب منها أبناء ذكورا، وكانت سُهَا هي الابنة الوحيدة لتلك الأم المصرية، مات أبوها وعاشت في ظل عمها الذي كان يراعيها ويسكن بجانبها، لم تكن كثيرة الخروج من البيت أو الاختلاط بأحد، لكنها كانت دائمة السفر إلى سوريا والأردن حيث يتواجد إخوتها من الأب.

دائما ما كانت سُهَا تسألني عن الصلاة والصيام والزكاة، وتسألني عن الفروض والسُنن، وكأنها تعرف تلك الأشياء لأول مرة، بالطبع لم يدخل في نفسي ولو للحظة واحدة أن سُهَا غير مسلمة، حيث لم تنطق بكلمة أمامي تدل على ديانتها المسيحية الكاثوليكية التي يدين بها طائفة قليلة من المسيحيين المصريين.

في يوم من الأيام جمعتنا بسُها جلسة جميلة، كنت أراها سعيدة تتناثر ضحكاتها في كل مكان، وعندما سألتها عن السبب، قالت حبيبي سينزل مصر اليوم.

فقلت لها: معقول! أنت تحبين يا سُها؟ فقالت: نعم، منذ ثلاث سنوات وكنت في زيارة إلى إخوتي بسوريا تعرفت عليه، إنه طيار عراقي جمعتني به قصة حب جميلة، وكل ستة أشهر تقريباً نتقابل إمَّا في مصر أو سوريا أو الأردن.

فقلتُ لها: بالتأكيد إنه محظوظ، فمثلك يتمناه الكثيرون يا سُها، تنهدت سُها تنهيدة كبيرة وخيم عليها بعض الحزن، فقلت لها: ما بك؟ فقالت: أسرتي بالكامل قد رفضوه عندما تقدم للزواج مني؛ لكن الآن سأحاول أن أضع خطة معه على إثرها نتزوج ولو سراً، لكن هناك عقبة وحيدة أمامي تتمثل في أمي المريضة التي ليس لها غيري.

غابت سُها مدة كبيرة من الوقت ثم عادت، فقلت لها: أين كنتِ؟ فقالت: أمي تُوفيت وأصبحت وحيدة، أعاني قيود عمي الذي يراقب جميع تصرفاتي بناء على رغبة إخوتي في الأردن وسوريا، فقلت لها: لماذا لم تتزوجي الطيار العراقي؟ التزمت سُها الصمت ولم تعطني أية إجابة.

حتى كنا في يوم من الأيام، وكنا في نقاش حاد أنا وصديقي المسيحي الذي أحبه كثيراً، كنا نتناقش في بعض أمور العقيدة، فإذا بمفاجأة كبرى تتمثل في أنّ سُها تحفظ الكثير من الإنجيل والشريعة المسيحية، فقلتُ لها: ما شاء الله يا سُها ما كل تلك الثقافة؟ فقالت: ليستْ ثقافه، ولكنها تربيتي وديني، فقلتُ: ماذا؟ دينك! هل أنتِ

مسيحية يا سُها؟ فقالت: نعم، فقلت لها: ولماذا كنت تسألينني عن العقيدة والشريعة الإسلامية؟ فقالت: لأنني اعتنقتُ الإسلام من أجل حبيبي العراقي كي أرضيه.

وهنا شعرت بالصدمة ليس لكونها مسيحية ولكن لقولها كي أرضيه، فقلتُ: تضحين بعقيدتكِ من أجل حبك، فقالت: نعم وأكثر من هذا.

بالطبع عرفت السبب الذي جعل أسرة سُها يرفضون زواجها ويراقبونها تلك المراقبة الشديدة، حتى اشتدت الضغوطات عليها، وتقدم إليها أحد أفراد عائلتها الذي كان يستعد للهجرة إلى انجلترا والإقامة فيها بشكل دائم، وتحت هذه الضغوطات وافقتْ سُها، وهنا كان سؤالي لها: هل لا زالتِ تعتنقين الإسلام؟ فقالت: لا، توقفتُ عن الصلاة والصيام وعدتُ إلى ديني الأصلي.

هاجرتْ سُها ولم أعدْ أراها أو أسمع عنها شيئا.

عزيزي القارئ، لم تكن سُها هي الفتاة الوحيدة التي تركتْ دينها واعتنقتْ الإسلام عن غير اقتناع، بل لسبب آخر كالزواج أو الانفصال، فكثيرًا ما قابلتُ نوعياتٍ بهذا الشكل، لم أكنْ سعيدًا بأمثال هؤلاء خصوصًا أنهم لم يحاولوا التبحر في دينهم الجديد، وظلوا على عقيدتهم وممارستهم السابقة، ما أجمل أن يكون الدين عن اقتناع ورغبة وميل شخصي، الهدف منه الفوز برضاء الله ورسوله أولاً والجنة ثانياً!

أنا والمرأة الداهية

إنني مِن أشد المؤمنين بالحكمة التي تقول: اتقِ شر مَن اقترب مِن الأرض، نعم هي حكمة صحيحة في الكثير من الأحيان، تثبتها المواقف والأحداث لي يوما بعد يوم.

وليس أدلّ على ذلك من تلك المرأة الداهية، ذات العقل الخبيث، والتفكير اللئيم القائم على المصلحة الخاصة، إنها ندا التي أوشكت على الخمسين من عمرها، أرملة، أم لفتاتين، تسكن بالقاهرة، وتعمل في طهي المحشيات وبيعها إلى المطاعم والفنادق.

ندا ذات وجه مقبول، وقامة قصيرة؛ لكنها ذات لسان طويل، له مقدرة على جذب الضعفاء من الرجال.

في البداية حددت لي ندا معيار التعارف بأي شخص ألا وهو المصلحة الشخصية، وقالت لي بالحرف الواحد: أريد أحدا أن يشاركني في إقامة مشروع كبير، أو يساهم معي في إنشاء مطعم بوسط القاهرة.

بالطبع كنت خارج هذه الدائرة تماماً، فلستُ من هواة المشاريع، أو مشاركة هذا النوع من النساء، لكن السؤال هنا هل ستجد ندا مَنْ ينفذ لها هذا الهدف؟

مع الأسف الشديد وجدتْ ندا ما تصبو إليه، وذلك مع أحد الأصدقاء الذين أعتز بهم كثيراً، وبالرغم من تحذيري الدائم له من أنْ يقع في مخططات ندا، لكن كانت هناك إحدى الصديقات التي لعبت دوراً في هذا الأمر، وكان على النحو التالي:

هذه الصديقة تقيم بإيطاليا، لكن كانت في أجازة بسيطة للقاهرة، ويبدو أنها كانت على اتفاق مسبق مع ندا، فأقامت بمأدبة عشاء كبيرة جمعت فيها ندا وصديقي هذا الذي ظلت تقنعه بالموافقة على أن يؤجر لندا هذا المحل الذي يملكه، والذي يقع في شارع شهير بالقاهرة، حتى تستغله ندا في فتح مطعم للأسماك.

وافق صديقي تحت وقع الإلحاح والوعود على أن يعطي المحل لندا مقابل أنْ تدفع له شهرياً ثلاثة آلاف جنيه.

لكن ماذا فعلت ندا؟

قامت بشراء محتويات هذا المطعم من المعارض الكائنة في شارع صديقي هذا، وجعلته ضامنًا لها في سداد حق هذه المحتويات، وبالفعل تمَّ افتتاح المطعم، لكن كما توقعتُ لم يجد إقبالاً، فندا قليلة الخبرة، متعجلة في القرارات، تريد أن تصعد إلى أعلى مرةً واحدةً، دون أنْ يكون هناك سلماً تصعد عليه درجة بدرجة.

ثلاثة أشهر وندا لا تدفع إيجار المحل لصديقي، وبدأتْ تتهرب منه شيئا فشيئا، يساعدها على ذلك صديقنا الثالث الذي تمكنت ندا من استقطابه ، فكانت تقضي معه معظم الوقت.

أخذ صديقي صاحب المحل يشعر بالقلق، خاصة بعد أنْ بدأ أصحاب المعارض يطالبونه بأنْ يتعجل ندا في سداد محتويات المطعم، وبعد تهرب ندا مِن الرد عليه عبر الهاتف، أخذ صديقي يضيق بها حتى أغلظ إليها القول وأرسل تحذيراً لها مع صديقنا الثالث.

فما كان مِن ندا إلا أنْ ذهبت خفية إلى المطعم ليلاً وقامتْ بإخلائه مِن كل ما فيه، بل قد سرقتْ منه بعض المحتويات، الأمر الذي أشعل بداخل صديقي النار، فأصيب بذبحة صدرية نُقل على أثرها إلى المستشفى.

كان صديقنا الثالث يعلم عاقبة ما حدث، فظل يقنع ندا أنْ تذهب معه لزيارته لعلّ وعسى تعود الأمور إلى مجاريها، أو على الأقل لا يذهب صديقي إلى الشرطة للإبلاغ عما قامت به ندا.

قابلها صديقي في المستشفى بفتور شديد، ووجه متجهم، ونظرات ساخطة، جعلتْ ندا لا تطيل الجلوس فخرجتْ، وتركتْ الأمر لصديقنا الثالث حتى يقوم بحل الإشكال بطريقة سرية، حتى لا يعرف الأصدقاء حقيقة ما حدث.

انتشر الخبر بالطبع، وتحت ضغط بعض أصدقائنا ممن استقطبتهم ندا تحت جناحها، وافق صديقي على عدم الإبلاغ عنها، وهنا يأتي السؤال هل ستستفيد ندا من الدرس؟

بكل أسفٍ لا، حيث أخذت تبحث عن شخص آخر يقف بجانبها من الزاوية المادية، فلجأت إلى هذا الأسلوب الرخيص المتمثل في محاولة إغراء الرجال ببعض النساء الذين كانت تعرفهم عبر الإنترنت، وكنتُ أعرف بعضهن، فكانت تحاول إقناعهن بفتح الكاميرات والظهور بالملابس الخفيفة لكل رجل تأتي به.

هذا الأسلوب الرخيص افتضح أمره، ولعلّني كنت سبباً رئيسياً في هذا حين دخلتُ عليها بالخطأ فوجدتُها مع رجل أعرفه جيداً، سيء السمعة يهوى النساء، وهنا أخبرتُ جميع أصدقائي، فأخذ الجميع الحذر منها ومن أساليبها، حتى انفجرتْ في وجهي قائلة: وكل ذي عاهة جبار.

مرتْ الأيام وغابتْ ندا عن الأعين، لكن المؤكد أنها كانت تستخدم مكرها ودهائها للإيقاع بشخص آخر، وبالفعل تمكنتْ مِن رمي شباكها على أحد رجال الأعمال، لكن هذه المرة بالزواج منه، فطار بها إلى تركيا، وغابتْ أخبارها وأراحنا الله منها.

عزيزي القارئ، أعلم أنك تقول في قرارة نفسك: هذا ليس دهاء ولكن نصب واحتيال، نعم أوافقك الرأي، لكن في غالب الأحيان لم أكن أرى العيب فيها بل في الرجال الذين لم يأخذوا بالنصيحة، ووقعوا ضحية لدهائها ومكرها الذي كنت أتعجب منه في كثيرٍ من الأحيان.

تلك هي مذكراتي مِن عالم الإنترنت، ولا أريد مِن أحدٍ أنْ يستهين بهذا العالم، فكم من كوارثَ ومصائبَ تسبب فيها! وما ذكرتُه في هذا الفصل ما هو إلا قليل مِن كثير، وكما قلتُ سابقا: هذا العالم أكثرُه كذب، وقليلُه صدق، وأضرارُه أكثر مِن منافعه، وأتحدث هنا عن برامج التواصل الاجتماعي، والعلاقات المتبادلة بين بني البشر، التي كثيرًا ما يصطنعون فيها الصدق، ويجمّلون الصورة حتى يظهروا بالشخصية المثالية التي تستطيع جذب الآخرين.

عزيزي القارئ، إنّ ما يحويه هذا العالم من وسائلَ نراها تكثر يومًا بعد يوم، تقرّب المسافات، وتسطّر الحكايات، الواحدة تلو الآخرى، ومع الأسف الشديد أرى معظم الشعوب العربية لمْ تحسنْ استغلالَ هذه التكنولوجيا، وهذه حقيقةٌ أكدتها التجاربُ لي يومًا بعدَ يوم.

الفصل الرابع

رباعيات السندباد وخواطره

في البداية أقرر حقيقة ثابتة وهي أنني لستُ بشاعر، ولا ألتزم بأوزان الشعر وقوافيه التزامًا حرفيًّا، من أجل هذا أطلقت على ما نظمته (خواطر) بالرغم من أنها في الظاهر قصائد ورباعيات شعرية منظومة، يبدو في شكلها مراعاة الوزن والقافية، لكن لا أريد مِن أحد أنْ يُخضع ما كتبتُ لمعايير ومقاييس العروض، فأنا أكتب ما يجول بخاطري، وما يتراءى أمامي من المفردات دون تنقيح أو مراجعة.

ولعلّ السبب في ذلك أنّ ما أنظمه في الكثرة الغالبة هو نتيجة مواقف وأحداث ومشاعر إنسانية وعاطفية، وليس مجرد نظم أكتبه لأرضي به موهبتي الأدبية التي لا أدّعيها.

كانت مجريات الأحداث عقب ثورة 25 يناير باعثا قويا أن تفجر ثورة بداخلي، وأترجم تلك الثورة إلى ما يشبه القصائد أو الرباعيات أو الأزجال التي كنت فيها متأثراً بعبقرية ابن عروس، وصلاح جاهين، وفؤاد حداد، مع الفارق الشاسع بيني وبينهم.

إنّ المجتمعَ المصري قد استجدت فيه أحداثٌ وأمورٌ وأشخاصٌ على الساحة السياسية والإعلامية والدينية، كانت كفيلة بأن يتفنن اللسان في التعبير عما يختلج بمشاعري من السخرية والغضب، التي هي بالطبع حال معظم الناس في مصر من البسطاء والطبقة الفقيرة.

فكان لابد أن أراعي تلك الفئة من الناس التي في معظمها متوسطة التعليم والثقافة، فحاولتُ قدر الإمكان اللجوء إلى اللغة السهلة المعبرة، الموحية بالمعاني والصور الساخرة التي ترسم أمام المواطن البسيط حالة نعيشها ونتأثر بها.

أمَّا عن خواطري فشأني شأن أي إنسان بسيط له مشاعر وأحاسيس، ولعلّ هذا الجانب عندي من أكثر الجوانب المظلمة في حياتي الخاصة، والتي دائما ما أحاول كتمانها والتعتيم عليها، فلستُ ممن يكثرون الكلام في هذا الأمر، ولكن بين الحين والآخر أترجم ذلك إلى خواطر وانفعالات غير متكلفة أو مصطنعة، حتى ما نظمتُه في أصدقائي وصديقاتي من أشياء إنما هي انعكاسات حقيقية لمشاعر جياشة وحب عميق متأصل بداخلي.

إنَّ الذي ستقرأه عزيزي القارئ في الصفحات التالية، هو من فيض قريحتي على مدار ثماني سنوات، عايشت فيها الحدث لحظة بلحظة، أحاول خلق نوع من التفاعل بيني وبين الناس، بين موافق ومعارض لما أقول، وتلك هي طبيعة الحياة، ولا أنكر هنا فضل ثقافتي الأدبية التي اكتسبتها بحكم الدراسة والهواية، حيث أتاحت لي

التعبير عن الأحداث، وما أشعر به بأكثر من صورة وطريقة قد يرضى عنها البعض ويرفضها البعض الآخر.

لكنني بالعموم كنت أوجه هذه الأشياء إلى طائفة محددة، اجتهدتُ كثيراً حتى أقرّبَ لهم الصورة، وأضعهم في المشهد بيسر وسلاسة، بعيدا عن التعقيد والأفكار الفلسفية التي يتبارى فيها الأدباء شرقاً وغرباً، فأنا من المؤمنين أن الأدب له دور عظيم في المجتمع في طرح مشكلاته، ومحاولة حلها ونقض العناصر الفاسدة، هذا بالطبع بالإضافة إلى دوره الأشهر في ترجمة المشاعر والأحاسيس.

(رباعيات السندباد)

(إليها)

وأصبحتُ أُكثر من نومي   حتى أعيش معك في أحلامي
وعندما أستفيق إلى يومي   أراكِ تشاركيني نبض أيامي
فلا تحاولي أن تتركيني بمفردي   فلم أعد أقاوم حزني وحرماني

(إليها)

نعم أنا أحبك وأحب   غيرك من النساء
لكن تتفردين وحدك   بأنك ونفسي سواء
فلو فصلت الأرض بيننا   لعبرتُ إليك في الهواء

(وقع البرد)

وعندما أرى جسمي يرتعش   يهتز اسمك في قلبي اهتزازا
ينكمش جسمي ولا ينكمش   ويجذب عقلي إليه انجذابا
وكأنك كوكبٌ عليه أفترش   وأعود إلى الأرض دونما اقترابا

(إليها في صباحٍ ممطر)

وعندما أسمع صوت المطر   أستحضر صوتك في أذنِي
يزيد الخير ويحلو السمر   هكذا عندما أراكِ بقربي
فأنتِ المعازف ولحن الوتر   وأنت الروح تسكن في قلبي

(إليها)

وعندما تشرق الشمس أتذكر وجهك البراق

أراه اليوم غير الأمس يزيد في الدُّجى إشراق

فوجهك لا يغيب أبدًا فهو المسافر عبر الآفاق

(رباعية مشرقة)

وعندما تصلني منك رسالة أشعر بالأمل من جديد

تتغير حياتي من حالة لحالة ويصبح قلبي راقصًا سعيد

فلا تبخلي علي برسائلك حتى تمنحني أملًا جديد

(بعد شفائها)

شفاك الله يا شمس الحياة يا أصل الحقيقة يا نور اليقين

شفاك الله يا طوق النجاة يا أنبل صديقة في زمن العين

يا بحر العطاء يا جرعة دواء يا نبع العلوم من بحر الأمين

(إليها)

أنا عايز أقولك كلمة بصراحة ملكيش مثيل

القلب في مضمونه نسمة وعقلك للحائر دليل

حاولت أبحث عن شبيهك والله ما لقيتلك بديل

(سندباد التسول)

دعيني أتسول منك لحظة أعيش عليها وقتًا من الزمانِ
فهي تغير أحزاني فرحة وتحملني إلى كوكبٍ من لؤلؤٍ فتَّانِ
فهل تعطيني ما أصبو إليه أم تتركيني سندبادًا بدوامة النسيانِ

(خارج السياق)

تعلمت من عينيك فنوناً فجودي على تلميذك بالباقي
فنونك أصابت قلبي جنوناً وكاد أن يوشك على الهلاكِ
لكن هلاكي منك هو متعتي بل راحة نفسي والدواء الشافي

(إليها)

وفي يوم ميلادك تشدو البلابل أنشودة الأمل في غدٍ جميل
يا وجه الراحةِ والقلب المماثل وروعة الأخلاقِ والخلق النبيل
والله لست بالرجل المجامل فلكل الكلام حجة ودليل

(إليها)

وما أصعب عليّ الحياة عندما لا تكوني بجانبي
أفقد إحساسي وأفقد معناه ولا أقاوم كثرة متاعبي
فهل تُرجعين القلب إلى مجراه أم تتركينه يحرق مشاعري

(بقلمي وقلبي)

وأجمل ما فيكِ روعة النفسِ   وما تحملها من شدو المعاني
وفيها شفاءٌ وبهجة الأنسِ   وأملٌ يأخذني لنيل الأماني
فلا تبرحي فؤادي ومهجتي   يا شمس الشموسِ وضوء الليالي

(إليها)

سألت نفسي سؤالًا بسيط   لإمتى هفضل أسير عيونك
انتفض قلبي وكان حويط   حياتي ما تسوى لحظة بدونك
عاهدت نفسي بعد الجواب   أمزج جنوني بلحظة جنونك

(بقلمي وقلبي)

وأنتِ لست لعيني شهرزاد   بل حكاية خالدة لن تنتهي
لم أعد أنتظرك في الميعاد   فأنتِ بداخلي دماءٌ تلتقي
أصبحت لا أقارب الماء والزاد   فنبع حنانك جعلني لا أشتكي

(إليها)

وأجمل ما فيك الأمل   الذي يعطيني نبض الحياة
أقابله دائمًا بالخجل   حتى لا أفقد معه سواه
فطيفك مهما حل وارتحل   يلازمني ملازمة اللفظ معناه

(إليها)

وأبحث عن المعاني يا سيدتي　　فلا أجد منها في واحة الأفكارِ
فكأنك أفرغت ما في ذاكرتي　　فأصبحت كالتائه في قاع البحارِ
فهل تأخذيني لبر مدينتي　　أم تتركيني لظلمة الأقدارِ

(إليها)

صديقتي عاوزة الحقيقة　　ما لقيت ليك شبيه
رقيقة وجميلة وجريئة　　وشموخ تفوق معانيه
لشخصك روعة حروفي　　وقلبي إللي عايش بيه

(إليها)

وبعد غيابٍ طويل　　عدتي يا صاحبة السعادة
وكأن الشتاء دليل　　بقرب شمس الإرادة
فلعلّك تكونين بخير　　ويهلّ نورك زيادة

(إليها)

وأنتِ لشخصي مثل السفينة　　أعبر بها من وادي أحزاني
وأنزل منها لأجمل مدينة　　أرى فيها السعادة تمحو أشجاني
تركت خلفي حكايات حزينة　　عندما وجدتك في شدو ألحاني

(إليها)

وأرى في عينيك أشياء　　لا تترجمها أقلام البشر
رأيت فيها الجمادات أحياء　　تُشرق عليها الشمس والقمر
نعم سيدتي لا أتكلم هُراء　　فمثلك تجاوز أبعاد النظر

(إليها)

وعندما يحيط بي الظلام　　أراك قمر يسود الأفق
فأمعن النظر وأخفي الكلام　　وأهيم حولك بشتى الطرق
فلا تتركيني أعاني الهيام　　وأبقى بمفردي عديم البُرق

(إليها)

قالت أراك تعشق النساءَ　　فقلت أنت من كنت السببَ
جعلتِ بني جنسك لي أحباءَ　　ولا أرى في ذلك العجبَ
فأنا من يعرف لك الوفاءَ　　فلا داعي أن تشعلي الغضبَ

(إليها)

ولا أملك لك في هذا الصباح　　إلا أن أعطيك قبلةً صماء
أتنسم من خلالها عطرك الفواح　　وأطير بها إلى آفاق السماء
فلتقتربي مني أكثر فأكثر　　فأنا وأنت في الخيال سواء

(إليها)

وعندما تزداد معرفتي بالنساء يعلو حبيبتي مقامك بينهم
فجميعهم مثل أيام الشتاء مطرٌ وبردٌ وهكذا شأنهم
لكن أنت الربيع في جمالهِ بهاء وحُسنٌ لا يضاهيه حُسنهم

(إليها)

وعندما أرى عيونك حاضرة أنسى معها هموم الحاضر
تحمل فيها همسات ساحرة تغزو قلبي بنبل المشاعر
أعشق حريتي إلا لعينيكِ أسيرٌ أنا لكن بلا أساور

(إلى الدكتورة حنان الشهاوي)

وأرى في أناملك حروفاً لم أعهدها في لغات البشر
حاولت أن أقتبس منها قطوفًا لكن أعجزتني الحيلة وأعياني النظر
فهل احتكرتِ ناصية البيان لديك ولم تُبقي لدينا إلا محاكاة القمر

(إلى البعض)

وأعشق الرجل إذا تكلم أوفى بما نطق به اللسان
فإذا من كلمتِهِ تبرم أصبح عندي شخصٌ بلا كيان
فإياك أن تنطق بما تعجز به فتكن إنسانًا بلا عنوان

(على الماشي)

يا مسلم بتدعي ليه وصحيفتك بالسيئات مليانة

قدمت لربك إيه علشان يكون ويانا

مع الأسف نفوسنا مريضة وقلوبنا بالسواد شبعانة

(أنا)

أنا مش بحب الأرع والنفخ من غير وضع

بموت في احترام النفس والبساطة وجمال الطبع

(أنا)

أنا مش بحب الظهور ولا الوقوف في الدور

ولا أتمنى أكون لاعب أنا دائمًا مع الجمهور

(أنا)

أنا مش جايلي نوم وبخاف أنام وأحلم

ونفس الحالة كل يوم وبقول السهر أسلم

يا رب يا حي يا قيوم اجعل شيطاني أصم أبكم

(أنا)

ومهما بحاول أخطي الحدود   بلاقي مقابل شجاعتي سدود
أرمي سلاحي وأطوي جراحي   وأجلس لوحدي أسير الوعود

(أنا)

أنا مش عايز أموت برصاصة   ولا بطعنة من الخلف
عشان أنا روحي حساسة   وما ليش في الدور واللف
أنا عايز أموت في سريري   وما حدش يضرب كف

(لوجه الله تعالى)

يا رب عبدك السندباد   طمعان في رحمة ومغفرة
لا بقيت بجاري العباد   وخلاص أرجو المعذرة
فمن سُنة نبينا الكريم   العفو عند المقدرة

(أنا)

أنا مش بحب الظهور   ولا الوقوف في الدور
ولا عمري هبقى لاعب   أنا دايما مع الجمهور

(عجبي)

عجبتُ لك يا وطن   الجاهل البلطجي أصبح أسطورة
والنابغ المكافح خارج السكن   حاسس بنفسه برا الصورة

نوابغ علومك طيور مهاجرة   بتعشق ترابك لكن مقهورة

(يا فلسطيني)

يا فلسطيني اثبت وقاوم   العالم كله باصص عليك
خدعوك فقالوا عايزك مسالم   عدوك عايز يقطع ايديك
أرض القدس ما ترجع بالنواعم   عايزك جاسور فاتح عينيك

(لا تسألي)

لا تسألي عن راتبي   فقد ذهب هباءً منثورا
ولا تفتشي في حقائبي   فالوضع جعلني فقيرا مقهورا
تعلمين حالي ومدا شدتي   وحاجتي لأصبح هنيئاً مسرورا

(الدروس الخصوصية)

يا معلمي المدارس الرفق بالأهالي
الوضع أصبح بائس والدرس ثمنه غالي
ارحموا من في الأرض يرحمكم المولى
بلاش نظام الإفترا والضرب في العالي

الثورة

الثورة عندي يعني تحسين وضع
مش ناخد وندي وزعيق ورزع
الثورة يعني نوابغ بتعلى
وعدالة كاملة وأمان بالطبع

(انطق)

انطق يا وطن راجح والكمسري
هل أنت وطن مسامح أو مفتري
بالطبع لا أنتظر منك جواباً
فقد أصبحت وطن الأندال وابن الأرندلي

(إليها)

وللكِ حُمرة الورد إذا تساقط عليها الماء
فكم تشعل الخد وتلهب قلوب الأحياء
صنعتِ المستحيل بجمالكِ يا سيدتي
حين امتزج نورك بأضواء السماء

(الأوزعة)

بحب الست الأوزعة   شاطرة وديما جدعة
خفة ونشاط وحركة   ذكية وحديثها متعة

(الغبي)

بحب الناس كلها إلا الغبي

العقل نعمة ما يحسها إلا الذكي

وهكذا أراد الرحمن في خلقه

عقل يفكر وآخر لا يعي

(إلى الندل)

الندل قال يا صاحبي بحبك كتير

ساكن في جوا قلبي والعقل والضمير

طلع الندل معايه أكبر خاين

حفرلي حفرة وقال لازم تسير

(القهوة)

ما أروع سحرك أيها الكوب

إني مدينٌ لك بأحاسيس القلوب

تنقل مزاجي من حالة إلى أخرى

وتشعرني بأني غالب لا مغلوب

(حدث بالفعل)

دعوت الله ربي وأنا بلحظة سجود
يزيد بالحب قلبي ويكفيني شر الحقود
فالمال زائل والعمر يمضي
وتبقى المودة جمال الوجود

(السجن)

السجن للجدعان   خدمة خمس نجوم
واي فاي بسرعة جنان   وأكل كله لحوم
حرية إيه يا عالم   سجين ومش محروم

(أنا)

بحب الناس جميعهم   لكن دونما اقتراب
فلو اقتربت زاد جدالهم   وأوقعوني في سوء الجواب
فليكن حظك من الأصدقاء قليلًا   تحمي نفسك من حرج العتاب

(في الخريف)

ما أقبحك أيها الخريف   وما أسوء فيك الحياة
أشعر بنفسي كلحظة طيف   تطلب من خالقها طوق النجاة
نعم أشتاق إليك يا برد الشتاء   فما أروع رقصاتك بتلك الشفاة

(أنا)

صباح الخير يا بني البشر   السندباد مش عارف ينام
راحت النجوم وغاب القمر   وفضل لوحده يعاني الآلام
صديقي الوفي تركني في خطر   لا صمت نافع ولا حتى الكلام

(من خواطري)

في واحة الأفكار   لقيت عالم فسيح
أحلام عايزة القرار   لكن خدتها الريح
سألت الفضا أين أحلامي   قال مش هديك جواب صريح

(أنا)

أنا قلبي دايمًا مايل   للناس الطيبين
ولا عمري كنت شايل   الكره للحاقدين
ومهما تزيد الهوايل   هفضل للجميع أمين

(أنا)

أنا الأيام دي حاسس بأزمة
ناس في حياتي ما لها لازمة
نفسي أخلص منهم يا عالم
وأرمي وراهم مليون جزمة

(أنا)

بفضل كتير السكوت ومش عايز أتكلم
جوايا حزين مكبوت وفي الحقيقة بتألم
الصراحة ما بقتش راحة يا صديقي اتعلم

(أنا)

أحب الإنسان الطبيعي المجرد من أي لون
ودايمًا ساكن ضلوعي الطيب ذو القلب الحنون
ولا أبغض في حياتي غير واحد أبو الوشوش من كل الفنون

(أنا)

مش لاقي نفس أكتب عشان مش لاقي كلام
وكمان ما أقدرش أكدب في حديث عن الأحلام
لا نور ظاهر في نهاية النفق ولا أمل جديد بيجي أوام

(أنا)

انا مشكلتي مع البشر إني بحب الأمانة
قد تراني يوم حجر عند ثبوت الخيانة
ومهما تفعل أو تعتذر مش هأمنك ليوم القيامة

(أنا)

أنا بحب أكبر راسي   وأفوت حاجات كتير
وإن حد جرح إحساسي   هيبقى الود الأخير
هقابلك وأسلم عليك   وجوايا كُرهك مصير

(همس الشتاء)

وإذا ما تساقط ماء الشتاء   أشعر بقلبي ينتفض
وتصبو روحي نحو السماء   والعقل مني يعترض
فأهمس لعقلي تمهل   فإن الروح مني تنقبض

(خاطرة)

كل شيء حلو انقرض   والهم في حياتنا مزاج
مين قال الزهايمر مرض   دا لحالتنا أحلى علاج

(أنا)

أنا لست فيلسوف   ولا مصلح بين البشر
ولا أمسك دفوف   وأهلل لعقول من حجر
لست بالشهوات شغوف   ولا بالبسطاء أحتقر
انا بالمخلصين عطوف   وللخائنين عدو أشر

(أنا)

بقيت بكبر دماغي وأفوت حاجات كتير
وأفضل أهمس ولاغي خيالي عبر الأثير
أطير بروح جميلة متخفشي سوء المصير

(أنا)

وما أنا وسط العباد إلا طائر في سكة سفر
مرت عليه أطياف البلاد ورغم هذا لا يخشى الخطر
تعصف به رياح العناد فلا تسقطه رصاصة نظر

(بعد صلاة العشاء)

ونحن على صفحات الزمن سطورٌ تلمع ثم تختفي
فلا يدوم عمرٌ أو سكن فنحن شموعٌ تضيء وتنطفي
فإن كان حاضرك باهر فإن التراب بما فيه لا يكتفي

(أنا)

أنا منحاز لك يا غلبان يا خاسر كل المعركة
في كل العصور شايفك تعبان مع إنك شعار المرحلة
مع كل رئيس شايفك تعيس نهايتك موتة من غير مشنقة

(العلاوة الملعونة)

هو أنا كل ما أقول علاوة   يقولوا يا معلم مفيش

وغيرنا بياخدها حلاوة   شرطة وقضاة وجيش

ما تعتبرونا من محاسيبكم   وبلاش تقولوا مافيش

(بعد كوب النسكافيه)

أنا كنت ماشي لوحدي   بقول إمتى الوصال يعود

اتحرك حبك في قلبي   روحت لابس في العمود

الله يخرب بيت معرفتك   دمي جاري على الخدود

(الخازوق)

أنا كل ما أقول هتمشي   والدنيا لينا تروق

مجرد ما أغمض رمشي   ألاقينا واخدين خازوق

يا مصر إمتى تراضينا   وغروبك يكون شروق

(من غيظي)

إياك تقول إحنا غلابة   الغُلب دا شوية علينا

إحنا ناس مسلوبي الإرادة   والكل عمال يلعب بينا

خلينا بس ناكل ونشرب   مهما هنعمل أهو طظ فينا

(من قفشته زوجته بالموبايل)

إذا أمسكتِ هاتف زوجكِ   ووجدت فيه ما يشعل النار
فتمهلي قليلاً وامسكِ لسانكِ   ولا تتعجلي في أخذ القرار
فطائر العقل لا يستحق بكاءكِ   ولكن يستحق التوجيه مثل الحمار

(إلى بعضهم)

يا ماسك طبلة كفاية   أنا دماغي جالها صداع
شوف وشك في المرايا   حمار من غير بتاع
الأسود شايفينه أسود   وسيادتك لابس قناع

(محافظ المنوفية المرتشي)

دماغك كانت فين يا أهطل   لما اتجوزت على المدام
وداتك لحد أبو زعبل   ورصتلك من التهم أكوام
ما كنت بتسرق ورايق   حَبَك يعني المزاج التمام

(عمليات تجميل النساء)

مالك يا حلوة شايفك نافخة   وشافطة حاجات كانت جميلة
صدرك أصبح صدر فرخة   والباقي اتفتت مثل البليلة
طبيعة ربك مش بردو أحلى   ولا الحكاية غزال وفيلة

(مرتب المعلم)

أنا عايز كمبيوتر ياباني يحسب لي حسبة صغيرة
معلم مصري شايفه يعاني ومرتبه ما يكفي عيشة كريمة
حطيت بياناتي وقلتله احسب فرقع سيادته وراح في مصيبة

(نوع من النساء)

يا ست هانم بطلي تهليل والله أنت ما فاهمة حاجة
ناقصك طبلة وحبة شخاليل وتبقي رقاصة شبه الزجاجة
المنظر رائع والداخل فاضي والعقل محشي عبط وسذاجة

(تخاريف)

مصر بتعمل فيلم لكن مع الأسف مفهوم
فيلم بدون نِجم الكل فيه نجوم
الفُرجة عليه تُغم والمتعة فيه هموم

(من غيظي)

وبعد الكنيسة يجي المسجد والمجرم طليق فرحان
لابس طاقية وعمله إسود والوجه مداري مثل الشيطان
هي طاقية إخفاء يا عالم البحث جاري والدَّوَا النسيان

(إلى بعض أصدقاء الفيس)

الفيس أصبح كئيب والحزن في كل صفحة
والأمل أشوفه غريب ومنين هتيجي الفرحة
اليأس خلاص ملكني والصورة ما بقتش واضحة

(بعد استشهاد أبناء مدينتي في سيناء)

في شمالك يا سينا شهيد وفي جنوبك شايف مهرجان
والموضوع مفهوش جديد أصل الحياة مش للغلبان
وكل ما نضرب من حديد أكتشف إن الحديد تعبان

(حكمة)

لا تعاشر الندل ولا ابن الصرمة القديمة
الجد عنده هزل والعوجة عنده سليمة
يسيبك في وقت زنقة ويدور عليك في وليمة

(فاعل خير)

يا اللي مراتك بتشتغل اجعل راتبها في جيبك
لو سبته هتسوق الهبل وتفضل علطول تغيظك
نفض جيوبها أول بأول تقولك بحبك وتبوس في إيدك

(لمصر)

أنا عايز يا روحي أدلع   علشان من زمان بدمع
يا تهشكيني كتير في حضنك   يا بجاز وفي نفسي هولع

(شذوذ)

الواد عايز الواد   والبت عايزة البت
وتامر أصبح سعاد   والراجل أصبح ست
بقيت محتار يا عالم   ومخي خلاص هَيْشِتْ

(نصيحة)

مستحيل هعمل معاك حوار   طول ما أنت جاهل
لو فهم في يوم الحمار   هحاورك من غير مشاكل
لكن عشان عارف دماغك   الحل السكوت بدون ما أجادل

(إلى بعض المشايخ)

مولانا يا صاحب الفضيلة   خلي عندك وقار
مش بالعمة واللحية الطويلة   هتحفظ مقامك باستمرار
سلوكك كلامك جدالك لسانك   هم الأساس لأي افتخار

(إلى بعضهم)

يا باحث عن النساء   كتك نيلة يا أهطل
بحثك كالجليد في الماء   والنتيجة أحمق وأهبل
سعادتك في امرأة واحدة بس   هي النكد وسجن أبو زعبل

(لمسلمين بورما)

يا مسلمين بورما   مش قادر أعمل حاجة
لا حد بيراعي حُرمة   وكل المسلمين في سذاجة
لا حد بيشعر بغيره   أُسود لبعضهم ولغيرهم دجاجة

(لوزير التربية والتعليم)

يا وزير التعليم كفاية   شوهت صورة المعلم
جعلته للصوص حكاية   وبات حزين يتألم
يعني دا جزاء المعلم يا بلد   الوزير داير يعمم

(غلاء أسعار اللحمة)

يا فقير مالك باللحمة   اللحمة أكبر داء
بتخلي العقل فحمة   وتعكر الأجواء
العدس يزيد السماحة   ويقرب الغرباء

(لبعض النساء)

يا واقفة قدام المرايا　　كتك كسر رقبتك
وشك فيه البلايا　　من زيادة حلاوتك
ما تخفي المكياج يا ليلى　　بدل ما تزيدي في غباوتك

(سعاد والرشوة)

حتى أنت كمان يا سعاد　　عرفت طريق الرشوة
أنثى وعلى غير معاد　　رجليها الطعمة الحلوة
حطتها في دايرة فساد　　ولا حول لينا ولا قوة

(غلاء المهور)

يا حبيبتي مهرك زيادة　　واحنا في ظروف طين
وأبوك رخم كالعادة　　بيطلب شمال ويمين
طب خليكِ جنبه يا مزة　　وشوفي إلي هيجيلك مين

(المزعجين)

يا مصحيني من نومي　　أرجوك حس على دمك
مش عارف أكمل يومي　　بسبب إزعاج أهلك
مش طايق خلاص هدومي　　يا فاكر الناس زيك

(إلى بعضهم)

الله يكون في عونك　　في العيد يا أبو العيال
منين تمارس فنونك　　علشان تجيب المال
من لبس لمدارس للحمة　　يا تدفع يا طلاق المدام في الحال

(شكوى من غلبان)

أنا بحبك يا مصر　　لكن كتير زعلان
الراتب ما يكفي الشهر　　بيطير قبل الأوان
وآه لو لعبت يا زهر　　وتحن على الغلبان

(في بعض النساء)

يا إللي أنتِ غاوية النكد　　الله لا يكسبكِ
اعملي من جوزك أسد　　وسبيه كمان يغلبك
الراجل كنزه في رجولته　　مش في أنوثة حضرتك

(حمار بلدنا)

يا حمار بلدنا　　لحمك كما الغزال
شُربة وحواوشي وكباب　　بيخلو المزاج عال
ما كفاية قضيت على البقر　　وبقيت في بلدنا حلال

(معدوم النظافة)

حبيبي مالك بتهرش   البراغيت عندك كتير
عمال تغربل وتنكش   ولا سعفان الغفير
يا حبيبي قوم استحمى   بدل ما تعدي الغير

(في بعضهم)

ولا تعرف الصديق   إلا في وقت الزنقة
يفوتوك في وقت الضيق   ووقت الحاجة لك خنقة
قررت أعامل الناس بالمثل   واللي يزعل يشنق نفسه مِيت شنقة

(لأهل الخير)

يا اللي ناويت تسرح   في البحث عن الخير
دع الكلاب تنبح   ودع القافلة تسير
لا الناس هيعجبها العجب   مهما عملت كتير

(ميزو المهدي المنتظر)

صباح الخير يا مصر   وتحية لكل البشر
آخر معجزات العصر   مولانا شبيه البقر
قالها وبكل فخر   أنا المهدي المنتظر
حقك يا عم الفشر   إحنا في زمان العبر
الهبل أصبح بوفر   عكس الدواء والهُبر

(في بعض النساء)

يا اللي خلعتي الحجاب عايزك تقولي الحقيقة
وشك ما بقاش هباب وملامحك مش بريئة
يا ترى عندك لسؤالي جواب ولا الخلاعة أحسن طريقة

(الرشاوي)

يا مساء الهبش والكلام الدبش
وفرحة الظالم وجعل المظلوم كبش

(سخرية)

حبيبي جيبك ماله مخروم يجي شبرين
لو أخدت ألف بحاله تصرفه في غمضة عين
راتبك معتش هتاخده ولو صرخت يومين

(في الأوزان الثقيلة)

حبيبي مالك تخنت وبقيت طول بعرض
ما بقتش شايفك ست أصبحت فيل في الأرض
يا تخسس وزنك بذمة يا فراقك أصبح فرض

(الشهيد)

يا عيني عليك يا شهيد يا راوي التراب بدمك
سايبينك في سينا وحيد ولا حد شايل همَّك
يا حزنك يالي ربيت وشقيت ويا كبدي من حرقة أمك

(إلى من تتعجل الجواز)

يا حلوة ليه عايزه النكد وبتدعي ما يفوت القطار

لو كان نصيبك أسد بجوازك هيكون حمار

خليك في حضن ماما بدل ما تدخليه النار

(إلى بعض النساء)

حباكم الله بلسان طويل أوله في مصر آخره في اليمن

أحق بقطعه جزارٌ بخيل يحاول بيعه فلا يجد ثمن

أصبحتم للرخامة والبياخة دليل والله إنكم نساء آخر زمن

(إلى الله)

وعندما أنظر حالي أشكر إياك على فضلك

أعيش الحياة ولا أبالي فأنا المحتمي في قربك

أعتزل الناس أياما وليالي حتى لا يشكوني إليك عبدك

(مرتعشة)

وسهرتي في برد الشتاء ذكريات بين الماضي والحاضر

تصاحبها نظرةٌ إلى السماء وخيال إلى العالم الآخر

هكذا نحن رحيلٌ وبقاء ورجاءٌ في رحمة القادر

(دعاء)

وفي يوم فيه ساعة إجابة   أرجو الخير لمن أحبهم

وأدعو الله مزيد المثابة   وأن يهديهم ويصلح بالهم

فهكذا الدنيا أيامٌ وتمضي   فأشبع النفس من حلاوة قربهم

(خواطر السندباد)

(أبو مسيلمة الكذاب)

صعد الإمام المنبر حتى يُلقي الموعظة

يستشهد بالقرآن والأحاديث ويُكثر من التذكرة

فقال: إن الفساد عم

والفسق عم

وهذا سر ما نحن فيه من الهم والغم

فوقف أحد المصلين يصرخ بقوة

ألست كبير المتقين والإسوة والقدوة

فقال: نعم

ألا ترى ما أرتديه من جلباب

أحدثك عن الجنة والنار والثواب والعقاب

ألا ترى لحيتي الطويلة

وسبحتي وأقوالي الجميلة

فقال: نعم أرى

لكن أفعالك يا شيخنا تتحدث بغير ذلك

بالرغم ما قلته لنا أفعالك تخالف أقوالكَ

ألست من تنافق ذوي المال

ألست من توافق دون سؤال

ألست من تلاعبت بالإسلام حتى تحوز الرضا

ألست من بدلت في الأحكامِ وجعلت غيرك فِدى

ألست من تنشر الفتنة صباح مساء

ألست من صنعت الفُرقة وتعاقر الحسناء

ألست من علمتنا كيف تكون التبعية

ألست من حذرتنا أن نطالب ببعض الحرية

ألست ألست ألست

توقف يا مولانا فلم نعد نطيق

الوضع قد أعيانا وأخطأنا الطريق

فصرخ الإمام هُراء هذا الذي تقول

أنا وارث الأنبياء وإن قدوتي الرسول

فضحك الرجل من هذا الخطاب

وقال: يا ساحر الأفهام والألباب

أنا لست في موقف المهاجم أو الحساب

ولكن اسمح لي أن أقول لك

بالرغم من تلك السبحة وما ترتديه من ثياب

أنت لست شيخنا

بل أنت أبو مسيلمة الكذاب

(شهداء القطار)

ظل الغلبان يفتش كيف الوصول إلى العنوان

فلا طائرة عندي ولا سيارة ولا حمار أمتطيه لهذا المكان

نعم وجدتها

سأقتحم هذا الزحام وأتوه بين هؤلاء البشر

فالمؤكد أنهم ذووا أرحام، وليست قلوبهم من حجر

جلس الغلبان يتأمل السادة الركاب

فهذا ينظر إلى هاتفه وهذا يتناول الطعام والشراب

وهذا يحرس عياله ويصرخ فيهم بقوة

وهذا يفكر في حاله ولا حول له ولا قوة

غفت عيناه من شدة الإرهاق

وارتخت أذناه وامتدت الساق

فظلت تداعبه الأحلام وهو يمسك بسرج حصانه

وضحكت له الأيام فجلس بين ثمار بستانه

ثم استيقذ من حلمه على صوتٍ عالِ

يضربه في صدره دون أن يبالي

أين التذكرة؟

الغلبان :ليست معي تذكرة

صرخ الكمسري إما التذكرة وإما الهلاك

قال: ليست معي

فرد :إذن هو الشباك

نظر الغلبان إلى من يجلسوا بالقطار

الجميع نشوان يستمتع بهذا الحوار

فاهتزت بداخله صرخة أين الرجولة أيها الجلوس
والجميع ينظر بلهفة ينتظر مصير هذا المنحوس
نعم إنه منحوس
أجلسه القدر مع أشباه النساء
حقيرٌ أو شهامة الرجولة منه براء
وضع الكمسري الغلبان في حالة من الاختيار
ثمن التذكرة الآن أو القفز خارج القطار
صمت الجميع انتظارا لنهاية القصة
القطار سريع إنها بالفعل متعة
أخذ الغلبان وضع الاستعداد
عيناه تدمعان من قسوة العباد
قفز الغلبان دون نجدة أحد
فإذا هو اثنان رأسٌ وجسد
والغريب في القصة وما يدمي العين
لم يكن الغلبان واحداً بل اثنين
هل أعجبتك القصة يا وطن الأسود؟
هل عرفت أن الغلبان ليس له وجود؟
سواء أعرفت أم لم تعرف
هكذا النهاية
دماءٌ تنزف وتنزف
ليست لها نهاية..

(شهداء الكهرباء)

خرج الطفل كي يداعب همسات الشتاء
وظلت ترتعش يداه من برودة هذا الهواء
فأمسك الحديد معتقداً أنه وجاء
فارتعش الجسم بأكمله وصعدت الروح للسماء
ثم سقط الجسم سريعاً على الأرض تحتبس فيه الدماء
فصرخت الأم يا ولدي قد كنت سعيداً بقطرات الماء
فما الذي ألقاك هكذا لا روح تنبض ولا لسان يتحدث بأشياء
فجاءها الخاطر يخبرها إن الضمير قد مات ولم يعد له بقاء
ليس ولدك وحدك يا سيدتي هو من صمت عن الكلام وغادر عالم الأحياء
فكم من طفلٍ أذهقت روحه نفسٌ خبيثة وعقل يتمركز فيه الغباء
فطفلك المسكين قد رحل ولن يكون آخر من يرحل
فكرامة الإنسان قد ضاعت في زمنٍ كثر فيه الإنحناء

(إلى زوجة أخي اعترافاً بالجميل)

مِن بيتِ الأكارمِ أشرقتْ عزيزةً   فجاء معكِ الخيرُ يا زهرةَ النبلاءِ
أُتيتِ من الأخلاق والشمائل فضيلة   تجملتِ بها روعة بين عموم النساءِ
وقفتِ بجانبي وقتَ الشدائد كريمةً   تبذلين الجهد بلا شكوى من كثرةٍ أوعناءِ
وإذا ما مرتْ عليَّ الحياةُ ثقيلةً   وعمّ اليأسُ نفسي في قادم الأشياءِ
رأيتكِ شعاعاً يحيل الحياة جميلةً   تحمل لنفسي أملاً في غدٍ وضَّاءِ
أمٌ حباها الله خصالاً أصيلةً   ورثْتها فترةً من سالف الأهل والآباءِ
فأخرجتِ قمرين شادي وآيةً   شمعتين أنارت لنا ظُلمة الأجواءِ
حاولتُ ردَ الجميلِ فما لي حيلةٌ   فكلّ الهدايا لا توفيكِ حقّ الوفاءِ

أهديكِ وسام الإجلال يفوح مهابةً   تنحني له الرأس يا ذات الكبرياءِ

أثابكِ اللهُ عني مآثر وفيرةً   وأمدَّ لكِ في العمرِ طولَ البقاءِ

وجعلكِ دومًا في الإيثارِ فريدةً   وزادكِ من فضله نُبلاً وحُسنَ ذكاءِ

أبقاكِ لنا اللهُ أختا جديرةً   بمحاسن الكلام متوجاً بخيرِ دعاءِ

(شمس تشرق من الغرب)

لمْ أكنْ أعرف أنّ في الكون شمسين واحدة في الأرض وأخرى في السماء

إلا عندما عرفتك يا فريدة نوعك ويا أجمل من أنجبت حواء

يرى الناس الجمال في الشكل والمظهر لكنك يا سيدتي تجاوزت هذه الأشياء

رأينا العلم والخلق تاجا فوق رأسك فأصبحت نوراً في ظلام الغرباء

امتزجت فيكِ المحاسن من جميع أطرافها فغدوت كالجبال لا تهزها الدهماء

فهذا عيدكِ في يوم ميلادكِ شموع تضاء وأخرى لا يفارقها البكاء

ينحني لك الورد خضوعاً وتذللاً ويخجل الياسمين من حديقتكِ الفيحاء

أيتها الشمس التي لا يغيب ضوؤها كل عام وأنت بصحةٍ وهناء

بارك الله فيك وجميع أسرتك وحماك من كل عين لا تعرف الحياء

.يا من جعلت مالك لغيرك وضربت أروع الأمثال في العطاء

أعلم قسوة الحياة بعيد عن بلادك لكنها رسالة من يسمو إلى العلياء

ادعي إلى ربك ورسالة نبيك ولك الأجر يوم نجتمع عند اللقاء

أزدادُ كل يومٍ فخرًا وانحناءَ لك يا مبعث النور في حالك الظلماءِ

فلا أملك لك إلا أن أرجو دعاءَ أن يباركك الله بمزيدٍ من النعماءِ

يا شمس العلم التي لم تعرف خفاءَ أمدّ الله عمرك على طول البقاءِ

(إليها)

نزف القلم إليك عطوراً

يتناثر أريجها في كل مكانِ

وبعد أن جف رأيت سطوراً

تروي قصةً في أسمى بيانِ

امرأةٌ نسجت من الحزن جسوراً

عبرت عليها إلى عالم النسيانِ

لم أزل بك يا سيدتي فخوراً

يا شمس الوفاء من بني الإنسانِ

لم أر منك ضيقاً أو نفوراً

فأنت للحياة والأمل عنوان

حان ميلادك فهبت شذوراً

تفيض عبيرًا في روعة البستانِ

فها نحن اليوم نبدي سروراً

بك يا أميرة الأخلاق في البلدانِ

لنشعل اليوم شموعاً ونوراً

ونهتف باسمك يا نسمة الوديان

لو حُق لي أن أبني قصوراً

لبنيت لك قصراً من المرجانِ

تعطرت سيرتك غياباً وحضوراً

فنلت التقدير في هذا الزمانِ

(الاستمارة)

يا حبيبتي ما هي العبارة
هل تريدين أن أمضي لك أية استمارة
أعلن فيها ولائي لكِ بمجرد إشارة
نعم أنا موافق
ولكن هل تضمنين لشخصي السعادة
هل تضمنين لي امتلاك الإرادة
هل تضمنين لي نهارًا سعيدًا
ويصبح رأسي فارغًا حين أضعه على الوسادة
هل تضمنين أن أجد الأمان بجوارك
هل تضمنين أن أجد راحتي في دارك
هل تضمنين أن تعطيني فرصتي
إذا ما فكرت يومًا في جدالك
هل تضمنين لي أن تشرِّفيني بين العوام
هل تضمنين ألا تأذينني بمر الكلام
هل تضمنين لي أن تحافظي على كرامتي
وتجعلين مَن حولك في حالة وئام
لو تضمنين لي كل ذلك أقولها بفخر وحرارة
أعطني يدكِ يا سيدتي كي أمضي لك ألف استمارة

(إلى الزمن)

أنا السندباد اللي فاهم
لعبك معايا يا زمن
يوم ألاقيك معايا مسالم
ويوم بايعني بأرخص ثمن
مهما كتبت فيك المظالم
كاتب علي أدوق الوَهن
أضحك لغيري بوجه باسم
وجوا نفسي سجين البدن
مهما تبدل فيا المعالم
أنا هفضل أقاومك سر وعلن
ومهما عطيت لغيري المغانم
أنا شاكر إلهي برغم المحن
ومهما نصبت لذاتي المحاكم
ثابت أمامك بدمعة شجن
ومهما حاولت معايا تساوم
الدنيا عندي محبة وسكن
وعمري لحالي ما كنت نادم
سواء أكون أو لم أكن
ربي يا داعي لكل المكارم
يسر أموري بفضلٍ حسن
واهدِ عبادك مظلوم وظالم
وأكرمنا جميعًا في هذا الوطن

(ما بعد الفجر)

صباح السعادة يا كل البشر
وأتمنى الإبادة لقلوب من حجر
الدنيا علمتني من الفنون ألوان
وفجأة وقفتني في ساحة النسيان
أشاهد جموع البشر في حالة من التوهان
ولما تمد البصر تلاقي شريد زعلان
مالك يا عم الجدع دمعك نازل يسيل
قال أنا قلبي اتوجع من زمن داير يميل
الواطي أصبح عالي ولا فيش عنده دم
والغث أصبح غالي والناس في حالة هَم
صبرك يا عم الجدع إحنا في زمن مغرور
دا سور ومهما ارتفع أكيد هيجي النور
ضحك بصوت مجروح وقال صحيح غلبان
طير وحيد مدبوح إيه يجني من البستان

(قالوا تزوَّج يا سندباد)

قالوا متى تتزوج يا سندباد
وتنعم كثيرا بقرب النساءِ
فقلت هل الزواج مبلغ الإسعاد
أم هو للإنسان شر البلاءِ
قالوا فريضةً فرضها رب العباد
وسنبقى عليها إلى وقت الفناءِ
فقلت لا أريد سميرة ولا سعاد
ولكن أريد صفات بلا عناءِ

أريدها غزالا يتراقص في اجتهاد

يحملني بعنفٍ إلى عالمٍ نائي

وليست فيلاً يتباطأ مثل الجماد

ولا بطنٌ تملأ فراغ الفضاءِ

لها بسمةٌ تسافر عبر البلاد

وليس بوزًا يلتوي وقت النداءِ

لها بديهةٌ حاضرة وذكاء يزداد

فلست من هواة الهبل أو عمق الغباءِ

لها طاقة تتجدد بلا نفاد

لا تعرف طريق الشكوى أو الإعياءِ

تتركني أمارس خصوصيتي بلا عناد

فلا تلتفت نحوي أو تجلس ورائي

إذا تحدثتُ بكلمة فلا تعاد

أرى فنونها دوماً في الطهي والشواءِ

فسخر الجميع وقالوا يا سندباد

أنت في الأرض ولست في السماءِ

الجواز قليله أبيض وكثيره سواد

فركِّز في الحور العينِ دون حواءِ

(المعلم المصري يشكو حاله)

أنا المعلم وبلا فخر
منحوا لشخصي تميزًا ومهابا
أعاني الفقر وأعيش القهر
وليس لي في البنوك حسابا
يتناقص راتبي من شهر لشهر
وأصبحتْ حياتي شقاءً وعذابا
قالوا لي هل تحب مصر
فقلت أعشقها مياهًا أو ترابا
قالوا تعطي دروسًا بلا حصر
فقلت جعلتموني أطرق الأبوابَ
فقالوا لأجلها تمسك بالصبر
وافنِ حياتك أقلامًا وكتابا
فقلت إلى متى أذوق المُر
وغيري يملؤها كفتةً وكبابا
ضاعت كرامتي وضاع القدْر
وشكاني الجميع ذهابًا وإيابا
لا يسندني في الشدائد ظهر
ولا تكريمٌ حضورًا أو غيابا
فانظروا لحالي يا أولي الأمر
ووفروا لراحتي الوسائل والأسبابَ
فلسنا أقل من نافخي الزمْر
ونحن المصلحون وهم للفساد أربابا
نبني الأجيال عمرًا بعد عمر
ويحوز غيرنا الأوسمة والترحابَ

(بعد القبض على اللبَّان بالرشوة)

أنا كان نفسي أكون مرتشي

وأملى جيوبي وأكون منتشي

أبيع ضميري ومش هاختشي

وأقول يا مصر هاتي كمان

الباشا جامعهم جنيه ودولار

في بيته راصصهم رصة خضار

شنطة في شنطة جدار بجدار

خايف عليهم من سن الفيران

يا بن اللبان صحيح فهلوي

ضحكت عليهم كتير بالقوي

لا حد شافك ولا حد دري

لحد رجلك ما جت يا مان

لكن يظل هذا السؤال

أظن ظلم ومال حلال

آسفين يا عم إحنا الحيتان

ويبقى السؤال الصميم المتين

هذه الأموال هتروح لمين

من حوت لحوت وتخين لتخين

ولَّا هتدخل جيوب الغلبان

(صباحات)

صباحك يا أختي فل وأنت كمان يا أخ

وزي ما قالت ستي الدنيا زي الفخ

إوعى يشدك جمالها لتبقى زي اللطخ

قفاك يشكي قلمها إلي بينزل سخ

(صباحات)

أخوكم السندباد بيصبح على العباد

وبيرجو الاعتماد على الواحد المتعال

يا كل لسان طويل لو كان معاك دليل

ماكنتش هتلقى سبيل لمزيد من قيل وقال

لكن هكذا البشر أحرار وفينا البقر

كتب علينا القدر غباء أهل الجدال

(صباحات)

على عقول جريئة حرة مش راحت ضحية

عقلك يا حبيبي ملكك ودا أجمل هدية

ليه تسيبه لغيرك وتصبح هفيه

خلي عقلك في رأسك ولا تكونش تابع

علشان وسط ناسك تتحدى المواجع

ودا أنت شايف حالنا في مصر الحبيبة

نادينا بالحرية أتاريها كانت عيبة

لكن ربك عاقبنا وبقينا في أكبر خيبة

ولا طولنا عيش ومش وبيتنا على الحديدة

الشعب خلاص اتفرق وبقينا بنعاني

ومطلوب مني أقرر إسلامي أو علماني
أنا بحب بلدي وهفضل أقول تاني
أنا مش تابع لحد واسكت خلاص يا لساني

(في حلاوة المولد)
صباح العسل والحلاوة أُم ألف جنيه
ادفع يا بطل مالك متنح ليه
شيل البلاطة واكشف عن المستور
وبطل لماضة لحسن تموت مزعور
هتدفع هتدفع حتى لو مش معاك
ولو فكرت تمنع هتاخد على قفاك
اسمع نصيحة واحد يُسمى السندباد
الدنيا زي الموالد بتلعب بالعباد
يا تدور معها وتسكت من غير مقولة آه
يا تثور على بلاها وتبقى الحمار أعلاه

(بعد تفجير الكنيسة وقتلى حلب)
من كنيسة المظلومين إلى غلابة حلب
يا رب أشكي لمين ومين يقولي السبب
ناس راحت تصلي وناس قاعدة في بيتها
فجأة في لحظة تجلي لاقوا جزاء عُزلتها
أنا عايز بس أعرف أنت تقصد مين
حد فيهم كان طَرف في سياسة المجانين
ملعون أبو الأيام إلي بتظلم بريء
لوحده يدفع آلام كلاب مالها رفيء

لكن هي الطبيعة وعادة كل زمان
ديماً تيجي الوجيعة على دماغ الغلبان

(السندباد يصرخ)
اشهد يا جدي خوفو اشهد يا جدي خفرع
بلدنا مش فيها سكر والوضع أصبح يفقع
توكتوك بخمسة جنيه ومفيش غير يلا ادفع
يرضيك يا حتشبسوت الناس خلاص هتموت
كاتم ومالي صوت ولا حد عايز يسمع
البيه هابشله هبشة ونايم تحت الفرشة
وعامل هيصة ودوشة وداير يكبش ويجمع
اربط يا عم الحزام والربطة تكون تمام
ويا ريت تحط اللجام وإياك تفكر تخلع
أنا ليا قصة كفاح في الخليج كان النجاح
خزنة بدون مفتاح قالت يا حلو ارزع
يعني دا آخر كلام الحل هو الحرام
اهبش على الدوام واهرب علطول وفلسع
خسارة يا مصر خسارة نفضل في حالة مرارة
والكلمة إليكِ يا جارة مش هنسكت ونركع

(في ليلة العيد)
بكرا العيد ونعيد وندبح بقرة سي السيد
والسيد ما عنده فلوس قاعد حاير منحوس
مالك بس يا سي السيد الوضع زفت وماهو جيد
طيب يعني نعمل إيه سلفني يا حودة ألف جنيه

الله يحنن يا مسكين الحالة زفت وزي الطين

والعمل إيه يا حودة بلدنا ضايعة ومنكوبة

قالها سعد زمان مفيش فايدة مهما إن كان

يا سيد بطل يلا نقوم أجمل حاجة هو النوم

عيش أحلامك في الأحلام الدنيا جميلة في الأوهام

يا حودة ربك والله كريم يفرجها في لحظة بوضع سليم

يفرجها إزاي مثل ما قال تغيير الحال والله محال

يا سيد والله العيب فينا إحنا إلي زرعنا وجنينا

جوانا لازم يتبدل ربك يفرجها وتتعدل

كدا يا سيد ولا إيه وإياك تقولي ألف جنيه

(على نسق يا بتاع النعناع)

يا بتاع النعناع يا منعنع

الحياة غالية وهتولع

ولما أسأل ليه كدا

يقول ونا مالي ما اتفرقع

يا عم حاسب على الغلبان

مش لاقي الراحة وخلاص تعبان

ما تخف يا عم في فواتيرك

يقولي اسكت مش هسمع

يا بتاع النعناع يا منعنع

يا عم فاض بيا ومش قادر

أنا جيبي مفلس على الآخر

ارحم بلدنا وأهاليها

ضحك وقالي ما تتبرع

يا بتاع النعناع يا منعنع

أجبلك منين بس يا عم

الناس عايشة في هم وغم

قالي مش كفاية إنك عايش

أنا قلت إيوا وبتوجَّع

يا بتاع النعناع يا منعنع

(إلى مصـــر)

يا بلدي فيكي العجايب فيكي العقول تحتار

زرعت فيكي الأمل طلع الأمل غدَّار

حِكمة وقالوها زمان الدنيا زي الخيار

يوم لك ويوم عليك مش ثابتة باستمرار

لكن معاكي الحال ساكن كما المسمار

صرخ شبابك في لحظة إحنا شباب أحرار

لا قهر هيهمنا والحل في المنشار

نقطع أيادي الخونة إللي جابولنا العار

لكن يا ألف خسارة على الثورة والثوار

الحلم طلع كابوس والليل ما بانله نهار

والثورة طلعت فاشوش خدها الغراب وطار

العلّة طالت يا بلدي والجرح زادني مرار

دواكي مش عارف أجيبه والعقل بات محتار

هل هو عند طبيب أو وصفة من عطار

أو بتر عضو خبيث أو حتى كي بنار

عايز إجابة يا عالم بدل السكوت هنهار

اليأس أصبح حقيقتي وهروبي آخر قرار

مصر يا معادلة صعبة يا لغز لف ودار
لا حد عارف يحله ولا حتى فيه اختيار
يا بلد المثقف فيها غبي كأنه حمار
أجندة وماسكها في إيده وبوقه فيه مزمار
يغني ويمدح في سيده صاحب الفخامة زنهار
كرسك يا بلدي يجنن تتغنى فيه أشعار
يقلب شريفك حرامي فاسد حقير سمسار
طالع واكل نازل واكل ناسي الزمان دوار
والمشي فيكي بالبركة والعلم فيكي بالزار
والذكي فيكي مجنون والجد فيكي هزار
يا رب يا خالقني يا مثبت الأفكار
ثبت ولاد وطني على رأي ماله عوار
واجعل طريقهم واحد من حب واستقرار
واحمي تراب بلدي من زمرة الأشرار

(الحكاية إيه)

أنا عايز أقول كلام لكن غير الكلام
يعني مش مجرد تحية أو إلقاء سلام
أنا عايز أقول يا عالم هي الحكاية إيه
الفيس أصبح معركة والكل بيردح عليه
ما بقتش بقرأ جرايد ولا نشرات أخبار
وأصبحت شخص محايد في عالم الأشرار
يعني بصراحة واضحة الكل صار معيوب
وادي النتيجة الجارحة لا غالب ولا مغلوب
بلدنا هي الخاسر في نهاية الموضوع

والكل أصبح شاعر بالاحتياج والجوع
غير إللي قاعد في بيته وقلبه بات موجوع
على فقد ابنه حبيبه من غير صراخ مسموع
يعني النهاية يا عمي من فضلك روح اتلم
كفاية شايل همي يعني مش ناقصة غم
الكلمة الحلوة صدقة لو حتى من غير فهم
أرجوك حاول تقولها وخلي عندك دم

(نموذج من دردشات الفيس)

كتب إليها على الفيس بوك قائلاً من أنت يا أميرة الأميرات
فقالت يا هذا هل تعرفني؟ فقال نعم في الخيال وروعة الحكايات
فكتبت له هل أنت متزوج؟ قال نعم ولكن أعاني المرارات والويلات
فزوجتي لا تعرف من الأنوثة إلا اسمها أشم منها البصل مع أسوء الغازات
فقالت إني مثلك أعيش وحيدة أملك قلباً ولكني في عداد الأموات
فزوجي لا يعرف شيئا عن الحب ولا يعطيني من المال إلا الفتات
فقال هل من الممكن أن أرى صورتك؟ كي أستزيد روعةً يا فاتنة الفاتنات
فقالت نعم ولكن بعد أن ترسل صورتك ؛ حتى نكون على نفس المسافات
فأرسل كل منهما للآخر صورته فخيم الصمت وتوقف الاثنان عن الشات
فقالت أين أنت يا هذا؟ فقال مع زوجتي حبيبتي يا نسناس الغابات
طالما أنت بكل هذا القبح فلماذا تسمين نفسك بأميرة الأميرات
فقالت أنا أَمْ أنت يا شبيه القرد يا من تتسع أذنك لأربعة حيوانات
فكان الحظر مصيرهما معاً وهكذا كل يوم تتوالى التفاهات

(على نسق أنا عايز صبية)

أنا عايز صبية
تكون إيديها عفية
تطبخلي على الصنية
بط وحمام وخضار
تسيبني أروح أتجوز
من غير ما في وشي تبوز
وألاقيها ما بتتأوذ
لو مرة طلعلي فار
يبقالي لاب صُغير
وفيس بالناس منور
ولا مرة ورايا تدور
عن مزة بحبها
وهي تدخل وتطلع
ما تقولش مرة ادفع
ولا تشكي يوم وتسمع
نصيحه لأمها
لو حتى مشت من الدار
أجي من المغربية
تجري من الدار عليا
تاخدني من إيديا
وتقلعني الشراب
ما تقولش كلمة هات
وتسمعني السكات
وتوضبلي الحاجات

وترقيني ليل ونهار

تعملي نسكافيه

وتقولي يا جوزي يا بيه

لو حتى ما فيش جنيه

ترضى من غير هزار

(قذف حلب في شم النسيم)

الدنيا ربيع

والطفل رضيع

مش راضي يسكت

علشان هيضيع

يا زمن المرارة

والناس الحجارة

الرحمة يا عرب

ما كفاية خسارة

فينك يا سعاد

تشوفي العباد

علشان تغني

على حال البلاد

فين الربيع

والقلب البديع

رحمتك يا ربي

على هذا الصريع

الكلب الوضيع

إللي عامل شجيع

بيظهر شجاعته

على الحمل الوديع

يا حلب الشهباء

ليك أخلص دعاء

من مصري ما له حيلة

غير صوب السماء

(قدوم رمضان)

رمضان جانا

يا غلبانة

ابنك مقتول

وإحنا حزانة

هاتولي فانوس

بلون مطموس

يبكي ويشكي

لوطن متعوس

وحوي يا وحوي

قبلي وبحري

دم بيسفك

مينا وبدوي

حالُّو يا حالُّو

فيه ناس بيصلو

دخلولهم فجأة

ضربوا وولوا

طب فين الجاني

أنا عايزه أمامي

بشحمه ولحمه

مش شخص هلامي

(احكي يا شهرزاد)

(حوار شهريار مع شهرزاد 2019)

جلس شهريار في غرفته كالمعتاد
ينتظر قدوم حبيبته شهرزاد
ثم أخذه التفكير
فقد حان له وقت التغيير
فأطلت شهرزاد بوجهها الشاحب
تتأوه بشدة من كثرة المتاعب
وقالت بلغني أيها الملك السعيد
ذو الرأي الرشيد
فقال لها قفي يا شهرزاد
فإنَّ زهقي وقرفي قد زاد
فقد سئمت تلك الحكايات
ولم أعد أتحمل مزيداً من الحوارات
انظري إلى نفسك ماذا حصل
فلم أعد أشم منك غير رائحة البصل
ولم يعد لك هذا البهاء
غربت أنوثتك التي كانت تجذبني كل مساء
وقد حان وقت مسرور
لينزل عليك سيفه المسحور
فبكت شهرزاد مُر البكاء
وقالت يا مولاي أين الوفاء؟
هل تقتلني بعد كل هذا العمر؟
لم أسمع منك فيه أي كلمة شكر
أسهر على راحتك حتى يأتي الصباح

وتغفل عينانا عند صوت الصياح

فقال يا شهرزاد إني أشعر بالملل

وأريد تجديداً يمنح قلبي الأمل

فقالت شهرزاد فلماذا لا تقدر حاجتي؟

وتبحث أيضاً عن سعادتي

أم أنها الأنانية

وعشق النفس الشهوانية

يا مولاي دعني وحالي

واتركني كي أربِّي عيالي

ولا تتركني لمسرور

واذهب أنت حيث تريد المرور

فقال يا شهرزاد إلى أين ستذهبين

هل إلى حضن رجل آخر سترتمين؟

فقالت يا مولاي أنا أُم حنون

ولست مثلك يصحبني الجنون

فأنا متعددة العواطف

أُمٌ وزوجة وقلب يلاطف

لكنك لا تعرف إلا الغريزة

وحب النفس وصيد الفريسة

فقال مهلاً يا شهرزاد

فقد أوجعتيني بألفاظ شداد

ثم غلب شهريار النعاس

وبدأت في حلمه مجريات الأحداث

فقد ضرب مدينته زلزال

فهرب وزوجته والعيال

ثم ذهبا إلى مكان عجيب

تأخذ فيه الطبيعة بكل قلب لبيب

ثم دقق شهريار النظر

فوجد رجلا يمعن في شهرزاد البصر

فقد أبهره الجمال

وأخذ يداعبه الخيال

فقال من أنتِ أيتها الرائعة

يا من سحرتيني بتلك الأعين اللامعة

فأخذت شهريار الحيرة

واشتعلتْ في نفسه الغيرة

وأقبل على الرجل بعنف شديد

وقال له من أنت أيها العربيد

فقال له أنا ملك تلك البلاد

ولن أترك هذه حتى أحوز الوداد

فإياك أن تعترض طريقي

فالقوة معي والمُلك يا صديقي

وأخذ الرجل شهرزاد وطار

وترك شهريار وحيداً منهار

وأخذ يصرخ يا شهرزاد

ماذا سأصنع مع هؤلاء الأولاد؟

ثم جلس يصاحبه البكاء

ينعي شهرزاد وينظر للسماء

ثم فزع شهريار وفتح عينيه

وتذكر هذا الكابوس وما حدث إليه

فوجد شهرزاد بجانبه

تحنو على رأسه وتداعبه
وقالت ما الذي أفزعك؟
وأدهشك هكذا وأزعجك؟
فقال لا شيء يا نور الحياة
يا نبض قلبي وطوق النجاة
يا شهرزاد أرجو منكِ السماح
وأنا تحت قدميكِ حتى يدنو الصباح
فقالت شهرزاد بصوت حنون
يا زوجي الحبيب المجنون
أنا لست منك بغاضبة
ولا أخشى منك سوء العاقبة
لكنه قلبي الكبير
الذي أحبك فأصبح أسير
فهيا نواصل الحكاية
ولا تبالي بوقت النهاية

(شهرزاد والسندباد)

سندباد: أشتاق إليكِ يا شهرزاد

أن أجلس معك في نفس المعاد

شهرزاد: تجلس مع مَن يا سندباد

وأنا مشغولة مع الأولاد

وخلفي كومٌ كبير من الغسيل

غير المسلسل الهندي والفيس الجميل

سندباد: وأين أنا من كل هذا يا حبيبتي

إنني أبحث عن راحتي وسعادتي

ولن أجد كل هذا إلا بجوارك

حين أمزج خيالي في نسج خيالك

شهرزاد: يا سندباد استفق من هذه الأوهام

واخرج لتبحث لنا عن مزيد من الطعام

فتلك الخيالات قد ولَّى أمرها

وأصبحنا نقاسي ويلات الحياة ومرها

ألم تر كيف ارتفعت الأسعار

والمدارس على وشك والدروس نار النار

سندباد: يا شهرزاد أريد مزيدا من الرومانسية

ودفعة قوية من الحب والحنية

فالحياة الزوجية ليست في هات

ولكن هي مشاعر حتى يوم الممات

شهرزاد: يا سندباد لم يعد عندي جديد

فأشعر أن مشاعري قد نفد منها الرصيد

سندباد: إذن فإن الحل في الزواج الثاني

ولا تحدثيني عن قلبك الذي يعاني

إلى اللقاء يا زوجتي شهرزاد
وإلى بداية البحث عن دوائي والزاد
فأنتِ من جنيتِ به على نفسكِ
ولعلّه عقاب ينسيك غدكِ وأمسكِ

(احكي يا شهرزاد حوار الشيطان مع السندباد)
كنت أجلس والليل سكون
فظهر فجأة إبليس الملعون
فقال: وحشني يا سندباد
فقلت: ما بك يا عدو العباد
فقال: أريد بك الخير
وأن أغيظ بك الغير
فقلت: كيف يا وجه النحوس
فقال: ألا تحب الفلوس
فقلت: نعم ولكن من حلال
فقال: حلال إيه في تلك الأحوال
الدنيا صعبة والحياة مُرة
والروح حلوة فاجعلها حرة
قم لتهبش ما استطعت من جيوب الناس
ولا تجعل في قلبك ذرة من ضميرٍ أو إحساس
ألا ترى النساء يتسابقون في عرض الجمال
فمتع نفسك بملامسة أصحاب الحُسن والدلال
واجعل لنفسكَ بين الناس أكثر من وش
ولا تقاوم سر الغنى الفساد والغش
قم يا سندباد دون أي تفكير

فالحياة جميلة والمُتع كتير
فقلت له: اتركني يا ملعون
هل قال لك أحد إنني مجنون
فأنا أتشوق لرؤية رب العالمين
وأتطلع إلى الجنة والحور العين
فهن الجمال الذي لا يزول
والمتعة التي لا تعرف المنطق والمعقول
فاغرب عن وجهي الآن يا لعين
واتركني أنام بلا وسوسة أو رنين
ونام السندباد حتى أدركه الصباح
فتمثلت له الحياة والصبايا الملاح
فتذكر ما دار بينه وبين اللعين الرجيم
فقال: رحمتك بعبادك يا رحمن يا رحيم

(حكاية شهرزاد عن سعاد)

بلغني أيها الملك السعيد
ذو الرأي الرشيد
أن سعاد كانت تجلس على السرير
وبجانبها زوجها المسكين الفقير
فقالت: يا زوجي أعاني البرد والسقعة
فقال: وأنا أعاني الخيبة والفقعة
ثم تناول الريموت وفتح التلفزيون
فوجد أصحاب العهد الميمون
وهو يحاول البكاء على ما نحن فيه
قائلاً لقد أثقلت عليكم بما لا طاقة لكم بيه

فصبرٌ جميلٌ وستحلو لنا الأيام
لم يعد إلا القليل وتتحقق الأحلام
فنفضت سعاد الغطاء من على رجليها
وظلت تصرخ وتصرخ ثم تشاور بيديها
مش لاقيه يا عم السكر في السوق
وقال زوجها: جيبي منفض وتايه مخنوق
فقال لزوجته: هل تعرفين أحلام؟
فقالت: لا أعرف إلا جارتنا أوهام
فقال: يا وليه يلا اقفلي التلفزيون
قبل أن أصاب بحالة من الجنون
فحسبنت سعاد وقالت: الأمر لله
وألقى الزوج رأسه وتمددت قدماه
فقالت: هل تتركني لوحدي وتنام؟
فقال: ماذا أفعل لعلّي أجد أحلام
اتخمدي يا وليه أهي أيام بتفوت
الدنيا رايحة جاية وبكرة يجي الموت

(احكي يا شهرزاد القمة العربية)

بلغني أيها الملك السعيد
ذو الرأي الرشيد
أن مجموعة من حكام العرب
ممن جلبوا لشعوبهم الضغط والجرب
قد جلسوا لمناقشة بعض الأمور
ومنهم الواقع والجاهل والأهبل والمخمور
وقد انتهوا بنتيجة فور هذا الجلوس

مضمونها أن نزود شعوبنا مزيداً من اللبوس
والشعوب تقبع في حالة من الفقر الشديد
وكأنهم في وادي وحكامهم في وادٍ بعيد
وقد اجتمعوا على أن يتخذوا قرار
والجنيه يبكي والريال يغني ويتراقص الدينار
فما أشبه قمتهم يا مولاي بمسرح العرائس
تتحرك هي وأحبالها في يد وحش الفرائس
يصدر أوامره من بلاد العم سام
وهؤلاء ينفذون قبل إتمام الكلام

(حكاية شهرزاد مع الفسيخ)

بلغني أيها الملك السعيد
ذو الرأي الرشيد
أنَّ سعاد وزوجها نعيم
عندما حل عليهما شم النسيم
التفتت إليه بوجه حنون
وقالت له: إني أحبك بجنون
فقال: ماذا تريدين من وراء هذا الغرام؟
فالمؤكد أن هناك مطلبا عقب هذا الكلام
فضحكت زوجته وقالت: يا لك من قاسي مخيف
نعم أريد كيلو ونصف من الفسيخ
فنهض نعيم من فراشه بشكل مذعور
وأمسك شعرها ثم أطبق في الزور
وقال يا امرأة هل تعلمين ثمن الفسيخ
فقالت: هل تظنني من كوكب المريخ؟

لكن مزاجي يتهافت عليه بشكل رهيب
فمحلاه مع فحل بصل يعلي المزاج ويطفي اللهيب
فقال: اكتمي يا امرأة واسمعيني السكات
فلن أطيق رائحتك وما تخرجيه من غازات
فنامت سعاد في بكاء وعويل
وظلت تنكد عليه ساعات الليل
حتى رضخ إليها كالحمار المهزوم
فظلت ترقص حتى أخذها سلطان النوم

(حكاية شهرزاد مع ارتفاع السكر)

بلغنى أيها الملك السعيد
ذو الرأي الرشيد
أن السكر عندما زاد وارتفع
أصاب الناس الإحباط والوجع
فدخلت سعدية على زوجها حسين
تتلاحق أنفاسها وهي خالية اليدين
فقال لها: ما بك يا ولية
فقالت: تعبت لما حفيت رجلية
فظللت أبحث وأبحث لما وسطي اتحش
وكأني أبحث عن إبرة في كوم من القش
وفي كل يوم تشرق فيه الشمس
تخرج سعدية وتعود وقد أصابها اليأس
فنظر زوجها إليها في حالة من العجب
فقال لها وهو في حالة من الطرب:
أرى وزنك سعدية قد نزل وخف

فقالت: طبعاً من كثرة التدوير واللف

فقال: أحمدك وأشكر فضلك يا كريم

لقد فعل السكر ما لم يفعله الرجيم

فيا من تريد لزوجتك جسم سمبتيك

اجعلها تبحث عن السكر لتجد ما يرضيك

(احكي يا شهرزاد ما حدث في صباح العيد)

بلغني أيها الملك السعيد

ذو الرأي الرشيد

أن زوجة الحاج وحيد

قامت من نومها صباح العيد

وقد ارتسمت على وجهها أجمل ابتسامة

أما وحيد فكان يبدو في دوامة

فقالت: ما بك يا وحيد

مالي أراك حزينا شريد

فقال: ومن أين تأتي السعادة

ومصر تتناقص من أرضها السيادة

فقالت: يا لهوي منك حرام عليك

اليوم عيد مش ناقصة نكد الله يخليك

فقال لها: يا ولية دا أرض بلادي

أعز مني ومنكِ ومن أولادي

فقالت: يا وحيد نحن على قد الحال

اشغل نفسك بحياتنا ومصروف العيال

واترك السياسة لمن يفهمون فيها

فما حيلتنا لو باعوا جميع أراضيها

فضحك وحيد ضحكة تملؤها السخرية

وقال: يا امرأة إنها سياسة من لا يفهمون الوطنية

إنها سياسة التاجر عند البيع والشراء

لا وطنية ولا ذمة ولا حتى انتماء

فقالت: يا راجل شكلك مش عايز تفسحني

إديني العيدية وشد حيلك علشان تفرحني

فقام وحيد من سريره يعتريه الغم

يحدث نفسه من شدة القرف وكثرة الهم

لكن قال ما ذنب العيال

اليوم عيد ولعلّ الله يغير الحال

(احكي يا شهرزاد أمينة السمينة)

بلغني أيها الملك السعيد

ذو الرأي الرشيد

أن أمينة كانت تمشي في الشارع

تراها الأعين وتقرع خطوتها المسامع

فأوقفها أحد رجال المرور

وقال لها في تناكةٍ وغرور:

ما كل هذا الوزن أيتها البلهاء

بالطبع تقضين وقتكِ في الطبخ والشواء

ألم تسمعي عن شيء اسمه التخسيس

فلا تبالغي في الطعام كما قال الرئيس

فضحكت أمينة وقالت في اندهاش:

أي طعام تتحدث عنه أيها البكاش

ألم تعلم أننا نعاني الافتقار

فلا مال يكفي ولا تقوى في الأسعار
انا أرملة مسكينة وعندي ثلاثة أولاد
أعيش في وطني حزينة أتوسل لهم العباد
يمر اليوم علينا أحياء كالأموات
وتخرج الحكومة علينا الصبر والثبات
هل تعلم يا مسكين لماذا بطني كبيرة
بداخلي أمراض السنين ولا أُعالج لأني فقيرة
بيتي لم يعرف اللحوم منذ زمن طويل
وتزيدون علينا الهموم وتقولون الصبر جميل
اتركني يا طائر العقل أمضي لحالي
تظنون أن الكلام سهل والناس لا تبالي
فوضع رجل المرور رأسه في الأرض
وأدرك أن الطعام لا يصنع الطول والعرض

(احكي يا شهرزاد فاتورة الكهرباء)
بلغني أيها الملك السعيد
ذو الرأي الرشيد
أن الكيل قد طفح وزاد
مما وصل إليه حال العباد
حيث دق الباب صباح اليوم
عليه المحصل ذو الوجه المشؤوم
فأخبرني أن الفاتورة مائتان وسبعون
فأصيب عقلي بحالة من الجنون
فانا لست ممن يضيء الأنوار باستمرار
ولست من هواة الاستحمام بالساخن ليل نهار

فقال لكَ حق الشكوى ولنا حق السداد
فللحكيم مقولة قد حفظناها في تلك البلاد
الدفع أولا ثم اشكُ من تشاء
فالشكوى مكفولة لمن أصابه الإيذاء
وتأكد أن حقك سيعود إليكَ وأكثر
لكن عند من؟ إنه عند أم ترتر

(حدث بالفعل)

بلغني أيها الملك السعيد
ذو الرأي الرشيد
أن السندباد بعد أن استفاق من النوم
أخذ يبحث عما يعينه طوال اليوم
فذهب إلى المطبخ في حالة من الحماس
يبحث عن الكابتشينو والسكر بداخل الأكياس
فإذا بحركة غريبة من تحت الأقدام
شيء يهمهم ويهمس دون أن ينطق كلام
فأدرك السندباد على الفور أنه فار
فقال يا فكيك وأخذ في الفرار
ولا شرب كابتشينو ولا حتى نسكافيه
وقاعد دماغه هيفرقع ومش عارف يعمل إيه

(السندباد المسحراتي)

أنا المسحراتي اللي عاشق ترابك يا مصر
أصبحت تايه ما بين ولادك، فريق رافضني والتاني قهر
الكل عايش على وهم، عاش فاكر آماله هتكون في شهر
لكن الحقيقة فيه ناس بريئة في بحور غريقة بتنحت في صخر
وفيه ناس بطونها خلَّت قلوبها تبيع ضميرها ونازلة عصر
يعني الحكاية منذ البداية أجندة جاية العب يا زهر
والزهر دار في كل دار يبغى المصار فرار وكر
يا بلدي قومي بقيت في يومي وفي عز نومي أقول يا صبر
والصبر طال والحظ مال وحالنا حال ياما نفسي أشوف نورك يا فجر

(مسحراتي نوال السعداوي وإيناس الدغيدي وإقبال بركة)

مسحراتي، كاره حياتي، من بوم يوماتي، فاق الرَّجيم
الاسم أنثى، والشكل خنسى، أشكال لا تُنسى، أشباه حريم
بداية المقال، خرجت نوال، بفكرة وسؤال، قال إيه في الصميم
لِمَ لا نساوي، بين ليلى وسخاوي، دا الفكر السماوي، جامد عقيم
دا جسمي ملكي، أصنع بيه ما أبغي، أولع فيه وأزني، مالي شأن بالتحريم
بنتي تتسب ليا، مش لأبوها الهفيه، ماماتها ميه الميه، لكن باباها غشيم
لكن شوف البجاحة، إيناس رمز الوقاحة، هي تموت في الأباحة، والعهر المستديم،
قالت مالها الخمور؟ وترسيخ معنى الفجور، الدنيا نازلة تدور، وإحنا كما الهشيم
يعني يا حاجة إيناس، العهر بقى مقياس، لرفعة كل الناس، وكل أساس سليم
وفي يوم من غير حساب، إقبال كما الغراب، قالت شيلوا الحجاب، مالكم متعممين،
إيه يعني قطعة قماش، على الراس مثل الشاش،شعرك يا حلوة بلاش،تداريه بالتعتيم
أنا شغلي هو الدفاع، عن كل حق مضاع، أصل الحقيقة صراع، مع الفكر القديم

آه يا ثلاثي الجِزَم، نساء لكن رِمم، وجودكم مثل العدم، ومصيركم الجحيم
لا هيئة نقول ستات، ولا فكر ياخد وهات، بالذمة دول أمهات، يستاهلم التكريم
إقبال إيناس نوال، واخدينها شهرة وجدال،دا حتى مش فيه جمال، يجعل لساني حليم.

(مسحراتي أصحاب الأوزان الثقيلة)

مسحراتي أنصح ليلاتي مراتي وحماتي الوزن يا مؤمنين
قال أهل زمان، الرحمة في الأوزان، ما تخفِّي يا حجة حنان، وبلاش أكل السمين
والله أجمل عيشة، الست لو تبقى ريشة، تأمرها تشيل الفيشة، تفعل في غمضة عين
لكن الوزن الثقيل، كأنك جنب فيل، طول النهار والليل، تغني أروح لمين
اسمعيني من غير لماضة، اديها حبة رياضة، فجأة تلاقي السعادة، ترفرف بجناحين
الزوج محتاج لطاقة، والطاقة عايزة الرشاقة، يعني من غير لباقة،خليكِ عود ياسمين
قالها طبيب شهير، التخن دا شيء خطير، بيقرب المقادير، ويطوي أحلى السنين
اوعى الشيطان يوز، ويقولك التخن عز، قوليله قوم وفز، دا أنت صحيح لعين
أنا عايزة أكون مانيكان،وأجري في كل مكان،أخطو كغصن بان،في كل وقت وحين
عايزني أكون مجنونة، ليل ونهار مكرونة، ولحمة ويا التونة، وأغني يا ليل يا عين
شفت الحاجة أم سمير،تخنت بشكل خطير،راح جوزها بدون تفكير،جايب عليها اتنين
ويبقى السؤال مطروح، قبل البكا والنوح، وزنك يكون مسموح، للجري والتمارين

(مسحراتى الموت)

مسحراتي تمضي حياتي عارف مماتي دا شيء مكين
يا نفس مالك خايفة المهالك دا كله هالك ويبقى المعين
حقيقة واضحة العمر لحظة يفوت في لمحة لو كان سنين
في اليوم حاضر في الغد غادر سكن المقابر وأصبح دفين
لو بيك نفور أو مسكك غرور زور القبور تلقى اليقين
طب ليه العناد مع رب العباد الظلم لو زاد عذابه مهين

في إيدك قرار وحالة اختيار في جنة أو نار مصيرك رهين
فعليك بالوقاية من كل الخطايا هتحوز العطايا والأجر الثمين
فالزم حدود الأدب مهما يكون السبب الحل مش في الغضب بل في السماح واللين

(مسحراتي حضرات المشايخ)

مسحراتي بدور ليلاتي
قضيت حياتي قاصد كريم
قالوا في الأمثال الدين له رجال
برغم ضيق الحال القلب كان سليم
لكن يا ميت خسارة
الدين أصبح تجارة
اديني رهن إشارة
أفتيلك في الصميم
شيخنا يا جوز الأربعة
واللحيه متلمعة
علمني أكون إمعة
وارتاح من الملاليم
هعمل زيك تمام
وأبكي وقت الكلام
وأردد حلال وحرام وأنفذ المراسيم
حبيبي مبروك عطية
مفتي الست الولية
عاملها مسرحية
واضحك على التنغيم
يا شيخنا فين الوقار

ومهابة الأخيار

ولا بكلام هزار

هتحوز على التفخيم

أما الباشا الكبير

إللي مالوش نظير

رقاص بشكل خطير

العم وجدي غنيم

طايح في كل البشر

ولسانه زفت وقذر

وفيه كل العبر

وفاكر نفسه حكيم

يلف في البلاد ويحرض في العباد

ويقول هيا الجهاد

وعايش في نعيم مقيم

على الموضة آخر شياكة

الجِندي ملك الشاشة

تؤمر أوام يا باشا

في الحلِّ والتحريم

معاك منين ما تعوز

في يجوز أو لا يجوز

شاور وقول أراجوز

تلاقيني بالتعظيم

لكن شيخنا الجليل

علامة مالوش مثيل

لكن فجأة الجميل

بقى رهن لأبي تميم

يا شيخنا القرضاوي

أفتيت الفتاوي

فحدثت بلاوي وناح اليتيم

قاعد تفتي في قطر

ولا همك دم البشر

والكل راح وانتشر

في كل مكان لطيم

يرحم شيوخنا العظام

إلي حفظوا المقام

فنالوا الاحترام والتقدير العظيم

(مسحراتي صديقي الغالي شريف عبد السميع)

مسحراتي أبحث في ذاتي

عن توأم حياتي وأجمل الأشياء

في بلاد الأمريكان طائر بقاله زمان

فارس من الفرسان سطر رحلة شقاء

بخطوة من ألف ميل وفي ظل طريق طويل

لقينا ابن النيل بيسمو في العلياء

الدنيا مثل الطيف بتمر مرور خفيف

لكن صديقي شريف قصة ليها البقاء

شهامة ابن البلد في الشدة يصبح سند

تشوره تلاقي المدد طوق وقت النداء

أعشق معه الحوار والعفو في الاقتدار

والصبر وقت المرار والبِر بالأقرباء
لو أحكي بدون تفصيل عن نبل صديقي الجميل
والله ولا ميت دليل يوفيه حق الثناء
أقسم بالله يمين إني على مر السنين
ما لقيت مثيله اتنين صدق وصفاء ونقاء
ويميني من غير مجاملة ما فيه نفاق ومبالغة
بالطبع أصل المحبة من حب رب السماء
أنجب فارسنا الهُمام نسر مثل السهام
في وسائل الإعلام إشادة ومليون لقاء
الابن أصبح حكاية والأب نقطة بداية
تشجيعه خلى الهواية بطولة من غير عناء
الشبل عمر الصغير من يوم ليوم تقدير
بفضل فارسنا الكبير في كافة الأنحاء
وأنا بدعي يا رب البشر تحفظله سارة وسمر
من كل شر وخطر وأعين السفهاء
أنا مش شاعر بديع يا شريف يا عبد السميع
لكن قلمي الوديع أسير أهل الوفاء
بيقولوا الناس معادن ذهب نحاس
ولكن أراك في كل الأماكن جوهر من غير غطاء
فتقبل أجمل تحية ممزوجة بأجمل هدية
دعوة بنية نقية يشفيك من كل داء
وتعود لينا بسلام من غربة ثلاثين عام
دا مهما يطير الحمام حنينه لأرض الآباء

(مسحراتي الأخت الفاضلة إيمان)

مسحراتي بدعي ليلاتي وأقول يا هادي ارزقني بخير كتير
وفي ليلة جاد الزمان بأختي العزيزة إيمان
اسم ومعنى وكيان يستاهل التوقير
قليل ما بينا الكلام يدوبك تحية وسلام
لكن كفكر عام واضح ومستنير
قصتها قصة كفاح بعد ما راح اللي راح
قالت مفيش جراح تمنعني من المسير
وهبت حياتها بأمانة من أجل أعظم رسالة
أمومتي هي المكانة وشهادة التقدير
يبهرني فيها الحياء والصمت في الكبرياء
والقوة في الابتلاء ورضاها بالمقادير
عايشة حياتها بسهولة وفي الشدة معنى الرجولة
قوية لكن خجولة مهما كان المصير
أنا برسل إليها سلام
وبدعي لها مع الأيام يحميها على الدوام من كل شر مرير
وبقولك يا بنت بلادي يا إيمان يا عبد الهادي
دعواتك السنة دي لصديقك الصغير

(مسحراتي زياد اللبناني)

مسحراتي في كل وادي أهتف وأنادي من حال لحال
شو بس أقول على ابن الأصول يملكني الذهول من هذا الرجال
الاسم زياد في (زحلة) الميلاد وفي كل البلاد حكاية وسؤال
في هندسة الديكور بارع أثبت حضور رحالة عبر العصور تبدأ معاه بخيال

وما بين دقيقة ودقيقة خياله يصبح حقيقة وبأكثر من طريقة يجسد معنى الجمال
لكن صديقي الرهيب زي الفانوس العجيب تسأله وهو يجيب مهما يكون المجال
طائر كما العصفورغطاس في قاع البحور مهما تسيء الأمور دايما للصعاب حلّال
فنان بدرجة قدير موسيقي رسام خطير في المطبخ ما له نظير وفي كافة الأحوال
مُريح وقت الحوار بعشق معه الهزار بالليل أو في النهار يبدو مثل الهلال
مسلم بدون إسلام طيبة وسماحة وسلام مهما تزيد الآلام شامخ مثل الجبال
بتعلم منه الكتير أستاذ بدرجة خبير نتواصل عبر الأثير لكن فراقه محال
ابن لبنان الجسور زياد صقر الصقور أبو آية وتِيَا ونور أب مالوش مثال
إنسان بمعنى الكلمة قيادة ورصانة وحكمة عايش حياته ببسمة في الحِلِّ والترحال
أنا بهدي إليه التحية إلى نفسه الصافية النقية وبدعي رب البرية يحميه من الأهوال

(مسحراتي الأخت العزيزة الدكتورة نور الإسلام)

مسحراتي أصادف يوماتي صباحي وليلاتي من البشر ألوان
لكن في يوم القدر من غير ميعاد منتظر رسم لي لوحة وأثر عن نور في أبعد مكان
في بلاد العم سام، قالت مفيش كلام، إسلامي على الدوام، لازم يكون عنوان
والحلم أصبح حقيقة، بالفعل ويَّا العقيدة صبحت حياتها الجديدة، أساس وله عمدان
نور وأصدر شعاع، في نفوس تلك البقاع، نساء حاسة بضياع، أصابها نور الإيمان
بشر من غير حدود، أفغان بنجال هنود، بروحها مالية الوجود بآيات من القرآن
يبهرني فيها الذكاء، وشموخ بنات حواء، والعزة والكبرياء، وطلاقة اللسان
أمٌّ مثل الخميلة، نباتاتها زهور جميلة، وفي ظل أجمل عِيلة، شمعة من الحنان
زرعت فيهم أصول،سلوك بوحي الرسول،وفي عالم المجهول،صاروا كما الفرسان
وفي نهاية الكلام، أتوجه لرب الأنام، يشفيك من الآلام، ويزيدك من الإحسان
يباركلك في كل ساعة،وتمضي حياتك في طاعة،يا نفس فيها القناعة،نبراس لكل زمان
وبقولك في الأخير، أنا مش مسؤول كبير، أنا عبد الله الفقير، بهديك أروع بيان
ممكن تفوتني معاني، وتضيع مني في ثواني، لكن بكل كياني، برسلك أرفع نيشان.

(ملحمة المولد النبوي)

بسم الله الذي أبدع الأكوان
الذي خلق الإنسان وعلمه البيان
كان العرب من قبله رجال وسط غابة
لا قيم ولا سلام ديابه بتاكل ديابه
كان المجتمع فاسد أسياد تذل عبيد
والرب ماكنش واحد، أصنام تزيد وتزيد
وقلوب مثل الصخر فعلت كتير أشياء
اتنزعت منها الرحمة دفنوا البنات أحياء
ولا كان للفقير كرامة ولا للنساء حقوق
ولا عطف على اليتامى ولا نصرة للمسروق
وفي عام الفيل أبرهة بجيش جرار
نادى في كل سبيل الكعبة عايزها دمار
لكن عبد المطلب بثقة تملأ عينيه
قال خلاص هحتسب للبيت ربّ حاميه
وفجأة لقى أبرهة واقف أمامه الفيل
وأرسل رب السما من غضبه طير أبابيل
فأصبح جيش أبرهة على الأرض مثل الرماد
وكانت بشارة ومعجزة من فيض رب العباد
وظل عبد المطلب في حالة من الحرمان
بعد ما فقد صغيره عبد الله أحب ولاده كمان
لكن فضل يدعي العوض منك يا رب
وتكرم زوجة ابني آمنه بنت وهب
وظل بنو هاشم في حالة انتظار
قدوم حفيد الأكارم والكل كان في الدار

شافت آمنة في منامها وليدها بصحبة نور
والنور بيجري أمامها وأصبح في العراق منظور
وفي يوم الاثنين من شهر ربيع الأول
ظهرت علامات للعين أدركوا أن الكون يتحول
فعلى قلعة من القلاع صعد راهب من اليهود
ونادى في جميع الأسماع هيجي الليلة دي مولود
نجم أحمد ظهر في السما رأيته بعيني
وهو النبي المنتظر إللي قرأته في ديني
اترج إيوان كسرى وسقطت منه الشرفات
ودبت في كسرى الحسرة أنا عايز تفسيرات
أخبروه كهان قصره إن اتولد مولود
وإن زوال ملكه قريب وشيء موعود
اتولد نبينا محمد من غير مشقة وعناء
وعلى الإيدين مُعتمَد ووجهه إلى السماء
راحت البشارة لجده فانطلق سعيد فرحان
أخد الوليد على يده وفي الكعبة جلس في مكان
حمد الإله على فضله ودعا بقلب سليم
يرعى الوليد من بعده خصوصاً لأنه يتيم
واختار من بين الأسامي إنه يسمِّى محمد
ليحمده رب السماء وفي الأرض الخلق تحمد
وكانت أول مرضعة ثويبة جارية عمه
ودخل المرضعات مكة عايزين رضيع وبثمنه
لكن نبينا الوليد رفض إرضاعه النساء
علشان مولود يتيم ومفيش أجر وسخاء
لكن امرأة وحيدة قالت يا عيني على المسكين

كانت تسمى حليمة راحت وخداه بالإيدين
وفجأة شافت أمر ما لاقت له مثيل
بعد ما جف الصدر اللبن نازل يسيل
عرفت حليمة وزوجها معاه بركة ونماء
واترجت حليمة بقوة يطيل معها البقاء
وفي يوم حدث هلع والنبي مع الصبيان
نزل المَلك وانتزع من صدره حظ الشيطان
ورجع الصغير لأمه لكن هكذا الأقدار
وهي ماشية تضمه لأخواله من بني النجار
ماتت آمنة في لحظة والكل أصبح حزين
رجع الصغير لمكة ومين هيرعاه مين
أكرمه عبد المطلب وجعله إلى جواره
وخلاه هو الأقرب ووصى به أولاده
لكن الطفل اليتيم انكتب عليه الحرمان
بإرادة المولى الكريم رحل جده كمان
أخده أبو طالب عمه وحقق له الحماية
يرضيه ويخفف همه ويحوش عنه البلايا
وشبَّ النبي المختار على سماحة ولين
ولفت إليه الأنظار وسمُّوه صادق أمين
وكان بيرعى الغنم والكل بيه مشغوف
ما سجد لأي صنم ولا عرف طريقه الخوف
وفي مكة ست جميلة محل احترام الجميع
كانت تسمى خديجة ومجالها الشراء والبيع
وعشان أمانة النبي أخدته في تجارة معاها
ومالت ما قدرت تخبي وباحت بللي جواها

وكان زواج ميمون البركة حلت فيه

صانته بنن العيون تحاوطه وكمان تراعيه

وكان نبينا محمد يتعبد في غار حراء

بيبحث عن إلاهنا الأوحد ويتدبر كتير أشياء

وفجأة سمع النبي هاتف بيقول له اقرأ

ردَّ النبي وكان خايف ما أنا بالذي اقرأ

قال اقرأ باسم ربك الذي خلق

رجع النبي لزوجته في حالة من القلق

انتفض جسمه وانشغل إيه اللي دار حوليه

أخدته خديجة بالعجل لورقة وكان من الحنيفية

جلس مع النبي يسمعه ويطيل معاه الكلام

وأدرك ورقة بورعه إنه نبي الختام

وأخبر ورقة خديجة إنه النبي المنتظر

وإن رسالته عظيمة هتحول مسار البشر

ومع مولد نبينا اتولد معاه النور

في مكة والمدينة الدعوة عرفت ظهور

انتهت حصون الجهل والعلم أصبح مشاع

واتساوى الجميع في الأهل والعقل أصبح شراع

وفي يوم ميلاد قدوتنا محمد رسولنا الكريم

نعلن طريقنا وأسوتنا كتاب الله العظيم

ونقول نبينا يا أعظم مثال ومسك الختام

بيتعطر لسانا بذكرك والقلب يسعد بالصلاة عليك

عليك الصلاة وعليك السلام

الخاتمة

الحمد لله الذي جعلني أُتمُّ هذا العمل على خير، وجعلني مستريح الضمير في كل كلمة كتبتها، وكل رأي انتهيت إليه في سطور هذا العمل.

وأشير هنا عزيزي القارئ إلى أمر مهم؛ وهو أنني لا أريدك أن تأخذ ما كتبتُ بشكل مسلّم به، ولكنها مجرد إشارة أو انطلاقة تجعلك تبحث وتدقق، وتُعمل العقل في كل ما طرحته من تأملات ومواقف وخواطر، لعلّك تتفق معي في النهاية أو تختلف، المهم أنك قد وصلت إلى رأي مبنيّ على يقين وأسس ثابتة.

فما أسوأ التبعية والانقياد خلف شخص أو رأي، ولعلّ ما وصلْنا إليه الآن من سوء حال في كافة المجالات يرجع بشكل كبير إلى توقفنا عن إعمال الفكر، والجري خلف أشخاص وآراء كانت في معظمها تخضع للهوى الشخصي، والمصلحة التي أصبحت سمة أي نظام أو جماعة، أو شخص يتطلع إلى الشهرة، من خلال القفز على أفكار وعقليات العامة من الناس.

إن ما تمَّ طرحه في هذا الكتاب إنما هو وليد الحدث والمواقف التي عايشتها، إما بشكل مباشر أو من خلال المتابعة بعقل مجرد عن التبعية، والانحياز لطرف دون طرف، وكما قلتُ سابقاً فأنا لا أتبع أية جماعة أو اتجاه، ولكن أكتفي بدور المشاهد الذي يسجل الأحداث ثم يُعمِلُ فيها العقل والقلب معًا، ثم ليكن الرأي النابع من نفس مستريحة لا يشوبها اضطراب أو قلق.

إذني لم أشأ أن أتوسع في موضوعات هذا الكتاب، فعندي الكثير والكثير الذي يستحق الكتابة والإشارة، ولكنني قد اكتفيت بما تمَّ إيراده في السطور الماضية والتي أخلص منها إلى النقاط التالية:

1- إننا جميعاً كبشر نعيش على هذا الكوكب، نحتاج إلى مزيد من التأملات في الكثير من الأمور، كالمشاعر الخاصة أو نظرتنا إلى الآخرين؛ لأن تلك التأملات ستكشف لنا كثيرا من الحقائق التي كنا نغفلها أو نتغافلها، وبالتالي نقع في المزيد من الإشكاليات والاضطرابات العقلية، التي لا تجعلنا نقف على أرض ثابتة.

2- إنَّ التاريخ هو المُعلّمُ الأكبر للإنسان الذي يستوحي منه حل الكثير من ألغاز الحياة، وما تركه أجدادنا من تراث فكري وتراكمات عقلية، لكن مع الأسف الشديد أن التاريخ عندنا في معظمه كان يخضع لهوى كاتبه، وتعصبه الذي جعله يزوّر الكثير من الحقائق، بدليل تضارب كتب التاريخ في كثيرمن الأشياء؛ ومن هنا كان لابد وضروريّ من إعمال العقل، والسعي خلف الحقيقة، ومحاولة استنباطها بشتى الوسائل.

3- إنَّ المواقف وحدها هي التي تربي في الإنسان مهارات التعامل مع الآخرين، وهي التي تكشف الكثير من معادن البشر، ولذا يجب علينا أن نتذكر كل موقف يحدث معنا، فالمؤكد أنه يحمل درسًا ومعنىً يمكن أن نتعلمه في المستقبل، فالإنسان بلا ماضي يتعلم منه بلا حاضر يحاول التعايش فيه.

4- إن العولمة قد قالت كلمتها، وفرضت نفسها على الجميع، بالرغم من التحذيرات والمناشدات، لكنها الحقيقة التي أصبحنا نعايشها، وتكمن في أن العالم قد أصبح قرية صغيرة، وأصبحت جميع الثقافات مرئية ومشاهدة، والتفاعل لا شك حادث وحاصل؛ ومن هنا يجب أن نتسلح لهذا الأمر بالكثير من الثقافة المتحضرة، والسلوكيات الرفيعة، وأن نسمو بأنفسنا في التعامل مع تلك الثقافات، إما من خلال الحوار أو احترام ثقافة الغير وإن اختلفت معنا.

5 - إن الله تعالى قد ميَّز الإنسان عن سائر الكائنات بالعقل والتفكير والمشاعر الإنسانية التي تترجم ما يُطرح في عقله وقلبه إلى رأي أو خاطرة أو تعبير، وعلى كل إنسان ألا يكون بخيلاً على غيره، بالتكتم على تلك الآراء والخواطر شعراً أو نثراً، فما الحياة إلا تفاعل وتجارب، ومن هنا نصيحتي لك عزيزي القارئ أن تحاول ترجمة ما يدور برأسك ومشاعرك إلى سطور يطَّلع عليها الجميع؛ لأنهم بالتأكيد سيفتحون لك أفقاً أوسع وأرحب.

6- إن المرأة مخلوق جميل لولاه لن يصبح لنا وجود في تلك الحياة، ولن نملك تلك المشاعر والأحاسيس، فهي في الغالب المؤثر الأكبر والمحرك الأساسي لتلك المشاعر، لكن هذا لا يمنع وجود بعض نماذج من النساء كانت سبباً رئيسياً في إيجاد الكثير من الكوارث والحوادث، والتي أشرتُ إلى بعضها في صفحات هذا الكتاب؛ لكن الحقيقة الثابتة هي أن أية امرأة تملك سلوكًا حسنًا، وذكاءً متوقدًا، وأسلوبًا متحضرًا، يعطيني في النهاية امرأة عظيمة بكل الوجوه.

7 - إن ثورة 25 يناير قد أفرزت الكثير من الأشياء في داخل المجتمع المصري، أراها في معظمها سلبية، انحرفت بالمجتمع نحو سلوكيات غريبة، لم نكن نعرفها من قبل، أو لنقُل كنا نخبئها بداخلنا، لكن العادات واحترام الغير كان يمنعنا أن نبوح بها علانية، وفجأة بعد هذه الثورة أخذت تلك السلوكيات تنتشر بين قطاع كبير، من عدم تحضر في الحوار، ورفض الآخر، وإصدار الأحكام المطلقة المبنية على المصلحة والهوى الشخصي، ومحاولة الاستبداد بعقول الآخرين.

8 - كان المفترض أن تساعد برامج التواصل الاجتماعي على خلقِ نوعٍ من التقارب والألفة بين مستخدميها من الشعوب العربية، لكن مع الأسف الشديد تلك البرامج جعلت الهوَّة تأخذ في الاتساع بين أطياف الشعب الواحد، فالكل يريد أن يظهر بصورة المنتصر لا المنهزم، ومن هنا كان الدفاع عن الرأي والاستماتة عليه

السمة الغالبة من محاورات الأشخاص، وانعدام مبدأ الإقناع والتراجع عند تبيان الخطأ.

9- قد يتخيل البعض أن المشكلات تختلف من قُطر عربي إلى آخر، لكن الحقيقة التي توصلت إليها من خلال تعاملي مع الجميع عبر برامج التواصل الاجتماعي تكمن في أن المشكلات واحدة، وأسبابها واحدة، والمؤسف أنَّ بعض هذه الشعوب عندما تعاملت مع بعضها عبر الإنترنت كان يظن كل واحد منهم أنَّ حل مشكلته عند الآخر، ومن هنا كثرت قصص الزواج، والنصب الذي تفنن البعض فيه كما أوردتُ ذلك في بعض سطور هذا الكتاب.

10- إن من يضع نُصْبَ عينيه الاستفادة العقلية، واكتساب المزيد من الأصدقاء عبر التواصل الاجتماعي سيجد أمامه بحرًا مليئًا بالجواهر القيِّمة التي لا تنفد، وتلك حقيقة عايشتها ولم أزل أعيشها حتى الآن.

لقد صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - حين قال: "إن الأرواح جنود مجندة" ولعلّ الإنترنت قد أثبت لشخصي تلك الحقيقة حينما وجدت ضالتي في أشخاص لم أرى معظمهم، ولم أتقابل معهم على أرض الحقيقة، لكن تواصلنا الفكري والروحي منح نفسي مزيدًا من السمو والارتقاء الذي كنت أبحث عنه على مدى سنين طويلة.

وبالعموم إن هذا الكتاب هو أول محاولة لقلمي، أحببت أن أشيعها بين الناس بالرغم من أبحاثي الكثيرة في ميدان الأدب والنقد، لكن لم أشأ أن أقتصر في كتاباتي على فئة محددة من القراء، بل أحببت أن أشارك الجميع معي خاصة تلك الفئة العريضة الكادحة البسيطة في مجتمعاتنا العربية، والتي من أجلها حاولت تبسيط لغة هذا الكتاب، والذي أرجو من الله تعالى أن يحظى بالقبول وأن يعرف الجميع أنها في النهاية وجهات نظر، قد نتفق عليها أو نختلف، الأهم أن نسمو بأنفسنا فوق المشاحنات وسوء الأدب عندما نجعل الحوار لغة بيننا.

والله ولي التوفيق